أدب الوفادة في عصر النبوة
"دراسة في البناء والتشكيل"

إعداد

سامية بنت عبد الله العَمري

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في

(اللغة العربية / الأدب القديم)

إشراف

الدكتور/ محمد فائز سنكري طرابيشي

كلية التربية

جامعة الملك عبد العزيز – جدة

ربيع الثاني 1432هـ-2011م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله العلي العظيم, الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يزكّيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة, والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين, سيدِنا وحبيبنا محمدٍ النبيِّ العربي الأمي الهاشمي, آيةِ البلاغة, ومعدِنِ الفصاحة, وأصلِ البيان, أفصحِ من نطق بالضاد, معلمِ البشرية أفرادًا وأزواجًا, مخرجِهم بإذن ربه من الظلمات إلى النور زرافات وأفواجًا, أصلي وأسلم عليه صلاة دائمة ما تعاقب الليل والنهار, وعلى آله وصحبه وأزواجه الطيبين الأبرار, ومن تبعهم بإحسان اقتداء وانتهاجًا , أما بعد:

فقد حفل تراثنا الأدبي في عصوره الأولى بما يثبت تفوق العقل العربي في مجال الأدب بشقيه الشعري والنثري, وإن كانت معظم الدراسات الأدبية والنقدية قد أولت الشعر اهتمامًا بالغًا, شرحًا وتحقيقًا, ودراسة وتعليقًا, فإن النثر لم يجد مثل تلك الحظوة والعناية وذلك التوجه أو الاهتمام, وقد أشار الدكتور زكي مبارك إلى هذه الحقيقة بقوله: "إن النقاد لم يعطوا للنثر ما أعطوا للشعر من العناية....الشعر في نظر النقاد من العرب أكثر حظًّا من الفن, وأولى بالنقد والوزن, والنثر مهما احتفل أصحابه بإتقانه وتجويده, لم ينل من أنفس النقاد منزلة الشعر؛ ولذلك قلت العناية بتقييد أوابده, والنص على ما فيه من ضروب الإبداع والابتكار, أو دلائل الضعف والجمود"[1]، ولذلك عندما هيأ المولى -جل شأنه- لي مواصلة الدرس في مجال الأدب ارتأيت أن يتجه بحثي لأطروحة الدكتوراه إلى النثر بعد أن وقفت في مرحلة الماجستير مع

---

1 النثر الفني في القرن الرابع,17/1.

الشعر طويلاً, وكانت النفس تواقة لدراسة الأدب المتعلق بالمصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي وهو السنة النبوية الشريفة, إذ أهمية الدراسة في السيرة النبوية لا تتأتى من كونها تسجيلاً لتأريخ أو جمعًا لنماذج أدبية وتحليلها, وإنما تأتي الأهمية من كونها حديثًا صادقًا عن رسالة سماوية خالدة, وبعد البحث والتمحيص فيما يتعلق بالأدب في زمن الرسول الكريم ρ , وقع الاختيار على موضوع "أدب الوفادة في عصر النبوة دراسة في البناء والتشكيل" ، فالوفادة ظاهرة اجتماعية شاعت عند العرب قديمًا, وقد حفل تاريخهم بأخبار وفادات كثيرة على الملوك والزعماء منذ عصر الجاهلية, و أشارت كتب الأدب إلى كثير من تلك الوفادات, بل لعل كثيرًا من مناسبات الشعر والنثر الجاهلي قيلت في أثناء وفادة ذاك الشاعر, أو ذلك الخطيب, ووقوفه بين يدي زعيم أو ملك, مما يدل على التلازم المتين بين الوفادة والأدب, فقد تبادلا التأثر والتأثير منذ الجاهلية, ولما جاء الإسلام تقاطرت وفود القبائل على رسول الله ρ, معلنة إسلامها, مستعلمة عن أمور دينها تارة, ودنياها تارة أخرى, منضوية تحت لواء هذا النبي العظيم, ولا أدل على ذلك مما حدث في السنة التاسعة للهجرة النبوية الشريفة, إذ توافدت وفود القبائل على رسول الله ρ من كل حدب وصوب, حتى سمي ذلك العام بعام الوفود[1] .

وكان لتلك الوفادات بين يدي النبي الكريم ρ شأنها الأدبي فضلاً عن مقاصدها الأخرى" فهي مقامات فضل, ومشاهد حفل, يتخير لها الكلام, وتستجزل فيها المعاني, ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته ينزعون وعن رأيه يصدرون, فهو واحد يعدل قبيلة, ولسان يعبر عن ألسنة, وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي ρ أو خليفته"[2]. وموضوع أدب الوفادة في عصر النبوة دراسة في البناء والتشكيل, يعنى بدراسة الجانب النثري لأدب الوفادة على رسول الله ρ بألوانه الثلاثة:الخطابة, والحوار, والرسائل , على مستوى البناء الفكري الدلالي, والتشكيل الفني الأدائي.

---

1 البداية والنهاية ,926/1.
2 العقد الفريد ,246/1.

الدراسات السابقة:

حظيت أخبار الوفادة على النبي ρ بعناية تاريخية كبيرة, ومن أبرز كتب التاريخ التي جمعت أخبار الوفود على رسول الله-عليه الصلاة والسلام-: البداية والنهاية لابن كثير, وتاريخ الأمم والملوك للطبري, والمغازي للواقدي,والطبقات الكبرى لابن سعد،وغيرها كثر, كما عنيت كتب السيرة النبوية بذكر أخبار الوفادة على النبي ρ ومن أبرزها, السيرة النبوية لابن إسحاق, والسيرة النبوية لابن هشام, فضلا ًعما ورد من أخبار متفرقة في كتب الحديث باختلافها من صحاح ومسانيد وسنن.

أما فيما يخص المصنفات الأدبية، فقد أشارت بعض كتب التراث العربي إلى أخبار الوفود منذ الجاهلية حتى الإسلام, إذ أفرد ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد فصلاً عن الوفود أسماه "الجمانة" ، جمع فيه بعض نماذج أدب الوفود من الجاهلية حتى العصر الأموي, وذهبت بعض المصنفات إلى ذكر متفرقات من نماذج أدب الوفود من شعر أو نثر, مثل: البيان والتبيين, والكامل في اللغة والأدب, ومروج الذهب, كما قامت بعض الدراسات الحديثة بدراسة نماذج متفرقة لأدب الوفادة في عصر النبوة شعرًا كان أم نثرًا, فأشار الدكتور يحيى الجبوري في كتابه "شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه" إلى بعض نماذج أدب الوفود بما لا يتجاوز سبع صفحات اكتفى فيها بذكر بعض النماذج الشعرية, بيد أني لم أقف على دراسة مستفيضة عنيت بإبراز الجوانب الفكرية والفنية لأدب الوفادة في عصر النبوة, من حيث بناؤه وتشكيله بتداخل فنونه: الخطابة والحوار والرسائل.

أسباب اختيار الموضوع:

هناك أسباب عدة كانت حوافز للتوجه إلى اختيار هذا الموضوع من أهمها:

1- قلة اهتمام الدراسات الأدبية بأدب الوفادة عامة وأدب الوفادة على رسول الله ρ خاصة, فلم أجد من خلال البحث دراسة مستفيضة تناولت أدب الوفادة على رسول الله ρ بالدرس الأدبي بما حمله ذلك الأدب من أنواع نثرية متنوعة.

2- ارتباط وجود الوفادة بوجود الكلمة, التي تعبر عن الوافد والموفد إليه, وتفصح عن خبايا النفس, ومكنونات الوجدان, من خلال الخطابة والحوار, وما يصاحب تلك الوفادة من مكاتبات ورسائل ووصايا, مع ما يصدر فيها من استعراض للقدرات البلاغية والخطابية وحسن انتقاء للغة التي هي وعاء الفكر؛ فضلاً عن أن هذا الأدب أدب واقعي نتج عن لقاءات الوفود برسول الله ρ, وما استتبع تلك اللقاءات من تفاعل إنساني, ونشاط فكري, بدا تارة مؤتلفًا وأخرى مختلفًا.

أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذه الدراسة في عمومها من اختيارها ميدان السيرة النبوية الشريفة مسرحا للبحث, إذ تهدف إلى الكشف عن أبرز خصائص أدب الوفادة في عصر النبوة من جانب البيان النبوي الكريم من جهة, وبيان الوفود التي قصدته من جهة أخرى, فضلاً عن أن الدراسة تناولت هذا الأدب على المستويين: المستوى الدلالي الفكري, والمستوى النصي الفني, وكان لكل مستوى منهما أهميته على النحو الآتي:

1- على المستوى الفكري: استقى هذا الأدب أهميته الفكرية من أهمية الموفد عليه وهو الرسول الكريم -عليه أفضل الصلاة والتسليم-, فاستمد غناه الفكري من عدة منابع دعوية وتشريعية وتاريخية ولغوية وبلاغية بما حوته تلكم المنابع من تنوع للموضوعات وتعدد للدلالات, واختلاف في الرؤى والأفكار جاء من اختلاف بيئات الوفود وتعدد ثقافاتها وانتماءاتها الفكرية إزاء الدعوة النبوية بما فيها من توجيه فكري وتقويم عقدي.

2- على المستوى الفني: عني البحث بإبراز القيمة الفنية لأدب الوفادة في عصر النبوة , ولاسيما أن جزءًا كبيرا منه صدر عمن أوتي جوامع الكلم ρ, وذلك من خلال الكشف عن جماليات التشكيل الفني في ذلك الأدب من خلال دراسة الظواهر الأسلوبية واللغوية, وما تؤديه من معان بلاغية, ومقاصد دلالية على عدة مستويات هي: التشكيل اللغوي, والتركيبي, والتصويري, والبديعي, في ميادين هذا الأدب الثلاثة: الخطابة والحوار والرسائل, وعلى اختلاف لغات الوفود وأساليبهم, مع ما كان من براعته ρ في مخاطبة كل وفد بحسب لغته وأسلوبه.

حدود البحث:

التزم البحث بحدود وثوابت زمانية وفنية, فأما الحدود الزمانية فتبدأ من بعثة الرسول ρ حتى وفاته , وتشمل الوفادات الجماعية, والوفادات الفردية على حد سواء, إذ لا تقف حدود الوفادة عند الجماعة, والدليل على ذلك أن كثيرًا من القدماء ولاسيما علماء الحديث والسنن والتاريخ قد أفردوا للوفادات الشخصية الفردية عناوين خاصة .

وأما الحدود الفنية؛ فقد اقتصر البحث على الدرس النثري دون الشعري, إذ لم يكن للشعر حضوره المتميز كما كان للنثر بفنونه الثلاثة, فوردت بعض الأبيات المتفرقة في أدب الوفادة ولاسيما في كتاب البداية والنهاية لابن كثير, تمثلت في بعض الأبيات التي كانت الوفود ترتجزها في طريقها إلى رسول الله ρ, أو قبل الدخول عليه, ومتفرقات من أبيات نظمت بعد الانصراف من عنده عليه الصلاة والسلام, فضلاً عن قصيدة كعب بن زهير التي أفردت لها دراسات كثيرة, وقصيدة الزبرقان بن بدر في وفد تميم, وقد عني الدارسون بها كذلك وتعددت الدراسات حولها, أما الأبيات الأخرى فليس هناك ما يدل على أنها قيلت في حضرة النبي ρ,

ولعلها نظمت بعد الوفادة بأزمنة قلت أو بعدت؛ ولهذا اقتصر ميدان البحث على الجانب النثري فقط.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع ونوعية الدراسة الاعتماد على المنهج التكاملي الذي يفيد من المناهج المختلفة بحسب حاجة الدراسة, فاعتمد المنهج التحليلي في دراسة الباب الأول المتعلق بالبناء الفكري لأدب الوفادة, مع ما يخدم هذا المنهج من منهج نفسي, وتاريخي, فيما اعتمد المنهج الأسلوبي في الدراسة الفنية القائم على تحليل النصوص على كافة المستويات: اللغوي والتركيبي والتصويري والبديعي, وربط الجوانب الأسلوبية بالنواحي الدلالية , بما يخدم الدراسة على المستويين الفكري الدلالي, والفني الأدائي.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع أن تأتي الدراسة في بابين, يسبقهما مقدمة وتمهيد, وتتلوهما خاتمة وفهارس, على النحو الآتي:

المقدمة وتشمل:

تحديد الموضوع, والدراسات السابقة, وأسباب اختيار الموضوع, وأهميته, وحدود البحث, ومنهج البحث , وخطته, والصعوبات التي واجهت البحث.

التمهيد وفيه:

أ- تعريف الوفادة.

ب- تقاليد الوفادة بين الجاهلية والإسلام.

ج - أصناف الوافدين ومقاصدهم.

الباب الأول بعنوان: البناء الفكري لأدب الوفادة, وقد اشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: البناء الفكري للخطابة وفيه:

أ- الدلالة الدينية .

ب-الدلالة الدنيوية.

الفصل الثاني: البناء الفكري للحوار وفيه:

أ- الحوار الديني.

ب- الحوار التربوي:

- التوجيهي.
- التطبيقي.
- النفسي.

ج- الحوار الجدلي.

الفصل الثالث :البناء الفكري للرسائل وفيه:

أ- الرسائل إلى ملوك العجم والعرب:

- رسائل الدعوة إلى الإسلام.
- الرسائل لمن أسلم من الملوك والحكام.

ب- كتاباته ρ إلى الوفود ومنها كتب :

- العهد والميثاق.
- الأمان.
- العطاء.

أما الباب الثاني فجاء بعنوان: التشكيل الفني لأدب الوفادة: وقد اشتمل على خمسة فصول على النحو الآتي:

الفصل الأول : التشكيل اللغوي، وفيه:

أ- الأصوات والحروف.

ب- الألفاظ.

ج- الجمل.

الفصل الثاني: التشكيل التركيبي، وفيه:

أ- الخبر والإنشاء.

ب-الشرط.

ج- التأكيد .

د- التكرار.

هـ- التقديم والتأخير.

و- الوصل والفصل.

الفصل الثالث : التشكيل التصويري، وفيه:

أ- الصورة الحقيقية.

ب- الصورة البيانية وفيها:

- الصورة التشبيهية.
- الصورة الاستعارية.
- الصورة الكنائية .

ج- الصورة وعلاقتها بالحواس:

- الصورة البصرية.
- الصورة السمعية.
- الصورة الذوقية.
- الصورة الشمية.

د- مرجعيات الصورة:

- المرجعية الكونية
- المرجعية الإنسانية

الفصل الرابع: التشكيل البديعي، وفيه:

أ- الطباق والمقابلة.

ب- الجناس .

ج- السجع والتوازن.

د- التقسيم والجمع.

هـ- التضمين.

الفصل الخامس: الهيكل الخارجي، وفيه:

أ- الهيكل الخطابي:

- المقدمة.
- العرض.
- الخاتمة.

ب- الهيكل الحواري :

- الحوار السقراطي.
- الحوار الخطابي.
- الحوار الانفعالي.

ج- هيكل الرسالة.

- الرسائل القصيرة.
- الرسائل الطويلة.

ثم الخاتمة: وتضمنت أبرز نتائج البحث.

والفهارس الفنية:

1- فهرس الآيات القرآنية.
2- فهرس الأعلام المترجم لهم.
3- فهرس المصادر والمراجع.
4- فهرس الموضوعات.

الصعوبات التي واجهت الدراسة:

بالرغم من سعادتي الغامرة وأنا أنهل من سيرة المصطفى ρ, وأقرأ في شتى الكتب المتعلقة بأخبار الوفادات عليه مع ما تضمنته من أقواله وأفعاله العظيمة, فقد كانت تلك السعادة مشوبة بالخوف والرهبة, والتردد منذ البداية بين الإقدام والإحجام لسببين: أما السبب الأول: فهو أن دراسة ما يتعلق بأقوال المصطفى ρ أو أفعاله ليس بالأمر الهين, فقد يجنح القلم وتزل القدم، ولاسيما أنني أقف أمام نماذج باعد بيننا وبينها الزمن, لكني عزمت الأمر بعد استخارة الله -سبحانه وتعالى- على مواصلة الدرس, وخوض غمار هذا البحث بحيطة وحذر, إذ اعتمدت في استقاء المادة، ولاسيما المتعلقة بأقوال وأفعال الرسول ρ أولاً من كتب الحديث بدءًا بالصحيحين ثم المسانيد والسنن, وقد سعيت جاهدة إلى توثيق كل ما ورد في هذا الأدب عنه ρ من تلك الكتب, فإن وجدت النص كاملاً في كتب الحديث اكتفيت بذكره وتوثيقه منها, وإن وجدت جزءًا من النص فإني أشير إليه في موضعه أو في الهامش مع استكمال باقي خبر الوفادة من المصادر الأخرى مع الإشارة إليها كذلك , أما ما لم أجده في كتب الحديث فقد اعتمدت فيه كتب السيرة والتاريخ فيما استأنس به علماؤنا القدامى وارتضوه في كتبهم من أقواله وأفعاله ρ.

وأما السبب الثاني: فهو تشتت نماذج هذا الأدب وتفرقها في المصادر ومظان الكتب على اختلاف اختصاصاتها, بين كتب الحديث والتاريخ والسيرة والتراجم والمعاجم والأدب, ولم يكن جمع وتوثيق تلك المادة على تعدد أنواعها من خطابة وحوار ورسائل بالأمر اليسير, ولاسيما إذا وجد النص في مصادر متعددة, فإن ذلك يستلزم الترجيح والتدقيق, واعتماد الأقرب إلى الحقيقة والصواب.

وأخيرًا فهذا جهد بشري, بذلت فيه وسعي واستجمعت طاقتي, لا أدعي له الكمال وإنما حسبي أني سخرت له كافة قدراتي وإمكاناتي, راجية من المولى -جل شأنه- أن أكون قد وفقت

{ ❒◆✌♦✍ ✍•❑▫⇗⑩✉⇖❼☑ ◑⇗•⋅ ✍✍✍✍✍★ 🗐 ⇖♦◘■⓿⇘❍ﮔ

✍•❑◆✍⅄◘▫☼➔ ❒◆◑⇗⚭•⓿⇘❍ﮔ 🕮⬆☼ﮔ⑩◘➲ }، فإن بلغت التوفيق فمن الله وحده, وإن كانت الأخرى فمن نفسي والشيطان وحسبي أني بذلت طاقتي واجتهدت ماستطعت

,فالحمد لله أولا وآخرًا, وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيـــــد

تعريف الوفادة :

عرض القدماء لمصطلح الوفادة في معاجمهم من خلال مادة الفعل (وفد), يقول الخليل بن أحمد: "واحد الوفد وافد, وهو الذي يفد عن قوم إلى ملك في فتح أو قضية أو أمر, والقوم

أوفدوه"[1]، ويعرفه ابن فارس بقوله: "الوفد: القوم يفدون, والوفد ذروة الحبل من الرمل المشرف, والوافد من الإبل ما سبق سائرها"[2]، ويقول الجوهري: "وفد فلان على الأمير أي: ورد رسولاً, فهو وافد, والجمع وفد, مثل صاحب وصحب, والوفد أوفاد ووفود, والاسم الوفادة "[3].

كما عرض الراغب الأصفهاني له بقوله: "وفد:يقال وفد القوم تفد وفادة وهم وفد ووفود, وهم الذين يقدمون على الملوك مستنجزين الحوائج, ومنه الوافد من الإبل وهو السابق لغيره, قال تعالى: (③♦❑⇗☞♦ ✞♦⬧⬂⌑→❸← ⬳☞⬧⬂⬃⬂☺←⬀✱☽☞✓×♦ ☽⍾⬚■❼ ⬳☞⬧⬂❷▪❑⬀⬧♦⏲♊⬂ ❐♦▫⬂⑨✡⬳)[4] ".

ويقول ابن منظور: " فأما الوفدُ فاسمٌ للجمع, وقيل جمع, وأما الوفود فجمع وافد, وقد أوفده إليه, وقد تكرر الوفد في الحديث وهم القوم يجتمعون فيردون البلاد, واحدهم وافد, والذين يقصدون الأمراء لزيارة واسترفاد, وانتجاع وغير ذلك" [5].

أما الفيروزآبادي فيقول: "وفد إليه وعليه يفد وفدًا ووفودًا ووفادة وإفادة: قدم وورد, وأوفدهم عليه وإليه, وهم وفود ووُفْد وأوفاد ووفّد"[6]. وفي تاج العروس: "وقال النووي:الوفد جماعة مختارة للتقدم في لقاء العظماء, وقال الزجاج في تفسير قوله تعالى: (③♦❑⇗☞♦ ✞♦⬧⬂⌑→❸← ⬳☞⬧⬂⬃⬂☺←⬀✱☽☞✓×♦ ☽⍾⬚■❼ ⬳☞⬧⬂❷▪❑⬀⬧♦⏲♊⬂ ❐♦▫⬂⑨✡⬳)، قيل الوفد: الركبان المكرمون"[7].

وبناء على ما سبق من تعريفات لمصطلح الوفادة,جاء في المعجم الوسيط: " وفد على القوم وإليهم يفد وفدًا ووفودًا ووفادة قدم, وورد رسولاً, فهو وافد, الجمع وفود ووفد, وأوفاد

1 كتاب العين, (وفد).
2 مجمل اللغة, (وفد).
3 الصحاح, (وفد).
4 مفردات ألفاظ القرآن , (وفد).
5 لسان العرب, (وفد).
6 القاموس المحيط ,(وفد).
7 تاج العروس, (وفد).

ووفّد.أوفد :أسرع, وأوفد الشيء أشرف وارتفع, وأوفد فلانًا على الأمير وإليه: أرسله ووافده على الأمير وفد معه, وفّده على الأمير وإليه: أرسله، توافد القوم عليه: قدموا ووردوا, والوفد جمع الوافد وجماعة مختارة للتقدم في لقاء ذوي الشأن, والجمع وفود" [1].

ومما تقدم من تعريفات يتضح نوعان لمعنى الوفادة :

فالنوع الأول: ينطلق من الجانب النظري للغة, ويتمثل في تعريفات الجوهري والفيروزآبادي, أما النوع الثاني: فينطلق من الواقع الحضاري للأمة, وهو الذي ارتبط فيه معنى الوفادة بقدوم الناس زرافات ووحدانًا على الخلفاء والأمراء وذوي الشأن, لأي غرض كان, ويتمثل ذلك في تعريفات الخليل, وابن فارس والأصفهاني, وابن منظور, والزبيدي, مما يدل دلالة أكيدة على متانة الوشائج التي تربط بين الوفادة كعنصر حضاري وبين العرب تاريخًا وتراثًا, كما يتبين مما سلف من تعريفات أن وفد إليه ووفد عليه كلاهما صحيح ومعناهما واحد[2]. و يلاحظ أن معنى الوفادة جاء مطلقًا مرة, وبمعنى الإرسال مرة أخرى.

كما يظهر في تعريف الخليل :(والقوم أوفدوه), وعند الجوهري: (أي ورد رسولاً) وفي قول ابن منظور : (وقد أوفده إليه). والوافد هو الذي يتقدم قومه, والمتحدث عنهم, يتضح ذلك من قول الخليل: (يفد عن قوم إلى ملك) , وتعريفه بما سبق من الإبل عن سائرها عند ابن فارس والأصفهاني, وفي قول النووي : (جماعة مختارة)

تقاليد الوفادة بين الجاهلية والإسلام:

عرف العرب الوفادة في جاهليتهم, وقبل بعثة المصطفى -عليه أفضل الصلاة والسلام- , حيث وفد زعماء القبائل وشعراؤها على الملوك في الجاهلية, كملوك الروم وفارس, فقد وفد" النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم

1 المعجم الوسيط ,(وفد).
2 أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان , 25.

فافتخر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم " [1]، كما وفد كل من حاجب بن زرارة وأبو سفيان على كسرى[2]، ووفد زعماء القبائل من أهل الوبر والمدر على ملوك الغساسنة والمناذرة وملوك اليمن والحبشة, وكان لقريش حظ وافر من هذه الوفادات , يقول المسعودي: "وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنيه بعود الملك إليه وأشراف العرب وزعماؤها, وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف, وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف, ... فتكلمت الخطباء, ونطقت الزعماء, وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم " [3].

كما وفدت قريش على سيف بن ذي يزن بالحبشة :" لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة وذلك بعد مولد النبي ρ أتته وفود العرب وأشرافها وشعراؤها, تهنئه وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه, فأتاه وفد قريش فيهم عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس.."[4]. ووفد كل من حسان بن ثابت [5] والنابغة الذبياني[6] على ملك الحيرة النعمان ابن المنذر, كما وفد حسان بن ثابت -أيضًا- على ملك الشام الحارث الغساني[7]، وهكذا تزخر كتب التاريخ والأدب بذكر كثير من الوفادات العربية قبل الإسلام.

واستمر الحال كذلك في أمر الوفادة حتى جاء الإسلام, فوفدت القبائل على رسول الله ρ من كل حدب وصوب بعد فتح مكة في السنة التاسعة للهجرة, مقدمين فروض الولاء والطاعة لنبي الله, معلنين إسلامهم, ومبايعين رسول الله ρ على التوحيد والتبرؤ من الشرك, حتى سمي ذلك العام بعام الوفود[8]، " قال محمد بن إسحاق: لما افتتح رسول الله ρ مكة, وفرغ من تبوك, وأسلمت ثقيف وبايعت, ضربت إليه وفود العرب من كل وجه. قال ابن هشام :

---

1 العقد الفريد, 247/1.
2 المصدر السابق,1/ 258-259.
3 مروج الذهب, 83/2.
4 العقد الفريد,260/1.
5 المصدر السابق, 259/1.
6 مروج الذهب,99/2.

7 مروج الذهب, 107/2.
8 ينظر: تاريخ الأمم والملوك, 179/2 و نهاية الأرب, 30/18 والبداية والنهاية, 926/1.

حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود. قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش؛ لأن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم, وأهل البيت والحرم, وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم, وقادة العرب لا ينكرون ذلك, وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ρ وخلافه, ولما افتتحت مكة ودانت له قريش, ودوخها الإسلام, عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ρ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله " [1]. ويظهر أن الوفادة على رسول الله ρ قد سبقت السنة التاسعة بكثير, بيد أن السنة التاسعة شهدت تقاطر القبائل على رسول الله ووفودها بكثرة, فضلاً عن أن العرب لم تعد تخش قريشًا وسطوتها؛ لذلك كانت وفاداتهم معلنة, فسمي ذلك العام بعام الوفود, يدل على ذلك قول ابن كثير: " كان أول من وفد على رسول الله ρ من مضر أربعمئة من مزينة, وذلك في رجب سنة خمس, فجعل لهم رسول الله ρ الهجرة في دارهم, وقال: أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم"[2].

وكان للوفادة تقاليدها في الجاهلية, فكان الملك أو الحاكم يتخذ مجلسًا لاستقبال الوفود, ويعنى بمظهره وزينته ليبدو في أبهى حلة, فعندما قدمت الوفود العربية على سيف بن ذي يزن ؛ لتهنئته بالملك "وجدوه متمخضًا بالعنبر, يلمع وبيص المسك من مفرق رأسه, وعليه بردان أخضران, قد ائتزر بأحدهما, وارتدى الآخر, وسيفه بين يديه, والملوك عن يمينه وشماله وأبناء الملوك والمقاول"[3]. وأشار المسعودي إلى مثل ذلك، لكنه نسبه لملك اليمن معديكرب بن سيف بن ذي يزن, قائلاً: " فدخلوا إليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان, وهو مضمخ بالعنبر, وسواد المسك يلوح على مفرقه, وسيفه بين يديه, وعلى يمينه

---

1 البداية والنهاية ,926/1.
2 المصدر السابق نفسه.

3 العقد الفريد,261/1.

ويساره الملوك, وأبناء الملوك, وأبناء المقاول" [1], ومهما يكن فإن اهتمام الملوك بهيئاتهم في استقبال الوفود أمر لاشك فيه.

كما كان من عادات الملوك إكرام الوفود وإجازتهم,وقد يعمد الملك إلى إذكاء التنافس والحماس بين الوفود كما فعل النعمان بن المنذر بوفود العرب عندما اجتمعت عنده، حيث "دعا بحلة من حلل الملوك وقال للوفود احضروا في غد فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم "[2] بيد أن الظاهر أن الملوك كانت تقدم الهبات لكل الوفد كما فعل معديكرب بوفد قريش، وعلى رأسهم عبد المطلب فقد "حبا جميع الوفد وانصرفوا"[3]. وكان من عادة الملوك حسن استقبال الوفود, فعندما جاءت وفود العرب على سيف بن ذي يزن, وتكلم عبد المطلب بين يديه أدناه منه وقربه "ثم أقبل على القوم وقال: مرحبًا وأهلاً, وناقة ورحلاً, ومستناخًا سهلاً, وملكًا ربحلاً, يعطي عطاء جزلاً"[4], أما إسكان الوفود فكان من أبرز التقاليد الجاهلية المتعلقة بالوفادة, وكان من واجب المضيف إيجاد المنزل المناسب لضيوفه, ولذلك عرفت دور الضيافة منذ الجاهلية وفي زمن سيف بن ذي يزن, الذي أنزل وفد قريش بعد لقائه إلى " دار الضيافة والوفود, وأجريت عليهم الأنزال"[5].

واستمرت تقاليد الوفادة وأنظمتها حتى جاء الإسلام, فاستقبل رسول الله ρ الوفود , محافظًا على بعض الأعراف التي درجت عليها الوفادة في العصر السابق, من استعداد للوفود, وإكرامهم , وحسن استقبالهم, وإنزالهم, وإجازتهم بالعطايا, بيد أن كل ذلك كان مع ما يتوافق وسماحة الدين الإسلامي بعيدًا عن كل مباهاة أو غلو أو إفراط.

---

1 مروج الذهب, 83/2.
2 الكامل في التاريخ,496/1.
3 مروج الذهب,85/2.
4 العقد الفريد,262/1.

5 العقد الفريد,262/1.

فكان رسول الله ρ يعد نفسه لاستقبال الوفود من شتى قبائل العرب وغيرهم, وكان- عليه السلام- يجلس للوفود عند استقبالهم خلف اسطوان المحرس-وهو ما يعرف باسطوان الوفود, واسطوان الوفود خلف اسطوان المحرس من جهة الشمال, وكان رسول الله ρ يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته, وكانت مما يلي رحبة المسجد قبل أن يزاد في السقف القبلي الرواقان, وكانت تعرف-أيضًا-بمجلس القلادة,يجلس إليها سروات الصحابة وأفاضلهم - رضوان الله عليهم-, وأما الاسطوان الذي كان يجلس إليها ρ لوفود العرب إذا جاءته إذا عددت الاسطوان التي فيها مقام جبريل كانت الثالثة [1], وكان الصحابة يجلسون حول رسول الله ρ عند استقباله للوفد,على رأسهم أبو بكرτ, حيث يشاوره ρ في الأمر,وقد أشار خبيب بن عمرو السلاماني في حديثه عن وفد قومه سلامان على رسول الله ρ ، فقال: " فجلس في المسجد بين المنبر وبين بيته وجلست علية أصحابه عن يمينه وعن شماله، فرأيت رجلاً هو أقرب القوم منه يكثر ما يلتفت إليه ويحدثه، فسألت عنه فقيل: أبو بكر بن أبي قحافة"[2].

وعني رسول الله ρ بحسن مظهره عند استقبال الوفود, وكان يأمر أصحابه بذلك, يقول جندب بن مكيث "كان رسول الله إذا قدم الوفد لبس أحسن ثيابه, وأمر علية أصحابه بذلك, فلقد رأيت رسول الله يوم قدم وفد كندة وعليه حلة يمانية, وعلى أبي بكر وعمر مثل ذلك"[3]، كما كان -عليه السلام- يحرص على مظهر أصحابه أمام الوفود, فعن جرير بن عبد الله قال: " كان رسول الله ρ تأتيه وفود العرب، فيبعث إلي، فألبس حلتي ثم أجيء فيباهي بي" [4]، بيد أن رسول الله ρ لم يغال في لباسه, ولم يتخذه خيلاء, وكره أن يلبس بعض الحلل، " فعنِ ابنِ عمرَ -رضيَ اللهُ عنهما- قال:«رَأَى عمرُ حُلَّةً على رجل تُباعُ، فقال للنَّبيِّ ρ: ابْتَعْ هذهِ الحلَّةَ تَلبَسُها

1 وفاء الوفا بأخبار المصطفى,449/2.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,292/2.

3 الطبقات الكبرى,346/4.
4 سير أعلام النبلاء, 534/2.

يومَ الجمعةِ وإذا جاءكَ الوَفدُ، فقال: إنَّما يَلبَسُ هذهِ مَن لا خلاقَ لهُ في الآخرة، فأتِيَ رسولُ اللهِ ρ منها بحُلَلٍ، فأرسلَ إلى عمرَ منها بحُلَّةٍ، فقال عمرُ: كيف ألبَسُها وقد قلتَ فيها ما قُلتَ؟ قال: إني لم أكسُكَها لتَلْبَسَها، تبيعُها أو تَكسوها. فأرسلَ بها عمرُ إلى أخٍ لهُ من أهلِ مكةَ قبلَ أن يُسْلم»[1].وفي رواية عن جابر" أن راهبًا أهدى لرسول الله ρ جبة سندس، فلبسها رسول الله ρ ، ثم أتى البيت، فوضعها وأحس بوفد أتوه فأمره عمر أن يلبس الجبة لقدوم الوفد، فقال رسول الله ρ: «لا يَصْلُحُ لِباسُها لَنا في الدّنيا وَيَصْلُح لَنا في الآخِرَةِ، وَلكِنْ خُذْها يا عُمَرُ»، فقال: تكرهها وآخذها! فقال: «إنّي لا آمُرُكَ أَنْ تَلْبِسَها، وَلكِنْ أَرْسِلْ بها إلى أرْضِ فارِسَ فَتُصِيبُ بها مالاً»- فأرسل بها رسول الله ρ إلى النجاشي، وكان قد أحسن إلى من فَرَّ إليه من أصحاب رسول الله ρ"[2]. وفي هذا ما يدل كذلك على حرص عمر بن الخطاب على حسن مظهر رسول الله عند استقبال الوفود.

وكما رفض ρ أن يرتدي تلك الحلل, أنكر -عليه الصلاة والسلام- لباس بعض الوفود, فقد أنكر على وفد كندة لباسهم عندما دخلوا عليه مسجده " وقد رجلوا جممهم وتكحلوا عليهم جبب الحبرة, قد كففوها بالحرير, فلما دخلوا على رسول الله، قال: ألم تسلموا ؟ قالوا: بلى! قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟ قال: فشقوه منها فألقوه" [3] ، بل إنه رفض الرد على نصارى نجران حتى يضعوا بعض ثيابهم، حيث دخلوا " المسجد عليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير, فقاموا يصلون في المسجد نحو المشرق, فقال رسول الله: دعوهم! ثم أتوا النبي، فأعرض عنهم ولم يكلمهم, فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا, فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان، فسلموا عليه فرد عليهم"[4].

---

1 صحيح البخاري,924/2.
2 مسند الإمام أحمد,292/4

3 تاريخ الأمم والملوك,20/2.
4 الطبقات الكبرى,357/1.

وكانت الوفود تعتني بلباسها عند القدوم إلى رسول الله ρ، فيلبسون "من صالح ثيابهم"[1]، ويتطيبون بالدهن[2] لملاقاته عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولم يتخذ ρ سريرًا ليجلس عليه شأن ملوك الجاهلية وحكامها, بل كان يجلس لاستقبال الوفود على الأرض وبين أصحابه, حتى إن بعض الوفود عندما تأتي كانت تسأل عنه -عليه الصلاة والسلام- لعدم وجود ما يميزه في المجلس, فقد جاء ضمام بن ثعلبة وافدًا عن قومه " فأقبل حتى وقف على رسول الله في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ قال رسول الله: أنا ابن عبد المطلب" [3]. وحظيت الوفود بترحيب رسول الله ρ وحسن استقباله وتسامحه حتى مع من كان قد أساء إليه, بل إنه كان يقرب الوافد ويدنيه منه كما فعل مع علقمة بن علاثة[4] عندما وفد عليه، وكان عمر جالسًا إلى جنب رسول الله، فقال له رسول الله ρ: أوسع لعلقمة، فأوسع له فجلس إلى جنبه "[5] ,أضف إلى ذلك حسن استقباله لعدي بن حاتم الطائي حينما جاء إليه وهو في المسجد، فقال: "من الرجل؟ قال: عدي بن حاتم، فانطلق به إلى بيته, وألقى له وسادة محشوة بليف, وقال: اجلس عليها، فجلس رسول الله على الأرض وعرض عليه الإسلام"[6].

وبلغ اهتمامه ρ بالوفود أنه كان يقوم بنفسه أحيانًا على خدمتهم, كما فعل مع وفد النجاشي، حيث قام يخدمهم "فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله ! فقال: إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وإني أحب أن أكافيهم"[7].

---

1 المصدر السابق,345/1.
2 معجم الصحابة,104/3.
3 تاريخ الأمم والملوك,193/2.
4 علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري. الإصابة في تمييز الصحابة,455/4.
5 الطبقات الكبرى,311/1.
6 الطبقات الكبرى,322/1.
7 البداية والنهاية, 78/3 و التدوين في أخبار قزوين ,236/1.

ويروي رويفع بن ثابت البلوي حرص رسول الله ρ على إكرام وفد" بِلى "عندما نزلوا على رويفع في بيته، فيقول: "فإذا رسول الله ρ يأتي منزلي يحمل تمرًا, فقال: استعن بهذا التمر، فكانوا يأكلون منه ومن غيره"[1]. كما حرص -عليه الصلاة والسلام- على إكرام الوفود التي تنزل عنده, وكذلك كان أهل بيته -عليهم السلام- يفعلون في غيابه، فعن " عَاصِمِ ابنِ لَقِيطِ بنِ صَبْرَةَ عن أبِيهِ لَقِيطِ بنِ صَبْرَةَ، قال كُنْتُ وَافِدَ بَنِي المُنْتَفِقِ أو فِي وَفْدِ بَنِي المُنْتَفِقِ إلَى رَسولِ الله ρ قال: فَلمَّا قَدِمْنَا عَلَى رسولِ الله ρ فَلَمْ نُصَادِفْهُ في مَنْزِلِهِ، وَصَادَفْنَا عَائِشَةَ أُمَّ المُؤْمِنِينَ. قال: فأمَرَتْ لَنَا بِخَزِيرَةٍ فَصُنِعَتْ لَنَا. قال: وَأُتِيَنَا بِقِنَاعٍ. وَلَمْ يَقُلْ قُتَيْبَةُ القِنَاعَ. والْقِنَاعُ: الطَّبَقُ فِيهِ تَمْرٌ. ثُمَّ جَاءَ رسولُ الله ρ فَقَالَ: هَلْ أَصَبْتُمْ شَيْئَاً أَوْ أُمِرَ لَكُمْ بِشَيْءٍ؟ قال قُلْنَا: نَعَمْ يا رسول الله"[2], وهكذا كان ρ مع وفوده، بل إنه كان يجتهد في تقديم كل ما يطيب للوفد من غداء وعشاء فيقدم لهم " مرة خبزًا ولحمًا، ومرة خبزًا ولبنًا، ومرة خبزًا وسمنًا، ومرة تمرًا"[3]؛ اجتهادًا منه ρ في إكرام وفوده وحسن ضيافتهم.

أما منازل الوفود فقد تعددت,فقد كانت هناك دار تسمى " دار الضيفان " بناها عبد الرحمن بن عوف τ ، وكان ينزل فيها ضيفان رسول الله ρ [4]. ويظهر أنهم اتخذوا مكانًا مخصصًا لإنزال الوفود غالبًا, يدل على ذلك قوله ρ لغلامه ثوبان عندما قدم عليه وفد سلامان" أنزل هؤلاء الوفد حيث ينزل الوفد"[5], ولعل منزل الوفد المقصود هو دار رملة بنت الحارث[6] , يدل على ذلك ما روي في وفد سلامان عندما قدموا إلى رسول الله" فالتفت إلى

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير,321/2.
2 سنن أبي داود,236/1.
3 الطبقات الكبرى,316/1 و البداية والنهاية,52/5.
4 تاريخ المدينة المنورة235/1.
5 الطبقات الكبرى332/1.
6 رملة بنت الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن زيد الأنصارية النجارية ذكرها بن حبيب في المبايعات وذكر ابن إسحاق في السيرة النبوية أن بني قريظة لما حكم فيهم سعد بن معاذ حبسوا في دار رملة بنت الحارث امرأة من الأنصار من بني النجار قلت وتكرر ذكرها في السيرة. وأما الواقدي فيقول: رملة بنت الحدث بفتح الدال المهملة بغير ألف قبلها وقال ابن سعد رملة بنت الحارث وهو الحارث بن ثعلبة بن زيد بن ثعلبة بن غنم بن

ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد -يقول الراوي-، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة فيها نخل وفيها وفود من العرب وإذا هي دار رملة بنت الحارث النجارية"[1], وقد ورد ذكر دار رملة بنت الحارث مع أغلبية الوفود التي وفدت على رسول الله ρ [2] ، مما يدل على أنها كانت الدار المخصصة للوفود, وتدل الرواية على أنها كانت واسعة المساحة مما سمح لها بجمع أكثر من وفد في آن واحد. كما استعان ρ بالمسجد، فكان ينزل بعض الوفود فيه, وقد يضرب لهم فيه قبة, كما فعل مع وفد ثقيف[3] ولعله أراد من إنزال بعض الوفود المسجد " ليكون أرق لقلوبهم" [4], وربما يلجأ -عليه الصلاة والسلام- أحيانًا إلى تقسيم الوفد على عدة منازل بحسب عدد الوفد مستعينا بمنازل أصحابه, كما فعل مع وفد ثقيف حيث أنزل" رهط المغيرة بن شعبة[5] عليه، وأنزل رسول الله ρ الطائفة الأخرى في قبة له"[6]، وقيل:" فنزل الأحلافيون على المغيرة بن شعبة وأنزل المالكيين قبته"[7], وقيل: ضرب لهم قبتين عند دار المغيرة بن شعبة[8]، ونزل فروة بن مسيك المرادي[9]، وكان رجلاً له شرف على سعد بن عبادة [10]، كما نزل وفد زبيد على سعد بن عبادة أيضًا [1]، ونزل وفد بلى على رويفع بن ثابت البلوي[2].

مالك بن النجار تكنى أم ثابت وأمها كبشة بنت ثابت بن النعمان بن حرام وزوجها معاذ بن الحارث ابن رفاعة. الإصابة في تمييز الصحابة,140/8.

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء 292/2.

2 الطبقات الكبرى,315/1-316-324-331-344.

3 البداية والنهاية, 30/5 ، ومسند الإمام أحمد ,576/4 ، وسنن الدارمي,218/2.

4 الآحاد والمثاني,186/3.

5 المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معقب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس الثقفي، أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان، وله فيها ذكر، وحدث عن النبي ρ روى عنه أولاده عروة وعقار وحمزة ومولاه وزاد وابن عم أبيه حسن بن حبة.الإصابة في تمييز الصحابة,156/6.

6 معجم الصحابة,3/1.

7 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء,348/4 وسنن أبي داود,269/4.

8 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,270/2.

9 فروة بن مسيك بالتصغير يقال مسيكة والأول أشهر بن الحارث بن سلمة بن الحارث بن ذويد بن مالك بن منبه بن غطيف بن عبدالله بن ناجية بن مراد المرادي العطيفي، وقال ابن حبان:أصله من اليمن يكنى أباسيرة، وقال أبو عمرو الشيباني: وفد فروة على النبي ρ فاستعمله على مراد ومذحج كلها، وبعث معه خالد ابن سعيد بن العاص فكان معه في بلاده حتى توفي النبي ρ.الإصابة في تمييز الصحابة,281/5.

10 المعجم الكبير,70/7.

وكما عني ρ بإكرام الوفود وحسن استقبالهم, فقد اهتم بإجازتهم عند رحيلهم, ولاسيما من أسلم منهم, وكان يجيز الوفود عامة بأقدار متساوية, يظهر ذلك من قوله لبلال τ:"أجزهم كما تجيز الوفد، فجاء بلال بنقر من فضة فأعطى كل واحد منهم خمس أواق"[3]، ويظهر أن رسول الله ρ قد حدد جوائز وعطايا الوفود" أرفعهم اثنتي عشرة أوقية ونِشّاً وأخفضهم خمس أواق ""[4]، وكان ρ يقدر الجائزة بحسب مكانة الوافد, فقد أجاز وفد طيء بـ" بخمس أواق فضة لكل رجل منهم وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونشّاً"[5] ؛ وذلك لمكانته وشأنه, كما أمر بلالاً أن يجيز وفد بني مرة, فأجازهم بعشر أواق فضة , وفضل الحارث بن عوف فأعطاه "اثنتي عشرة أوقية "[6].

وكذلك فعل مع أشج عبد القيس " فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونشاً, وذلك أكثر مما كان يجيز به الوفود "[7]، ومثله فعل مع وفد كندة "فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أجازهم بعشر أواق وأعطى الأشعث اثنتي عشرة أوقية" [8]، وكذلك فضل عبد الله من وفد ربيعة عبد القيس على باقي الوفد فأعطاه "اثنتي عشرة أوقية ونشاً"[9].

وكان ρ يجيز باقي الوفد بمقادير متساوية، فقد أجاز وفد سلامان خمس أواق لكل رجل منهم[10], كما أعطى وفد بني حنيفة خمس أواق لكل رجل منهم, بل إن رسول الله ρ لم يدع

---

1 الطبقات الكبرى,328/1.
2 المصدر السابق,330/1.
3الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ,273/2, والأُوقِيَّةُ: زِنةُ سَبعة مَثاقِيلَ وزنة أَربعين درهمًا... ، قال الأَزهري: واللغة أُوقِيَّةٌ، وجمعها أَواقيُّ وأَواقٍ. وفي حديث آخر مرفوع: ليس فيما دون خمس أَواقٍ من الوَرِق صَدَقَةٌ. لسان العرب,(وقي).
4 الطبقات الكبرى,344/1, والنَّشُّ: وزنُ نَواة من ذهب، وقيل: هو وزن عشرين درهمًا، وقيل: وزن خمسة دراهم، وقيل: هو ربع أُوقيَّة والأُوقية أَربعون درهمًا. ونَشَّ الشيء: نِصْفُه... الجوهري: النَّشُّ عشرون درهمًا وهو نصف أُوقية لأَنهم يُسَمُّون الأَربعين درهماً أُوقيةً، ويسمون العشرين نَشّاً، ويسمون الخمسة نَواةً.اللسان ,(نشش).
5 الطبقات الكبرى,321/1.
6الطبقات الكبرى,, 298/1.
7 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 282/2.
8 الطبقات الكبرى،1-328.
9 المصدر السابق ،1-315.
10 المصدر السابق ،1-332.

أحدًا من الوفد بلا جائزة, حتى إنه أرسل بجوائز من لم يحضر مع قومه ,كما فعل مع مسيلمة من وفد بني حنيفة عندما قالوا: "يا رسول الله! إنا خلفنا صاحبا لنا في رحالنا يبصرها لنا وفي ركابنا يحفظها علينا, فأمر له رسول الله بمثل ما أمر به لأصحابه، وقال ليس بشركم مكانًا لحفظه ركابكم ورحالكم "[1]، وكما أجاز ρ رجال الوفد فإنه لم يدع الغلمان وساواهم بباقي الوفد أيضًا, مثلما فعل مع عمرو بن الأهتم حينما خلفه القوم في ظهرهم وكان أصغرهم سنًّا، "فأعطاه رسول الله ρ مثل ما أعطى القوم"[2]. واستمر ρ في إجازة الوفود حتى دنت منيته, بل إنه أوصى عند وفاته بالوفود وحرص على إجازتهم, ففيما يروى عن ابن عباس قال:" اشتدَّ برسولِ اللهِ ρ وجَعهُ يومَ الخميس فقال: ائتوني بكتابٍ أكتُب لكم كتابًا لن تَضِلُّوا بعدَهُ أبدًا. فَتنازَعوا، ولا يَنبغي عندَ نبيّ تَنازُع. فقالوا: هَجرَ رسولُ اللهِ ρ، قال: دَعوني، فالذي أنا فيهِ خيرٌ مما تَدْعوني إليه،وأوصى عندَ موتهِ بثلاث: أخرِجوا المشرِكينَ من جزيرةِ العرب، وأَجِيزوا الوَفدَ بنحوِ ما كنتُ أجِيزُهم، ونسيتُ الثالثةَ». [3]

أصناف الوافدين ومقاصدهم:

بعد الإشارة إلى معنى الوفادة وتقاليدها بين الجاهلية والإسلام, لابد من الحديث عن الضيوف, وأصناف الوافدين, ومقاصدهم, ومن المعروف أن النبي ρ قد استقبل عددًا كبيرًا من وفود القبائل العربية, قبل الفتح وبعده, بيد أن الوفادة عليه زادت بعد أن منّ الله عليه بفتح مكة, حيث أصبح الطريق إلى المدينة ممهدًا لوفود القبائل الذين أيقنوا أن الإسلام قد انتصر, وأن الله أظهر دينه على يد المصطفى-عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-, لذلك لم تجد القبائل بدًّا من الوفادة على النبي ρ, وتقديم الولاء والطاعة, فتقاطرت عليه جلها في العام التاسع للهجرة حتى سمي ذلك العام بعام الوفود, يقول الأندلسي: "وما زال آحاد الوافدين وأفذاذ الوفود من العرب

1 المصدر السابق ،1-317.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 267/2.
3 صحيح البخاري,1111/3.

يغدون على رسول الله ρ منذ أظهر الله دينه وقهر أعداءه، ولكن انبعاث جماهيرهم إلى ذلك إنما كان بعد فتح مكة ومعظمه في سنة تسع، ولذلك كانت تسمى سنة الوفود,... فقدمت على رسول الله ρ وفود العرب"[1]، وقد اختلفت المصادر في عدد الوفود التي قدمت على رسول الله ρ, ويظهر أن المؤرخين الذين اعتنوا بإيراد الوفود لم يستقصوها جميعًا، ولذلك استدرك عليهم ابن كثير وذكر ما أهملوه, مستفيدًا من المصادر الأخرى التي ضاع معظمها ووجدت منها روايات مثبتة في كتب من جاء بعدهم, وبلغ مجموع ما ذكره المؤرخون ما يزيد على الستين وفدًا, وقد سردهم الشامي في سيرته فزادوا على مئة, فلعل هؤلاء اقتصروا على ذكر المشهور أو الذين أتوا لترتيب مصالحهم[2].

ومهما كان من عدد الوفود التي وفدت عليه, فإن كتب التاريخ أكدت أن معظم قبائل العرب قد وفدت عليه, ولم تكن الوفادة على رسول الله ρ من القبائل العربية فحسب, بل لقد وفدت عليه وفود من خارج الجزيرة العربية, كوفد النجاشي[3], وأرسل هو-عليه السلام- رسائله إلى خارج شبه الجزيرة العربية, فأرسل إلى كسرى[4], وإلى هرقل عظيم الروم[5].

ويمكن تقسيم أنواع الوفادة عليه ρ إلى قسمين:

الأول: الوفادات الفردية.

والثاني: الوفادات الجماعية.

لقد كان العربي يفد على رسول الله ρ وحده نيابة عن قومه وممثلاً لقبيلته, كما فعل وافد صداء عندما أمر ρ سعد بن عبادة أن يتجه صوب اليمن, ويطأ صداء ، فقدم "رجل من صداء فسأل عن ذلك البعث فأخبر بهم فخرج سريعًا حتى ورد على رسول الله, فقال: جئتك

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,263/2.

2 السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية, 639.
3 ينظر: التدوين في أخبار قزوين,236/1 والبداية والنهاية ,78/3.
4 ينظر: المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي,369.
5 ينظر:المصدر السابق,348.

وافدًا على من ورائي فاردد الجيش وأنا لك بقومي، فردهم رسول الله, فقدم منهم بعد ذلك على رسول الله خمسة عشر رجلاً، فأسلموا، وبايعوا رسول الله على من وراءهم من قومهم، ورجعوا إلى بلادهم ففشا فيهم الإسلام[1], كما " قدم على رسول الله مطرف بن الكاهن الباهلي[2] بعد الفتح وافدًا لقومه فأسلم وأخذ لقومه أمانًا"[3]," وبعثت بنو سعد بن بكر ضمام ابن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله ρ"[4] ، وهكذا يظهر أن بعض القبائل كانت تكتفي بوافد واحد ينوب عنها عند رسول الله , وقد تعمد إلى تكرار الوفادة عليه فيما بعد. ولا بد لهذا الوافد أن يحسن التعبير ويتمكن من إيصال رسالته عن قومه, وأن يتميز بالحكمة واللسن والفصاحة, فضلاً عن الزعامة والرياسة.

وقد أجاد ابن عبد ربه في وصف وافد القوم بقوله: "ولا بد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته ينزعون, وعن رأيه يصدرون, فهو واحد يعدل قبيلة, ولسان يعرب عن ألسنة, وما ظنك بوافد قوم يتكلم بين يدي النبي ρ أو خليفته؟ أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة ؟ فهو يوطد لقومه مرة, ويتحفظ من أمامه أخرى, أتراه مدخرًا نتيجة من نتائج الحكمة, أو مستبقيًا غريبة من غرائب الفطنة؟ أو تظن القوم قدموه لفصل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الحذلقة واللسن, ومجمع الشعر والخطابة"[5].

وكما وفد بعض الأفراد نيابة عن قبائلهم، فقد وفد آخرون لأمور خاصة بهم , كعدي بن حاتم الطائي [6], وأبيض بن حمال [7]، وفروة بن مسيك المرادي[8]، ووفد وائل بن حجر

---

1 الطبقات الكبرى 326/1.

2 مطرف بن الكاهن الباهلي وفد مطرف بن الكاهن الباهلي أحد بني فريص على رسول الله ρ بعد الفتح فقال: يا رسول الله! سلمنا للإسلام، وشهدنا دين الله في سماواته، وأنه لا إله غيره، وصدقناك وآمنا بكل ما قلت فاكتب لنا كتابًا، فكتب له من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيته من باهلة إن من أحيا أرضًا مواتًا فيها مراح الأنعام فهي له. الإصابة في تمييز الصحابة ,100/6.

3 الطبقات الكبرى, 307/1.

4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,280/2.

5 العقد الفريد,246/1.

6 الطبقات الكبرى,322/1.

7 معجم الصحابة,63/1.

8 الطبقات الكبرى,327/1.

بن سعد الحضرمي[1]، وجرير بن عبد الله[2], وغيرهم كثير, وكان لكل وافد منهم غرضه الذي قصد رسول الله ρ من أجله, فمنهم من جاء لمقاصد دينية, كإعلان الإسلام في حضرة رسول الله ρ, أو الاستزادة من أمور الدين والتفقه فيه, وآخرون جاؤوا لمقاصد دنيوية مختلفة.

بيد أن غالب الوفادات عليه ρ كانت جماعية, حيث يقصده جماعة من رجال كل قبيلة نيابة عن قومهم, فيعرضون مقاصدهم ويسمعون منه -عليه أفضل الصلاة والسلام-, وقد أشارت كثير من كتب التاريخ والسيرة والتراث إلى وفود القبائل, وصنفها الدكتور حسن جبر[3] تحت القبائل العدنانية, والقحطانية, وجمعها أبو تراب الظاهري من مصادرها الأصلية[4].

ومع تعدد الوافدين على رسول الله ρ, واختلاف أصنافهم, فقد تنوعت أغراضهم ومقاصدهم من الوفادة عليه, ويمكن القول بأن الغرض الرئيس من الوفادة في عصر النبوة هو إشهار الإسلام والانقياد لرسول الله ρ, ومن أمثلة تلك الوفود-وهي كثر- وفد بني حنيفة فقد" أتوا رسول الله في المسجد، فسلموا عليه وشهدوا شهادة الحق"[5], وكذلك فعل وفد طيئ، حيث قدموا" المدينة ورسول الله في المسجد، فعقدوا رواحلهم بفناء المسجد، ثم دخلوا فدنوا من رسول الله ، فعرض عليهم الإسلام، فأسلموا"[6], وجاء وفد بلى إلى رسول الله ρ " فقدم شيخ الوفد أبو الضباب، فجلس بين يدي رسول الله، فتكلم وأسلم القوم"[7]، ويروي " محمد بن بكير الغساني عن قومه غسان قالوا: قدمنا على رسول الله في شهر رمضان سنة عشر المدينة ونحن ثلاثة نفر، فنزلنا دار رملة بنت الحارث، فإذا وفود العرب كلهم مصدقون بمحمد، فقلنا فيما

1المصدر السابق,350/1.
2 المصنف في الأحاديث والآثار ,49/2.

3 ينظر: وفود القبائل على رسول الله ρ وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، 6.
4 ينظر: وفود الإسلام، 5.
5 الطبقات الكبرى,316/1.
6 المصدر السابق,321/1 .
7 المصدر السابق, 1/ 330.

بيننا: أيرانا شر من يرى من العرب؟ فأتينا رسول الله ، فأسلمنا وصدقنا وشهدنا أن ما جاء به حق"[1]، وقدم وفد الأشعريين " فوجدوا رسول الله في سفره بخيبر، ثم لقوا رسول الله ، فبايعوا وأسلموا"[2].

وقدم وفد سلامان فقالوا لرسول الله ρ : "قدمنا لنبايعك على الإسلام ونحن على من وراءنا من قومنا"[3]، وكذلك وفد بهراء، حيث " أتوا النبي فأسلموا"[4], وهكذا كانت وفادات أكثر القبائل على رسول الله ρ, ومنهم من أسلم ثم جاء إليه -عليه الصلاة والسلام- ليعلن إسلامه في حضرته, كوفد خولان، حيث قدموا على رسول الله " فقالوا: يا رسول الله! نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله، ونحن على من وراءنا من قومنا" [5].

وكانت بعض الوفود تبقى عند رسول الله ρ ؛ لتتعلم أصول الدين وتعاليمه, كما فعل وفد ثقيف[6]، ووفد عذرة[7] وغيرهم.

وجاءت بعض الوفود لموادعة رسول الله ρ ومهادنته، كما فعل وفد بني عدي حين اشترطوا على رسول الله إن أصابوا من أصحابه فعليهم الدية وإن أصاب من أصحابهم فعليه ديته، فوافق ρ [8], ووفد أشجع ، حيث قالوا له -عليه الصلاة والسلام-: " ضقنا بحربك وبحرب قومك، فجئنا نوادعك فوادعهم"[9].

أما بعض الوفود! فجاءت لمساءلة رسول الله ρ ومجادلته كوافد بني سعد بن بكر[10]، ووفد نجران[11].

---

1 المصدر السابق,338/1-339.
2 المصدر السابق' 1/ 348.
3 الطبقات الكبرى,332/1.
4 المصدر السابق,331/1.
5 المصدر السابق, 1/ 324.
6 ينظر: حلية الأولياء ,347/1-348 .
7 ينظر:الطبقات الكبرى, 1 /331.
8 ينظر: المصدر السابق, 1 /306.
9 المصدر السابق, 1 /306.
10 ينظر: تاريخ الأمم والملوك ,192/2-193.
11 ينظر: تاريخ اليعقوبي , 2/ 82 .

ومنهم من جاء لأغراض أخرى, كطلب الدعاء منه ρ [1]، أو السؤال في أمور الدين كالإمامة[2]، والصيد[3]، وغيرها, أو للإتيان بالصدقات لرسول الله ρ [4].

ولم تقف أغراض الوفادة على الأمور الدينية, بل هناك من وفد على رسول الله ρ لأمور دنيوية, كما يروى عن" أبيض بن حمال أنه وفد إلى رسول الله ρ ، فاستقطعه الملح الذي بمأرب، فأقطعه "[5]، وكذلك ما يرويه "شعيب بن عاصم بن حصين بن مشمت عن أبيه عن جده حصين أنه وفد على النبي ρ فبايعه وصدق إليه ماله، وأقطعه النبي ρ مياها بالمروت منها أصيهب ومنها الماعزة ومنها الهوي والثماد والسديرة"[6].

بل لقد تجاوزت الوفادات عليه ρ حدود البشر، فكان من معجزاته وفادة السباع عليه " عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: بينما رسول الله جالس بالمدينة في أصحابه أقبل ذئب، فوقف بين يدي رسول الله ، فعوى بين يديه، فقال رسول الله: هذا وافد السباع إليكم, فإن أحببتم أن تفرضوا له شيئًا لا يعدوه إلى غيره, وإن أحببتم تركتموه وتحرزتم منه فما أخذ فهو رزقه، فقالوا: يا رسول الله! ما تطيب أنفسنا له بشيء, فأومأ إليه النبي بأصابعه أي خالسهم، فولى وله عسلان" [7].

ووفدت عليه وفود الجن، " قال ابن حزم : ووفد عليه وفود جميع البطون من جميع قبائل العرب وكلهم صاحب, وعددهم -بلا شك- يبلغ أزيد من ثلاثين ألف إنسان، ووفد عليه ρ وفود الجن، فأسلموا وصح لهم اسم الصحبة، وأخذوا عنه ρ القرآن وشرائع الإسلام "[8].

---

1 ينظر: الطبقات الكبرى,323/1 - 351.
2 ينظر:المصدر السابق, 1/ 335-336.
3 ينظر: المصدر السابق, 322/1-323.
4 معجم الصحابة, 154/3
5 معجم الصحابة,1 /63.
6 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع, 1214/4.
7 الطبقات الكبرى, 1/ 359.
8 الجواهر المضية في طبقات الحنفية ,1/ 414.

الباب الأول

البناء الفكري لأدب الوفادة

الفصل الأول

البناء الفكري للخطابة

الفصل الأول

البناء الفكري للخطابة

حظي الجزء النثري من أدب الوفادة على رسول الله ρ بالنصيب الأكبر, وكانت الخطابة إحدى تلك الفنون النثرية، وهي فن وظيفته الإقناع يختلف عن غيره بحضور المتلقي، فهو نص مُشافَه به، ولذلك، لابد من توفر مواصفات في النص وفي مؤديه؛ ليتحقق الإقناع والتأثير, وقد عرف بعض الباحثين الخطابة بأنها: "أصول وقواعد ترشد الإنسان إلى فن مخاطبة الجماهير، بطريقة إلقائية، تشتمل على الإقناع والاستمالة"[1]، وعرَّفها أبو زهرة بأنَّها: "صفة راسخة في نفس المتكلِّم، يقتدر بها على التصرُّف في فنون القول؛لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم"[2].

وقد لقيت الخطابة منذ العصر الجاهلي اهتمامًا كبيرًا، حيث كان يلجأ إليها للدفاع عن النفس والقوم والقبيلة, ولمفاخرة القبائل الأخرى والدعوة إلى الصلح, وحقن الدماء، وكان مسرحها الأسواق والمواسم والمحافل والوفود على الملوك والزعماء, وعلى هذا تنوعت الخطابة بتنوع موضوعاتها؛ فهناك الخطابة الدينية والسياسية والقضائية والاحتفالية.

وحافظت الخطابة على تلك المنزلة مع ظهور الإسلام, بل إنها زادت شأنًا عما قبل, فقد كان "حظ النثر من ناحية تأثير الإسلام فيه كبيرًا, ولا عجب في ذلك، فقد كان النثر الكثير الذي أثر عن أدب الدعوة الإسلامية هو المدافع الأقوى عن مبادئ هذه الدعوة وأفكارها, بل إن

---

1 الخطابة وإعداد الخطيب,13.

2 الخطابة،19.

النثر الإسلامي استطاع أن يسبق الشعر في هذا المجال، إذ هو أخصب الميدانين، فدحض حجج المشركين في مكة، وصرع أفكارهم، ونازلهم في كل موقف من هذه المواقف التي وقفوا فيها ضد الدعوة الإسلامية "[1].

"وقد جاءت الخطابة الإسلامية شاهدة لعصرها وقائدة له في آن, مع ما تمثل نزعاته وأزماته وتدلي فيها بآراء العقل والنزوة والهوى جميعًا, موضحة سبل الصواب والهداية, أو مزجية إلى سبل الشر والتقاطع, فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتوسل الخطابة للإقناع والتبشير والوعظ, ويؤم عليها الناس في الجمع ومجالس الرأي وفي الحشود"[2].

وازدهرت خطب المحافل وترعرعت مع ازدياد عدد الوفود التي قدمت على رسول الله ρ, فكان أن جاءت العشائر وافدةً إلى النبيρ تسأله عن الإسلام، وتستفسره عن أحكامه، وتستفصل عن معانيه، وقد تعددت أغراض هذه الوفود، فمنهم: طالب للعلم، وآخر معلن للإسلام، وثالث طالب لمعونة، ورابع يريد عقد معاهدة...

وهكذا تعددت مقاصد ومآرب الوافدين, وسأحاول في هذا الفصل الوقوف على أبرز مظاهر البناء الفكري من خلال أغراض خطب الوفود على رسول الله , ولاسيما أن بعض النقاد والباحثين قد أشاروا إلى فكرة ارتباط البلاغة بالمقاصد, فيقول مصطفى ناصف: " إن البلاغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرة المقاصد، وإن مدارها تحقيق الأهداف بوساطة اللغة، وجوهرها ضبط نظام التعبير أو قوانينه، وتقضي الدراسة البلاغية إلى أن الإنسان لا يفكر لوجه التفكير، ولا يشعر لوجه الشعور، وإنما يفكر، ويشعر من أجل التأثير في مخاطب أو التغلب عليه[3] ".

ويمكن تقسيم البناء الدلالي الفكري لخطب الوفود إلى قسمين رئيسين:

الأول: الدلالة الدينية.

---

1 دراسات في أدب الدعوة الإسلامية, 283.
2 فن الخطابة وتطوره عند العرب,71.
3 قراءة جديدة لتراثنا النقدي,381/1.

الثاني: الدلالة الدنيوية.

أ- الدلالة الدينية:

كان العرب في الجاهلية مختلفي الأديان والمعتقدات, فمنهم من عبد الأصنام ومنهم من دان بالنصرانية أو باليهودية, وآخرون بالمجوسية, بينما بقي بعضهم في خواء روحي بلا دين[1].

ومع كل هذا التعدد في الدين والمعتقد بقيت طائفة من العرب على الحنيفية, فرفضت عقولهم تلك الأوثان, ولم يؤمنوا بحقيقتها, وقد أشار الشهرستاني إلى هذه الفئة, بقوله: " ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة وكانت لهم سنن وشرائع "[2].

ولما بعث النبي ρ بالحق المبين توجهت عجلة الفكر الجاهلي إلى هذا الدين الجديد إيمانًا بصلاحيته, وتصديقًا بكنهه, بل إنهم اعترفوا لرسول الله ρ بهذه الحقيقة، فقال أحد خطبائهم في وفادته على نبي الله: **"إنه كانت لنا ربات وأرباب نعبدهن من دون الله فبعثك الله، فدعوناهن فلم يجبن وسألناهن فلم يعطين وجئناك فهدانا الله بك"[3]**، فيظهر من هذا القول أنهم حاولوا عبثًا مقارنة هذا الدين الجديد بما ورثوه من عبادة الأصنام بمختلف أنواعها التي عبر عنها بقوله: أرباب وربات, بيد أنهم توصلوا إلى خطأ معتقدهم, مع ما ظهر من صدق الدعوة المحمدية, التي عبر عنها الخطيب هنا بفكرة الهداية مع كل ما تحمله من دلالات مختلفة. لذلك جاء رد النبي ρ بقوله:(أفلح من رزق لبًّا) [4]، مشيرًا إلى نعمة العقل التي هداهم الله بها , واللب هنا مقابل الرب هناك, بيد أن الفارق بينهما عظيم.

واستمر الخطاب الديني في خطب الوفود على رسول الله ρ , بل إن الغرض الديني يكاد يكون الجوهر في معظم تلك الوفادات, فمن آمن بالله ورسوله جاء معلنًا ذلك الأمر في

---

1 بلوغ الأرب ,215/2 والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام, 34/6.
2 الملل والنحل ,590/2.
3 الإصابة في تمييز الصحابة, 234/3
4 البيان والتعريف, 286/1.

حضرة رسول الله ρ, متكبدًا مشقة الرحلة, وعناء المسير؛ ليحظى بشرف الوقوف بين يدي صاحب الرسالة -عليه أفضل الصلاة والسلام-, فقد وقف وفد خولان بين يديه ρ، فقالوا: **"يا رسول الله! نحن على من وراءنا من قومنا ونحن مؤمنون بالله -عز وجل- مصدقون برسوله، قد ضربنا إليك آباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها والمنة لله ولرسوله علينا وقدمنا زائرين لك, فقال رسول الله ρ : أما ما ذكرتم من مسيركم إلي، فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة"[1].** لقد توجه الخطاب هنا إلى الزمن الحاضر فلم يلتفت إلى ماضيهم من الشرك كما جاء في الخطاب السابق, لأنهم تجاوزوا تلك المرحلة، فلم يعد الحديث عنها ذي بال, وإنما اكتفى الوفد بذكر ما هم عليه من إيمان بالله ورسوله, مقرين بالفضل في ذلك –أيضًا- لله ورسوله, لذلك جاء رد النبي ρ هنا متسقًا مع خطابهم, مشيرًا إلى أن الإسلام كفل لمعتنقه كامل الجزاء, وأن مجاورتهم له في الدنيا مدعاة لمجاورته يوم القيامة, بل إن خطاب رسول الله ρ جاء مواكبًا لما أشاروا إليه بقولهم: " ضربنا إليك آباط الإبل" لينتقل بخطابه عليه الصلاة والسلام إلى مثل ذلك المعنى مكنيًا عن خطاهم بخطا الإبل في قوله" بكل خطوة خطاها بعير أحدكم", أما الزيارة الدنيوية له, فقد قابلها بزيارة أعظم وأجل وهي مجاورته يوم القيامة, وعلى هذا قامت الخطابة بين الوفد ورسول الله ρ هنا على فكرة الثنائيات المتقابلة, بين الحاضر في خطابهم والمستقبل في رده ρ مع ما فيه من دلالات الترغيب وحسن الجزاء.

وفي المقابل جاء وفد بني أسد معلنا إسلامه أمام رسول الله ρ بيد أن خطابهم اختلف عن خطاب خولان الذين نسبوا الفضل لله ولرسوله, بينما يفتخر وفد بني أسد بمجيئهم إلى النبي دون أن يبعث لهم بعثاً, فقال متكلمهم:" **يا رسول الله! إنا شهدنا أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأنك عبده ورسوله، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثًا، ونحن لمن**

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 283/2.

وراءنا"[1]، فوجه خطابه لرسول الله ρ متحدثاً باسم من معه من قومه, ونائبًا لمن خلفه منهم, بيد أن خطابه كان فيه شيء من زهو وبقايا جاهلية بامتنانه على رسول الله ρ ، ولذلك هذب القرآن الكريم هذا الشعور, فنزل قوله تعالى:

} ③♦☺←✡♋❑♌♦ ⇱♦■⍰⓿⍃⌨⍓ 🕮❒♌⇙
🕮❒♋⇔⍰■☺←❑✁☎ ☎ ♎➔♐ ◆• ✍◆☺←✡♋❑✁☎ ⇱♦✍■❼◎
☽⍣♋⇔⍰■◷☺⍓⍃▤⇗☜ ☎ ☜♦♐⇗ ✁✍✎✦ ③♦☺←⌶❺
⇘♦⍰■⓿⍃▤⇗☜⇙ 🕮❒♌⇙ ♎⍓⑨⍓🗀▤⇗☜⇙
.[2] { ♦✗✓♎♎♎⑨◷✿◔ ⇔⚐←☞☪⇗☜ ♌⍣☽ ⇮⌶◷⍓☺③💣"♎🖲

فالفضل بيد الله يمتن به على من يشاء من عباده, وبالرغم من تكراره نداء النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: يا رسول الله**!** مما يدل على تعمق فكرة النبوة في اعتقاده, إلا أن قرب عهده بالجاهلية وما فيها من مفاخرة وتباهٍ دعاه إلى ذلك.

وتكررت فكرة إعلان الإسلام في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم, وحرص كثير من القبائل على توثيق عرى التواصل بينها وبين النبي الكريم من خلال إظهار التقيد بتعاليم الدين, ليس على مستوى القول فقط وإنما على مستوى العمل, ومن ذلك ما جاء في خطبة وفد بني كلاب, حينما جاؤوا رسول الله ρ ، فسلموا عليه وقالوا: **" إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله, وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا"**[3]، فخطابهم هنا لم يقف عند المستوى الديني من خلال التصديق بالرسالة الإسلامية بل تعداها إلى الإشارة للمستوى الاجتماعي المتمثل في فكرة التكافل الإنساني من خلال الالتزام بإخراج الصدقات ومشاركة الفقراء للأغنياء في أموالهم بما أمر به الشارع الحكيم.

واستمر وقوف خطباء العرب بين يدي النبي -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- معلنين براءتهم من الأوثان,والشرك, والتزامهم بهدي الإسلام وشرعه, بل إن بعض الخطباء استغرق

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 276/2.
2 الحجرات 17.
3 الطبقات الكبرى, 300/1.

في خطبته واصفًا عناء السفر لرسول الله من خلال استعراض مشهد الرحلة وتصوير الإبل وسهل الأرض ووعرها, يقول طهفة بن أبي زهير النهدي: **" أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ترتمي بنا العيس[1]، نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستخيل الرهام، ونستحيل أو نستجيل الجهام من أرض عائلة النطاء غليظة الوطاء، قد نشف المدهن، وييبس الجعثن، وسقط الأملوج, ومات العسلوج, وهلك الهدى, ومات الودى, برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن, وما يحدث الزمن, لنا دعوة السلام, وشريعة الإسلام ما طما البحر, وقام تعار, ولنا نعم همل أغفال[2] ما تبض ببلال[3] ووقير كثير الرسل, قليل الرسل, أصابتها سنة حمراء مؤزلة[4] ليس لها علل ولا نهل[5]" فقال رسول الله ρ:" اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر, وافجر له الثمد, وبارك له في المال والولد, من أقام الصلاة كان مسلمًا, ومن آتى الزكاة كان محسنًا, ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا, لكم يا بني نهد ودائع الشرك, ووضائع الملك,لا تلطط**

---

1 أكوار: الكور الإبل الكثيرة العظيمة, والكور من الإبل القطيع العظيم وهي مئة وخمسون وقيل مئتان. الميس: شجر تعمل منه الرحال, وقيل: شجر عظام شبيه في نباته وورقه بالغرب. العيس: الإبل تضرب إلى الصفرة. اللسان , (كور /ميس/عيس).

2 الصبير: السحاب الكثيف المتراكب وهو من الصبر بمعنى الحبس كأن بعضه صبر على بعض، ومنه صبر الشيء، وهو غلظته وكثافته وصبرة الطعام، وقد استصبر السحاب كاستحجر الطين.نستخلب: من الخلب وهو القطع والمزق من خلب السبع الفريسة يخلبها ويخلبها إذا شقها ومزقها ومنه المخلب وقيل للمنجل المخلب .الخبير: النبات ومنه قيل للوبر خبير. نستعضد البرير: أي نأخذه من شجره فنأكله للجدب من العضد وهو القطع .الإستخالة أن تظنه خليقًا بالإمطار. والاستحالة النظر. والاستجالة أن تراه جائلاً يعنى أنا لا نستمطر إلا الرهام وهى ضعاف الأمطار جمع رهمة ولا ننظر إلا إلى الجهام. النطاء:من النطى وهو البعيد. المدهن نقرة في صخرة يستنفع فيها الماء، وهو من قولهم: دهن المطر الأرض إذا بلها بلاً يسيرًا. وناقة دهين قليلة اللبن. الجعثن: أصل النبات. الأملوج: واحد الأماليج وهو ورق كأنه عيدان يكون لضرب من شجر البر، وقيل الأملوج: نوى المقل والملج مثله. وروى وسقط الأملوج من البكارة أي هزلت البكارة فسقط عنها ما علاها من السمن برعي الأملوج فسمى السمن نفسه أملوجًا على سبيل الاستعارة. العسلوج: الغصن الناعم ومنه قولهم طعام عسلوج. الهدى :وقرىء والهدي معكوفًا وأراد الإبل فسماها هديًا لأنها تكون منها أو أراد هلك منها ما أعد لأن يكون هديا واختير لذلك .الودى: الفسيل. العنن: الاعتراض والخلاف أي برئنا من أن نخالف ونعاند. طما وطم : إذا ارتفع. تعار: جبل . الهمل: المهملة التي لا رعاء لها ولا فيها من يصلحها ويهديها، ومنه المثل اختلط المرعى بالهمل أي الخير بالشر والصحيح بالسقيم . الأغفال : جمع غفل وهى التى لا سمة عليها .الفائق في غريب الحديث ,278/2.

3 ما تبض ببلال:أي ما يقطر لها لبن . اللسان,(تبض).

4الوقير: الغنم الكثير. قال أبو عبيدة لا يقال للقطيع وقير حتى يكون فيه الكلب والحمار. الرسل: ما يرسل إلى المرعى وجمعه أرسال، والرسل اللبن أي هي كثيرة العدد قليلة اللبن، وقيل: الرسل التفرق والانتشار في المرعى؛ لقلة النبات وتفرقه حمراء شديدة لأن الآفاق تحمر في الجدب. المؤزلة: التي جاءت بالأزل وهو الضيق وقد أزلت. الفائق في غريب الحديث, 290/2.

5 العلل: الشربة الثانية، وقيل الشرب بعد الشرب تباعًا. النهل: أول الشرب. اللسان (علل-نهل).

في الزكاة, ولا تلحد في الحياة[1]،ولا تتثاقل عن الصلاة "[2]. لقد بدأ الخطاب هنا من مكان انطلاق الرحلة ووصف الإبل التي سارت بهم, ثم أدلف واصفًا جدب الأرض وقحطها مع ندرة الأمطار, والإشارة إلى ما ترتب على ذلك من يبوس الأرض وسقوط النبات, ومع كل هذه العوامل مازالت الرحلة مستمرة قاصدة رسول الله ρ, ثم انتقل الخطاب من الوصف إلى ذكر الغرض الرئيس من الرحلة وهو إعلان الإسلام في حضرة رسول الله ρ, والبراءة من الأوثان وكل ما يخالف الشريعة الإسلامية, والتزامهم بدين الله, مادام البحر في حركة وارتفاع, ومادام جبل تعار واقفًا, كناية عن أزلية إسلامهم وعدم تزعزعه, ثم يعود الخطاب مرة أخرى إلى الوصف, بيد أن الوصف هنا جاء بصيغة الشكوى، فأشار إلى الأنعام المهملة بلا مرعى, وإلى الأغنام الكثيرة العدد والقليلة اللبن مما يشير إلى قلة نفعها.ويلاحظ في هذا الخطاب أنه اتجه منذ بدايته إلى الوصف الحسي للطبيعة, بين سمائها وأرضها ونباتها وحيوانها, مع ما اشتمل عليه من معاني الشكوى, وبالرغم من أن الخطاب لم يتطرق إلى طلب الدعاء من رسول الله ρ مباشرة ، بيد أن رد النبي الكريم جاء مناسبًا لخطاب الوفد, فانطلق داعيًا لهم أولاً ببركة الأنعام, في لبنها الخالص والممخوض والممذوق, مفصلاً في ذلك ليتناسب وخطاب الوفد الذي ركز على فكرة القحط, مما جعل النبي -عليه الصلاة والسلام- يتبع دعاءه بطلب السقيا وإيناع الثمر, ثم يختم دعاءه بطلب البركة لهم في المال والولد, ملمحًا إلى زينة الحياة الدنيا, وبعد أن تأكد ρ من استمالته قلوب الوفد بهذا الدعاء انتقل بخطابه إلى أساسيات الدين فالصلاة صفة الإسلام, والزكاة صفة الإحسان, والشهادة لله ورسوله صفة الإخلاص, وهذا التقسيم أدعى في الترغيب والإقناع, ومن ثم أعطاهم ρ العهد والذمة بشروط كان قد مهد لها في أول خطابه, فلا تثاقل عن الصلاة, ولا تهاون في أداء الزكاة , ولا إلحاد وميل عن الدين مادامت الحياة. لقد

---

1 المحض: اللبن الخالص بلا رغوة. المخض: يقال مخض اللبن يمخضه فهو مخيض وممخوض, أي أخذ زبده. المذق :المذيق اللبن الممزوج بالماء. الدثر: أراد بالدثر هنا الخصب والنبات الكثير. الثمد: المال القليل, أي أفجره لهم حتى يصير كثيرًا. لا تُلطِط في الزكاة : أي لا تمنعها. اللسان, (محض- مخض- مذق- دثر-ثمد-لطط).

2 الفائق في غريب الحديث , 2/277-278.

كان خطابه ρ مؤثرًا فاعلاً منذ بدايته بالدعاء, ثم بلاغته في تقديم الترغيب بأركان الدين قبل أن يجعلها شروطًا للميثاق بينه وبين بني نهد. ويتكرر مثل هذا الخطاب من وفود العرب على رسول الله ρ والغرض واحد وهو المثول بين يديه وإعلان الطاعة والانقياد, فهذا وفد همدان, يتقدمه متكلمهم مالك بن نمط[1] قائلاً: **"يا رسول الله! نصية من همدان, من كل حاضر وباد, أتوك على قلص نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم, من مخلاف[2] خارف[3] ويام, وشاكر, أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهات الأنصاب, عهدهم لا ينقض ما قامت لعلع, وما جرى اليعفور[4] بصيلع[5]"[6].** وقد بدأ الخطيب هنا بالإشارة إلى نصية القوم الذين وفدوا على رسول الله -عليه أفضل الصلاة والسلام-, ولعل في إشارته إلى هؤلاء الصفوة من قومه ما يكني عن انقياد القبيلة برمتها بالتبعية لعلية القوم من حاضرة وبادية, ثم يصف سرعة النوق التي سارت بهم وفتوتها, راسمًا لها صورة بديعة فهي متصلة بحبائل يشد بعضها بعضًا, بيد أن هذه الحبائل ليست كالحبال المعروفة, إنما هي حبائل الإسلام التي لا تنفك, ثم يؤكد فكرة إيمانهم ودفاعهم عن الدين بلا هوادة, وقد قدم هنا الحديث عن التزامهم بالإسلام ليعود بعد ذلك إلى التفصيل في رجالات الوفد, من مخلاف خارف ويام وشاكر, منتهيًا إلى الفخر بمكانتهم بين القبائل فهم أهل القيادة والسؤدد , ولا يقف بالفخر إلى حد هذه المعاني، بل إنه يفخر بإسلامهم وتركهم الآلهة والأنصاب, والتزامهم بالعهد مع الله ورسوله, ما دام جبل لعلع شامخًا, وما جرى اليعفور بصيلع, رامزًا إلى أزلية إيمانهم وعدم

---

1 مالك بن نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأي بن سلمان الهمداني ثم الارحبي أبو ثور, وهو الوافد ذو المشعار. الإصابة في تمييز الصحابة,558/5.

2 النصية: من ينتصى من القوم أي يختار من نواصيهم وهم الرؤوس والأشراف، ويقال للرؤساء نواص ونصية القوم: خيارهم. القلوص: الفتية من الإبل, وربما سموا الناقة الطويلة القوائم قلوصًا. نواج: ناقة ناجية ونجاة سريعة, وقيل تقطع الأرض بسيرها ولا يوصف بذلك البعير, والنجاة الناقة السريعة تنجو بمن ركبها. مخلاف البلد: سلطانه, والمخلاف الكورة يقدم عليها الإنسان, وعند أهل اليمن واحد المخاليف وهي كورها. اللسان, (نصا-قلص- نجا- خلف).

3 خارف: بالفاء على وزن فاعل مخلاف من مخاليف اليمن لهمدان. معجم ما استعجم, 483/2.

4 لعلع:موضع, وقيل: هو جبل كانت به وقعة, وفي الحديث ما أقامت لعلع, فسره ابن الأثير، فقال:هو جبل، وأنثه لأنه جعله اسمًا للبقعة التي حول الجبل. اليعفور: الظبي الذي لونه كلون العفر وهو التراب, وقيل: هو الظبي عامة, وفي الحديث: ما جرى اليعفور قال ابن الأثير:هو الخشف, وهو ولد البقرة الوحشية وقيل: تيس الظباء.اللسان, (لعلع -عفر).

5 صيلع بفتح أوله وإسكان ثانيه وفتح اللام بعدها عين مهملة موضع باليمن كثير الوحش والظباء. معجم ما استعجم, 848/3.

6 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي,47.

تزعزعه، مما يدل على توغل الإيمان في قلوبهم, وهو معني جاء في خطاب بني نهد كذلك, ويلاحظ أن فكرة وصف الرحلة أو الرحل والدابة قد تكررت في خطب الوفود ولاسيما وفود البادية, - وستأتي الإشارة إلى ذلك مفصلة عند الحديث عن التشكيل الخطابي في الباب الثاني-.

وتوجهت بعض الوفود إلى رسول الله ρ بخطاب مباشر متشكية من سوء الحال والجدب , طالبة منه عليه الصلاة والسلام الدعاء لها,والتشفع عند الله, فقال وافد بني فزارة **" يا رسول الله! أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، وغرث عيالنا فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك إليك، فقال رسول الله ρ : سبحان الله! ويلك هذا أنا شفعت إلى ربي -عز وجل- فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه لا اله إلا هو العلي العظيم وسع كرسيه السموات والأرض!؟ فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد, وقال رسول الله ρ: إن الله -جل وعز- ليضحك من شفعكم وأزلكم وقرب غياثكم، فقال الأعرابي: يا رسول الله! ويضحك ربنا -عز وجل-؟ قال: نعم، قال الأعرابي: لن نعدم من رب –يضحك- خيرًا، فضحك النبي ρ من قوله, وصعد المنبر, فتكلم بكلمات, وكان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء,فرفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه"[1]،"ودعا،فقال: اللهم اسق بلادك وبهائمك, وانشر رحمتك واحي بلدك الميت, اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا, مريئًا مريعًا, مطبقًا واسعًا, عاجلاً غير آجل,نافعًا غير ضار،اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق, اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء. فمطرت فما رأوا السماء ستا، فصعد رسول الله المنبر، فدعا، فقال: اللهم حوالينا ولا علينا على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر. قال فانجابت السماء عن المدينة انجياب الثوب "[2].** وبالرغم من أن

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/ 274. والغَرَثُ: أَيْسَرُ الجوع؛ وقيل: شِدَّتُه؛ وقيل: هو الجوعُ عامَّةً . وأَطَّ الرَّحْلُ والنِّسْعُ يَئِطُّ أَطًّا وأَطِيطًا: صَوَّتَ، وكذلك كلُّ شيء أَشبه صوت الرحل الجديد. والأَطيط أَيضًا: صوت النِّسْعِ الجديد وصوت الرَّحْل. الأَزْلُ: الضيق والشدّة. والأَزْلُ شدّة الزمان. يقال: هم في أَزْلٍ من العيش . اللسان,(غرث- أطط – أزل).

2 الطبقات الكبرى, 297/1. جاء في سنن أبي داود: اللَّهُمَّ أَسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا مَرِيئًا مُرِيعًا نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍ عَاجِلاً غَيْرَ آجِلٍ"30/4.

هذا الخطاب تضمن فكرة الشكوى من الجدب, وحاجة الأرض للسقيا كما جاء في خطاب بني نهد, إلا أنه يتضح من خلاله حداثة عهد بالإسلام, دل على ذلك أمران: الأول في اللفظ بتكراره لكلمة ربك موجهًا الضمير إلى المخاطب, والثاني معنوي وهو طلبه الشفاعة من الله عند الرسول ρ , مما جعل رسول الله ينكر عليه ذلك بل ويوبخه بقوله:" ويلك " ثم يوضح-عليه الصلاة والسلام- للوفد حقيقة الشفاعة. فرسول الله يشفع إلى ربه -عز وجل-, ويتجلى -سبحانه وتعالى-عن ذلك, بل إن الرسول أكد ألوهية الله وعظمته, مشيرًا إلى عرشه وكرسيِّه الذي وسع السموات والأرض, وأشار ρ إلى أن تعظيم الله وذكره ليس مقصورًا على البشر, وإنما يشمل السموات والأرض التي تسبح له وتلهج بذكره, لقد جاء خطاب الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام- في مطلعه حادًّا قويًّا كرد فعل على ما سمعه من المتكلم, لكنه اتجه بعد ذلك إلى مخاطبة العقل والإقناع بتذكير السامعين بعظمة الله, والاستدلال بأسمائه وتنزُّهه عن خلقه, ثم يتوجه خطابه -عليه الصلاة والسلام- إلى اللين والملاطفة حينما يذكر ضحك الله -عز وجل- من تشفعهم وضيقهم وشدة زمانهم مع جهلهم بقرب الغوث والفرج من الله -سبحانه وتعالى-، ملمحًا إلى سعة رحمة الله, باعثًا الأمل في نفوس القوم, مما جعل الأعرابي يعجب من ذلك, ويكرر السؤال لرسول الله مستوثقًا مما سمعه؛ ليؤكد -عليه الصلاة و السلام- له ذلك, فيستبشر الأعرابي بالخير من رب يضحك كما يليق بجلاله وعظمته, وتجدر الإشارة إلى قدرة رسول الله ρ على محاورة الأعراب والرد على خطابهم مع ما عرف عنهم من غلظة وجفاء, بل إنه انطلق إلى المنبر داعيًا لبلادهم وبلاد المسلمين بالسقيا والرحمة, ويشار إلى أن رسول الله ρ قد بدأ في خطابه لبني نهد بالدعاء أولاً، ثم بالوعظ والتذكير ثانيًا, بيد أنه يبدأ خطابه هنا بالتذكير بألوهية المولى -عز وجل- وتقدسه وعظمته, وذكر بعض صفاته بما يليق بكنهه, ليختم خطابه بالدعاء, وهذا يدل على مراعاة رسول الله ρ لمقتضى الحال وما يمليه عليه الموقف وخطاب الوافد. وقد جعل النقاد ذلك شرطًا لفصاحة المتكلم، يقول الجاحظ:" ينبغي

للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[1] ووافقه القلقشندي بقوله: " وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات، فتجعل لكل طبقة كلامًا ولكل حال مقامًا، حتى تقسم أقدار المستعمين على أقدار الحالات، فإن المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال.[2]

وكما جاءت وفود العرب معلنة إسلامها, فقد قدمت وفود أخرى سائلة مستفسرة عن أمور دينها من رسول الله ρ, ومن هؤلاء عبدالقيس الذين قدموا على رسول الله -عليه الصلاة والسلام- فقالوا **:" يا نبي الله ! إنا حي من ربيعة وبيننا وبينك كفار مضر، ولا نقدر عليك إلا في أشهر، الحرم فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به, فقال رسول الله ρ: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع, اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا, وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة, وصوموا رمضان, وأعطوا الخمس من الغنائم, وأنهاكم عن أربع: عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير[3]، قالوا: يا نبي الله! ما علمكم بالنقير ؟ قال: بلى! جذع تنقرونه فتقذفون فيه من القطيعاء (قال سعيد أو قال من التمر)، ثم تصبون فيه من الماء حتى إذا سكن غليانه شربتموه حتى إن أحدكم (أو إن أحدهم) ليضرب ابن عمه بالسيف، قال: وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك، قال: وكنت أخبأها حياء من رسول الله ρ ، فقلت: ففيم نشرب يا رسول الله ؟ قال في أسقية الأدم التي يلاث على أفواهها"**[4]، لقد تقدم الخطاب أولاً بالتعريف, ولعل هذا التعريف لم يأت عبثًا، وإنما أراد به المخاطب التمهيد لما سيذكره من

---

1 البيان والتبيين, 4/1.

2 صبح الأعشى, 16/1.

3 الدباء: وهو أَوعية كانوا يَنْتَبِذُون فيها، وضَرِيَت فكان النَّبيذُ فيها يغلي سريعًا ويُسْكِر، فنهاهم عن الأَنْتِباذ فيها، ثم رَخَّص ρ في الانْتِباذ فيها بشرط أَن يشربوا ما فيها وهو غير مسكر.الحنتم: هي جِرارٌ حُمْرٌ كانت تُحْمَلُ إِلى المدينة فيها الخمرُ. المزفت: هو الإِناءُ الذي طُلِيَ بالزِّفْتِ، وهو نوع من القار، ثم انْتُبِذ فيه. اللسان, (دبي/حنتم/ زفت).

4 صحيح مسلم ,48/1.

معوقات تعيق هذه القبيلة عن التواصل المباشر دائمًا برسول الله ρ, فكفار مضر يحولون بينهم وبين زيارة رسول الله إلا في الأشهر الحرم, وهذا ما دفعهم إلى السؤال عن أمر يوجب لهم دخول الجنة يغنيهم عن السؤال فيما بعد, ولذلك جاء خطابهم مقتضبًا مركزًا, مما دفع رسول الله ρ إلى الإجمال أولاً, بذكر الأوامر الأربعة والنواهي الأربعة ثم التفصيل فيها, فالأوامر متجهة إلى أركان الإسلام من عبادة الله, وعدم الشرك ثم الصلاة والزكاة والصيام, وهذه أساسيات الدين, بيد أن رسول الله ألحق أمرًا خامسًا لم يجعله من جملة الأساسيات وهو دفع الخمس من المغنم, ولعل في قوله: آمركم بأربع، ثم الإشارة إلى خمسة أمور, ما يشير إلى أن الخامس -وإن كان مهمًّا- إلا أنه ليس من أركان الدين, ثم يأتي النهي بتكرار(أنهاكم عن أربع). وبالنظر إلى الأوامر يتبادر إلى الذهن بأن النواهي ستكون عن الكبائر العظام التي تخرج من الدين، بيد أن رسول الله ρ اتجه بنهيه إلى أبعد من ذلك، فقد نهاهم عن الشرب في أنواع من الآنية التي استخدموها في جاهليتهم وهي " الدباء والحنتم والمزفت والنقير"، ومما يلاحظ أن كل تلك الأربع تعود إلى فكرة شرب الخمر، لذلك أراد رسول الله الترميز بها إلى أم الكبائر الخمرة التي تفضي إلى فعل كل الكبائر الأخرى, بل إن بلاغة رسول الله وإعجازه بمعرفة آنيتهم دعتهم إلى التعجب والسؤال عن كيفية معرفته بها, مما حدا به ρ إلى توضيح ذلك بالاستدلال, ولم يكتف -عليه الصلاة والسلام- بالنهي فقط بل إنه قدم لهم البدائل حتى يقيم عليهم الحجة، فجاء خطاب رسول الله ρ مفصلاً مقابل خطاب الوفد الموجز, بيد أن هذا التفصيل جاء متسقًا مع خطابهم الذي اشتمل على سؤال عظيم استدعى التفصيل والإبانة, وقد أشار النقاد إلى من تستحسن منهم الإطالة في الخطابة, فقيل: "وأما الخطباء الذين تستحسن منهم الإطالة فالذين لهم مكانة الرضا والقبول في قلوب المستمعين مثل الرؤساء والأئمة ومن يقتدى بهم , كما تستحسن الإطالة للمقتدرين الذين تؤمن زلتهم"[1]، فضلاً عن أن حال المخاطبين [1] اقتضى ذلك التفصيل.

1 في بلاغة الخطاب الإقناعي, 29.

لقد حرص ρ على ترسيخ مفاهيم العقيدة في نفوس الوفود, فكان يؤكد دائمًا أولوية أركان الإسلام, في كل فرصة تتاح , فضلاً عن أنها كانت شرطًا أساسيًّا في مبايعة من جاءه معلنًا إسلامه, فقد بسط ρ يده الكريمة لمبايعة جرير بن عبد الله البجلي مشترطًا عليه بقوله: " **على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتنصح المسلم وتطيع الوالي وإن كان عبدًا حبشيًّا "**[2]، وبالرغم من أن الخطاب هنا جاء للمفرد، إلا أنه لم يختلف كثيرًا عن خطابه للجماعة، فأمور الدين الموصى بها واحدة, بيد أنه أضاف إليها أمرين اختلفا عن أوامره لوفد عبد القيس, فاشترط لمبايعته المناصحة للمسلمين, وطاعة ولي الأمر مطلقًا, حتى وإن كان عبدًا حبشيًّا, وهذا كناية عن أهمية طاعة الحاكم مهما كانت صفته, ولعل اختياره ρ لهذين الأمرين بجانب أركان الدين جاء مناسبًا لفكرة المبايعة إذ ينطوي تحتها معنى الأخوة المتمثل في التناصح, ومعنى الأمن والسلام المتمثل في طاعة ولي الأمر.

وكما وقفت الوفود بين يدي رسول الله بخطاباتها الدينية, فقد خاطبهم ρ أيضًا , ووقف فيهم مبشرًا وناصحًا ومعلمًا عظيمًا,واختلفت لغة خطابه معهم,فمن الترهيب والترغيب كما في قوله: **"أنا النبي الأمي الصادق الزكي، والويل كل الويل لمن كذبني وتولى عني وقاتلني، والخير كل الخير لمن آواني ونصرني وآمن بي وصدق قولي وجاهد معي"**[3] إلى الإشارة إلى سماحة الدين الإسلامي بقوله: **"يا أيها الناس إنكم لن تفعلوا ولن تطيقوا كل ما أمرتم به ولكن سددوا وأبشروا"**[4]، بل إنه ρ كان أشد فرحًا بإسلام الوفود, وكان يثني على الله

---

1 قسمت الخطابة الدينية إلى ثلاثة أصناف، وذلك حسب المتلقي وحسب الرسالة الموجهة إليه , فهو إما أن يكون خالي الذهن يتقبل المعرفة الملقاة إليه، وهذه الحالة اقتضت خطابة تعليمية –وهذا حال الوفد في هذا الخطاب -وإما أن يكون متناسيًا لما تعلم غافلاً عما ينتظره، فيتطلب حاله الحث على العمل والتخويف من العقاب، وتلك هي الخطابة الوعظية, وإما أن يكون عالمًا مخالفًا وجاحدًا لوجهة نظر الخطيب وفي هذه الحالة لابد من المحاجة. المصدر السابق, 36.

2 الطبقات الكبرى, 348/1.

3 الطبقات الكبرى, 334/1.

4 مسند الإمام أحمد , 212/1.

ويحمده, ويبشر الوفد بقوله: " الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات منكم على غير الإسلام فهو في النار"[1]، وحرص -عليه أفضل الصلاة والسلام- على توضيح منهاجه الديني القويم للوفود قائلاً: **«إني أمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتَّى يقولوا لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ، فإذا قالوهَا حرّمتْ عليَّ دماؤهُم وأموالُهُم إلاَّ بحقّهَا وحسابُهُم علَى اللَّهِ»[2].**

وهكذا مضت الخطابة الدينية في الوفادة على رسول الله ρ, بين إعلان للإسلام, أو سؤال عن الدين وتفقه فيه, ومع كل تلك الأحوال كان ρ خير مستمع لحديثهم, وخير معلم ومتكلم معهم, جاء خطابه لهم متسقًا مع أغراضهم ومع طباعهم ومع ما يتناسب ومفاهيمهم, مرشدًا وموجهًا, آمرًا وناهيًا, مرهبًا ومرغبًا, وداعيًا لهم بالخير.

ب- الدلالة الدنيوية:

لم تقف مآرب الوافدين على رسول الله ρ عند حدود الجوانب الدينية-وإن كانت قد استأثرت بالحظ الأوفر منها- وإنما كانت هناك غايات أخرى قصدت بها القبائل رسول الله -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-، منها: المنافرة[3], والفخر والمدح, والطلب باختلاف صوره.

والمفاخرة فن نشأ وتطور في العصر الجاهلي والإسلامي, بفعل عوامل سياسية واجتماعية, ودينية[4], وينضوي تحت العامل السياسي مفهوم الوفادة, فحديث الوافد مع الموفود إليه يجر أحيانًا إلى الحديث عن نسب, أو جاه, أو واقعة تؤدي إلى التفاخر بين الطرفين, وفي عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- جاءت الوفادة في عدة مظاهر, أبرزها: وفادة القبائل عليه مع اختلاف مطالبهم فمنهم من يطلب الاستسقاء كفزارة, ومنهم من يطلب المباهلة كنجران, ومنهم من يطلب المفاخرة كوفد بني تميم[5] ومع كل غاية اختلفت لغة الخطاب, فهذا وفد تميم يقف من وراء الحجرات, مناديا رسول الله ρ :أن اخرج إلينا يا محمد! فآذى رسول الله ρ

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير, 321/2.

2 سنن الدارمي ,218/2.

3 لون نثري, يمثل معارضة بين خصمين, يعمد كل منهما إلى إظهار المحامد, والطعن في المقابل, من دون القصد إلى حكم يحكم بينهما, أو عطاء يعطى للغالب منهما. تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية,82.

4 فن المنافرة والمفاخرة النثرية من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي,21.

5 المصدر السابق, 39/37.

صياحهم, فخرج إليهم, فقالوا: " يا محمد! جئناك لنفاخرك فائذن لشاعرنا وخطيبنا. قال: نعم أذنت لخطيبكم فليقل"[1]، " **فقام إليه عطارد بن حاجب[2]، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل, وهو أهله, الذي جعلنا ملوكًا, ووهب لنا أموالاً عظامًا, نفعل فيها المعروف, وجعلنا أعز أهل المشرق, وأكثره عددًا, وأيسره عدة, فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا برؤوس الناس؟ وأولي فضلهم؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا, وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام, ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا, وإنا نعرف, أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس. فقال رسول الله ρ لثابت بن قيس بن شماس[3] أخي بلحارث بن الخزرج: قم فأجب الرجل في خطبته, فقام ثابت، فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه, قضى فيهن أمره, ووسع كرسيه علمه, ولم يك شيء قط إلا من فضله, ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا, واصطفى من خير خلقه رسولاً, أكرمهم نسبًا, وأصدقهم حديثًا , وأفضلهم حسبًا, فأنزل عليه كتابه, وائتمنه على خلقه, فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان, فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه, أكرم الناس أنسابًا , وأحسن الناس وجوهًا, وخير الناس فعالاً, ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعا رسول الله نحن, فنحن أنصار الله ووزراء رسوله, نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله, فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه, ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا,وكان قتله علينا يسيرًا, أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات والسلام عليكم"[4].** لقد بدأ وفد بني تميم بخطاب حاد, وبنبرة جاهلية, آذت رسول الله ρ, فأنزل الله في شأنهم قوله تعالى:

---

1 تاريخ الأمم والملوك, 188/2.

2 عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبدالله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم التميمي أبو عكرمة وفد على النبي ρ واستعمله على صدقات بني تميم. الإصابة في تمييز الصحابة,419/4.

3 ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي، خطيب الأنصار. روى ابن السكن من طريق ابن أبي عدي عن حميد عن أنس قال: خطب ثابت بن قيس مقدم رسول الله ρ المدينة فقال: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا، فما لنا؟ قال: الجنة! قالوا : رضينا.الإصابة في تمييز الصحابة,511/1.

4 تاريخ الأمم والملوك,188/2-189.

} [illegible] {[1]

فغلبت مظاهر الطبيعة الجاهلية على هذا الوفد منذ قدومه على رسول الله , وبمناداته بقولهم: يا محمد! حيث لم يقروا له في بادئ الأمر بالنبوة, وإنما انصرفت غايتهم إلى طلب المفاخرة , ومعاجلة الرسول ρ بهذا الطلب, واستئذانه لشاعرهم وخطيبهم, ويلاحظ هنا أن رسول الله ρ قد قدم الإذن للخطيب على الشاعر, مما قد يشير إلى أن الأصل في الوفادة الخطابة ثم يتبعها الشعر, فضلاً عما كان يشغله الخطيب من مكانة في المجتمع العربي, إذ كانت "مرتبة الخطيب فوق مرتبة الشاعر عندهم؛ لأن الخطيب لا يكون إلا سيدًا غالبًا، أما الشاعر فقد يكون ملكًا، وقد يكون صعلوكًا, وكان بعض ملوكهم يأنف من قرض الشعر ويراه من شأن السوقة, وقد تأكد علو مرتبة الخطيب على مرتبة الشاعر عندما نزل القرآن مسجوعًا على مذهب الخطباء ولم ينزل منظومًا على عروض الشعراء"[2]، انطلقت المفاخرة بخطبة عطارد بن حاجب, التي بدأها بحمد الله, جاعلاً من هذا الحمد مدخلاً للفخر بالسيادة والملك, ووفرة الأموال العظام ,التي هيأت لهم صنائع المعروف, فجعلهم من أعز أهل المشرق, وأكثرهم عددًا, مع قلة عدة القتال لديهم مكنيًا بذلك عن هيبتهم وقلة حاجتهم للنزال, ثم يلتفت من الخبر إلى الإنشاء للتأكيد على فكرة السيادة بسؤاله التقريري: ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟ لينهي خطبته متحديًا من أراد مفاخرتهم بأن يأتي بمثل ما أتوا به, بل إن الخطاب هنا لم يتوجه إلى الطرف الآخر فقط , وإنما جعله عامًّا لكل من أراد مفاخرتهم , مشيرًا إلى قدرته على امتلاك ناصية الكلام, بيد أنه يخشى من الإكثار فيما عرفوا به, مطالبًا الرسول-عليه

---

1 الحجرات, 4-5.

2 قس بن ساعدة الإيادي (حياته-خطبه-شعره) , 15 .

الصلاة والسلام- وصحبه بالإتيان بمثل ما أتى به, أو بأفضل منه, وهنا يأتي الخطاب مباشرًا للموفد عليه.

وعندما أنهى عطارد خطبته, التفت -عليه الصلاة والسلام- لثابت بن قيس ليأمره بالرد على الرجل, وفي هذا التصرف من رسول الله ρ عدل عظيم، حيث لم يتصد هو للرد على خطيبهم حتى لا تقوم المفاضلة بين الوافد-وهو من عامة البشر- ، وبين رسول أوتي من الله جوامع الكلم والفصاحة, لذلك آثر ρ أن يكون الرد من ثابت بن قيس , حتى تكون الغلبة منصفة. بدأ قيس بن ثابت خطبته بالحمد والثناء على الله -سبحانه وتعالى-، وهو حمد مقصود لذاته, يدل على ذلك استرساله في صفات الذات الإلهية, مشيرًا إلى خلق السماوات والأرض, وقضاء الأمر فيهن, وسعة كرسيِّه لعلمه , وتفرُّده بالفضل في كل شيء , وقدرته التي جعلت منهم ملوكًا, وهنا ينطلق ثابت إلى الفخر بقومه بيد أنه يأتي في عجالة , متجها به إلى المفاخرة برسول الله ρ, واصطفائه بالنبوة, مشيرًا إلى كرم نسبه -وهي إشارة تأتي متسقة وخطاب الوفد الذي ركز على فكرة المباهاة بالنسب والسيادة-, ثم يقر له -عليه الصلاة والسلام- بصفة الصدق التي عرف بها قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين, و هي صفة موجبة للإيمان به, ليعود إلى المفاخرة بحسبه, جامعًا لرسول الله ρ السيادة في النسب والذات والحسب, ثم يدلف من ذلك إلى المفاخرة بقطبي المدينة من المهاجرين والأنصار, مبتدئًا بالمهاجرين وقرابات الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام- الذين كان لهم الفضل في السبق للإسلام, مع كونهم أكرم الناس أنسابًا, وأحسنهم وجوها, وخيرهم فعالاً, وهم بذلك يضاهئون بني تميم فيما اتصفوا به, وفي هذا دعوة رمزية للوفد للالتحاق بركب الدين , بالإشارة إلى شرف وكرم من سبق إليه.

ثم ينتقل إلى الفخر بالأنصار الذين سارعوا بالاستجابة لنبي الله، فناصروه وآزروه ومعهم قويت شوكة هذا الدين, وهنا يلتفت بالخطاب إلى المتكلم بعد أن كان للغائب في حديثه عن المهاجرين مما يشير إلى انتمائه للأنصار وفي افتخاره التزم بمبدأ العدل والإنصاف, إذ لم

يقدم قومه الأنصار على المهاجرين, امتثالاً لمنهج القرآن الذي قدم المهاجرين في قوله – سبحانه-:

♦♌❑↗♑□❒☞❀ᏼᏼ✂ ♐♍❑→◑⌧⌛◷○○♑ᏼᏼ✂◆❒ }
♦✕⇦⌧❷✐↗◷⍓♑←☺⍼♑ᏼᏼ✂ ⌘♊⚲✋
♦✕⇦⚲🔔⅄✎ᏼᏼ✂◆❒ ✑❻ᏼᏼ✿◷☼☞❀ᏼᏼ✂◆❒
♐⑥⍻⌧▪❻ ♑♊◷✿○⇧❍⌧✉⌧✍ ☠→♎❑⇖→♦⌨□✍ᏼᏼ✂
←❍⇗☪♦⇖ ☎✂❑→⇨◆❻◆❒ ⇙☠⇙♋⇗☸♦⇖ ✦✎ᏼᏼ✂
❽⌧❷⇧↗⬩✍ ▭♁◷□☪⍓♉ ⇗☠←●❍▭ ❍⑨♦⇖❒🕮◆❒
♦✕⇦⚲ᏼᏼ⌧✂◷⍓⌘ ⇖❷◷⍓♑⇗☼☞❀ᏼᏼ✂ ᏼᏼ⍓♑♦☞⍼♦❒✋
⍓⌨⚲♑◷⬩❶ ▤ ✂✡⑨♦✍❒🕮 ✎ᏼᏼ❑♋❸⚲▫
(2)"(1){ ⇖☹➚⚲→⍓➔⍼♑ᏼᏼ✂ ⇖♏⇗❑⌧▦⍼♑ᏼᏼ✂

لينهي ثابت بن قيس خطبته " برسالة تهديد هادئة وغير مباشرة لوفد بني تميم إن لم يؤمنوا بهذا الدين القويم, يفهم هذا من قول ثابت: ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا"[3]. فدعوة ثابت لهذا الوفد جاءت مبطنة بشيء من الترهيب في أثناء خطبته, مشيرًا إلى شرف اتباع رسول الله ρ أولاً, ثم جهاد من لم ينضو تحت راية هذا الدين ثانيًا. وتجدر الإشارة إلى أن ثابت بن قيس عمد إلى ختم خطبته بالاستغفار له وللمؤمنين والمؤمنات, ثم بتحية الإسلام " السلام عليكم" في حين لم نجد ذلك في خطبة عطارد مما ينم على اتزان خطاب ثابت ورويته, قياسًا إلى اندفاع نده وتركيزه على فكرة واحدة, لم يكد يخرج عنها حتى مع إنهاء خطبته.

وجاءت وفود أخرى إلى رسول الله ρ متحدثة عن مناقبها, مفتخرة بنسبها, دون أن تعمد إلى مفاخرة النبي -عليه الصلاة والسلام-, وإنما اكتفت بالحديث عن منزلتها بين القبائل, من هذه الوفود وفد بني عذرة, حيث قدموا على رسول الله ρ, فقال متكلمهم **:" مَن لا تنكر نحن بنو عذرة إخوة قصي[4] لأمه نحن الذين عضدوا قصيًّا, وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر ولنا قرابات وأرحام, قال رسول الله ρ : مرحبا بكم وأهلاً! ما أعرفني بكم،**

---

1 التوبة, 100.
2 فن المنافرة والمفاخرة النثرية من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي,201.
3 المصدر السابق، 201.
4 قصي بن كلاب هو أول من أصاب من قريش ملكًا, ثم ابنه عبد الدار,وبنوه إلى أن قاسمهم بنو عبد مناف 1بن هاشم بن عبد مناف. البدء والتاريخ, 128/4.

فأسْلموا"[1]. بدأ الوفد هنا بالإشارة إلى نسبهم بقولهم :"من لا تنكر" خطابا لرسول الله ρ, وفي قولهم هذا ما يشير إلى منزلتهم العالية, وشهرتهم بين القبائل وإذ أكدوا معرفة رسول الله ρ بهم في مطلع خطابهم وهذا باب من الفخر, فيه جذب لانتباه المخاطب, أدلفوا من بعده إلى التعريف بأنفسهم:"نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه ", ففخرهم لا يقف عند شرف النسب بل يشير إلى عظيم حسبهم,باستدعاء للتاريخ, رمزوا به إلى أقدمية ملكهم, بمعاضدتهم أخيهم قصي, وإزاحتهم خزاعة وبني بكر عن ملك مكة, إشارة إلى" انتصار قصي بقضاعة على خزاعة"[2]، وقد ركز الوفد في فخرهم على فكرة الملك والشرف العظيم, مما جعل رسول الله ρ يرحب بهم ويؤكد لهم معرفته السابقة بهم بسؤال تقريري جميل في قوله: "ما أعرفني بكم".

ومن العرب من وفدت على رسول الله ρ لحاجة مقصودة, فقدموا حديثهم بين يديه بالفخر أولاً, وببيان منزلتهم, ثم أدلفوا إلى مرادهم, من تلك الوفود وفد بني عبد عدي, حيث قصدوا رسول الله ρ ، فقالوا:" **يا محمد! نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به, ونحن لا نريد قتالك, ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك, ولكنا لا نقاتل قريشًا, وإنا لنحبك ومن أنت منه, فإن أصبت منا أحدًا خطأ فعليك ديته,وإن أصبنا أحدًا من أصحابك فعلينا ديته، فقال: نعم فأسْلموا"**[3]. لقد بدأ خطاب الوفد هنا بنداء النبي ρ باسمه, وهو أسلوب جاء عند بعض الوفود التي لم تدخل الإسلام بعد, حيث لم يقروا له بالنبوة بعد, بيد أن هذا النداء فيه استرحام للرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام- , ألحقوه بما يعزز ذلك الاسترحام عندما ذكروه بأنهم سكان الحرم وأعز من به, وفي هذا رمز إلى انتمائهم لمكة ومشاركتهم قريشًا فيها, فقد قدموا بهذا الحديث ليقولوا له ρ إنهم يرفضون مناصرته في قتال قريش, بيد أنهم يناصرونه فيما عدا ذلك, وكأنهم يستثنون قريشًا بحكم المجاورة, وهذه طباع العرب, فهم لا يخونون العهد ولا

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير,320/2.
2 أخبار مكة ,259/3.
3 الطبقات الكبرى, 306/1.

يغيرون على الجار, لقد عمدوا في خطابهم إلى تأكيد فكرة منزلة قريش عندهم , وبالمقابل مناصرتهم لرسول الله ρ, يظهر ذلك من التكرار, ففي مطلع الحديث نفوا عن أنفسهم أي نية لقتال الرسول, ثم أكدوا له مؤازرتهم له في قتال من يشاء فيما عدا قريشًا, وكرروا هذه الفكرة بقولهم: " ولكنا لا نقاتل قريشًا"، ثم عادوا لتأكيد حبهم لرسول الله ولمن هو منهم من آل عبد المطلب, وبعد أن قدموا بين يديه ρ منهجهم في موالاته, عادوا فاشترطوا عليه شرطًا يلزمه ويلزمهم, فإن أصاب في حروبه منهم أحدًا خطأ فعليه دفع ديته, وإن أصابوا أحدًا من أصحاب رسول الله ρ فعليهم ديته. وقد قبل ρ شرطهم, وأجابهم بـ"نعم" ثم أعلنوا إسلامهم.

وقدمت أشجع على رسول الله ρ, فقالوا:**" يا محمد! لا نعلم أحدًا من قومنا أقرب دارًا منك منا ولا أقل عددًا وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك فوادعهم"**[1]. وهنا يأتي خطابهم كخطاب بني عذرة, بنداء النبي الكريم باسمه, تقربًا واستعطافًا, ثم محاولة استمالته بتذكيره بحق القربى والمجاورة أولاً, وبقلة عددهم ثانيًا, مما يرمز إلى عدم مشروعية قتالهم, فهم على الصعيد الإنساني ذوو قربى, وحق الجار يمنع قتالهم, وعلى الصعيد الحربي لا يعادلون نبي الله وجيشه لا في العدة ولا العدد, وهذا جعلهم يضيقون بحرب الرسول ρ ويطلبون موادعته, فوادعهم رسول ρ.

وبعد أن اطمأنت أشجع على نجاح خطتها في موقفها من الدولة الإسلامية ومعرفة أن الميزان العسكري أصبح لصالح الدولة الإسلامية بعد غزوة الأحزاب قدمت في سبع مئة رجل إلى رسول الله ρ فوادعهم وسالموا بعد ذلك . ومن المحقق أن إسلامهم لم يكن بعد موادعتهم للدولة الإسلامية مباشرة ؛ وذلك لأنهم لم يكونوا ضمن القبائل التي سارت إلى مكة، وهذا يعني

1 الطبقات الكبرى ,306/1.

أن دخولها في الإسلام كان محصورًا بين شهري ذي القعدة من العام السادس ورمضان من العام الثامن للهجرة[1] فأسلموا.[2]

ومما تجدر الإشارة إليه, أن رسول الله -عليه أفضل الصلاة والسلام- كان يجيب أغلب الوفود بالقبول، مما يجعلهم يبادرون بإعلان إسلامهم, وهذه حكمة منه ρ في التعامل مع وفود العرب واستمالتهم بالتي هي أحسن، تصديقًا لقوله تعالى:

{..✁☞⑩☞✍▫⬧⬈⇧ ☞☟☞☞ᘓ⬆☹☞ᵷ ♎⑥"
📖❒❍⇧❍✿♊⬅ ▫⬧✉☞❶⬧✁ ✁☞✍⬆🔔♎❽ ☞⬧❹⬀☾⬥⌨⍓
⬦❒⬧☞❹⬀☾⬥❍⬅⍝ ⬉⬧⑨⍓⌚❒⬥❒⬅ ☞☒☎❒☼❋❍⬅⍝
❒⬥🖫☞❼▭ ❍⍓☺♎⑩⚐☞ } [3].

وجاء وفد أسلم إلى رسول الله ρ في حاجة, فوقفوا بين يديه الكريمتين وقالوا: **" قد آمنا بالله ورسوله, واتبعنا منهاجك, فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها, فإنا إخوة الأنصار, ولك علينا الوفاء والنصر, في الشدة والرخاء، فقال رسول الله: أسلم سالمها الله , وغفار غفر الله لها "[4].** وقد بدأوا خطابهم لرسول الله -عليه أفضل الصلاة والسلام- معلنين إيمانهم بالله وبرسوله, واتباعهم منهاجه, وهذا فيه استمالة لرسول الله ρ, فإن كانت الوفود السابقة قد عمدت إلى استعطاف الرسول بحقوق القربى والمجاورة, فإن وفد أسلم ذهب إلى ما هو أشد تأثيرًا في رسول الله ρ, وهو الإيمان بالله وبرسوله والانقياد لنهجه العظيم , لذلك أرادوا منه ρ أن يجعل لهم عنده منزلة ومكانة تعرف العرب فضيلتها, وتحفظ لهم حقوقهم بين القبائل, وحتى يبلغوا غايتهم من رسول الله ρ فقد عمدوا إلى تذكيره بفضلهم, فهم إخوة الأنصار, الذين ناصروا النبي -عليه الصلاة والسلام- وصحبه المهاجرين, وهو بذلك مدين لهم بالوفاء والنصر في الرخاء والشدة. لقد استطاع هذا الوفد بخطابه أن يبلغ رضا رسول الله ρ,

---

1 علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول ρ , 165.

2 الطبقات الكبرى ,306/1 .

3 فصلت ,34 .

4 الطبقات الكبرى ,1/ 354, ويظهر من خلال دعاء الرسول ρ أن الوفد كان من أسلم وغفار, بيد أن المصدر لم يشر إلى ذلك ونسب الوفد إلى أسلم فقط.

فدعا لهم ρ بالمسالمة من الله -سبحانه وتعالى-، وهذا مناسب لمعنى الشدة, وبالغفران من الله -عز وجل-، وهذا متسق ومعنى الرخاء, فضلاً عن أن دعاءه جاء مشتقًّا من اسم الوفدين من ناحية الشكل كذلك.

وكان للمدح حضور في خطب وفود العرب على رسول الله ρ, وإن كان أقل نسبة من المقاصد الأخرى,بيد أنه -إن لم يكن مقصودًا لذاته- فإنه جاء ضمنًا في بعض خطاباتهم, وقد عمدت بعض الوفود إلى المبالغة في مدح رسول الله ρ وفقا لمَا تعارف عليه العرب في المديح من ميل إلى المبالغة أحيانًا, ومن حب الممدوح لمثل ذلك, لكن رسول الله ρ كره ذلك الإطراء المبالغ, وحذر منه, حيث يدل على ذلك ما جاء في خطاب بني عامر, الذين وقفوا أمام رسول الله ρ فقالوا:**" أنت ولينا, وأنت سيدنا, وأنت أطول قال يونس: وأنت أطول علينا طولاً، وأنت أفضل علينا فضلاً، وأنت الجفنة الغراء**[1]**، فقال: قولوا قولكم ولا يستجرنكم الشيطان، قال: وربما قال: ولا يستهوينَّكم».**[2] فافتتحوا خطابهم بقولهم: **"أنت"** إشارة إلى رسول الله ρ, وجعلوه منهاجًا اتبعوه مع كل صفة يلحقونها برسول الله ρ, بما يؤكد تلك الصفات للممدوح- عليه أفضل الصلاة والسلام, وقد بدؤوا إطراءهم بصفات الولاية والسيادة, التي خلعوها على رسول الله ρ, ثم أكدوا استحقاقه لتلك السيادة لأنه ذو الطول عليهم, وذو الفضل أيضًا, ليس هذا فحسب, لكنه ρ جمع إلى تلك الصفات الرئاسية, صفة الكرم العظيم , فهو الجفنة الغراء, بيد أن رسول الله ρ أنف ذلك الإطراء المبالغ, وحذرهم من أن يستزلهم الشيطان فيشركوا مع الله, أو يبلغوا بالرسول مبلغ التمجيد المرفوض.

---

1 والطول والطائل والطائلة: الفَضْل والقُدْرة والغنى والسَّعَة والعُلُوُّ؛ وقوله عز وجل: { [illegible] }؛ أَي ذي القُدْرة، وقيل: الطَّوْل الغِنى، والطَّوْلُ الفَضْل، يقال: لفلان على فلان طَوْلٌ أَي فَضْلٌ.ويقال: إِنه لَيَتَطَوَّل على الناس بفضله وخيره. والطَّوْل، بالفتح: المَنُّ، يقال منه: طالَ عليه وتَطوَّلَ عليه إِذا امْتَنَّ عليه. والجَفْنةُ الرجلُ الكريم.وفي الحديث: أَنه قيل له أَنت كذا وأَنتَ كذا وأَنت الجَفْنَةُ الغَرّاء؛ كانت العربُ تدعو السيدَ المِطْعامَ جَفْنةً لأَنه يضَعُها ويُطْعِم الناسَ فيها، فسُمِّيَ باسمها، والغَرّاء: البيضاء أَي أَنها مَمْلُوءةٌ بالشحم والدُّهْن . اللسان ,(طول- جفن) .

2 مسند الإمام أحمد, 4/ 603.

وعلى الجانب الآخر نجد المديح المتزن منه ρ , فقد أثنى على عبد القيس عندما وفدوا عليه, حيث أقبل على الأنصار فقال:" **يا معشر الأنصار! أكرموا إخوانكم, فإنهم أشباهكم في الإسلام, وأشبه شيء بكم شعارًا وأبشارًا، أسلموا طائعين, غير مكرهين ولا موتورين**[1] **إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا"**[2]**.** لقد توجه ρ إلى معشر الأنصار بخطاب عام, ولعل في اختياره للأنصار تكريمًا لهم, لأنهم ناصروا المهاجرين قبل ذلك وأكرموهم , واليوم يطلب منهم -عليه أفضل الصلاة والسلام- أن يتابعوا معروفهم, لكن مع من؟ هنا يصف النبي ρ الوفد بإخوة الأنصار, وفكرة الأخوة من أهم القيم الأخلاقية التي عالجتها الخطابة في صدر الإسلام. و"إذا كانت فكرة التقوى هي الأصل الذي بنيت عليه الأخلاق الفردية والاجتماعية في خطب الرسول -عليه الصلاة والسلام- وخطابة الصدر الأول, فإن هناك أصلاً خلقيًّا ثانيًا قامت عليه الأخلاق الاجتماعية على وجه الخصوص, وهو أصل الأخوّة, وكان هذا الواقع مبدأ تسير عليه حياة الجماعة الجديدة, ولا معنى لقيام أمة إسلامية بدونه, أمة تريد أن تتخلص من قيم العصبية الجاهلية, وتحكم صلة المسلم بأخيه المسلم على أساس جديد, يقضي على النظام القبلي الذي تحلل به الكيان الجاهلي, ولذلك فإن مجموع الأخلاق الاجتماعية على تنوع صورها, وتشعب أطرافها, وتشعب الحياة في المجتمع الإنساني وتنوعها, إنما تلتقي في معنى واحد, هو معنى الأخوة ,ذلك المعنى الذي لا تملك الإنسانية سبل الحياة والبقاء بدونه,وقد سايرت الخطابة في الإسلام هذه التعاليم الدينية الهادفة الملزمة بمحامد الأخلاق على نحو لم يسبق للخطابة الجاهلية أن شهدته, ولهذا ارتبطت الخطابة في صدر الإسلام كما رأينا بالدين ارتباطًا مباشرًا, واستطاعت أن تنهض بمبادئ التوجيه الديني والخلقي على خير وجه, ولما كان الدين في

---

1 والشِّعارُ ما ولي شَعَرَ جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب، والجمع أَشْعِرَةٌ وشُعُرٌ.وفي المثل: هم الشَّعارُ دون الدِّثارِ؛ يصفهم بالمودّة والقرب.
وفي حديث الأَنصار: أَنتم الشَّعارُ والناس الدِّثارُ أَي أَنتم الخاصَّة والبِطانَةُ. اللسان:شعر. والشِّعار أيضا علامة القوم في الحرب، وهو ما يُنادُونَ به ليعرف بعضهم بعضًا. المصباح المضي :شعر. البَشَرُ: الخَلْقُ يقع على الأُنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع لا يثنى ولا يجمع؛ يقال:هي بَشَرٌ وهو بَشَرٌ وهما بَشَرٌ وهم بَشَرٌ. ابن سيده: البَشَرُ الإنسان الواحد والجمع والمذكر والمؤنث في ذلك سواء، وقد يثنى.
وفي التنزيل العزيز: { [illegible] } أَنُـؤُمِنُ لِبَشَـرَيْنِ مِثْلِنا؟ والجمع أَبشارٌ. والمَوْتُورُ الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. اللسان, (بشر- وتر).
2 مسند الإمام أحمد, 235/5.

جوهره مدرسة كبرى لتهذيب النفوس, ولما كان صاحب الرسالة معلمًا عظيمًا, يخاطبه الله بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) فقد كان من الطبيعي أن تنطلق الخطابة من هذه النقطة, مصورة روح الأخوة الإسلامية , باعتبارها وجهًا من وجوه الثورة الروحية الكبرى، كما صورت غير ذلك من المفاهيم الدينية والخلقية ومضت تقيم حياة الناس على هذا الأساس الجديد"[1]، ولم يكتف -عليه الصلاة والسلام- بمعنى الأخوة العام، بل أكده بذكر الصفات المشتركة بين الوفد والأنصار فهم أشباههم في السبق للإسلام, وأشبه الناس بهم في القربى والمودة لرسول الله ρ على المستوى المعنوي, وأشبه الناس بهم خَلقًا على المستوى الحسي, سارعوا للإسلام طوعًا من غير إكراه أو حرب حينما أبت أقوام من الناس الدخول في الإسلام من غير قتال. وهذه صفات استحقوا بها الثناء من رسول الله ρ, فمديحه كان من منطلق ديني, أوجب لهم الشكر على ما كان من انقيادهم ولحاقهم بالدين دون قيد أو شرط من غير مبالغة من رسول الله ρ في مديحهم .

وقد استطاع ρ على الجانب الآخر أن يؤثر ليس فقط في الوفد بثنائه عليهم, بل – أيضًا- كان مؤثرًا في من استمع له من الأنصار, فالإنسان يميل إلى من يشاركه صفاته , ويقاسمه أفكاره " إن الإنسان يدرك ذاته ويقيمها على أساس معرفة الناس الآخرين, ومقارنة نفسه وظروفه بنفوسهم وظروفهم, فاتصال الناس واختلاطهم ذو أهمية كبيرة في تكوين العالم الروحي للفرد الواحد أو للجماعة...والناس يميلون عادة إلى قياس ومقارنة وضعهم وأفكارهم ومعاناتهم بوضع الآخرين وأفكارهم ومعاناتهم ... لقد أراد رسول الله ρ لمجتمع المسلمين أن يمثل المجتمع المثالي, الذي يحمل أشرف رسالة, فنراه يضع قواعد التعامل الاجتماعي بين المسلمين, وتمثل هذه القواعد الخطوط التي يمكن بواسطتها قراءة علم النفس الاجتماعي عند

---

1 القيم الخلقية في الخطابة العربية,69 .

المجتمع المسلم"[1], ولذلك كان لفكرة التشبيه التي ساقها ρ بين عبد القيس والأنصار أثر في الطرفين, المشبه والمشبه به.

لقد حرص ρ على بناء المجتمع الجديد ليس من خلال مبدأ الأخوة بين المسلمين فقط, بل من خلال ما كان يتلمسه من حاجات الوفود التي جاءته طالبة مستعطفة, كوفد هوازن, حيث قدموا على رسول الله ρ " وكان في الوفد عم النبي من الرضاعة، فقال يومئذ: **يا رسول الله! إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك, وقد حضناك في حجورنا, وأرضعناك بثديّنا, ولقد رأيتك مرضعًا فما رأيت مرضعًا خيرًا منك, ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك, ثم رأيتك شابًّا فما رأيت شابًّا خيرًا منك, وقد تكاملت فيك خلال الخير, ونحن مع ذلك أهلك [2] وعشيرتك, فامنن علينا منّ الله عليك ، فقال رسول الله: قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون,وقد قسم السبي, وجرت فيه السهمان. وقدم عليه أربعة عشر رجلاً من هوازن مسلمين وجاؤوا بإسلام من وراءهم من قومهم, فكان رأس القوم والمتكلم أبو صرد زهير بن صرد، فقال: يا رسول الله! إنا أهلك وعشيرتك[3] وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك, يا رسول الله! إنما في هذه الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكلفنك, ولو أنا مُلِحنا للحارث بن أبي شمر, أو للنعمان بن المنذر ثم نزلا منا بمثل الذي نزلت به, رجونا عطفهما وعائدتهما, وأنت خير المكفولين. ويقال إنه قال يومئذ-أبو صرد-: إنما في هذه الحظائر أخواتك وعماتك وبنات عماتك وخالاتك وبنات خالاتك وأبعدهن قريب منك بأبي أنت وأمي. إنهن حضنك في حجورهن, وأرضعنك بثديّهن, وتوركنك على أوراكهن, وأنت خير المكفولين"[4] فقال لهم رسولُ الله ρ: " معي مَن تَرَونَ، وأحَبُّ الحديثِ إليَّ أصدَقُهُ، فاختاروا إحدى الطائفتينِ: إمّا السَّبيَ، وإما المالَ. وقد كنتَ استأنيتُ بكم -وكان أنظَرَهم رسولُ اللَّهِ ρ**

---

1 علم النفس النبوي ,75 .
2 عند ابن سعد في الطبقات,(أصلك) 1/ 114.
3 في الطبقات الكبرى, (أصل وعشيرة)114/1.
4 المغازي, 949/3 والطبقات الكبرى, 114/1.

بضعَ عشرةَ ليلةً حين قَفَلَ منَ الطائف- فلما تبينَ لهم أن رسولَ الله ρ غيرُ رادٍّ إليهم إلاّ إحدى الطائفتَين قالوا: فإنّا نختارُ سَبيْنا، فقامَ رسولُ اللَّهِ ρ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهْلُهُ، ثم قال: أما بعدُ! فإنَّ إخوانكم قد جاؤونا تائِبين، وإني قد رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبيَهم، فمَن أحبَّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك فلْيَفعلْ. ومَن أحب منكم أن يكونَ على حَظِّهِ حتى نُعطيَهُ إيّاهُ من أوَّلِ ما يُفِيءُ الله علينا فلْيَفعلْ. فقال الناسُ: قد طيَّبْنا ذلك يا رسولَ الله. فقال رسولُ الله ρ: إنّا لا ندري مَن أذِنَ منكم في ذلك ممَّن لم يَأذن، فارجِعوا حتى يَرفَعَ إلينا عُرَفاؤكم أمرَكم. فرجعَ الناس، فكلَّمهم عُرَفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى رسولِ اللَّهِ ρ فأخبَرُوهُ أنهم قد طَيَّبوا وأذِنوا"[1].

ويلاحظ أن هذا الوفد تقدم لرسول الله ρ بحاجته بعد أن ألقى خطابه بين يديه, ولم يكتف الوفد بخطاب واحد, وإنما توجهوا إلى رسول الله بأكثر من خطاب, ولعل أهمية الغرض الذي جاؤوا من أجله ما يسوغ لهم ذلك, إذ أرادوا إقناع رسول الله ρ , فبادره بالحديث عمه من الرضاعة [2], ومما لاشك فيه أن لذوي القربى تأثيرًا أبلغ في النفس البشرية ممن سواهم, لذلك كانت نقطة البدء من عم الرسول ρ المذكور. وقد أحسن الخطيب في اختيار مطلع خطابه بندائه لرسول الله ρ, مما يدنيه نفسيًّا منه, حيث يقر له بالنبوة, ثم يدلف سريعًا بالحديث عن حقيقة السبايا عند رسول الله ρ, ورسول الله أعلم بهن, بيد أنه أراد التذكير بصلة القربى بينه وبينهن, بل وللفضل الذي يدين لهن به, فبدأ بذكر العمات ثم الخالات ثم الحواضن وهو الترتيب المنطقي للعلاقات الأسرية العربية , ثم انطلق مشيرًا إلى ما فعلنه مع رسول الله ρ منذ طفولته، لكنه ينسب ذلك لضمير المتكلم لا الغائب, بقوله: لقد حضناك بحجورنا وأرضعناك بثدينا ولم يقل حجورهن وثديهن, وقد أراد بذلك أن ينسب الرعاية واللبن للآباء أيضًا، فالفضل يعود لرجالهم ونسائهم معًا, ويستمر الخطاب مستغلاً التأثير النفسي منذ بدايته, فينطلق متحدثًا عن مراحل نشأة الرسول ρ بين ظهرانيهم, ويشهد له بالخير والفضل منذ أن كان رضيعًا, ثم في

1 صحيح البخاري ,1569/4.

2 جاء في الطبقات الكبرى: أنه أبو ثروان عم النبي ρ من الرضاعة 114/1.

فطامه, ثم شبابه, حتى تكاملت فيه خلال الخير والفضل, وقد أطنب الخطيب هنا بذكر مراحل نشأته ρ, وهذا أدعى في التأثير النفسي من نواح عدة, منها أنه يذكر رسول الله ρ بمدة بقائه فيهم, كما يرمز إلى تربيتهم له منذ الرضاعة والفطام وحتى الشباب, فضلاً عمّا في التفصيل من تأكيد فكرة امتداح النبي ρ بالخير الذي رافقه منذ ولادته, واستمر معه حتى جمع كل خلال الخير, ومع كل ما تقدم من وصف لحياة الرسول ρ بينهم -مما يوجب لهم الفضل - فإنهم قبل كل ذلك أهله وعشيرته, وهذا هيأ له الإفصاح عن طلبه بقوله: "فامنن علينا من الله عليك".

ثم يأتي الخطاب الآخر من متكلم القوم زهير بن صرد,وهو خطاب قام على الدلالات نفسها التي قام عليها خطاب عم النبي ρ, لكنه أراد به أن يكون أشد تأثيرًا, ففضلاً عما جاء فيه من تذكير بالقربى وبالنساء اللاتي في الحظائر, فإنه أراد أن يضع الرسول ρ في مقارنة مع ملك الشام الحارث بن أبي شمر, أو ملك الحيرة النعمان بن المنذر, حتى يبلغ عفوه , لقد حاول الخطيب أن يخيل لرسول الله ρ لو أنهم نزلوا بملك الحيرة أو الشام ثم رجوهما العطف والعائدة لوجدوها عندهما, بيد أن الخطيب يعود سريعا ليثبت أن رسول الله ρ خير المكفولين, وخير من يرجى من البشر, وفي ذلك ما يرمز به لعظيم منزلة الرسول -عليه الصلاة والسلام- في نفوس العرب, ذلك أنه ختم المقارنة بتفضيل الرسول ρ وترجيحه ومع ما تقدم من خطابة هذا الوفد، فقد عفا ρ عنهم, وخيرهم في المال أو النساء والأولاد, قائلاً: " أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله! خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا، بل ترد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، فقال لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب، فهو لكم، فإذا صليت للناس الظهر فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ρ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ρ في أبنائنا ونسائنا،فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم"[1]. لقد كان موقفه ρ أشد تأثيرًا من موقف الوفد, فاستطاع بسماحته وكرم نفسه أن يطيب لهم بحقه, ويتنازل عن غنائمه وغنائم بني عبد

1 مسند الإمام أحمد, 438/2.

المطلب, ضاربًا بذلك أروع صور العدل الذي هو أساس الحكم, حيث بدأ بنفسه وأهل بيته, وتتجلى مظاهر العدل كذلك في عدم إلزام المسلمين بإرجاع السبي وإنما جاء الأمر تخييرًا لا إجبارًا, فالرسول ρ لا ينتزع الحقوق من أصحابها, وتلك الغنائم أصبحت حقًّا لهم, بيد أنه بحنكته وسماحته, وخطابه الكريم بلغ منهم غايته , وطابت أنفسهم لرسول الله ρ. فبدأ -عليه الصلاة والسلام- خطبته بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله, ثم وجه الخطاب إلى المسلمين, واصفًا وفد هوازن بقوله: "إخوانكم" مؤكدًا فكرة الأخوة التي كان قد أشار إليها في خطبته السابقة, وهو مبدأ أسس له ورسخه في نفوس المسلمين, ثم يؤكد ρ توبة الوفد, مما هيأ لهم حق استرداد سبيهم, بادئًا بنفسه أولاً, ممهدًا لطلبه, ثم مخيرًا للمسلمين باستخدامه "من" للتبعيض فهم بين أمرين: أن تطيب أنفسهم فيردوا السبي, أو أن يبقوا على حظهم من الغنائم فيحفظ لهم, ويبدلهم من أول فيء يحصل عليه المسلمون. لذا كان لزامًا على المسلمين بعد هذا الخطاب المنصف أن يجيبوا لرسول الله ρ وأن يطيبوا نفسًا بغنائمهم, أسوة برسولهم الكريم -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-, ففعلوا.

ومما تقدم يمكن إجمال البناء الفكري لخطابة الوفود فيما يأتي:

1- كان لمتكلمي الوفد في الخطب الدينية النصيب الأكبر, وقلما تحدث ρ, وكانت أغلب ردوده تأتي بالدعاء للوفد, كما في وفد بني نهد وفزارة. ووفد أسلم على الجانب الدنيوي, في حين كان حضور خطاب رسول الله ρ في الخطابة ذات المعاني الدنيوية أكثر.

2- غلب النداء على مطالع خطب الوفود, بيد أنه تنوع وفقًا لدوافع الوفد, فقد عمدت الوفود في الخطب الدينية إلى مناداته ρ بـ" يا رسول الله" كوفد خولان, وبني نهد, وهمدان, وفزارة, فيما عمد خطباء الوفود الدنيوية على مناداته بـ " يا محمد" كوفد تميم, وبني عبد عدي, وأشجع .

3- اختلفت لغة الخطب بين الوفود التي سبقت للإسلام والوفود التي كانت حديثة عهد به, والوفود التي لم تسلم بعد, ولذلك اختلف موقفه ρ من تلك الخطب, وتباينت ردود فعله, فنراه يعجب ببعض الخطب, فيدعو لأصحابها, كما فعل مع وفد أسلم, أو يمتدحهم ويبشرهم كما فعل مع وفد خولان, كما كان يغضب لبعض الخطب ويوجهها كما فعل مع وفد فزارة, أو يحذر من بعض الخطب كما فعل مع وفد بني عامر عندما بالغوا في مدحه, وتجلت سماحته ρ مع رغبات الوفود ومقاصدهم مهما بلغت كما فعل مع وفد هوازن .

4- ظهرت في الخطب الدينية فكرة وصف الرحلة ومشاقها, بينما لم تظهر في الخطب الدنيوية, ولعل في ذلك ما يؤكد رسوخ المنهج الإسلامي في نفوس الوفود الذين تكبدوا مشاق الرحلة لبلوغ المرام, والوقوف بين يدي سيد الأنام, وإعلان الإسلام, ومن ذلك ما جاء في خطب خولان وبني نهد وهمدان. في حين تكررت فكرة صلة القربى برسول الله ρ –إما على الجانب الأسري أو القربى بالمجاورة- في الخطب الدنيوية ومحاولة استعطاف النبي ρ بها, ولا شك أن رغباتهم في الوصول إلى مقاصدهم دفعتهم إلى استخدام ذلك المنطق, والبلوغ من خلاله إلى الهدف كما كان من وفد هوازن , وبني عذرة , وبني عبد عدي, وأشجع.

5- غلب على خطب الوفود ولاسيما الخطب الدينية طابع الإيجاز والتركيز وأشار بعض الباحثين إلى السبب في ذلك بقوله: " أكثر الخطب المروية في هذا العصر قصير لا طويل, فيه الإيجاز أظهر من الإطناب, ولعل هذا الموجز جزء من خطبة طويلة , حفظ هذا الجزء وتبعثر الباقي في الأسماع, أو لعل الموجز من الخطب هو الذي استطاع أن يحفظه الراوي لسهولة حفظه, وجودته أكثر من سواه, لأن رواية الخطب في هذا العصر كسابقه كان المعول فيها على الرواية السماعية لا على الكتابة ,إذ لم

تكن الكتابة قد انتشرت ولأن الخطباء لم يعمدوا إلى كتابة خطبهم, ولم يعمد الناس إلى كتابتها لعدم اعتيادهم ذلك[1]، وأرى أن طبيعة خطب المحافل والوفود اقتضت ذلك الإيجاز, لأنها قامت غالبا على مبدأ الفكرة الواحدة, وعدم الميل إلى الإطناب, مما قد يعيق وصول الفكرة المقصودة إلى السامعين ـفضلاً عن طبيعة المخاطَب والمقام ـ ولم يكن السبب في ذلك محصورًا في الرواة .

6- على الرغم من إيجاز خطب الوفود واقتصارها على معنىً واحد غالبًا, إلا أنه يظهر الإعجاز البلاغي لخطب رسول الله ρ, مقارنة بخطب الوفود من ناحية الإيجاز والتركيز, والإتيان بالعبارة التي تفصح عن الدلالة المقصودة في غير زيادة أو نقصان, على مستوى الدعاء أو الخطابات الأخرى , فضلاً عن الجماليات البلاغية التي سيرد ذكرها في مكانها من هذا البحث.

7- استطاع ρ أن يمتلك زمام الإقناع واستمالة السامعين من خلال خطابته, وهذه من أهم صفات الإلقاء الخطابي الناجح حيث يتمكن الخطيب بما يمتلكه من قوة إقناعية تأثيرية من تغيير قناعات السامعين ومغالبة العادة والإغراء[2] يتجلى ذلك في موقفه ρ مع وفد هوازن, وتأثير خطبته في نفوس المسلمين وتنازلهم عن غنائمهم وتطييبها لرسول الله ρ.

1 الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب, 272.
2 الإلقاء الخطابي, 15.

الفصل الثاني

البناء الفكري للحوار

الفصل الثاني

البناء الفكري للحوار

قبل الشروع في دراسة البناء الفكري للحوار في أدب الوفادة في عصر النبوة, تجدر الإشارة إلى معنى الحوار والجدل مع الوقوف على الفرق بينهما.

الحوار: يعني تراجع الكلام, وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام, والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام أي المخاطبة, وقد حاوره. واستحاره: أي استنطقه, وأحار عليه جوابه: رده. والتحاور التجاوب[1], وعلى ذلك فإن الحوار هو تراجع الكلام والتجاوب فيه بالرد والمخاطبة والتداول بين طرفين, وعرفه بعضهم بأنه: "نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر أحدهما دون الآخر, ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب"[2]، وهو ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه[3]. والحوار:محادثة بين شخصين أو فريقين، حول موضوع محدد، لكل منهما وجهة نظر خاصة به، هدفها الوصول إلى الحقيقة، أو إلى أكبر قدر ممكن من تطابق وجهات النظر، بعيدًا عن الخصومة أو التعصب، بطريق يعتمد على العلم والعقل مع استعداد كلا الطرفين لقبول الحقيقة

---

1 لسان العرب,(حور).

2 أصول الحوار ,6.

3 مناهج الجدل ,30.

ولو ظهرت على يد الطرف الآخر[1]، كما عرف بأنه: تبادل الآراء بين طرفين بأسلوب علمي وصولاً إلى الحقيقة.[2]

وأما الجدل: فهو اللَّدَدُ في الخُصومة والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجِدالاً. ورجل جدل: شديد الجدل إذا كان أقوى في الخصام, وجادله: خاصمه والاسم الجدل أي شدة الخصومة, والجدل مقابلة الحجة بالحجة, والمجادلة :المناظرة, وتدل مادة الجدل في اللغة على الشدة والقوة ,ومنه: الجدل وهو شدة الفتل وجدلت الحبل أجدله جدلاً: إذا شددت فتله وفتلته فتلاً محكمًا, ومنه قيل لزمام الناقة الفتيل .[3]

ولأن أصل المادة في اللغة تدل على الشدة والقوة كان التعريف الاصطلاحي للجدل بأنه: "إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع بالعبارة أو ما يقوم مقامهما"[4]، وقيل: هو: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة.[5] وعرف الشيخ الشنقيطي المجادلة بقوله: وهي في اصطلاحهم- أي المناطقة- المنازعة لا لإظهار الحق بل لإلزام الخصم"[6].

ومما تقدم من تعريفات يتضح أن كلمتي الحوار والجدل تلتقيان في معنى مراجعة الكلام, بيد أن الحوار أعم وأشمل, حيث لم يقيد بصفة، كما قيد الجدل باللدد والشدة والخصومة, فالحوار كلمة تستوعب كل أساليب التخاطب سواء أكانت منبعثة من خلاف المتحاورين أو من غير خلاف, وعليه فالحوار يعطي معنى التقارب والتواصل الجمعي وتقريب وجهات النظر فيما كان الجدل مظنة التعصب والتعسف لسيطرة الرأي بالحق أو الباطل, ومحاولة التغلب على الرأي الآخر بكل الوسائل الممكنة.

---

1 الحوار الإسلامي المسيحي , 20 .
2 كيف نرسخ أدب الحوار والنقد ,48.
3 لسان العرب,(جدل).
4 الكافية في الجدل ,(20).
5 التعريفات, 78.
6 آداب البحث والمناظرة ,2 /75.

وظهرت نواة المنهج الحواري في القرآن الكريم منذ خلق آدم -عليه السلام-, وقد برزت حقيقة البعث والحساب والجزاء والعقاب والخير والشر من خلال الحوار الإلهي بين الخالق -جل شأنه- وإبليس في قوله تعالى:

{[illegible]}[1].

لقد أكد القران الكريم منذ البداية مبدأ الحوار وجعله القاعدة الأساسية في الدعوة إلى الالتزام بأوامر البارئ -عز وجل-, وفي كل قضية قائمة على الخلاف, منطلقًا من قواعد منطقية وعلمية تعتمد الحجة والبرهان, ولعل في حوار الخالق مع إبليس والملائكة حول خلق آدم - بالرغم من أنه -سبحانه وتعالى- يمتلك القوة والعظمة, ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة- ما يؤكد أهمية الاستماع للآخر ومحاورته, وإعطاءه الحرية الفكرية التي تنتهي بمسؤوليته التامة عما وصل إليه, وعلى ذلك فقد جعل الله -سبحانه وتعالى- دعوات الرسل

---

1 الأعراف, 11-18.

والأنبياء محكومة بالحوار قائمة عليه, بل إنه أطال في عرض كثير من تلك المحاورات بين الرسل وشعوبها,مشيرًا إلى حقائق عظيمة من خلالها, فظهرت آيات الإعجاز الإلهي في حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود في قوله تعالى:

} { [1].

وتتجلى صور الحوار العقلاني المتزن القائم على اللين حتى مع أعداء الله من خلال التوجيه العظيم لموسى وهارون في حوار فرعون:

} { [2].

وهكذا تمضي قصص الأنبياء في القران الكريم من خلال استعراض حواراتهم مع أقوامهم وإقامة الحجة والبرهان عليهم .

وجاءت دعوة النبي ρ في مكة فسلك سبيل الحوار منهجًا للدعوة إلى الله, واتخذه ρ طريقًا في كل قضايا الخلاف بينه وبين أعدائه من قريش وخارجها, بل توسع فيه حتى شمل كل القضايا المتعلقة بالله والحياة والكون والإنسان. وعندما انتقل إلى المدينة أرسى فيها ثوابت قائمة على العلاقات المشتركة والتبادل التعاوني بين فئات المجتمع آنذاك من مسلمين وغيرهم, وركز على حوار الآخر, واحتضان الخلاف مهما اتسع بين الطرفين عقيدة ومعتقدا, فأقر

---

1 البقرة, 258.
2 طه, 42-44.

لأصحاب الآراء المتباينة والمذاهب المختلفة آراءهم, ولم يسفه توجهاتهم ويلغي أفكارهم ولم يضق ذرعًا بتنوع الانتماء العقدي, لأنه ρ كان يدرك بأن التنوع والاختلاف من طبيعة الفطرة البشرية, بل إنه كفل لهم فوق ذلك حمايتهم وأمنهم, ولعل في موقفه مع نصارى نجران ما يثبت حقيقة ذلك.[1]

وعندما استقرت الحال في المدينة بقيادة المصطفى ρ وآمنت مختلف القبائل بأن الله ناصر دينه معلي كلمته ولو كره الكافرون, تقاطرت الوفود على رسول الله ρ من كل حدب وصوب, يناقشونه ويحاورونه, يعلنون إسلامهم بين يديه تارة, ويسألونه عن أمر دينهم تارة أخرى, ويجادلونه ويفاوضونه في آلهتهم ومعتقداتهم تارة ثالثة, واختلفت وتعددت محاوراتهم والنبي ρ يستمع ويجيب كل وفد بما يناسب مقامه ومقاله, وهكذا أصبح الحوار هو المرتكز الأساسي في تعامله ρ مع من وفد إليه , فهو التيار الذي سد –من خلاله- حاجات الوفود, وأزال عنهم الغشاوة التي يجدونها في أمور كثيرة حول هذا الدين, مرتقيًا بهم إلى مستوى الحوار العقلي الواعي, فضلاً عن أنه ρ استطاع بحواره لتلك الوفود أن يقيس قدراتهم الفكرية ومستوى إيمانهم ووعيهم بقضايا العصر.

وبالنظر في حواره ρ مع الوفود , ومحاولة تصنيف تلك الحوارات تحت دلالاتها قسمت حوار الوفود إلى ثلاثة أقسام :

1- الحوار الديني.
2- الحوار التربوي.
3- الحوار الجدلي.

مع مراعاة ما ينضوي تحت كل قسم من دلالات متعددة .

أولاً: الحوار الديني:

---

1 سيأتي تفصيل ذلك في موضعه من هذا الفصل.

مما لاشك فيه أن قضية الدين في عصره ρ كانت من أعظم وأخطر القضايا البشرية آنذاك, ولم يحظ أي موضوع آخر بما حظي به الجانب الديني في أدب الحوار مع رسول الله ρ, فقد استحوذ على نصيب الأسد من حوارات القبائل معه-عليه الصلاة والسلام-,ولا ريب في ذلك فما زال أمر هذا الدين حديثًا عند كثير من تلك القبائل التي اختلفت وتنوعت معتقداتهم أزمانًا حتى جاء ρ بخاتم الأديان, فملأ الدنيا نورًا وفتح العيون على الحقائق, لذلك عمدت الوفود إلى مناقشة النبي حول حقيقة الرسالة معلنة إسلامها,أو مستفسرة عن تشريعات وأحكام الإسلام, فضلاً عن أنه ρ كان قد أفاد من تلك الوفادات لتوثيق أمر دعوته, وبيان حقيقتها وسبيلها.

ولعل الجانب العقدي من أبرز جوانب الحوار الديني بين النبي-عليه الصلاة والسلام-ووفود القبائل, حيث حرص ρ على تعزيزه من خلال حواراته مع الوفود ولاسيما من كانت حديثة عهد بالإسلام أو جاءت متسائلة عن أصل العقيدة ومرتكز الدين.

لقد أكد ρ مفهوم الدين الذي لا يقوم إلا على أركان حددها الشارع الحكيم, لذلك كان يسأل الوفود عن حقيقة الإيمان كما يعرفونه, فسأل وفد عبد القيس لما قدموا عليه: " **قال: أتَدْرونَ ما الإيمانُ باللهِ وحدَه ؟ قالوا: اللهُ ورسولهُ أَعلمُ! قال: شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، وصيامُ رَمَضانَ، وأنْ تُعطوا مِنَ المَغْنَم الخُمُسَ. ونَهاهُمْ عن أربَعٍ: عنِ الْحَنْتَمِ، والدُّبّاءِ، والنَّقِير، والمُزفَّت. ورُبَّما قال: الْمقَيَّر وقال: احفظوهنَّ، وأخبِروا بهنَّ مَنْ وَراءَكم».**[1] وفي حوار الرسول ρ من خلال طرح السؤال هدف معرفي أراد به عليه الصلاة والسلام توثيق حقيقة الإيمان بعد أن يثير انتباههم لينتقل ρ من صفة السائل إلى صفة المجيب, مما يرسخ ذلك المفهوم في نفوس الوفد.

1 صحيح البخاري ,29/1.

وحرص ρ في حواره مع الوفود على السؤال أولاً عن أمر العقيدة, وتعددت المواقف التي دلت على ذلك، فهو مع وافد عنس يبادر سائلا:" **أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله, فقال: أراغبًا جئت أم راهبًا ؟ فقال: أما الرغبة فوالله ما في يديك مال, وأما الرهبة فوالله إنني لببلد ما تبلغه جيوشك, ولكني خوفت فخفت، وقيل لي: آمن بالله! فآمنت، فأقبل رسول الله على القوم فقال : رب خطيب من عنس"[1].** ويظهر من خلال حواره ρ مع الرجل بعد أن استوثق من معتقده أنه -عليه الصلاة والسلام- كان حريصًا على معرفة الأهداف الحقيقية من الوفادة عليه, فجعل للرجل خيارين:إما الرغبة في المال أو الرهبة من القتال, ولم يشأ ρ أن يذكر الخيار الثالث بل أراد أن يسمعه من الوافد نفسه, الذي أجاب سريعًا مفندًا سؤال النبي مفصلاً فيه, بل ومدعمًا إجابته بالأدلة والحجة، مما جعل رسول الله ρ يعجب به ويمتدحه بقوله: "رب خطيب من عنس" .

وتظهر حواراته ρ العقدية كذلك في مشاهد مبايعته من قبل الوفود, فيدور حوار سريع يشترط فيه ρ على وفد بجيلة ما يجب عليهم للدخول في الإسلام, حيث **"قدم جرير بن عبد الله البجلي[2] سنة عشر المدينة ومعه من قومه مئة وخمسون رجلاً, فقال رسول الله : يطلع عليكم من هذا الفج من خير ذي يمن على وجهه مسحة ملك, فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا, قال جرير: فبسط رسول الله فبايعني وقال:على أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتنصح المسلم وتطيع**

---

1 الطبقات الكبرى, 342/1 -343 والإصابة في تمييز الصحابة ,387/2, وهو ربيعة بن رواء العنسي.

2 هو جرير بن عبد الله بن جابر بن مالك البجلي وكنيته أبو عمرو نزل الكوفة، ثم نزل قرقيسيا وبها مات سنة إحدى وخمسين، وكان سيدًا مطاعًا مليحًا طوالاً بديع الجمال صحيح الإسلام كبير القدر قال ρ: على وجهه مسحة ملك، وعن عمر τ قال: إنه يوسف هذه الأمة، ولما دخل على رسول الله ρ أكرمه وبسط له ردءه وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه». رواه الطبراني في الأوسط من حديث قيس عنه، واختلف في وقت إسلامه والصحيح أنه في سنة الوفود سنة تسع وكان موته سنة خمسين وقيل بعدها.تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ,243/10.

الوالي وإن كان عبدًا حبشيًّا, فقال: نعم, فبايعه"[1]. وهذا الحوار -وإن اتفقت مضامينه مع ما قبله – إلا انه جاء بشكل آخر يظهر فيه رسول الله ρ الطرف المتحدث لينتهي الحوار بقبول الطرف الأخر دون نقاش.

وجاءت وفود أخرى متسائلة عن دعوته ρ وعن أتباعه, فحاورهم -عليه الصلاة والسلام- سائلاً ومجيبًا, كما فعل مع وفد غسان, عندما سألهم:**"أنتم الغسانيون ؟ قالوا: نعم, قال: قدمتم مرتادين لقومكم فما انتفعتم بعلم من كان معكم من أهل الكتاب, قالوا: يا محمد! لم نر أحدًا منهم اتبعك فوقفنا عنك لذلك ونحن الآن على غير ما كنا عليه فإلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وخلع ما دعي من دونه, وأني رسول الله, قال قائلهم: فمن معك من أتباعك؟ قال: الله -جل وعز- معي والملائكة جبريل وميكائيل والأنبياء وصالح المؤمنين, ثم التفت ونظر إلى عمر ولم ير أبا بكر، فقال: هذا وصاحبه, قلنا: ابن أبي قحافة؟ قال: نعم! قلنا: إنك لتأوي إلى ركن شديد وقد صدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق, ولا ندري أيتبعنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقرب قيصر,ثم أسلموا وأجازهم رسول الله ρ"**[2]. لقد بدأ ρ بسؤال تقريري دل على معرفته بالوفد, مما هيأ لهم حواره, ثم عاتبهم -عليه أفضل الصلاة والسلام- على ما كان منهم من إعراض, وعدم انتفاعهم حتى بدين النصرانية التي كان عليها بعضهم, فكان جوابهم كما كان جواب قوم نوح -عليه السلام- ,

} [illegible] {[3].

1 المصدر السابق, 347/1.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,291/2.
3 هود,27 .

إن قضية الأتباع كانت من أبرز القضايا في دعوات كثير من الرسل, وهذا الوفد كغيره من القبائل التي أعرضت عن اتباع الدعوة بداية لقلة من آمن بها واتبع سبيلها, لكنهم اعترفوا سريعًا بتغيير منهجهم الفكري الذي كانوا عليه, وكشفوا لرسول الله ρ سبب وفادتهم فسألوه عن أمر الدعوة, فأجابهم ρ , بيد أن قضية الأتباع مازالت ملحة عليهم مسيطرة على تفكيرهم مما يوحي ببقايا صراع فكري حول قوة هذا الدين وطبيعة أصحابه, لذلك كان السؤال: فمن معك من أتباعك؟ ليأتي الرد العظيم الذي مثله الله -سبحانه وتعالى- في نبيه ρ بقوله "ما ينطق عن الهوى" حيث لم يذكر -عليه أفضل الصلاة والسلام- أتباعه فقط, بل أتي بجواب أبعد وأعمق مما توقعه الوفد, فمعه الله -جل شأنه-, والملائكة خص منهم الروح الأمين المتنزل بالوحي متمثلاً في الجانب الروحي الفكري, وميكائيل ملك الغيث والقطر الذي به رحمة للعالمين على الجانب الحسي المادي [1]، وقرن النبي ρ بين جبريل وميكائيل أمر ورد في القران الكريم في قوله تعالى:

⌖✐ ✃⌧❐←⑨♦⇖ ♦♌♎⌧✍ ♊♦✌ }
◷⊗🕮⊘✃←⊗↓❻♦❐ ◷⊗❍⊗✌⌧⌛⊘✧❈◷■◘♦✌♦❐
⅄✐♋✃ ·♍⊘✉⬩▫ •✍⊕⬩▤⓿⊗✌♦❐ •✍③⊘❸⬀♑⇖♉♦❐
{ ⌘♊③⌘❷⊗▦◷⬩▤▫◘⊗ℯ♑ ✌❐←⑨♦⇖ [2]

ثم ذكر ρ الأنبياء مما دل على أن رسالته نسخت ما قبلها من رسالات, وأشار إلى أتباعه من المؤمنين, بيد أنه خص منهم عمر بن الخطاب الذي عرف بمنزلته في الجاهلية, وشدة بأسه في الدفاع عن دين الله في الإسلام, وأبا بكر الذي أشار له بلفظ الصاحب، فعرفوه لمكانته عند نبي الله، فهو أول المؤمنين, مما جعلهم يشيدون بأتباع هذا الدين العظيم, ليصل بهم ρ إلى الغاية فيعلنوا إسلامهم بين يديه. لقد كان حضور النبي ρ في حواراته مع الوفود حضورًا آسرًا , جعله متمكنًا من أفئدتهم , مؤثرًا في أفكارهم, بالحجة والمنطق العقلي العظيم, حتى ليقف الرجل بين يديه وقد تسلح بما يملك من حجة وبيان فيفقد كل ذلك لسماع كلماته ρ,

1 مسند الإمام أحمد ,452/1.
2 البقرة, 98.

ويترك منهجه وعقيدته لينتظم في دين اصطفى له المولى -عز وجل- محمدًا ρ نبيًّا, وفي الحوار الذي دار بينه ρ وبين عدي بن حاتم الطائي ما يشهد على ذلك, حيث يروي عدي قائلاً:

"فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة, فدخلت عليه وهو في مسجده فسلمت عليه, فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم, فقام رسول الله وانطلق بي إلى بيته, فوالله إنه لعامد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها, قال: قلت في نفسي والله ما هذا بملك, قال: ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل بيته تناول وسادة من أدم محشوة ليفًا فقذفها إلي, فقال: اجلس على هذه, قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها, قال: بل أنت, فجلست وجلس رسول الله بالأرض, قال: قلت في نفسي:والله ما هذا بأمر ملك, ثم قال :إيه يا عدي بن حاتم ألم تك ركوسيًّا؟ قال: قلت: بلى, قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت :بلى, قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك! قال: قلت: أجل والله! قال: وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل, ثم قال: لعلم يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله! ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم, قال: فأسلمت, قال: فكان عدي يقول : مضت اثنتان وبقيت الثالثة، والله لتكونن، وقد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت, ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت, وأيم الله! لتكونن الثالثة ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه"[1].

---

1 البداية والنهاية, 5/64-65, وفي مسند الإمام أحمد رواية عن عدي: فدخلت على رسول الله ρ فقال لي: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم، ثلاثًا قال: قلت: إني على دين، قال: إنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟! قال: نعم، أنت من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك؟ قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك، قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، فقال: أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضعفة الناس ومن

لقد انطلق ρ في حواره مع عدي بعد أن هيأه نفسيًّا, بتقبله أولاً لفكرة وفادته وهو الرجل الذي كان قد أهدر ρ دمه, ثم عزز ذلك القبول باستضافته في بيته وإكرامه له, فضلاً عن تلك المشاهدات التي ساهمت في تهيئة الرجل, حيث تمكن ρ من بناء الاستعداد النفسي عند عدي حتى يمتلك القدرة على الحوار, ويخضع لما سينكشف له من حقائق, لقد أعطى ρ لخصمه كامل التقدير والاحترام عندما ناداه في بداية حواره باسمه متلطفًا معه, ثم أخذ يعرض عليه الأسئلة واحدًا تلو الآخر ليعطيه حرية الحركة الفكرية, والتأمل فيما سيسمعه من رسول الله ρ, فبدأ ρ حواره بمناقشة منهج عدي الفكري في محاولة منه -عليه الصلاة والسلام- لتعريفه بالحقيقة التي كان قد صد عنها, فسأله سؤالاً توكيديًّا عن معتقده "ألم تكن ركوسيا؟" لينتقل من هذا السؤال إلى مناقشة تفاصيل طبيعة هذا الفكر, معتمدًا في حواره على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، دون أن يسفه معتقده بل إنه أخذ عليه عدم التزامه بطبيعة ذلك المنهج, التزامًا منه ρ بقوله تعالى:

} ❐◆•• ✍■○❍⌨︎♋❑✁☎ ✁✎✍⍓✍♎⇦▫☙
③◆⑨⇧⇱⇱❑♌◆ ✌♎⌶ ⑩←❒♌⇗ ✁✎✍★ ▫⬧⑩◆○❍⌨︎♋❑✁☎
✁✎✍⍓ ⇱◆⑨⇧❒☺✁ ✉♐◆⇔◆❷◁❸♐ ⍋♎◘▫🏱◘ ▯ {[1].

وقد بدأت علامات النبوة تتكشف لعدي من خلال حواره الذي لم ينته بعد مع رسول الله ρ, فهو عالم بحقائق الأديان,بل إن علمه لم يقف عند ذلك, وإنما كان عالمًا– بقدرة من الله-بما يدور في فكر عدي وما يمنعه من الالتحاق بالإسلام,وتلك الأفكار التي كانت مسيطرة عليه, ففصلها ρ له،ورد عليها،وهو بذلك لم يحاور عقله الظاهر من خلال حديثه معهρ, بل استطاع أن يحاور خفايا نفسه, مما دعا عديًّا إلى التيقن بصدق النبوة وبطلان ما كان عليه.

لا قوة له وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد سمعت بها، قال: فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟! قال: نعم، كسرى بن بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد، قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله ρ قد قالها».316/5.

1 الأنعام,108 .

لقد استطاع ρ أن يتمكن من إقناعه من خلال إثارة أخطر القضايا التي تشغل المرء في حياته, وهي المال والقوة, والأمن, وهذه أمور يتحقق كل منها بتحقق الآخر, ضامنًا له تحققها للمسلمين ولو بعد حين, ولعله ρ قد تخير الحديث في هذه القضايا- فضلاً عما تقدم- لمناسبتها وطبيعة عدي النفسية والاجتماعية كذلك, فهو رجل ذو مال عرف بكرمه وضرب المثل بكرم والده, لذلك فإن المال من أبرز الأمور التي قد يفكر في أمرها, أما القوة فتعني له كثيرًا، حيث كان سيدًا مطاعًا في قومه, كما أنه يسعى للأمان الذي كان يفتقده بعد أن أهدر ρ دمه فذاق مرارة الخوف وفقدان الأمن, لذلك كان لحوار الرسول ρ معه حول هذه الأمور أشد التأثير.

لقد اعتمد ρ في حواره مع عدي إثارة القضايا الفكرية دون أدنى نظر للقضايا الشخصية التي كانت بينهما فكان حواره موضوعيًّا هادفًا؛ لذلك كان تأثيره أشد وقعًا وبلغ به ρ الغاية المنشودة, فقد راعى ρ فيه المقام فأحسن له المقال, وانطلق من الأصول الصحيحة في الحوار بعيدًا عن الأجواء الانفعالية التي قد تبعد بالإنسان عن التفكير السليم والتأمل فيما يسمع باستقلال فكري تام.

كما كان ρ متحدثًا مع الوفود, محاورًا لهم في أمور العقيدة والدين، فقد كان مستمعًا ومجيبًا, وانتقلت دفة الحديث مع بعض الوفود منه ρ إلى الوفد، فجلس لهم واستمع لحديثهم وأجاب على سؤلهم, دون أن يبدي أدنى تذمر أو انزعاج مهما اختلفت أساليب محاوريه, وتباينت لغة مخاطبيه, يروي أنس بن مالك فيقول: **" بينما نحن جلوس مع النبي ρ في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد ؟ والنبي ρ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ! فقال له الرجل: ابن عبد المطلب ؟ فقال له النبي ρ : (قد أجبتك)، فقال الرجل للنبي ρ :إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك! فقال: (سل عما بدا لك)، فقال: أسألك بربك ورب من قبلك: آلله أرسلك**

إلى الناس كلهم ؟ فقال: (اللهم نعم)، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: (اللهم نعم)، قال:أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة ؟ قال: (اللهم نعم)، قال أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ فقال النبي ρ :(اللهم نعم)، فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر"[1]. اتضحت لغة الحوار مع هذا الوافد بداية منذ أن سأل عن النبي باسمه ونسبه لجده دون والده. قال بعض أهل العلم: " وأما نسبته إلى عبد المطلب دون أبيه عبد الله، فكأنها لشهرة عبد المطلب بين الناس لما رزق من نباهة الذكر وطول العمر، بخلاف عبد الله فإنه مات شابًّا، ولهذا كان كثير من العرب يدعونه ابن عبد المطلب، كما قال ضمام بن ثعلبة لما قدم: أيكم ابن عبد المطلب؟ وقيل: لأنه كان اشتهر بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجل يدعو إلى الله، ويهدي الله الخلق على يديه ويكون خاتم الأنبياء، فانتسب إليه ليتذكر ذاك من كان يعرفه، وقد اشتهر ذلك بينهم"[2]، ولعل في عدم نداء النبي ρ بصفته, ما يدل على شيء من جفاء وغلظة, عززه بقوله متوجهًا لرسول الله ρ: " إني سائلك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك" ليأتي الرد منه -عليه الصلاة والسلام- مؤكدًا ما وصفه به القرآن الكريم:

★✐ﮊ✂ ⌘♊♋♓✌ ⌨◘⍓☺⇧❍◆❻ ﮊ⍓☺♐⌛⬧⌑ }
ﮊ⑧➔⬧⌑ ✾⬧✡⬈☜ ⬀❑⬧⍝◆❑ ☎ ⬀☠⬅♑⬧⍝ ✾⬧☪♋⍝
⇧♊♋✌ ☎✂❑❻✍☒▦☼❁⬥ ☞◼▫◼⬧◑⬂⍝ﮊ✂ ☒⬆⓿♐◼☒⬊
{ ☎ ⍓⌨♋⍝⬀❑⍓❍ [3]

وانطلق السائل مستفسرًا عن حقيقة الدعوة, مستحلفاً النبي ρبربه ورب من قبله, مما يوحي بإلحاح السائل وحرصه على التأكد من القضايا التي جاء للسؤال عنها, وقد أدرك ρ هذا الشعور عند الوافد، لذلك عمد إلى إجابته مقسمًا بالله -عز وجل-,وهكذا تأخذ الأسئلة بعضها

---

1 صحيح البخاري,35/1 .وهو ضمام بن ثعلبة السعدي من بني بكر بن سعد، قال عنه عمر بن الخطاب: ما رأيت أحدًا أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة كان يسكن الكوفة.الإصابة في تمييز الصحابة , 395/3.
2 تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي, 271/5.
3 آل عمران , 159 .

برقاب بعض في ترتيب انتظم مع أركان الإسلام, ورسول الله ρ يكتفي بإجابة واحدة في كل مرة, لكنها إجابة أسهمت في إسلام الرجل, وفرضت عليه القناعة التامة بصدق الرسالة , بل والحرص على تبني نشرها والدعوة لها عند قومه, وقد أرجأ الوافد التعريف بنفسه حتى نهاية الحوار مما يشعر بأهمية القضايا التي طرحها وسرعة سؤاله عنها, فضلاً عن أن رسول الله ρ لم يسأله عن اسمه كما فعل مع عدي بن حاتم, بل انصرف معه إلى تلك القضايا المطروحة والإجابة عليها .

وحرصت بعض الوفود على محاورته ρ حول أسرار خلق الكون, ثم حقيقة الرسالة والأصل فيها, وقد كان أصحاب رسول الله ρ يشهدون تلك الحوارات ويفيدون منها, بل إنهم كانوا يحرصون على حضور مجالسه ρ , لمعرفة ما أرادوا من خلال الوفادات المتتالية عليه، وفي ذلك يقول أنس بن مالك: **"نهينا أن نسأل رسول الله ρ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل، فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية ، فقال يا محمد! أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله! قال: فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: الله! قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا؟ قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال:نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة أموالنا؟ قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا؟ قال: صدق. قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً؟ قال: صدق. قال: ثم ولى وقال: والذي بعثك بالحق, لا أزيد عليهن, ولا أنقص منهن, فقال النبي ρ: لئن صدق ليدخلن الجنة "[1]**. لقد مهد السائل لحواره مع

---

1 صحيح مسلم, 41/1.

رسول الله ρ بسؤاله عن خلق السموات والأرض والجبال, ليجعل من ذلك منفذًا لأسئلة أكثر أهمية وهي حقيقة الدعوة، ولعل الأسئلة هنا اتفقت مع أسئلة ضمام بن ثعلبة بيد أنه لم يأت بها مباشرة، وإنما كان يمهد للسؤال قبل طرحه, مشيرا إلى مبعوث رسول الله صلى الله عليه وسلم ,مستفهما عن صدقه والرسول عليه أفضل الصلاة والسلام يثبت له صدق مبعوثه بقوله "صدق" ,ليصل بالحوار إلى غايته " فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك"؟ ورسول الله ρ يستمع ويجيب مثبتًا حقيقة كل الأركان التي سأل عنها الوافد, دون أن يضيق بتعدد الأسئلة وتتابعها, بل اتسع صدره ρ للحوار, وكان خلقه الرفق والحلم واستطاع من خلال هذا الخلق العظيم أن يجذب قلوب الوافدين عليه ρوالمحاورين له, والوصول بهم إلى اعتناق الدين والاعتراف بحقيقته, لتكون نهاية هذا الحوار معه كما كانت مع سابقيه نهايات إيجابية .

ولعل حقيقة الدعوة وعاقبة اتباع الرسول ρ من أبرز الأمور التي شغلت بعض الوفود , فحاوروا رسول الله حولها, وإن كان بعضهم قد استحلف رسول الله ρ حول صدق ما جاء به وأغلظ عليه في المسألة, فقد عمد آخرون إلى طلب الضمان منه ρ بأن يكفل لهم عاقبة أمرهم إن هم التحقوا بالإسلام وتركوا ما كان يعبد آباؤهم, دل على ذلك الحوار الذي قام بين رسول الله ρ وبين الجارود بن عمرو بن حنش[1] من بني عبد القيس وكان نصرانيًا، حيث قدم على رسول الله فقال:**" يا محمد! إني كنت على دين وإني تارك ديني لدينك أفتضمن لي ديني فقال رسول الله: نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه، قال: فأسلم وأسلم أصحابه, ثم سأل رسول الله الحملان, فقال: والله ما عندي ما أحملكم عليه، قال: يا رسول الله! إن بيننا وبين بلادنا ضوالاً من ضوال الناس أفنتبلغ عليها إلى بلادنا؟ قال: لا! إياك وإياها، فإنما تلك**

1 الجارود بن المعلى, ويقال :بن عمرو بن المعلى, وقيل: الجارود بن العلاء, ويقال: اسمه بشر بن حنش ولقب الجارود لأنه غزا بكر بن وائل فاستأصلهم. الإصابة في تمييز الصحابة,552/1.

حرق النار"[1]، ويلاحظ هنا أن الحوار طال بين الرسول ρوبين الجارود, ولم يكتف -عليه أفضل الصلاة والسلام- بالرد الموجز كما تقدم مع الوفود السابقة, بل إنه فصل في جوابه, ذلك أن سؤال الرجل كان مدعاة إلى التوكيد بأن الإسلام خير الأديان ناسخ لما قبله منها, ثم يستمر الحوار بما يمليه الموقف, فسؤالهم لرسول الله ρ الحملان , وتأكيد الرسول -عليه الصلاة والسلام- لعدم امتلاكه ما يحملهم عليه من خلال القسم, أثار سؤالاً حول حكم الضوال من الإبل, فنهى ρ عنها بل إنه أكد نهيه بذكر جزاء من يفعل ذلك بقوله: "فإنما تلك حرق النار".

وكما حاور ρ الوفود حول العقيدة , فسألوه وأجاب, فقد صحح كذلك بعض المفاهيم التي أشكلت عليهم, وأجابهم عليها، حيث **"قدم ثلاثة نفر من بني عبس على رسول الله فقالوا إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ولنا أموال ومواش هي معاشنا فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا, فقال رسول الله: اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئًا ولو كنتم بصمد وجازان"**[2].

وكما كان الجانب العقدي محورًا لأحاديث الوفود ومادة غنية لحواراتهم معه ρ, فقد ارتبطت بعض الحوارات العقدية بحوارات أخرى فقهية, حيث تساءل كثير من الوفود عن بعض الأحكام الفقهية, واستفتوا رسول الله ρ في أمور تعلق جانب منها بالدين, والآخر بقضايا الحياة المختلفة, وقد يأتي الوفد معلنا إسلامه بين يدي رسول الله ρ ثم ما يلبث أن ينتقل من حواره العقدي إلى آخر فقهي مرتبط بأحكام الشارع الحكيم, كما حدث مع وفد عذرة, حيث" **جاءوا رسول الله ρ وهو في المسجد فسلموا بسلام أهل الجاهلية، فقال رسول الله ρ: من القوم؟ فقال متكلمهم: من لا تنكر نحن بنو عذرة أخوة قصي لأمه نحن الذين عضدوا قصيًّا, وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر, ولنا قرابات وأرحام، قال رسول الله ρ : مرحبا بكم وأهلاً! ما أعرفني بكم، فما منعكم من تحية الإسلام؟ قالوا: يا محمد! كنا على ما كان عليه**

---

1 البداية والنهاية ,48/5.

2 الطبقات الكبرى, 295/1-296 .

آباؤنا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولمن خلفنا فإلام تدعو؟ فقال رسول الله ρ: إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تشهدوا أني رسول الله إلى الناس كافة, فقال المتكلم: فما وراء ذلك من الفرائض؟ فقال رسول الله ρ: الصلوات الخمس تحسن طهورهن وتصليهن لمواقيتهن فإنه أفضل العمل, ثم ذكر لهم سائر الفرائض من الصيام والزكاة والحج, فقال المتكلم: الله أكبر! نشهد أنه لا إله إلا الله وأنك رسول الله قد أجبناك إلى ما دعوت إليه ونحن أعوانك وأنصارك, ثم قال: يا رسول الله! إنا متاخمو الشام وأخبارهم ترد علينا وبالشام من قد علمت هرقل، فهل أوحي إليك في أمره بشيء؟ فقال رسول الله ρ: أبشر! فإن الشام ستفتح عليكم ويهرب هرقل إلى ممتنع بلاده, قال: الله أكبر يا رسول الله! إن فينا امرأة كاهنة كانت قريش والعرب يتحاكمون إليها ولو قد رجعنا أقرت هي وغيرها من قومنا بالإسلام إن شاء الله أفنسألها عن كهانتها؟ فقال رسول الله ρ: لا تسألوها عن شيء, قال: الله أكبر! ثم سأله عن الذبائح التي كانوا يذبحون في الجاهلية لأصنامهم فنهاهم رسول الله ρ عنها وقال: لا ذبيحة لغير الله -عز وجل, ولا ذبيحة عليكم في سنتكم إلا واحدة, قال: وما هي فداك أبي وأمي؟ قال: الأضحية، قال: وأي وقت تكون؟ قال: صبيحة العاشر من ذي الحجة تذبح شاة عنك وعن أهلك، قال: يا رسول الله ! أهي على أهل كل بيت وجدوها؟ قال: نعم، فأقاموا أيامًا ثم أجازهم كما يجيز الوفود وانصرفوا"(1) . لقد تشعب الحوار بين وفد عذرة ورسول الله ρ فبدأ بسؤال عن دعوة محمد -عليه الصلاة والسلام-,ثم توالت الأسئلة حول الفرائض, ورسول الله ρ يجيب بترتيب اتسق وأفضل الأعمال إلى الله , وبعد أن انتهى الحوار حول العقيدة وفرائض الدين, انتقل إلى سؤال حول مُلك هرقل, وقد أوحى هذا السؤال باهتمام الوفد بقضية هيمنة الروم على تلك المناطق وإمكانية انتشار الإسلام وسيطرته عليها, ليجيب ρ إجابة تضمنت الإعجاز النبوي, والبشرى بفتح الشام وهروب ملكها, وتتابعت الأسئلة حول الكهانة والعرافة والذبائح لغير الله

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,277/2-278 .

وكثير من أمور الجاهلية التي حرمها الإسلام وكشفها لهم رسول الله ρ, والناظر لهذا الحوار يجد أنه ينتقل بين قضايا عدة لا يظهر بينها رابطة, بيد أن المتأمل فيه يجد أن تلك الأسئلة -وإن كانت في ظاهرها متنافرة- إلا أنها ارتبطت بعضها ببعض وكل سؤال مترتب على ما قبله, فالسؤال عن الدين جعلهم يستعلمون عن قوته وما سيصل إليه, ومعرفة رسول الله ρ بما سيؤول له ملك هرقل ذكرهم بتلك العرافة العجوز التي كانوا يحتكمون إليها, وكأنهم دون أن يصرحوا بهدفهم أرادوا إقامة مقارنة بين علمه ρ الذي يوحى به من الله -عز وجل- وعلم الكهنة والعرافين, ثم جاء سؤالهم عن الذبائح متسقًا وتقاليد الكهانة والعرافة, حيث كان الكاهن يشترط الذبح والتقرب بالذبائح لبلوغ الحاجة, فضلاً عن فكرة التقرب للأصنام بالذبح عندها, وقد استطاع ρ أن يصحح مفاهيمهم الخاطئة ويرشدهم إلى ما هو خير من ذلك ويوجههم إلى أوامر الخالق -عز وجل-, ناهيًا عن الذبح لغير الله متخذًا من التكرار وسيلة لتأكيد النهي, ومن القصر سبيلاً لتوجيه الذبح للخالق -عز وجل-, مبينًا صفته محددًا وقته. ومن المؤكد أن هذا الحوار قد آتى أُكُلَه, حيث أعلن الوفد إسلامهم بين يديه واستطاع ρ بقدرته وحجته من خلال لقائه الأول بهم أن يغير مفاهيمهم التي نشؤوا عليها وتوارثوها أبًّا عن جد, مما يدل بما لا يدع مجالاً للشك ذلك الأثر العظيم لحواراته ρ, ومن ثم إسهام تلك الحوارات في الدعوة ونجاحها.

وعرضت كثير من الوفود المسائل الفقهية بين يديه ρ, واستفتوه في ما أشكل عليهم, ولعل قضية التوبة والرجوع إلى الله من القضايا التي تلح على كل مسلم, مهما بلغت ذنوبه وانساق لخطاياه, ذلك أن الروح الإسلامية تأبى إلا أن تنازع صاحبها وتعود به إلى جادة الحق مهما ضل عن طريق الهدى, لذلك كان مما سئل عنه ρ مقياس الخطايا وكيف السبيل إلى التوبة " **فعن سلمة بن نفيل قال: جاء شاب[1]، فقام بين يدي رسول الله ρ ، فقال بأعلى**

1 قيل :هو أبو طويل شطب المدود ,أتى النبي ρ , فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها فهل له من توبة؟ قال: فهل أسلمت؟ قال: نعم. قال :تفعل الخيرات, وتترك السيئات, يجعلهن الله لك خيرات كلها.قال : وغدراتي وفجراتي؟ قال: نعم .قال :الله أكبر. الإصابة في تمييز الصحابة ,282/3.

صوته: يا رسول الله ! أرأيت من لم يدع سيئة إلا عملها ولا خطيئة إلا ركبها ولا أشرف له سهم فما فوقه إلا اقتطعه بيمينه ومن لو قسمت خطاياه على أهل المدينة لغمرتهم فقال النبي ρ: أسلمت أو أنت مسلم ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ρ قال:اذهب فقد بدل الله سيئاتك حسنات.قال: يا رسول الله! وغدراتي وفجراتي؟ قال: وغدراتك وفجراتك ثلاثًا، فولى الشاب وهو يقول : الله أكبر! فلم أزل أسمعه يكبر حتى توارى عني أو خفي عني "[1]. لقد جاء هذا الرجل لرسول الله ρ وقد بلغ به اليأس كل مبلغ، فهو يقر بأنه لم يدع سيئة إلا عمل بها, وفي ذلك مبالغة كشفت عن حالته النفسية التي كان عليها, بل إنه تحدث عن نفسه بضمير الغائب المجهول، مما يوحي بازدرائه لنفسه وعدم رضاه عنها, فضلاً عن تحرجه من الوقوف بين يدي رسول الله ρ معترفًا بخطاياه التي لو قسمت على أهل المدينة لغمرتهم, فيأتي جوابه -عليه الصلاة والسلام- للرجل من خلال سؤال جعله مفتاحًا للحل "أأسلمت أو أنت مسلم" لقد أكد ρ حقيقة الإسلام من خلال هذا السؤال العظيم الذي دل على أن الإسلام بحد ذاته موجب للعفو والرحمة, وأن باب التوبة مفتوح لكل مسيء, بل إن الإسلام هو الدين الأوحد الذي كفل للتائب إبدال سيئاته حسنات, بيد أن السائل مازال حائرًا مضطربًا، لذلك كرر على رسول الله ρ سؤاله مذكرًا إياه "وغدراتي وفجراتي"؛ ليؤكد له ρ "وغدراتك وفجراتك".

لقد أذهل هذا الحوار ذلك السائل إذ استطاع رسول الله ρ أن يحتضن الرجل ويبث في نفسه الأمل والثقة, ويصحح منهجه ويسلك به طريقًا جديدًا كان يعتقد قبل لقاء رسول الله أنه لا سبيل لسلوكه. وهكذا كانت نتائج حواراته مثمرة فاعلة.

وحظيت الخمرة بنصيب من أسئلة الوفود على رسول الله ρ, ولعل لحداثة عهدهم بالإسلام وقوة ارتباطهم بمعاقرة الخمر في جاهليتهم ما دعاهم إلى الحرص على السؤال عنها,

---

1 المعجم الكبير, 53/7 .

ومن ذلك "**أَنَّ رَجُلاً قَدِمَ مِنْ جَيْشَانَ وَجَيْشَانُ مِنَ الْيَمَنِ فَسَأَلَ النَّبِيَّ عَنْ شَرَابٍ يَشْرَبُونَهُ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الذُّرَةِ يُقَالُ لَهُ الْمِزْرُ؟ فَقَالَ النَّبِي ρ: «أَوَ مُسْكِرٌ هُوَ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ρ: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ. إِنَّ عَلَى اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- عَهْدًا، لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ، أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ، أَوْ عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ».**[1] واتخذ ρ منهجًا حكيمًا واضحًا في الرد على أسئلة الوفود الفقهية, فلا يعمد –غالبًا- إلى الإجابة المباشرة بل إنه يحاور ويناقش حتى يبلغ بإجابته إلى قناعاتهم, ففي رده حول سؤالهم عن الخمرة سألهم عن تأثير ذلك الشراب, وبناء على إجابتهم كان الحكم الفقهي, كذلك كان ρ حريصًا على الترغيب في اتباع أحكام الدين مؤكدًا فكرة أن من ترك شيئًا في الدنيا ابتغاء وجه الله، فإنه سيجد خيرًا منه عند الله, لذلك عندما حرم الخمرة أشار إلى ما يسقى منها يوم القيامة, حيث جاءه "**صحار بن عبد القيس فقال: يا رسول الله ! ما ترى في شراب نصنعه من ثمارنا؟ فأعرض عنه النبي حتى سأله ثلاث مرات، قال: فصلى بنا، فلما قضى الصلاة قال: من السائل عن المسكر؟ تسألني عن المسكر! لا تشربه ولا تسقه أخاك فوالذي نفس محمد بيده ما شربه رجل قط ابتغاء لذة سكره فيسقيه الخمر يوم القيامة"**[2]. وكما حرم ρ الخمرة تحريمًا مباشرًا كما تقدم , فقد حرمها من خلال إشارته ρ إلى آنية الخمر والنهي عن الانتباذ فيها, فعن أبي سعيد الخدري "**إنّ أُناسا مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ. وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ. وَلاَ نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلاَّ فِي أَشْهُرِ الْحُرُمِ. فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَربَعٍ. اعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا. وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ. وَآتُوا الزَّكَاةَ. وَصُومُوا رَمَضَانَ. وَأَعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْغَنَائِمِ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ. عَنِ الدُّبَّاءِ. وَالْحَنْتَمِ.**

1 صحيح مسلم, 144/13.
2 الطبقات الكبرى,562/5.

وَالمُزَفَّتِ وَالنَّقِيرِ"[1]. قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! مَا عِلْمُكَ بِالنَّقِيرِ؟ قَالَ «بَلَى. جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ. فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ الْقُطَيْعَاءِ» أَوْ قَالَ «مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ. حَتَّى إن أَحَدَكُمْ (أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ) لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ». قَالَ: وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ كَذلِكَ، قَالَ وَكُنْتُ أَخْبَأُهَا حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ، فَقُلْتُ: فَفِيمَ نَشْرَبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «فِي أَسْقِيَةِ الأَدَمِ، الَّتِي يُلاَثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَرْضَنَا كَثِيرَةُ الْجِرْذَانِ. وَلاَ تَبْقَى بِهَا أَسْقِيَةُ الأَدَمِ. فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ:«وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ، وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ"[2]. لقد بدأ ρ حواره مع الوفد من خلال رده على سؤالهم فأمرهم بأربع مختلفات, فيما نهاهم عن أربع متشابهات, مما يدل على أهمية ما نهى عنه ρ وتحريمه بأي صفة كانت, لذلك فصل في آنية الخمر، مما أثار استغراب الوفد فتساءلوا عن معرفته بالنقير، لذلك عمد -عليه الصلاة والسلام- إلى التوكيد بمعرفته لتلك الآنية وفصل في صفتها.

وكما حرص -عليه الصلاة والسلام- على التحليل والتحريم، فقد كان ρ يحرص على التعليل لأحكامه, فعندما يحرم فإنه يذكر علة ذلك التحريم, لذلك بين للوفد الآثار المترتبة على معاقرة الخمر بقوله:" حَتَّى إن أَحَدَكُمْ (أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ) لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ». وهذا من الآداب العظيمة للحوار، حيث يثبت المحاور صحة فكرته من خلال تدعيمها بالأدلة والإقناع العقلي, بل وتقديم البدائل المقترحة بما لا يدع مجالا للحيرة والتردد فكان البديل هنا في قوله ρ:" «فِي أَسْقِيَةِ الأَدَمِ، الَّتِي يُلاَثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا» ثم إن النصوص الصريحة لا تحتمل الجدل أو النقاش وغير قابلة للتفاوض مهما كانت الأسباب والمعطيات؛ لذلك فقد رفض ρ رفضًا قاطعًا

---

1 الدباء: أَوعية كانوا يَنْتَبِذُون فيها وضَرِيَت فكان النَّبيذُ فيها يغلي سريعًا ويُسْكِر. الحنتم: هي جِرارٌ حُمْرٌ كانت تُحْمَلُ إِلى المدينة فيها الخمرُ. اللسان,(دبي-حنتم) ومنه المُزَفِّتُ؛ تَقول: جَرَّةٌ مُزَفَّتَةٌ، أي مَطْلِيَّةٌ بالزِفْتِ. الصحاح,(زفت).والنقيرما نُقِبَ من الخشب والحجر ونحوهما,والنقير أَيضًا:أَصل خشبة يُنْقَرُ فَيُنْتَبَذ فيه فَيَشْتَدُّ نبيذه، النَّقِيرُ أَصل النخلة يُنْقَرُ وسَطُه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء فيصير نبيذًا مسكرًا، والنهي واقع على ما يعمل فيه لا على اتخاذ النقير، فيكون على حذف المضاف تقديره: عن نبيذ النَّقِيرِ. اللسان,(نقر).

2 صحيح مسلم, 165/1.

حجتهم التي ارتكزوا فيها على طبيعة أرضهم رغبة منهم في تهاونه -عليه الصلاة والسلام- معهم, بيد أنه -عليه الصلاة والسلام- أكد رفضه بالتكرار, مما دل على لزوم الحكم.

وإن كانت بعض الوفود قد قصدت رسول الله ρ لتستفسر عن قضايا محددة أشكلت عليهم,فإن أخرى جاءت تسأل في عموم ما يقربها من الله:" عن أبي تميمة الهجيمي قال: **أتيت رسول الله ρ وهو محتب بشملة له وقد وقع هدبها على قدميه، فقلت: أيكم محمد أو رسول الله ρ؟ فأومأ بيده إلى نفسه فقلت: يا رسول الله! إني من أهل البادية، وفي جفاؤهم فأوصني. فقال: «لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، وإن امرؤ شتمك بما يعلم فيك فلا تشتمه بما تعلم فيه، فإنه يكون لك أجره وعليه وزره، وإياك وإسبال الإزار، فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله -عزَّ وجلَّ- لا يحب المخيلـة، ولا تسُبَّنَّ أحدًا، فما سببت بعده أحدًا ولا شـاة، ولا بعيـرًا».**[1] **" فقال رجل: يا رسول الله! ذكرت إسبال الإزار، وقد يكون بساق الرجل القرح أو الشيء يستحي منه فقال : لا بأس إلى نصف الساق أو إلى الكعبين إن رجلاً ممن كان قبلكم لبس بردة فتبختر فيها فنظر الله عز و جل إليه من فوق عرشه فمقته فأمر الأرض فأخذته فهو يتجلجل بين الأرض فاحذروا مقت الله -عز و جل-"**[2]، فقدم السائل هنا سؤاله بصفة اتصف بها أهل البادية وهي الجفاء، مما أوحى لرسول الله ρ بنصائحه التي علمه إياها, مبتدئًا بالتقوى التي من شأنها أن تهذب النفس وتسوقها لمسالك الورع واللين وحسن التعامل الذي أكده بقوله:" ولا تحقرن من المعروف أو الخير شيئًا "مشيرًا -عليه الصلاة والسلام-إلى فضل كل ما يقدمه المسلم من معروف مهما قل شأنه فهو عند الله كبير, ثم اتجه ρ إلى قضية أخرى بعيدة عن سابقتيها في ظاهرها, وهي إسبال الإزار, ولعل مشهد الرجل قد دعاه-عليه الصلاة والسلام- لتلك النصيحة ، فضلاً عن أن في إسبال الإزار مخيلة ممقوتة كما أن الجفاء ممقوت, وهنا

---

1 سنن أبي داود,137/11.
2 المعجم الكبير, 63/7.

يتداخل الرجل في حوار رسول الله ρ, ملتمسًا العذر لمن يشكو سوءًا برجله , فيبدو -عليه الصلاة والسلام- متسامحًا مرخصًا إلى نصف الساق أو الكعبين لحاجته لذلك في استثناء من الحكم الكلي وهو تحريم إسبال الإزار, على عكس ما فعل مع محاوريه في الخمرة وآنيتها, حيث رفض أعذارهم, وأنهى الحوار معهم مشددًا على تحريمها, بيد أنه هنا دل على أن الشريعة الإسلامية قابلة للتفاوض في بعض القضايا التي تمس الفرد دون أن يكون لها تأثير سلبي على المجتمع أو على الفرد ذاته, فضلاً عن حرص الشريعة على تقديم التراخيص لذوي الأعذار, ومراعاة الجوانب النفسية والاجتماعية لهم حتى ينتظموا في المجتمع دون حرج, ثم يسوق ρ قصة من كان قبلهم محذرًا بها من مقت الله -سبحانه وتعالى- ومدعمًا حواره بالجانب القصصي لأخذ الدروس والعبر.

ثانيًا: الحوار التربوي:

اتبع النبي ρ أسلوب الحوار والمناقشة في العديد من المواقف التعليمية مع الوفود الزائرة, وكان -عليه الصلاة والسلام- يتخير الأسلوب التربوي الذي يناسب المقام التعليمي المراد, وعليه فقد تنوعت حواراته وفقًا لتنوع الهدف المقصود تحقيقه, ويمكن تقسيم أنواع الحوار التربوي إلى ثلاثة أقسام:

توجيهي، وتطبيقي، ونفسي.

1- الحوار التربوي التوجيهي:

حرص المصطفى ρ أن يوجه أصحابه والوفود التي قصدته, ويسلك بهم طريقًا سليمًا في كل نواحي الحياة, واتخذ من الحوار وسيلة للتوجيه, وتصحيح المفاهيم الخاطئة, والكشف عن أبرز ما يعني الفرد والجماعة.

لقد استطاع -عليه الصلاة والسلام-أن يعبر عن سماحة الدين الإسلامي من خلال مراعاته للمجتمع بكافة شرائحه، لذلك وجه وفد ثقيف إلى الطريق الصحيحة في الإمامة, من

خلال حواره لعثمان بن أبي العاص قائلاً:" **وأمَّ قومك،وإذا أممت قومًا فخفف بهم الصلاة فإنه يقوم فيها الصغير والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة"** [1]،**ثم سأله عثمان:" يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلاَتِي وَقِرَاءَتِي، يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ρ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خِنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلاَثًا».** قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي"[2]، ولم يكتف ρ بتوجيه الاهتمام ببعض فئات المجتمع من خلال هذا الحوار, لكنه وجه السائل وأرشده لحل المشكلة التي تعن له في صلاته, بعد أن علل له سببها حتى يصل به إلى الحل السليم .

والملاحظ أنه -عليه الصلاة والسلام- يعمد إلى التعليل في توجيهاته؛ لأن ذلك أدعى في استيعاب السامع ومن ثم الوصول إلى قناعته.

كما وجه -عليه الصلاة والسلام - بعض الوفود وصحح لهم أفكارهم الخاطئة عن الدين وتعاليمه, ووضح لهم الكثير من الأمور التي أشكلت عليهم, وكشف عن العديد من الحقائق المعرفية التي عجزوا عن فهمها أو التبست عليهم, وكان من أبرز تلك الأفكار مسألة الجهاد في سبيل الله, إذ اعتقد بعض الناس أن انتصار الإسلام وانتشاره في زمن النبي ρ وقوة شوكته مدعاة، لأن تضع الحرب أوزارها, لكنه صحح لهم ذلك الاعتقاد, متحدثًا عن مستقبل الأمة, واستمرارية الجهاد في سبيل الله ، **"عن سلمة بن نفيل قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ρ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله! إن الخيل قد سُيِّبَت ووضع السلاح وزعم أقوام أن لا قتال وأن قد وضعت الحرب أوزارها,فقال رسول الله ρ: كذبوا فالآن جاء القتال, ولا تزال طائفة من أمتي يقاتلون في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم[3], يزيغ الله قلوب قوم ليرزقهم منهم,**

1 البداية والنهاية, 31/5.
2 صحيح مسلم ,156/14.
3 جاء في صحيح مسلم: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ. حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ .56/13.

ويقاتلون حتى تقوم الساعة, ولا يزال الخيل معقودًا في نواصيها الخير حتى تقوم الساعة[1], ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج ومأجوج "[2]. بدأ الوافد حواره بسؤال استدعى من رسول الله ρ التفصيل في جوابه, إذ قضية الجهاد والدعوة من المسائل التي كانت ولا زالت ملحة على كل مسلم، لذا تحدث عنها المصطفى ρ بصيغة الحاضر في قوله (الآن), والمستقبل الممتد حتى قيام الساعة مما يزيل كل شبهة أو لبس حول هذه القضية.

كما كانت مسألة مبايعته ρ وقضية الهجرة إلى مدينته من أبرز المفاهيم التي صححها ρ للوفود، فقد قدم وفد بني سعد هذيم على رسول الله ρ يقول متحدثهم: **"فنزلنا ناحية من المدينة ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فنجد رسول الله ρ يصلي على جنازة في المسجد, فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم وقلنا حتى نلقى رسول الله ρ ونبايعه, ثم انصرف رسول الله ρ فنظر إلينا, فدعا بنا, فقال: من أنتم؟ فقلنا: من بني سعد هذيم! فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا :نعم. قال: فهلا صليتم على أخيكم؟ قلنا: يا رسول الله! ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله ρ: أينما أسلمتم فأنتم مسلمون"**[3]. لقد أنكر ρ على الوفد عدم مشاركته المسلمين في الصلاة على الميت, بيد أنه لم يصارحهم بذلك بداية وإنما بادرهم بسؤال بنى عليه إنكاره وهو قوله:" أمسلمون أنتم؟ ليعقب سؤاله بالإنكار, لكنهم برروا له ρ تصرفهم الناتج عن سوء فهمهم لحقيقة الالتحاق بالإسلام, وظنهم بضرورة مبايعة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-, ليأتي التوجيه والتصحيح من المصطفى بقوله:" أينما أسلمتم فأنتم مسلمون" ملخصًا لهم مفهوم الدين الصحيح الذي لا يعترف بحدود الزمان ولا المكان .

---

1 جاء في صحيح البخاري: الخَيْلُ مَعْقُود في نَوَاصِيها الخيرُ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.1048/3.

2 المعجم الكبير , 53/7.

3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,273/2-274.

وكما كان توجيهه لبني سعد, كان كذلك لبني ثعلبة الذين اعتقدوا خطأ ضرورة الهجرة إلى رسول الله ρ, فقالوا له:**"يا رسول الله! إنا رسل من خلفنا من قومنا مقرين بالإسلام وهم في مواشيهم وما لا يصلحه إلا هم، وقد قيل لنا يا رسول الله لا إسلام لمن لا هجرة له"، فقال رسول الله ρ مؤكدًا لهم عالمية هذا الدين:" حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم حيث كنتم"[1]،** كان سؤالهم منطلقًا من خوفهم على دينهم وصحته, لكنه ρ طمأنهم مبينا فكرة التقوى التي هي أساس الدين، فحيثما وجدت صلح للمرء إسلامه، فضلاً عن أن هجرتهم ستكون سببًا في خسارتهم لمواشيهم وأرزاقهم، فقدم ρ مصالحهم على الهجرة.

وتقبل ρ من الوفود كافة الموضوعات التي سألوه فيها ولم يبد امتعاضًا أو صدودًا, بل إنه كان يلاطف الوافدين ويعجب أحيانًا من بعض تساؤلاتهم فيجيبهم بأسلوب تربوي عظيم , لا يخلو من إقناع وحجة مع حسن اختيار الطريقة المثلى في التحاور معهم, من ذلك أن رجلاً من الوفود سأله قائلاً: **"يا رسول الله! ألا سألت ربك ملكًا كملك سليمان؟ فضحك رسول الله ρ حتى بدت نواجذه فقال: لعل لصاحبكم عند الله أفضل من ملك سليمان, إن الله -عز وجل- ما بعث نبيًّا إلا أعطاه دعوة, فمنهم من سأل بها الدنيا فأعطيها, ومنهم من دعا على قومه فهلكوا, وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي[2] من مات لا يشرك بالله-عز وجل"[3]**، فاستطاع ρ أن يرد على السائل الذي أقام مقارنة بين نبي الله سليمان -عليه السلام- وبين محمد ρ, مشيرًا إلى قضية النبوة, وما امتاز به كل نبي من خصوصية وهبه الله إياها, مع لفتة نفسية عظيمة من خلال الكشف عن فكرة الشفاعة وهذه البشرى التي حظي بها من آمن من أمة محمد ρ, منتقلاً -عليه الصلاة والسلام- بالسائل من ملك الدنيا, ونعيمها الزائل, إلى ملك الآخرة ونعيمها الدائم, بأسلوب تربوي قام على فكرة المقارنة التي انطلق بها من حوار الوافد.

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء 273.

2 جاء في صحيح مسلم قوله ρ: «لِكُلِّ نَبِيَ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيَ دَعْوَتَهُ. وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَهِيَ نَائِلَةٌ، إِنْ شَاءَ الله، مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا».59/3.

3 معجم الصحابة, 2 /170.

وسيطرت فكرة الملك على بعض الوفود ولاغرو في ذلك إذ طبيعة الحياة العربية وما قامت عليه من نظام السيادة والملك والرئاسة عززت فيهم هذا الشعور، فنقلوه إلى رسول الله ρ وعنوا بالسؤال عنه, لكنه -عليه الصلاة والسلام- كان حريصًا على تصحيح تلك الفكرة, وتوجيه الوفود توجيهًا تربويًّا سليمًا, مستخدمًا الحوار وسيله للإقناع الذاتي, وتمحيص الأفكار والمعتقدات الخاطئة, ومحاكمتها عقليًّا، للوصول إلى الحقائق التي لا تقبل الشك أو الجدل, ليس عن طريق الخبر فقط, وإنما من خلال المناقشة المتبادلة بينه وبين وفوده, فعن ابن شهاب الزهري قال:" **قدم على رسول الله الأشعث بن قيس في ستين راكبًا من كندة، فدخلوا على رسول الله مسجده وقد رجلوا جممهم, وتكحلوا,عليهم جبب الحبرة قد كففوها بالحرير, فلما دخلوا على رسول الله قال: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى! قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكم؟: قال فشقوه منها فألقوه, ثم قال الأشعث: يا رسول الله! نحن بنو آكل المُرار وأنت ابن آكل المرار, فتبسم رسول الله، ثم قال: ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث- قال: وكان ربيعة والعباس تاجرين فكانا إذا ساحا في أرض العرب فسئلا: من هما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك، وذلك أن كندة كانت ملوكًا- , فقال رسول الله:نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو [1]أمنًا ولا ننتفي من أبينا, فقال الأشعث بن قيس: هل عرفتم يا معشر كندة! والله لا أسمع رجلاً قالها بعد اليوم إلا ضربته حده ثمانين"[2].** لقد كان من منهجه ρ إذا أنكر على الوفد عملاً أن يبادر بسؤالهم "أأسلمتم" حتى يقيم عليهم الحجة, لذلك سأل وفد كندة منكرًا عليهم لبس الحرير, وهذا أسلوب تربوي مؤثر, أدركوا من خلاله حرمة هذا اللباس على الرجال في الإسلام, وكانت ردة فعلهم سريعة بأن شقوه أمامه ρ ولم يتريثوا حتى يخرجوا من عنده,إذ أنهم شعروا برفضه لهيئتهم فانقادوا لأمره,ثم بادروا الرسول بحوارهم مفتخرين بملكهم, ومشركين رسول الله ρ في ذلك الملك, لكنه ρ رفض تلك الصفة ووجهها للعباس بن

---

1 قَفْوًا وقُفُوّاً واقْتَفاه وتَقَفَّاه:تَبِعَه. الليث: القَفْوُ مصدر قولك قَفا يَقْفُو قَفْوًا وقُفُوّاً، وهو أَن يتبع الشيء.اللسان, (قفا).
2 تاريخ الأمم والملوك ,200/2.

عبد المطلب وربيعة بن الحارث لأنهما وصفا نفسيهما بها وكانا يتفاخران بهذا الشرف, وأتى ρ بالبديل, ناسبًا نفسه للنضر بن كنانة, مشيرًا إلى قضية مهمة جعل من نفسه ρ قدوة فيها وهي مسألة النسب, بقوله:"لا نقفو أمنا ولاننتفي من أبينا" أي لا ننتسب للأمهات ونترك النسب للآباء.

وكان تأثير حديث النبي ρ في الوفد تأثيرًا كبيرًا عن طريق "القدوة الشخصية ذلك أن المثال الشخصي مرئي وواضح, والشيء المرئي أقوى وأفعل في النفس وأسرع في الانتقال والعدوى, والإنسان يخضع غالبًا ورغما عنه لتأثير إنسان آخر لاسيما إذا كان نمط سلوكه نموذجيًّا أو فريدًا, وهذا عنصر هام بالنسبة للشبيه"[1]. وهكذا استطاع ρ أن يوصل فكرته للوفد بأسلوب تربوي وبطريق غير مباشر لم يعتمد فيه التلقين المجرد القائم على الأمر والنهي, وإنما جعلهم يستنتجون المعاني التي أرادها -عليه الصلاة والسلام-, وقد حصل ذلك ودل عليه موقف الأشعث ورد فعله عندما توجه للوفد محذرًا إياهم،ومتوعدًا من عاد إلى الفخر بذلك النسب, فكانت استجابة هذا الوفد سريعة، مما أوحى بقوة تأثير حوار النبي ρ الذي استطاع أن يوجههم توجيهًا تربويًّا ويهذب أفكارهم.

ومن الأمور التربوية التي حرص ρ على توجيه الوفود إليها إفشاء السلام,لما يترتب عليه من إقامة علاقات اجتماعية سليمة, وبث الألفة والمحبة بين الناس؛ لذلك كان ينكر على الوفود التي أسلمت عدم إلقاء تحية السلام بين يديه, مما يؤكد أهمية هذه السنة العظيمة, فأنكر على وفد الصدف فيما يروي **"شرحبيل بن عبد العزيز الصدفي عن آبائه قالوا:قدم وفدنا على رسول الله وهم بضعة عشر رجلاً على قلائص لهم, في أزر وأردية, فصادفوا رسول الله فيما بين بيته وبين المنبر, فجلسوا ولم يسلموا, فقال: مسلمون أنتم ؟ قالو:ا نعم, قال: فهلا سلمتم؟ فقاموا قيامًا فقالوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله ، قال: وعليكم السلام اجلسوا**

1 علم النفس التربوي, 145.

, فجلسوا وسألوا رسول الله عن أوقات الصلاة فأخبرهم بها "[1] ، ويلاحظ -فضلاً عن استجابة الوفد السريعة لملاحظة رسول الله ρ– أنهم بادروا بسؤاله عن الصلاة وأوقاتها ولعل لتأثير المكان دورًا في ذلك , فارتباط المسجد بالصلاة دعاهم إلى السؤال عنها قبل كل شيء.

ولأهمية إفشاء السلام حرص ρ أن يصحح صفته لمن جهلها، **" فعن أبي تميمة الهجيني عن رجل من قومه قال: لقيت رسول الله ρ في بعض طرق المدينة، وعليه إزار من قطن منتثر الحاشية، فقلت: عليك السلام يا رسول الله، فقال: «إِنَّ عَلَيْكَ السَّلامَ تَحِيَّةَ الموتى، إِنَّ عَلَيْكَ السَّلامُ تَحِيَّةَ المَوْتَى، إِنَّ عَلَيْكَ السَّلامُ تَحِيَّةَ المَوْتَى، سَلامٌ عَلَيْكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ»** مرتين أو ثلاثاً"[2].

2-الحوار التربوي التطبيقي:

استخدم النبي ρ الحوار التربوي لهدف تعليم الوفود بعض الأعمال التي تحتاج إلى تطبيق عملي وأداء مهاري يتيح للمتعلم فرصة إعمال قدراته العقلية, واستنتاج الصواب وتصحيح الأخطاء من خلال الممارسة العملية, فكان ρ المؤسس الأول للمدرسة التربوية الإسلامية بكافة معالمها من أقوال وأفعال تبدى عنها فكر تربوي أصيل, فقد كان ρ من نفسه قدوة حسنة ومثالاً يحتذى, فإذا نهى عن شيء كان أسبق الناس إلى تركه, وإذا أمر بشيء كان أولى الناس تطبيقًا له، ولعل ذلك من أشد عوامل التأثير في الوفود التي قدمت عليه.

والموعظة في التربية لا تكفي وحدها إذا لم يكن هناك قدوة صالحة تشجع على التأسي بها, فالقدوة المنظورة الملموسة هي التي تعلق المشاعر, ولا تتركها تهبط إلى القاع وتسكن بلا حراك, وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس وتصبح دافعًا من أعظم الدوافع في تربية النفوس [3]، وكانت أفعال النبي ρ مدعاة لإثارة الوفود وحرصهم

---

1 الطبقات الكبرى, 329/1.
2 مسند الإمام أحمد, 532/4.
3 منهج التربية الإسلامية, 187/1.

على التقيد بها واتباعها, فعن أوس بن حذيفة قال:«**كنت في الوفد الذين أتوا النبي ρ أسلموا من ثقيف، من بني مالك، أنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، ولا نبرح حتى يحدثنا ويشتكي قريشًا ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: لا سواء، كنا بمكة مستذلين ومستضعفين، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا ولنا، فمكث عنا ليلة لم يأتنا، حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: طرأ عليَّ حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه، قال: فسألنا أصحاب رسول الله ρ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم».**[1]

ففي تأخر النبي ρ عن لقاء الوفد دافع أثار فضولهم للسؤال عن سبب ذلك, فأجاب -عليه أفضل الصلاة والسلام- إجابة أيقظت مشاعرهم, وحثتهم على السؤال عن تحزيب القرآن, رغبة في امتثال فعله ρ، وبالرغم من أن النبي -عليه الصلاة والسلام- لم يحثهم صراحة على ذلك لكن استلهام أفعاله وأقواله كانت من أبرز اهتمامات الوفود؛ لذلك عنوا بالسؤال والتحري عن كل ما يصدر عنه ρ من أقوال وأفعال.

وكان السكوت والصد من منهجه العملي ρ في حوار بعض الوفود التي يرى منها -عليه الصلاة والسلام- ما لا يسره, حتى يشعرهم بذلك ويستنتجون أو يستعلمون عن سبب ذلك الصد فيكون أدعى للتأثير فيهم, ومن ذلك ما حدث مع وفد نجران، حيث قدم:"**الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة وضعوا ثياب السفر عنهم, ولبسوا حللاً لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب, ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله, فسلموا فلم يرد عليهم السلام, وتصدوا لكلامه نهارًا طويلاً فلم يكلمهم, وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب, فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان ،**

1 مسند الإمام أحمد,578/4.

وعبد الرحمن بن عوف، وكانوا يعرفونهما، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس، فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن! إن نبيكم كتب إلينا بكتاب، فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه، فسلمنا عليه، فلم يرد سلامنا وتصدينا لكلامه نهارًا طويلاً، فأعيانا أن يكلمنا فما الرأي منكما أترون أن نرجع؟ فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ فقال علي لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يعودوا إليه,ففعلوا فسلموا فرد سلامهم, ثم قال: والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم"[1].

فالباحث عن الحاجة لا يستقر له قرار, ولا يهدأ له بال حتى يجدها, ويظل يتقلب بين دوائر الظن واليقين, والبحث والتحري حتى يصل إلى غايته, وقد استطاع ρ أن يحفز الوفد للبحث عن سبب هذا الصدود والتقصي عن الخطأ الذي وقعوا فيه, ومن ثم القيام بتصحيحه حتى يجدوا منه ρ أذنًا صاغية, ثم يأتي بعد ذلك دوره ρ في التعليل لموقفه, وكشف العلة من وراء صده وإعراضه بقوله:" والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم".

وكان النبي ρ حريصًا على استغلال المواقف لتعليم الوفود الأمور الشرعية بالممارسة والتطبيق لترسخ في أذهانهم، "فعن عاصم بن لقيط عن أبيه وافد بني المنفق، وقال عبدالرزاق المنتفق: **«أنه انطلق هو وصاحب له إلى النبيّ ρ، فلم يجداه، فأطعمتهما عائشة تمرًا وعصيدة، فلم نلبث أن جاء النبيّ ρ يتقلع يتكفا، فقال: أطعمتهما؟ قلنا: نعم، قلت: يا رسول الله أسألك عن الصلاة؟ قال: أسبغ الوضوء وخلل الأصابع وإذا استنشقت فأبلغ إلا أن تكون صائمًا، قلت: يا رسول الله! لي امرأة -فذكر من بذائها-؟ قال: طلقها، قلت: إن لها صحبة وولدًا ؟ قال: مرها -أو قل لها- فإن يكن فيها خير فستفعل، ولا تضرب ضغينتك ضرب أمتك، فبينا هو كذلك إذ رفع الراعي الغنم في المراح على يده سخلة، فقال: أولدت؟ قال: نعم قال:**

---

1 البداية والنهاية, 54/5.

ماذا؟ قال: بهمة قال: اذبح مكانها شاة"[1]، فبدأ ρ حواره مع الوافد منطلقًا من سلوكيات عدة بدأت بكيفية الوضوء, ثم انتقل إلى لحديث عن السلوك الاجتماعي من خلال العلاقة الثنائية بين المرء وزوجه, فشكوى الرجل من بذاءة زوجته استدعى من الرسول ρ أن يوجهه إلى طلاقها, إذ الحياة الزوجية لا تقبل إلا الألفة والمودة والرحمة, وكل تلك أمور لا يمكن لها أن تقع مع سوء الخلق وبذاءة المنطق, بيد أن إشعار الرجل بوجود الولد بينهما دعا النبي ρ إلى توجيه آخر قائم على محاولة تعديل سلوكها من خلال النصح, والعمل على تغيير أسلوبها بطريقة أخلاقية تتفق ومتطلبات الحياة الزوجية, ثم يستغل ρ الموقف الذي حدث بينه وبين الراعي ليبين للوافد سلوكه في التعامل مع الممتلكات الخاصة, من خلال حرصه -عليه الصلاة والسلام- بأن لا تزيد الغنم عنده عن مئة, لذلك فقد قام بذبح ما زاد عنها, في إشارة نفسية عظيمة من المصطفى ρ دلت على أنه من غير المستحب المبالغة في اقتناء المال أو ما زاد عن الحاجة منه.

وقد يلجأ ρ في أسلوب تربوي فاعل إلى دعوة الوفد دون التصريح بذلك بل من خلال موقف يكون سببًا في إسلامهم, كما حدث مع **"عياض ابن حماد الذي وفد على النبي قبل أن يسلم ومعه نجيبة يهديها إلى رسول الله، فقال:أسلمت؟ قال: لا! قال: إن الله نهانا أن نقبل زبد المشركين, قال: فأسلم! فقبلها رسول الله, فقال: يا نبي الله! الرجل من قومي من أسفل مني يشتمني أفأنتصر منه؟ فقال: المستبّان شيطانان يتكاذبان"**[2]، فرفض النبي ρ لهدية الرجل كان له أثر بالغ في نفسه وكان مدعاة لإسلامه, فضلاً عن أن النبي -عليه الصلاة والسلام- وكما عرف من منهجه- علل له سبب ذلك الرفض، فهو نهي رباني انتفى بإسلام الرجل.

كما حرص ρ في موقف آخر على التحقق من الهدية المقدمة له مبينًا الفرق بين الهدية والصدقة, متحريًا الدقة مع وفد ثقيف عندما أهدوا له هدية، فقال متسائلاً ثم معللاً لسؤاله:**"**

---

1 مسند الإمام أحمد, 241/5.
2 الطبقات الكبرى, 36/7 وورد في مسند الإمام أحمد: المستبان شيطانان يتكاذبان ويتهاتران.331/5.

أهدية أم صدقة؟ قالوا :هدية, قال: إن الهدية يطلب بها وجه الرسول وقضاء الحاجة وإن الصدقة يبتغى بها وجه الله! قالوا : بل هدية! وقبلها منهم وشغلوه عن الظهر حتى صلاها مع العصر"[1].

وكان للمشاعر الظاهرة على تقاسيم وجهه الكريم ρ, وما يرتسم على محياه من علامات الرضا أو السخط أو الاستفهام أو غيرها أثر في الوفود التي قدمت عليه مثلما كان لأفعاله وأقواله, فقد قدم على الرسول ρ **" عام حجة الوداع وفد محارب, وهم كانوا أغلظ العرب على رسول الله ρ في تلك المواسم أيام عرضه نفسه على القبائل يدعوهم إلى الله، فجاء رسول الله ρ منهم عشرة نائبين عمن وراءهم من قومهم فأسلموا, وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن جلسوا مع رسول الله ρ يومًا من الظهر إلى العصر, فعرف رجلاً منهم, فأبده النظر, فلما رآه المحاربي يديم النظر إليه قال: كأنك يا رسول الله توهمني! قال: لقد رأيتك, فقال المحاربي: أي والله لقد رأيتني وكلمتني وكلمتك بأقبح الكلام ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على الناس, فقال رسول الله ρ: نعم! ثم قال المحاربي: يا رسول الله! ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد من الإسلام مني، فأحمد الله الذي أعانني حتى صدقت بك, ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم, فقال رسول الله ρ :إن هذه القلوب بيد الله -عز وجل- فقال المحاربي: يا رسول الله! استغفر لي من مراجعتي إياك, فقال رسول الله ρ: إن الإسلام يجبّ ما كان قبله من الكفر، ثم انصرفوا إلى أهليهم"**[2]، فأدرك الرجل من خلال نظرة النبي ρ ما كان يعتمل في داخله، لذلك بادره مذكرًا بنفسه, معترفًا بما كان قد بدر منه تجاه نبي الله في أول الدعوة , لكنه اليوم وافد مختلف جاء وقد تغيرت نفسه, واتخذت مشاعره مسارًا جديدًا يتناقض تمامًا مع ما كانت عليه, مما يدل على عظيم هذه الدعوة واتصال تأثيرها منذ انطلاقها حتى اكتمالها بفضل من الله "إن تغيير الأنفس ليس بأمر سهل,

---

1 الآحاد والمثاني ,238/3 .
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,284/2-285.

إنه تغيير في الإنسان ذاته من حال إلى أخرى, من عقلية إلى أخرى, إنه ليس تغييرًا في الملبس أو المأكل أو المسكن أو البلد, إنه تغيير لوجهة مشاعره وأفكاره وأهدافه وحياته, إنه تغيير ثوري حقيقي ينفذ إلى الروح وأعماقها والنفس وجوهرها." [1]، ثم إنه ρ استطاع بحسن تعامله مع الوفود أن يؤثر في استجابتهم, ولم تقتصر الدعوة على الجانب النظري فحسب بل لقد كان للجانب العملي دور كبير في تبليغ الرسالة, والتعبير عن هوية الإسلام وحقيقته, فعن أبي هريرة قال:" **«بَعث النبيُّ ρ خيلاً قِبلَ نجدٍ، فجاءت برجل من بني حنيفةَ يقال له ثُمامة بن أُثال[2]، فرَبطوهُ بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبيُّ ρ، فقال:ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: عندي خيرٌ يا محمدُ، إن تَقتلني تَقتلْ ذا دم، وإن تُنعِم تنعم على شاكر، وإن كُنْتَ تريدُ المالَ فسلْ منه ما شئتَ، فتُرِكَ حتى كان الغَد ثم قال لهُ: ما عندَك يا ثمامة؟ فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تنعم على شاكر،فتركه حتى كان بعدَ الغدِ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال:عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلَقَ إلى نخلٍ قريبٍ من المسجدِ فاغتسلَ، ثم دخل المسجدَ فقال: أشهد أن لا إلهَ إلاّ الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله. يا محمد! واللَّهِ ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وَجهك، فقد أصبحَ وَجهكَ أحبَّ الوجوهِ إليّ، واللَّهِ ما كان من دِينٍ أبغضَ إليَّ من دِينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ، واللَّهِ ما كان من بلد أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبحَ بلدكَ أحبَّ البلاد إليّ، وإن خَيلَكَ أخذتني، وأنا أُريد العمرةَ، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ρ، وأمَرَه أن يَعتمر"[3].** لقد سعى النبي ρ إلى توجيه ثمامة للإسلام دون إكراه, بل جعل له فرصة زمنية لمراجعة فكره ومعتقده, وفي كل مرة كان -عليه الصلاة والسلام- يسأله, ليأتي بإجابة واحدة تعددت فيها الدلالات, فمن تهديد بأنه ذو دم وسيطالب قومه بثأره, إلى التودد الذي يوحي به قوله : وإن تنعم تنعم على شاكر, حتى يصل إلى المساومة على المال مهما بلغ ثمنه, مما

---

1 علم النفس النبوي ,19.

2 ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة بن عتبة بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل بن حنيفة الحنفي أبو أمامة اليمامي. الإصابة في تمييز الصحابة, 525/1.

3 صحيح البخاري, 1589/4.

حدا بالنبي ρ إلى إطلاق سراحه منطلقًا من قاعدة لا إكراه في الدين, بيد أن هذا الموقف العظيم منه ρ , وهذه الروح الكريمة التي تجلت عن سماحته مع الرجل, وهذا النهج الفريد القائم على الرفق والحلم, كل هذه الأمور أدت إلى إسلام ثمامة حيث لم يسلم تحت وطأة الأسر, وإنما بعد أن فك قيده, مما يوحي بعظيم تأثير موقف النبي ρ في الرجل, وفي لحظة سريعة انقلبت مشاعره وتحولت عواطفه من عدو لله ولرسوله إلى محب للإسلام,منتم إليه, مدافع عن حماه, فتحول عدو الأمس مؤمنًا يسعى لتأدية شعائر الدين سائلاً متفقهًا فيها, واصفًا كل هذه المشاعر لرسول الله ρ, لقد كانت القبيلة هي الوطن والانتماء, فأصبحت الانتمائية الوطنية للإسلام, وكانت السلطة والحكم خاضعة لقوانين البشر, فصارت لله ولرسوله ولتعاليم الدين ونهجه القويم.

ويتجلى رفقه ρ من خلال موقفه مع وفد مخوس بن معديكرب، حيث خرجوا من عنده ρ:**"فأصاب مخوسا اللقوة[1]، فرجع منهم نفر فقالوا: يا رسول الله! سيد العرب ضربته اللقوة فادللنا على دوائه, فقال: رسول الله خذوا مخيطًا فاحموه في النار، ثم اقلبوا شفر عينه ففيها شفاؤه وإليها مصيره، فالله أعلم ما قلتم حين خرجتم من عندي, فصنعوه به فبرأ"**[2] ، فأرشد ρ هذا الوفد إلى علاج ما أصاب سيدهم, بيد أنه أشار -عليه الصلاة والسلام- إلى سوء ما تحدثوا به بعد خروجهم من عند رسول الله ρ في إلماحة منه إلى أن ما أصاب الرجل لعله من سخط الله على ما بدر منهم من إساءة, وعلى الرغم من أن النبي ρ لم يعاتبهم بالتصريح وإنما ألمح لهم بأسلوب تربوي يتيح لهم مراجعة ما حصل منهم إلا أنه -وبسماحته ورفقه -دلهم على الدواء ولم يجعل من ذلك سببًا في عقابهم، وهذا أبلغ في التأثير ومحاسبة النفس.

وتتبدى العدالة العظيمة في شخصية المصطفى ρ من خلال بعض مواقفه مع الوفود, فنراه لا يأنف من التراجع عن قراره عندما تتكشف له الحقيقة, ويظهر له ما سيترتب على هذا

---

1 اللَّقْوة: داء يكون في الوجه يَعْوَجُّ منه الشِّدق.اللسان,(لقا).
2 الطبقات الكبرى , 1 /350-351 .

القرار من مضرة على بعض أطراف القضية,ضاربًا بذلك أعظم مثال على آداب الحوار, وما ينبغي للمحاور من اتباع الحق, حتى ولو لم يتفق مع ما كان يعتقده فالمعول على النتيجة وما سيترتب عليها, أما التعسف في التمسك بالرأي فلا يمكن أن يحقق العدالة, وهذا ما فعله ρ مع وفد بكر بن وائل, فعن قيلة بنت مخرمة قالت: **"قدمنا على رسول الله ρ قالت: تقدم صاحبي تعني حريث بن حسان وافد بكر بن وائل، فبايعه على الإسلام عليه وعلى قومه, ثم قال: يا رسول الله! اكتب بيننا وبين بني تميم بالدهناء أن لا يجاوزها إلينا منهم أحد إلا مسافر أو مجاور فقال: اكتب له يا غلام بالدهناء, فلما رأيته قد أمر له بها شخص بي (أي أتاني ما يقلقني) وهي وطني وداري, فقلت: يا رسول الله! إنه لم يسألك السوية (الأرض السهلة المتوسطة) من الأرض إذ سألك إنما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل (مقيد الجمل أي مرعاه ومسرحه فهو لا يبرح منه ولا يتجاوزه في طلب الرعي فكأنه مقيد هناك) ومرعى الغنم ونساء بني تميم وأبناؤها وراء ذلك فقال: أمسك يا غلام, صدقت المسكينة المسلم أخو المسلم يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان "[1].**

وكذلك فعل ρ مع أبيض ابن حمال إذ **"وفد على رسول الله ρ ، فاستقطعه الملح الذي بمأرب فأقطعه، فقال رجل: أتدري يا رسول الله ما أقطعته إنما أقطعته الماء العد! فرجعه رسول الله ρ، قال أبو عبيد: إنما أقطعه رسول الله ρ وهو يرى أنها أرض موات ، فلما تبين له أنه ماء عد وهو الذي له مادة لا تنقطع مثل الآبار والعيون ارتجعه، لأن سنة رسول الله ρ في الكلأ والنار والماء أن الناس أجمعين فيه شركاء "[2].**

"إن ظروف الحياة المادية تؤثر تأثيرًا حاسمًا على السيكلوجية الاجتماعية, وتتوقف على هذه الظروف إمكانيات التطور والتقدم, بل إنها تحدد اتجاه خواطر الناس وانفعالاتهم , ومصالحهم وأمانيهم ورغباتهم وإراداتهم. إن الناس يتأثرون بوضعهم الاقتصادي ولا يمكن إلا

---

1 (معناه: الشيطان الذي يفتن الناس. وسئل أبو داود عن الفتان فقال: الشيطان)، سنن أبي داود, 193/2.
2 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع, 1171/4 والإصابة في تمييز الصحابة, 288/8.

أن يفكروا فيه, ويتصرفوا طبقًا للاتجاه الذي يفرضه. لقد أراد رسول الله ρ لمجتمع المسلمين أن يمثل المجتمع المثالي الذي يحمل أشرف رسالة, فنراه يضع قواعد التعامل الاجتماعي بين المسلمين وتمثل هذه القواعد الخطوط التي يمكن بواسطتها قراءة علم النفس الاجتماعي عند المجتمع المسلم"[1].

وتتعدد المواقف التربوية مع وافد صداء زياد بن الحارث الصدائي، حيث **"قدم على رسول الله ρ فقال له: اردد الجيش وأنا لك بقومي, فردهم، قال: وقدم وفد قومي عليه فقال لي: يا أخا صداء! إنك لمطاع في قومك, قال: قلت: بلى! من الله-عز وجل- ومن رسوله , وكان زياد هذا مع رسول الله ρ في بعض أسفاره, قال: فاعتشى رسول الله ρ- أي سار ليلاً- واعتشينا معه وكنت رجلاً قويًّا, قال: فجعل أصحابه يتفرقون عنه, ولزمت غرزه, فلما كان في السحر قال: أَذِّن يا أخا صداء, فأذنت على راحلتي ثم سرنا حتى نزلنا, فذهب لحاجته ثم رجع فقال: يا أخا صداء هل معك ماء؟ قلت :معي شيء في إداوتي, فقال: هاته, فجئت به, فقال: صب, فصببت ما في الإداوة في القعب, وجعل أصحابه يتلاحقون, ثم وضع كفه على الإناء فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عينًا تفور ثم قال: يا أخا صداء لولا أني استحيي من ربي لسقينا واستسقينا, ثم توضأ وقال: أذّن في أصحابي من كانت له حاجة بالوضوء فليرد, قال: فوردوا من آخرهم, ثم جاء بلال يقيم فقال رسول الله ρ: إن أخا صداء قد أذن ومن أذن فهو يقيم, فأقمت, ثم تقدم رسول الله ρ، فصلى بنا, وكنت سألته قبل أن يؤمرني على قومي ويكتب لي بذلك كتابًا ففعل, فلما سلم -يريد من صلاته- قام رجل يشتكي من عامله فقال: يا رسول الله !إنه أخذنا بدخول كانت بيننا وبينه في الجاهلية, فقال رسول الله ρ : لا خير في الإمارة لرجل مسلم, ثم قام رجل فقال: يا رسول الله! أعطني من الصدقة ، فقال رسول الله ρ: إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى جزأها على ثمانية**

---

1 علم النفس التربوي, 76.

أجزاء, فإن كنت جزءًا منها أعطيتك, وإن كنت عنها غنيًّا فإنما هو صداع في الرأس وداء في البطن, فقلت في نفسي هاتان خصلتان, حين سألت الإمارة وأنا رجل مسلم, وسألته من الصدقة وأنا غني عنها, فقلت يا رسول الله هذان كتاباك فاقبلهما, فقال رسول الله ρ:ولِمَ؟ قلت: إني سمعتك تقول لا خير في الإمارة لرجل مسلم, وأنا مسلم، وسمعتك تقول من سأل من الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن وأنا غني, فقال رسول الله ρ: أما إن الذي قلت كما قلت لك فقبلهما رسول الله ρ, ثم قال: دلني على رجل من قومك أستعمله, فدللته على رجل فاستعمله, قلت: يا رسول الله! إن لنا بئرًا إذا كان الشتاء كفانا ماؤها, وإذا كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه, والإسلام اليوم فينا قليل, ونحن نخاف فادع الله -عز وجل- لنا في بئرنا, فقال رسول الله ρ: ناولني سبع حصيات، فناولته، فعركهن بيده, ثم دفعهن إلي, وقال: إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاة وسم الله, قال ففعلت فما أدركنا لها قعرًا حتى الساعة"[1].

لقد أسفر هذا اللقاء بين الرسول المصطفى ρ والصدائي عن عدة مواقف تربوية يمكن إجمالها على النحو الآتي:

1- ظهر المنهج التربوي منذ بداية لقاء الرجل بالرسول ρ, عندما طلب منه أن يرد الجيش عن قتال قومه, وهو الضامن لهم ولإسلامهم، وهنا استجاب -عليه أفضل الصلاة والسلام- في موقف عزز الثقة بينه وبين الصدائي, وألزمه- ذاتيًّا وبما قدمه من حسن تعاون- أن يأتي بقومه وقد فعل.

2- مشاهدة الصدائي لتلك المعجزة الإلهية لنبي الله ρ وفيض الماء من بين أصابعه الشريفة، ثم ما كان منه ρ من تعليق حول تلك المعجزة بقوله :" قال يا أخا صداء! لولا

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,2/288-290.

أني استحيي من ربي لسقينا واستسقينا" تأدبًا مع الله وهو-عليه الصلاة والسلام- صاحب الخلق الموصوف بقوله: "وإنك لعلى خلق عظيم" .

3- تقديم النبي ρ زياد الصدائي للأذان ومن ثم تقديمه للإقامة على بلال، مما يوحي بالتقدير والمنزلة ومنح الثقة, ولعل في إتاحة مثل هذه الفرصة للوافد ما يمكن الإيمان من قلبه .

4- استجابة النبي ρ لزياد عندما طلب الإمارة على قومه وتوثيق ذلك التكليف بكتاب منه ρ . فكل هذه المنح المتتالية كان لها بالغ التأثير في وافد رسول الله ρ.

5- وبعد كل ما تقدم من مواقف تربوية هيأت الوافد إلى التقيد بكل ما يصدر عنه ρ عن قناعة وتصديق , يأتي الموقف الفصل الذي غير رغبة الصدائي, وهذب حب السلطة والتملك الذي كان يخالجه, دون أن يسعى ρ إلى ذلك مباشرة, بيد أن ما حصل أمام الوافد من حوار دار بين النبي ρ وبين المشتكي من عامله حول الإمارة التي وصفها -عليه الصلاة والسلام- بقوله:" لا خير في الإمارة لرجل مسلم" ثم أحقية الصدقة ولمن تجب، وما يترتب على أخذها دون حاجة, كل هذه الأمور جعلت زيادًا يتخلى عن حقه في إمارة قومه, ويعلل للنبي ρ خوفه من أن تشمله تلك الأوصاف, طالبًا منه -عليه أفضل الصلاة والسلام- أن يقبل كتابه.

6- لقد استطاع ρ أن يهذب رغبات هذا الوافد, من خلال الأقوال والأفعال التي حدثت أمامه , بل إن في تراجعه عن الإمارة ورفضه لها وهي من أبرز المطامع البشرية, ما دل دلالة قاطعة على شدة تأثره بالنهج النبوي الشريف.

ولم يكتف ρ في حواراته العملية مع الوفود بالجوانب الشرعية فقط,بل نراه يحاورهم حتى في مسائل الحياة المتعلقة بمعيشتهم وبعض معتقداتهم الجاهلية, فعن أبي بكر بن قيس الجعفي قال:" كانت جعفي يحرمون القلب في الجاهلية, فوفد إلى رسول الله رجلان منهم قيس

بن سلمة بن شراحيل من بني مران بن جعفي، وسلمة بن يزيد بن مشجعة بن المجمع, وهما أخوان لأم، وأمهما مليكة بنت الحلو بن مالك من بني حريم بن جعفي, فأسلما, فقال لهما رسول الله: بلغني أنكم لا تأكلون القلب, قالا: نعم ,قال: فإنه لا يكمل إسلامكم إلا بأكله , ودعا لهما بقلب فشوي, ثم ناوله سلمة بن يزيد فلما أخذه أرعدت يده،فقال له رسول الله: كله, فأكله وقال:

عَلَى أَنِّي أَكَلْتُ القَلْبَ كرْهًا وَتَرَعَّدَ حِينَ مَسَّتْهُ بَنَانِي"[1]

فوجه النبي ρ الوفد بأسلوب تطبيقي بين فيه خطأ معتقدهم في تحريم ما أحل الله, بل إنه أكد تلك الفكرة بقوله: فإنه لا يكمل إسلامكم إلا بأكله, ولم يكتف -عليه أفضل الصلاة والسلام- بالتوجيه القولي، بل حرص على التطبيق العملي حتى يلغي تمامًا تلك الفكرة الخاطئة.

3-الحوار التربوي النفسي:

حاور النبي ρ الوفود حوارًا عقليًّا منطقيًّا اعتمد فيه الإقناع والحجج والتعليل, لكنه مع كل ذلك استطاع بما أوتي من إلهام أن يستبطن النفس البشرية ويخاطبها ويؤثر فيها, فكانت النفوس تنقاد له قبل العقول, وأصبحت الأفئدة تهوي إليه وتشتاق للقائه والسلام عليه, كيف لا وهو الذي أخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربه, بعد أن عجزت جميع الأديان والمذاهب وكانت البشرية تمر في تيه وضلال وتسرب اليأس إلى النفس الإنسانية "فكانت اللحظة من تاريخ البشرية هي اللحظة التي أرادت الإرادة الربانية أن تكون مناسبة لظهور مخلص ينقل البشرية من وضعها الجاهلي إلى وضع أحسن وأقرب, إلى مهمة الإنسان الأساسية في إعمار الوجود وحفظه, إن مهمة بهذا الحجم وهذا المنحى المصيري للعالم أجمع تطلبت أن تمر شخصية القائم بها بكل الخبرات والتجارب التي تجعلها قادرة على تغيير الناس, وعالمة بخفايا الأنفس البشرية حولها لتفتح أعين الناس وقلوبهم على الحق الذي جاءهم, وتجنبهم الاضطرابات التي سيمرون بها أثناء انتقالهم من مرحلة جهل وغموض وضياع إلى مرحلة معرفة وإيمان, إن تغيير اتجاه الناس ومعتقداتهم يبدأ بمعرفة الحقيقة النفسية لكل فرد فيهم

1 الطبقات الكبرى , 324/1-325.

,وبالتالي معرفة طريقة الإقناع بالحق ومعالجة اضطراباتهم التي تحصل في مراحل التغيير"[1].

لقد استطاع ρ من خلال لقاءاته بوفود القبائل أن يبث في نفوسهم الراحة والطمأنينة, وتباشير القبول من أول لقائه بكل وفد، حيث يبادرهم بالتحية والترحيب, متجاهلاً ما بدر من كثير من القبائل إبان سني الدعوة الأولى, فتراه يرحب ويكرم ويمدح ويثني, ولا يألو جهدًا في استمالة قلوبهم وملاطفتهم, متناسيًا كل ما قد حصل وكان, فأعداء الأمس إخوة اليوم في الدين والعقيدة, ولم يعد في النفس تجاههم إلا المحبة الخالصة في الله, فها هو ذا -عليه الصلاة والسلام- يبادر أحد الوفود الترحيب, ففيما يروي ابن عباس **" أن وَفْدَ عبدِ القَيْس أتَوُا النبيَّ ρ فقالَ: مَن الوفدُ -أو مَن القَومُ- قَالوا: ربيعةُ فقال: مَرْحَبًا بالقوم -أو بالوَفدِ- غيرَ خَزايا ولا نَدامى."[2]**

وكما أن الترحيب يشعر النفس بالرضا والقبول, كذلك المديح والثناء، فقد كان من حسن تعامله ρ مع وفوده أن يمتدحهم ويثني على مواقفهم, وكان لوفد عنزة نصيب من هذا الثناء فعن:**" سلمة بن سعد: أنه وفد إلى رسول الله ρ هو وجماعة من أهل بيته وولده ، فاستأذنوا عليه، فدخلوا فقال: من هؤلاء ؟ قيل له: هذا وفد عنزة فقال: بخ بخ بخ نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون مرحبًا بقوم شعيب وأختان موسى[3] ، سل يا سلمة عن حاجتك قال: جئت أسألك عما افترضت عليَّ في الإبل والغنم والعنز، فأخبره، ثم جلس عنده قريبًا، ثم استأذنه في الانصراف فقال له : انصرف! فما غدا أن قام فقال: اللهم ارزق عنزة كفافًا لا قوت ولا إسرافًا"[4].** امتدح ρ عنزة ووصفهم بالنصر، ثم رحّب بهم بطريقة عظيمة، حيث أشاد بصلتهم بالأنبياء ونسبتهم إلى شعيب وموسى -عليهما السلام-, ثم يلتفت إلى الوافد

---

1 علم النفس النبوي,26 .

2 صحيح البخاري, 45/1.

3 جاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري: نعم الحي عنزة مبغي عليهم منصورون رهط شعيب وأختان موسى. 112/7.

4 صحيح البخاري, 45/1.

ويتلطف معه مناديًا باسمه، مما يشعر بقربه من نفسه, بل ويتيح له المجال ليسأل حاجته, وينهي حواره بدعاء بث السرور والأمل في نفس الوفد, فتتابعت المؤثرات النفسية في هذا اللقاء من ترحيب ومدح ودعاء.

كذلك أثنى ρ على وفد الأزد حين قدموا عليه فقال ρ: **"مرحبًا بكم, أحسن الناس وجوهًا, وأصدقه لقاء, وأطيبه كلامًا, وأعظمه أمانة, أنتم مني وأنا منكم, وجعل شعارهم مبرورًا وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة"[1].**

وقد أكرم ρ هذا الوفد كرامة نفسية عظيمة بقوله: أنتم مني وأنا منكم، بعد أن امتدحهم بطيب الخَلق والخُلق, وإن كان أشاد بنسبة وفد عنزة لشعيب وموسى, فهو ينسب الأزد لنفسه ρ ، وهذا غاية التأثير النفسي في الوفد .

وقدر ρ القبائل التي سبقت إلى الإسلام دون قتال أو تهديد والتزمت بموادعتها للدولة الإسلامية, مكبرًا -عليه الصلاة والسلام- تلك الأسبقية والمسالمة فيهم, فأثنى عليهم ومدحهم ودعا لهم, وقارنهم بالقبائل التي اتخذت موقفًا معاديًا للرسول ρ ولرسالته في أعوامها الأولى, مما ترك فيهم أثرًا عميقًا, وزادهم تمسكًا بالإسلام, ومن تلك القبائل قبيلة همدان, إذ قدم: **"قيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي على رسول الله وهو بمكة، فقال: يا رسول الله! أتيتك لأومن بك وأنصرك, فقال له: مرحبًا بك أتأخذوني بما فيَّ يا معشر همدان؟ قال: نعم! بأبي أنت وأمي، قال: فاذهب إلى قومك، فإن فعلوا، فارجع أذهب معك، فخرج قيس إلى قومه، فأسلموا واغتسلوا في جوف المحورة، وتوجهوا إلى القبلة، ثم خرج بإسلامهم إلى رسول الله فقال: قد أسلم قومي وأمروني أن آخذك، فقال النبي: نعم وافد القوم قيس، وقال: وفيت وفى الله بك ومسح بناصيته وكتب عهده على قومه" [2].** لقد جاء دعاء رسول الله ρ بعد أن سأل همدان سؤالاً أوحى بالوضع النفسي والاجتماعي الذي كان ρ يعيشه إذ لم يكن له من الأنصار

---

1 الطبقات الكبرى , 1 /337-338.
2 المصدر السابق, 340/1.

إلا قلة قليلة, فضلاً عن حالة العداء التي كان يلقاها من كفار مكة, لذا كان من الضروري أن يشير ρ لهذا الوفد بحقيقة موقف الإسلام من خلال سؤالهم عن إمكان اتباعه مع هذه الصعوبات التي يجدها, وقد كان موقف همدان عظيمًا بما أبدوه من قناعة وتمسك بالدين، لذا استحق وافدهم هذا الدعاء .

وتعد قبيلة أسلم[1]، وقبيلة غفار[2] من أقدم القبائل العربية المقيمة حول المدينة التي أعلنت إسلامها مبكرًا , وقد أعطاها ρ أفضلية بين القبائل, إذ أثنى عليها, وعمد إلى الجمع بينهما في الثناء لتزامن إسلامهما وتأييدهما للدولة الإسلامية وخدمتها[3], ومما لاشك فيه أن الدعاء له وقع محبب ومؤثر في النفس، فكيف إذا كان هذا الدعاء صادرًا من رسول الله ρ وهو مستجاب الدعوة من الله -سبحانه وتعالى-. لقد دعا ρ لهاتين القبيلتين بما يلائم مسمى كل منهما، إذ قدم من أسلم جماعة **" فقالوا: قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء، فقال رسول الله: أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها "[4].**

ولهذا الأثر الكبير لدعائه ρ في نفوس الوفود فقد تعمدت بعض القبائل أن تسأله الدعاء لها, شاكية القحط والجدب الذي أصاب بلادها, كوفد بني مرة حيث جاءوا النبي ρ وهو في المسجد، فقال الحارث بن عوف: **" يا رسول الله! إنا قومك وعشيرتك نحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول الله ρ، وقال للحارث: أين تركت أهلك؟ قال: بسلاح وما والاها, قال: فكيف البلاد ؟ قال: والله إنا لمسنتون وما في المال مخ فادع الله لنا, قال رسول الله ρ: اللهم اسقهم الغيث فأقاموا أيامًا ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم، فجاءوا رسول الله ρ مودعين له فأمر بلالاً أن يجيزهم فأجازهم بعشر أواق؛ عشر أواق فضة ، وفضل الحارث بن عوف**

1 علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول ρ , 377.
2 المصدر السابق, 385.
3 المصدر السابق,381.
4 الطبقات الكبرى, 354/1. وجاء في صحيح البخاري: «أَسْلَمُ سالمها الله، وغِفارُ غفرَ اللهُ لها».1293/3.

أعطاه اثنتي عشرة أوقية, ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرة فسألوا متى مطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا رسول الله ρ فيه، فقدم عليه قادم بعد وهو يتجهز لحجة الوداع فقال: يا رسول الله! رجعنا إلى بلادنا فوجدناها مضبوطة مطرًا لذلك اليوم الذي دعوت لنا فيه، ثم قلدتنا أقلاد الزرع في كل خمس عشرة ليلة مطرة جودًا، ولقد رأيت الإبل تأكل وهي بروك وإن غنمنا ما توارى من أبياتنا فترجع فتقيل في أهلنا، فقال رسول الله: الحمد لله الذي هو صنع ذلك"[1]، فترك دعاؤه ρ أثرًا بالغًا في نفوس بني مرة لم ينقطع بمغادرته -عليه الصلاة والسلام- بل استمر ذلك الأثر دهرًا بما وجدوه من أمطار روت الأرض وأحيت الزرع والكلأ وأغنت المرعى, وقد اعترفوا بذلك لرسول الله، فأرجع الفضل كله لله, والنبي -عليه الصلاة والسلام- لم يكتف بالعطاء المعنوي لبني مرة من خلال الدعاء لهم بالرزق، بل أكرم مثواهم وأمر بإجازتهم فأجزل لهم العطاء.

وكان ρ النموذج الفريد للإنسان العربي, الذي اتصف بأنبل صفات الجاهلية التي أقرها الإسلام, من كرم وحسن ضيافة, فكان أجود الناس وأسخاهم, وكان يجزل العطايا للوفود على الرغم من قلة الموارد الاقتصادية للدولة الإسلامية في سنيها الأولى, تقديرًا منه ρ لهم, وتأليفًا لأفئدتهم, إذ كانت أغلب تلك الوفود تأتي فتعلن إسلامها تم تعود إلى ديارها, وقد كان لهذا التعامل أثر نفسي بالغ في نفوس القبائل ساهم في ترغيبهم في الإسلام ومحبتهم له.

وحظيت قبيلة عبد القيس بتقدير بالغ منه ρ ذلك أنها أسلمت طائعة دون قتال، فدعا لهم بذلك، فيروي أبو خيرة الصنابحي قال **:"كنا في الوفد الذين أتينا رسول الله من عبد القيس فزودنا الأراك نستاك به فقلنا: يا رسول الله! عندنا الجريد، ولكنا نقبل كرامتك وعطيتك، فقال رسول الله: اللهم اغفر لعبد القيس إذ أسلموا طائعين غير خزايا ولا موتورين"[2]**. ولم يكتف ρ بالدعاء لوفد عبد القيس وامتداحهم، بل إنه امتدح نساءهم، مما كان له بالغ الأثر في قلوبهم،

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,282/2-283.
2 الآحاد والمثاني, 285/3.

كيف لا وكل منهم يستمع لنبي الله ρ وهو يشهد لأمه وأخته وزوجته وابنته بل وكل نساء قبيلته بأنهم خير أهل المشرق، حيث استقبل القبلة وابتهل ودعا للوفد ثم أثنى على نسائهم قائلاً:" **إن خير أهل المشرق نساء عبد القيس"**[1].

فعن شهاب عن عباد أنه سمع بعض وفد عبدالقيس وهو يقول: «**قدمنا على رسول الله ρ فاشتد فرحهم بنا، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا, فقعدنا فرحب بنا النبيّ صρ ودعا لنا، ثم نظر إلينا فقال: من سيدكم وزعيمكم ؟ فأشرنا جميعًا إلى المنذر بن عائذ، فقال النبيّ ρ : أهذا الأشج؟ فكان أول يوم وضع عليه هذا الاسم لضربة بوجهه بحافر حمار، فقلنا: نعم يا** رسول الله**! فتخلف بعد القوم فعقل رواحلهم وضم متاعهم ثم أخرج عيبته فألقى عنه ثياب السفر ولبس من صالح ثيابه ثم أقبل إلى النبيّ ρ ، وقد بسط النبيّ ρ رجله واتكأ, فلما دنا منه الأشج أوسع القوم له وقالوا: ههنا يا أشج، فقال النبيّ ρ واستوى قاعداً وقبض رجله: ههنا يا أشج، فقعد عن يمين النبيّ ρ واستوى قاعدًا فرحب به وألطفه, ثم سأل عن بلاده وسمى له قرية الصفاد والمشقر وغير ذلك من قرى هجر فقال: بأبي وأمي يا رسول الله! لأنت أعلم بأسماء قرانا منا، فقال: إني وطئت بلادكم وفسح لي فيها، قال: ثم أقبل على الأنصار فقال: يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم فإنهم أشباهكم في الإسلام وأشبه شيء بكم شعارًا وأبشارًا، أسلموا طائعين غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا، فلما أن قال: كيف رأيتم كرامة إخوانكم لكم وضيافتهم إيّاكم؟ قالوا: خير أخوان ألانوا فرشنا وأطابوا مطعمنا وباتوا وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا وسنة نبينا ρ، فأعجب النبيّ ρ وفرح بها ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على ما تعلمنا وعلمنا، فمنا من تعلم التحيات وأم الكتاب والسورة والسورتين والسنة والسنتين، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: هل معكم من أزوادكم شيء؟ ففرح القوم بذلك وابتدروا رحالهم فأقبل كل رجل معه صبرة من تمر فوضعها على**

---

1 مسند الإمام أحمد , 206/4.

نطع بين يديه وأومأ بجريدة في يده كان يختصر بها فوق الذراع ودون الذراعين، فقال: أتسمون هذا التعضوض؟ قلنا: نعم، ثم أومأ إلى صبرة أخرى، فقال: أتسمون هذا الصرفان قلنا: نعم، ثم أومأ إلى صبرة فقال: أتسمون هذا البرني؟ فقلنا: نعم، قال: أما أنه خير تمركم وأنفعه لكم، قال: فرجعنا من وفادتنا تلك فأكثرنا الغرز منه وعظمت رغبتنا فيه حتى صار عظم نخلنا وتمرنا البرني، قال: فقال الأشج: يا رسول الله! إن أرضنا أرض ثقيلة وخمة وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة هيجت ألواننا وعظمت بطوننا؟ فقال رسول الله ρ: لا تشربوا في الدباء والحنتم والنقير، وليشرب أحدكم في سقائه يلاث على فيه، فقال له الأشج: بأبي وأمي يا رسول الله رخص لنا في هذه! فأومأ بكفيه وقال: يا أشج إن رخصت لكم في مثل هذه وقال بكفيه هكذا شربته في مثل هذه وفرج يديه وبسطها -يعني أعظم منها- حتى إذا ثمل أحدكم من شرابه قام إلى ابن عمه فهزر ساقه بالسيف، وكان في الوفد رجل من بني عصير يقال له: الحارث قد هزرت ساقه في شرب لهم في بيت تمثله من الشعر في امرأة منهم، فقام بعض أهل ذلك البيت فهزر ساقه بالسيف قال: فقال الحارث: لما سمعتها من رسول الله ρ جعلت أسدل ثوبي لأغطي الضربة بساقي وقد أبداها الله لنبيه ρ». [1]

وهكذا تعددت المؤثرات النفسية لهذا الوفد في لقائه مع رسول الله ρ، ويمكن تلمسها فيما يأتي:

1- استقبل ρ الوفد بالترحيب وبادره بالدعاء, مما أوحى لهم بالقبول والرضا منه ρ .

2- حرص ρ أن يسأل عن كبير الوفد ومتحدثهم الرسمي، مما يشعر بأهمية الوفد وسماع ما جاء لأجله .

1 مسند الإمام أحمد,235/5.

3- أبدى ρ اهتمامًا برئيس الوفد الأشج, وأفسح له المجلس, ودعاه للجلوس بجانبه, بل إن في تغيير وضع جلوسه ρ ما يشير إلى بالغ احترامه للوفد ممثلاً في رئيسه المنذر ابن عائذ.

4- بدأ ρ حواره مع المنذر بالترحيب ثم بالسؤال عن بلاده وملاطفته بذكر مواضع بلادهم ومنازلهم, وهذا الاهتمام بأمر الوفد .

5- استطاع أن يقرب المسافات الروحية بين النبي ρ وبين الأشج الذي أبدى سرورًا كبيرًا وعجبًا بحديث النبي ρ ومعرفته ببلاده.

6- انتقل -عليه أفضل الصلاة والسلام- بالحوار من الوفد إلى أصحابه من الأنصار, وناداهم نداء عامًّا, أوصاهم فيه بعبد القيس, مضمنًا تلك الوصية الثناء عليهم وامتداحهم بالمسارعة إلى الدين طاعة من عند أنفسهم, وقد تركت هذه الوصية أثرًا عظيمًا في نفوس الوفد الذين شعروا بأهميته وبتلك الحفاوة التي لم يقتصر ρ على نفسه فيها، بل دعا الأنصار جميعًا للمشاركة في إكرام عبد القيس وحسن استقبالهم.

7- عزز النبي ρ شعور الاهتمام بالوفد من خلال التفاته إليهم وسؤاله عن حسن إكرام الأنصار لهم, بل وفي قوله: "إخوانكم" ما أشعر الوفد بعظيم المنزلة عنده ρ, فهم أخوة الأنصار الذين ناصروا الدعوة منذ بداياتها. وفي هذا تشريف أيّما تشريف.

8- اختص النبي ρ هذا الوفد بالحديث معهم رجلاً رجلاً، ولم يحادثهم محادثة عامة، وكان لذلك أثره في نفوسهم.

9- لم يقتصر حوار النبي ρ مع الوفد على أمور الدين والعقيدة, بل حادثهم في أمور الحياة الأخرى, وسألهم عن أنواع التمر وظهر لهم معرفته ρ بالأنواع التي وضعوها أمامه ممتدحًا تمر البرني[1], مما أشعر الوفد بمشاركته ρ لمختلف أمور حياتهم .

10- لقد كان من أبرز الآثار النفسية التي ترتبت على لقاء عبد القيس برسول الله ρ أن اطمأنوا فسألوه أن يبيح لهم شرب الخمرة معللين طلبهم بطبيعة أرضهم, بيد أنه ρ رد عليهم بالرفض معللاً كذلك سبب هذا النهي فلو رخص لهم بقليله لأكثروا منه, مشيرًا ρ بيديه, مما أعطى أثرًا بالغًا في الوصف أكده بذكر ما يترتب على شرب الخمرة من ذهاب العقل واعتداء المرء على أخيه, وقد أذهل هذا الوصف الوفد إذ انطبق ما تحدث به ρ على رجل منهم, فكان ذلك أبلغ في تصديقهم وقناعتهم .

واختلفت موضوعات الحوار بين النبي ρ وبين الوفود فلم تقف عند حدود الدين وشرائعه, بل إنه حاورهم في أمور الحياة الأخرى، مما كان له أثر حميد في نفوسهم , جعلهم يأنسون بحواره ومحادثته حول شتى نواحي الحياة, فكما سأل وفد عبد القيس ووفد سدوس عن التمر وأنواعه, نراه يتحدث مع بعض الوفود عن أمور الفن والإبداع من الشعر والخطابة وأيام العرب, فضلاً عن الحديث عن المنازل والديار, فسأل ρ وفد إياد عن خطيبهم قس بن ساعدة وأبدى إعجابًا به، فعن " **ابن عباس قال: لما قدم وفد إياد قال لهم رسول الله: ما فعل قس بن ساعدة؟ قالوا : مات يا رسول الله ! قال: يرحم الله قس بن ساعدة كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة وما أجدني أحفظه، فقال أبو بكر τ سمعته يقول بسوق عكاظ: أيها الناس! اسمعوا واحفظوا ، من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج وسماء ذات أبراج، وبحار تزخر، ونجوم تزهر، ومطر ونبات،**

---

1 وسأل ρ وفد سدوس عن تمرهم كذلك، فعن "عبد الله بن الأسود قال: خرجنا إلى رسول الله ρ وفد سدوس، فقدمنا عليه ومعنا تمر جذامي مهدية إليه رجعنا به من البرور برور بني عمير، فنثرنا التمر بين يدي رسول الله على نطع، فأخذ بكفه فقال: أي تمر هذا؟ قال: قلنا: هذا الجذامي! قال: بارك الله في الجذامي وفي حديقة خرج منها هذا وجنة خرج منها هذا " معجم الصحابة, 2 /85.

وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وضوء وظلام، وبر وآثام، ولباس ومركب، ومطعم ومشرب، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام هنالك، فأقاموا أم تركوا هنالك فناموا؟ يقسم بالله قس بن ساعدة قسمًا بَرًّا لا إثم في ما لله في الأرض دين أحب إليه من دين قد أظلكم زمانه وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فتابعه، وويل لمن أدركه ففارقه، ثم أنشأ يقول: (مجزوء الكامل)

فِي الذَّاهِبِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ

لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ

وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي الأَصَاغِرُ وَالأَكَابِرُ

لا مَنْ مَضَى يَأْتِي إِلَيْكَ وَلا مِنَ الْبَاقِينَ غَـابِرُ

أَيْقَنْتُ أَنِّي لا مَحَالَةَ حَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

فقال رسول الله: رحم الله قس بن ساعدة[1]،إني لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحده، فقال رجل من القوم: يا رسول الله! لقد رأيت من قس عجبًا، قال: وما الذي رأيت؟ قال: بينا أنا يوما بجبل في ناحيتنا يقال له سمعان في يوم قائظ شديد شذّ سباع كثيرة قد وردت وهي تشرب من الماء، فإذا زأر سبع منها على صاحبه ضربه بيده، وقال: كف حتى يشرب الذي ورد قبلك، فلما رأيته وما حوله من السباع هالني ذلك ودخلني رعب شديد، فقال لي: لا تخف لا بأس عليك إن شاء الله وإذا أنا بقبرين بينهما مسجد، فلما أنست به قلت له: ما هذان القبران؟ قال: هذان قبرا أخوين كانا لي يعبدان الله في هذا الموضع، واتخذت فيما بينهما مسجدًا أعبد الله فيه حتى ألحق بهما، ثم ذكر أيامهما وفعالهما ، فبكى ثم قال: (الطويل)

خليليَّ هبا طالمـا قد رقدتمـا   أجدكما لا تقضـيان كراكمـا

ألم تعلما أني بسمعان مفـرد   ومـا لي فيها من حبيب سواكما

---

1 جاء في البيان والتعريف: رَحِمَ الله قُسًّا إِنَّهُ كَانَ عَلَى دِينِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» .343/2.

أقيم على قبريكما لست نازحا طوال الليالي أو يجيب صداكما

أبكيكما طول الحياة وما الذي يرد على ذي لوعة إن بكاكما

كأنكما والموت أقرب غاية بروحي في قبريكما قد أتاكما

فلو جعلت نفس لنفس وقاية لجدت بنفسي أن تكون وقاكما

فقال رسول الله : يرحم الله قس بن ساعدة"[1].

استمع ρ لخطبة قس على لسان أبي بكر الصديق وأثنى عليه, ثم استمع من الوافد لأبيات قس فأعجب ρ بها وترحم عليه، مما دل على مشروعية الشعر واستماع النبي ρ له وإلقائه في حضرته وإعطاء الوفد الحرية الكاملة في الحديث أمامه حول مختلف الموضوعات الإنسانية, مما جعل للقاء الوفد مع رسول الله ρ أثرًا في نفوسهم زاده استدعاء خطب وأبيات قس بن ساعدة الذي ينتمي لقبيلة إياد وثناؤه عليه.

وذكر امرؤ القيس أمامه ρ , واستمع لبعض أبياته فأبدى رأيه فيه, بيد أنه اختلف عن رأيه في قس بن ساعدة, لما أقبل **"وفد من اليمن فقالو:ا يا رسول الله! لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرىء القيس قال: وكيف ذاك؟ قالوا : أقبلنا نريدك حتى إذا كنا ببعض الطريق أخطأنا الطريق فمكثنا ثلاثًا لا نقدر على الماء فتفرقنا إلى أصول طلح وسمر ليموت كل رجل منا في ظل شجرة، فبينا نحن بآخر رمق إذا راكب يوضع على بعير فلما رآه بعضنا قال والراكب يسمع: (الطويل)**

ولما رأت أن الشريعة همها وأن بياضًا من فرائصها دامي

تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال الراكب: ومن يقول هذا الشعر وقد رأى ما بنا من الجهد؟ قال: قلنا: امرؤ القيس بن حجر، قال: والله ما كذب ! هذا ضارج عندكم، فنظرنا فإذا بيننا وبين الماء نحو خمسين ذراعًا فحبونا إليه على الركب، فإذا هو كما قال امرؤ القيس عليه العرمض يفيء

---

1 بغية الطلب في تاريخ حلب , 1 /420 .

عليه الظل فقال رسول الله ρ ذاك رجل مذكور في الدنيا منسي في الآخرة، شريف في الدنيا خامل في الآخرة بيده لواء الشعراء[1] يقودهم إلى النار" [2].

فكان في تفاعل النبي ρ مع الوفد واستماعه لأبيات امرئ القيس, ثم إبداء رأيه فيه ما يؤكد اهتمامه ρ بحوارات الوفود في شتى المجالات, بل إنه قصد ρ أن يذكر حقيقة امرئ القيس في الدنيا وعاقبته في الآخرة حتى لا يكون مثالاً يغتر به, أو منهاجًا يتمثل بقوله.

وتحدث ρ مع بعض الوفود عن أصنام كانوا يعبدونها؛ مذكرًا إياهم بذلك الضلال الذي من الله عليهم بأن أخرجهم منه إلى نور الإسلام, فكان -عليه الصلاة والسلام- يسأل بعض الوفود عن أصنامهم، فسأل وفد خولان عن صنمهم قائلاً :**" ما فعل عم أنس؟- وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه- قالوا: بشر وعر, بدلنا الله به ما جئت به, وقد بقيت منا بعد بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قد قمنا عليه هدمناه -إن شاء الله- فقد كنا في غرور وفتنة يا رسول الله، إن فتنته كانت أعظم مما عسينا أن نذكره لك، فالحمد لله الذي مَنَّ علينا بك وتنقذنا من الهلكة وما مضى عليه الآباء من عبادته, قال رسول الله ρ : وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟ قالوا: يا رسول الله ! لقد رأيتنا وأسنتنا حتى أكلنا الرمة، ومات الولدان غرمًا، وهلكت ناغيتنا وراعيتنا وحافرنا أو ما ذهب منها, فقلنا أو من قال منا قربوا لعم أنس قربانا يشفع لكم, فتغاثوا فتعاونوا فجمعنا ما قدرنا عليه من عين مالنا، ثم ذهب ذاهبنا فابتاع مئة ثور ثم حشرها علينا فنحرناها في غداة واحدة وتركناها تردها السباع ونحن أحوج إليها من السباع, فجاءنا الغيث من ساعتنا, فأي فتنة أعظم من هذه، فلقد رأينا العشب يواري الرجال ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس. وذكروا لرسول الله ρ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءًا له وجزءا لله بزعمهم، قالوا: كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ونسمي زرعًا آخر حجرة لله -**

---

1 جاء في مسند الإمام أحمد: قال رسول الله ρ: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار».456/2.
2 البداية والنهاية, 219/2.

جل وعز- فإذا مالت الريح بالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس وإذا مالت الريح بالذي جعلناه لعم أنس لم نجعله لله, فذكر لهم رسول الله ρ أن الله -عز وجل- أنزل عليه في ذلك:

❒🕮◆❻⬩❶ 👓⭘☺♉👌 ✶✏ ☎✂❑➔🖪⮹➔⮹♉◆❒ }
🖅🏱🕔⮹➔⬃☼☞🏵👓✂◆❒ ♉♈⬀❷⮹⬩⬂🖁👓✂ ♎⮳♉👌
✶✏ ✂☒⓿🕔⮹♎ ☎✂❑⬈🖁👓⬩✆⬩▭ 👓✡🖮❿⮰🕔◆☼
✂☒⓿🕔⮹♎◆❒ ⬄🏱♐♑♉☺⇳⬉⬧❽♐📪
♎♍🔔•🗎 👓⮹☺⬩▭ ☎ 👓❑✡♏✶✏🔔☒📬◆❸→⌑♉🖁
⑥■🖫♐✆ ⬉✍⮰🕔◆③ •☒⬩▭ ⬀☠♐♑♏✶✏🔔•🗎◆❸→⌑♉🖁
⬉✍⮰🕔◆③ ◆❑←♑⬩▭ ✶✏ ♎♍🔔•🗎 👓◆👌◆❒ ☎ ★✏👓✂
👓◆👌 ◆⬈✏👓⮹♒ 🗏 ⬄🏱♐♑♏✶✏🔔•🗎◆❸→⌖ 🗐⑥■🖫♐✆
③◆⬩⬄⌛→☺←❑♍♎ { [1].

قالوا:وكنا نتحاكم إليه فنكلم, فقال رسول الله ρ: تلك الشياطين تكلمكم, قالوا:فأصبحنا يا رسول الله وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لم يعبده, فقال رسول الله ρ: الحمد لله الذي هداكم وأكرمكم بمحمد ρ"[2]. وهكذا فقد استطاع ρ بسؤاله الوفد عن صنمهم في الجاهلية أن يكشف عن تمكن الإيمان من نفوسهم, إذ أبدوا اعترافًا عظيمًا بجهلهم والضلال الذي كانوا عليه, وأقروا بنعمة الدين والهداية, مشيرين إلى فضل النبي ρ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الشر إلى الخير إذ "إن الاتجاه بالنفس جهة الخير أصعب بكثير من الاتجاه بها جهة الشر، فالاتجاه إلى الشر أدعى إلى جلب المشاعر التي ترضي نزعة النفس النارية وحبها للكبر والشهرة، بينما يدعو اتجاه الخير إلى الصبر والدعة والتفكير وكظم الغيظ ، وهذا أصعب بكثير"[3].

كما سأل ρ وفد أحمس عن أصنامهم, إذ **" قدم قيس بن عزرة الأحمسي في مئتين وخمسين رجلاً من أحمس, فقال لهم رسول الله: من أنتم ؟ فقالوا : نحن أحمس الله- وكان يقال لهم ذاك في الجاهلية- فقال لهم رسول الله: وأنتم اليوم لله, وقال رسول الله لبلال: أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين ففعل, وكان نزول جرير بن عبد الله على فروة بن عمرو**

1 الأنعام, 136 .
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 284/2.
3 علم النفس النبوي, 28 .

البياضي وكان رسول الله يسائله عما وراءه فقال: يا رسول الله! قد أظهر الله الإسلام, وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم، وهدمت القبائل أصنامها التي كانت تعبد, قال: فما فعل ذو الخلصة ؟ قال : هو على حاله قد بقي والله مريح منه إن شاء الله, فبعثه رسول الله إلى هدم ذي الخلصة وعقد له لواءً, فقال: إني لا أثبت على الخيل، فمسح رسول الله بصدره وقال: اللهم اجعله هاديًا مهديًّا, فخرج في قومه وهم زهاء مئتين، فما أطال الغيبة حتى رجع فقال رسول الله : هدمته؟ قال: نعم! والذي بعثك بالحق وأخذت ما عليه وأحرقته بالنار، فتركته كما يسوء من يهوى هواه، وما صدنا عنه أحد، قال: فبارك رسول الله يومئذ على خيل أحمس ورجالها "[1]، فقد حرص ρ على سؤال الوفود عن أصنامهم، وكان خبيرًا بأسمائها, فكان يسأل الوفد عن صنمهم الذي يعبدون ذاكرًا لهم اسمه, مما كان أدعى في التأثير عليهم, فضلاً عن أنه - ρ- سعى إلى مسح كل الآثار الباقية من جاهليتهم, فنراه يتساءل عن انتشار الإسلام, ويأنس بحديث جرير ووصفه لظهور الدين في قومه, ثم يستبشر -عليه الصلاة والسلام- بالقضاء على الأوثان, ويسأل عن ذي الخصلة, بل ويبعث جريرًا لهدمه مؤيدًا إياه بالدعاء والثبات, مختتمًا لقاء الوفد بالدعاء لهم ولخيلهم.

وكان من أهم الآثار الاجتماعية والنفسية لسياسة الدولة الإسلامية تجاه القبائل إزالة كل المظاهر التي لا تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي, ومن أجل اندماج العناصر الجديدة في مجتمع الأمة الإسلامية, وحرصًا منه ρ أن تكون أسماء أبناء أمته لا تتعارض مع ما يدعو إليه من عبودية مطلقة لله , فقد اهتم ρ أن يكون اسم الرجل بعيدًا عن الشرك أو المعاني الدنيئة, أو منسوبًا لأصنام الجاهلية, ولأن تغيير الاسم أمر ليس باليسير- إذ عرف هذا الشخص به في مجتمعه وعند القبائل الأخرى- فقد جهد ρ إلى أن يختار من الأسماء بدائل قريبة من الأسماء السابقة, شرط أن يكون له دلالات محببة إلى النفس ومعان كريمة تعطي المرء الكرامة التي كفلها له الإسلام :

---

1 الطبقات الكبرى ,1 /347 .

×⌀⌀♉♦✍ ✍❑✡⬂✌▪❷⌧✍ ⇳⑨⧫◑⧫♑♐◆❒ }
❼♑× ⬀☠←♑⏲❑✡▫◘◆✍⌧❑◆❒ ⧫⚐⍓⑩✂◆⬈
⌘❷⬄⧫♦⌨⬂♑♐✍✂◆❒ ♑♒❸⍓♑⬂♑♐✍✂
♉●☼⏲♦⌨⌀♒⑩⅄➲♑♐✍✂ ☜✍♉♓✌ ☠←♑⏲❑✡⬂♎⍓♌◆❻◆❒
⇳♊❍☺♉♓✌ ♑❸❷♉✞•🖹 🗐❼■✍♦⬉ ⬄⚐←♑⏲◆☪▫◘⬝⌀⧫▫◆❒
.[1] { ⌖⌧⑩⬁⌀⬂▦⧫✍ ✍❑✡⬂◑■◘⍓⌘

فأبدل ρ أسماء بعض القبائل التي لا تتناسب والدين الإسلامي, أو لا تنسجم والمعاني الحميدة، فقد " **وفد عليه ρ بنو مالك بن ثعلبة فقال: من أنتم ؟ فقالوا: نحن بنو الزنية, قال: بل أنتم بنو الرشدة أحلاس الخيل** "[2].

وقد يغير -عليه الصلاة والسلام- اسم القبيلة, وأسماء بعض أفرادها التي تخالف الدين ومعنى العبودية، كما حدث مع وفد جهينة, فعن أبي عبد الرحمن المدني قال:**" لما قدم النبي المدينة وفد إليه عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهني من بني الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة ومعه أخوه لأمه أبو روعة- وهو ابن عم له- فقال رسول الله لعبد العزى: أنت عبد الله, ولأبي روعة أنت رعت العدو إن شاء الله، وقال: من أنتم ؟ قالوا: بنو غيان, قال: أنتم بنو رشدان, وكان اسم واديهم غوى فسماه رسول الله رشدًا, وقال لجبلي جهينة الأشعر والأجرد هما من جبال الجنة لا تطؤهما فتنة , وأعطى اللواء يوم الفتـح عبد الله بن بدر وخط لهم مسجدهم وهو أول مسجد خط بالمدينة"[3].**

كما أبدل ρ مسمى المواضع كذلك, حتى يكون لاسمها أثر محبب في الروح والنفس, فغير اسم جبل كشر في جرش إلى شكر، إذ قدم عليه وفد الأزد فسألهم **"رسول الله ρ بأي بلاد الله شكر؟ فقال الجرشـيان: ببلادنا جبل يقال له كشر، وكذلك يسميه أهل جرش، فقال: إنه ليس بكشر، ولكنه شكر"[4].**

---

1 الإسراء ، 70 .
2 الفائق في غريب الحديث, 125/2 .
3 الطبقات الكبرى , 333/1.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 294/2.

وقد حرص ρ على تعديل ما سمي بأسماء الله الحسنى أو صفاته, تأدبًا مع الخالق -عز وجل- مبينًا عدم مشروعية إطلاق تلك الأسماء على البشر، لأنه –سبحانه- قد تفرد بها, إذ " **وفد أبو سبرة -وهو يزيد بن مالك بن عبد الله بن الذؤيب بن سلمة بن عمرو بن ذهل بن مران بن جعفي - على النبي ومعه ابناه سبرة وعزيز، فقال رسول الله لعزيز: ما اسمك؟ قال: عزيز, قال: لا عزيز إلا الله أنت عبد الرحمن، فأسلموا "[1].**

وكما كان هدفه ρ من تغيير أسماء القبائل والأشخاص أن تكون متوافقة وهوية الدين الإسلامي, فقد غير ρ أسماء بعض الأشخاص تكريمًا لهم, وإعجابًا بشخصياتهم, فعن **"أبي وائل عن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ρ إذ أقبل راكب فقال له رسول الله ρ : ما اسمك؟ قال: زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير"[2] وقد أبدى ρ لأصحابه إعجابه بزيد الخير حينما قدم مع وفد طيئ قائلاً : " ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه "[3].**

وراعى ρ أسلوب التشويق في حواراته مع الوفود حتى يشد انتباههم, ويسترعي أسماعهم, فعندما قدم عليه وفد عبد القيس قال: **"اللهم اجعلنا من عبادك المنتخبين الغر المحجلين الوفد المتقبلين, قال: فقالوا يا رسول الله! ما عباد الله المنتخبون؟ قال: عباد الله الصالحون ، قالوا: فما الغر المحجلون؟ قال: الذين يبيض منهم مواضع الطهور، قالوا: فما الوفد المتقبلون ؟ قال : وفد يفدون من هذه الأمة مع نبيهم إلى ربهم -عز و جل "[4]** ، فأوصاف النبي التي ذكرها استدعتهم للسؤال عن معانيها, فسألوه عن كل صفة حتى يستوثقوا من معانيها, مما دل على تأثير حديثه ρ فيهم.

---

1 الطبقات الكبرى, 325/1-326.
2 معجم الصحابة ,227/1.
3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,285/2.
4 مسند الإمام أحمد , 207/4.

وكان -عليه الصلاة والسلام- يستخدم أسلوب التبشير والترغيب؛ ليكون ذلك أدعى في التأثير, كالذي رواه أبو عبد الرحمن الجهني قال: **" بينا نحن عند رسول الله ρ إذ طلع راكبان، فقال رسول الله ρ: "كنديان مذحجيان". حتى أتياه، فإذا رجلان من مذحج، قال: فدنا أحدهما إليه ليبايعه، فلما أخذ بيده قال: يا رسول الله! أرأيت من رآك وآمن بك واتبعك وصدقك ماذا له؟ قال: "طوبى له"، قال: فمسح على يده وانصرف، ثم أتاه الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه فقال: يا رسول الله! أرأيت من آمن بك واتبعك وصدقك ماذا له؟ قال: "طوبى له، ثم طوبى له".**[1] فاستطاع ρ من خلال رده على الوافدين أن يبشر من جاء من أمته ρ وآمن به ولم يره أن له من الأجر والنعيم ضعف ما لمن رآه وحدثه.

ثالثًا: الحوار الجدلي:

عندما أطلق القران الكريم لفظ الحوار أطلقه دونما تقييد, بينما قيد الجدل بقوله تعالى: { ←♊❁❍⇧❍❐🕮 "❻♋♎ ⌀☞☹⬆♑♏♏🕎🖃 } مما يؤكد بأن الجدل يوحي بمعنى الخلاف والشجار. وقد ورد لفظ الجدل في القران الكريم تسعا وعشرين مرة كلها في سياق الذم، إلا في موضعين قيدت بقوله تعالى: { ←♊❁❍⇧❍❐🕮 "❻♋♎ ⌀☞☹⬆♑♏♏🕎🖃 } وهي في قوله تعالى:

{ ✁♏⑩⬀⬋⬈ ◗🕎💾■❼🗐 ♒⌧⌛🕎⓿✍⬀ ❻◆🖃■🕎🖮⌧
🖃🕎♏♏🖳⬂♦♋🗏⬁☺⌧❐♋ ❐◆✁♏⑩◙⬂☺⌧❐⬀⇗♋→⬧❐♋
✁♏🖳⬂♦❐❍❁☪◆❐♋ ☎ ❐◆♉⌧🕔⑨♋◙⬂♑←⚐
🖃🕎♏♏♑⬆☹☞⌀ ♎♋❻" 🕮❐❍⇧❍❁♊← }[2]

1 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد, 3/ 135.
2 النحل,125 .

وقوله: { [illegible] }[1].

وفي قوله -جل وعلا- :

{ [illegible] }[2]

ألحق كلمة الحوار؛ ليدلل أنه لم يكن جدلاً متصًفا بالشدة والخصومة, أما في المواضع الأخرى فدل الجدل على افتقاد الحق حينًا[3]، وعدم العلم والهدى حينًا آخر [4]، ولربما دل على نزغ الشياطين في بعض الآيات[5]والمجادلة في آيات الله في أماكن أخرى[6]، وقد يقصد به المجادلة بالباطل أو أمور مستكرهة[7].

لقد شكل الحوار قناة للتواصل منذ الأزل, دل على ذلك حوار الخالق -عز وجل- بداية مع الملائكة حول خلق آدم -عليه السلام-, تبع ذلك الحوار جدلًا استكبر فيه إبليس على أمر الله -سبحانه وتعالى-, ثم كانت سنة الله في الكون أن يكون الحوار أداة للتعارف الإنساني يسير جنبًا إلى سننه في الاختلاف والتباين بين بني البشر لونًا ولسانًا, وعقيدة وإيمانًا, بل إن ذلك التباين يعد آية من آيات الله ومظهرًا من مظاهر عظمته في الكون. وقد تعامل القرآن مع الإنسان على أساس هذه الحقيقة فجعل الحوار لغة لكل الرسالات, وبنى علاقته مع مخلوقاته على مبدأ الحوار الإقناعي المتجلي في القرآن الكريم وليس على أساس القهر والإكراه وذلك من خلال القاعدة العظيمة

---

1 العنكبوت, 46 .
2 المجادلة,1.
3 الأنفال,6و الكهف, 56.
4 الحج ,8.
5 الأنعام ,121 .
6 غافر, 4 .
7 غافر,5.

{ [illegible] } [1]

فاحترم القرآن الكريم حرية الاختيار وأشار –دائمًا- إلى تعدد التوجهات واختلاف الفكر والرأي

{ [illegible] } [2]

وأكد عدم حدوث التبعية المطلقة لرسله ودعواتهم على الصعيد الديني، فكل منهم واجه الرفض والإنكار, كما ألغى حدوث التبعية بين بني البشر عمومًا في كل المجالات

{ [illegible] } [3]

فضلاً عن أنه أكد وجود الآخر وأعطاه الحق في التعبير عن رأيه وعن خلافه حتى مع القرآن الكريم , واستعرض الرأي المخالف بالرغم من أنه خطأ باطل وضلال, فأشار إلى كلام الملحدين الذين أنكروا وجوده:

{ [illegible] } [4]،

وكلام أهل الكتاب من اليهود:

﴿ [illegible] ﴾ [5]، والنصارى ﴿ [illegible] { [illegible] } [6]

وغيرهم من الطوائف التي خالفت كلام الحق, مما يدل على وجود الآخر رغم فساده, فليس مهمشًا أو مبعدًا أو مبتورًا، بل استحضر القرآن الكريم رأيه كاملاً حتى يعطيه الفرصة

---

1 البقرة, 256 .
2 البقرة,148 .
3 البقرة,145 .
4 الجاثية, 24.
5 المائدة, 64.
6 المائدة, 73.

ليتم فكرته ويعبر عن رأيه ثم يدع له الخيار, من أجل الوصول إلى الحق عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، كي يعيش المجتمع الإنساني في إخاء وتواصل، وأمن وأمان، وحب وسلام. وقد أراد سبحانه أن يؤكد عمليًّا ومن خلال القدوة أن النهج السليم في تأسيس وإدارة العلاقات بين البشر، قائم على أساس مبدأ الحوار وحسن استخدامه مع الناس كافة أفرادًا وجماعات، مسلمين وغير مسلمين، واضعًا منهجًا متكاملاً لنبيه الكريم ρ شدد فيه على الحكمة والموعظة الحسنة وعدم الإكراه في الدين، وجعل الكلمة الطيبة سبيلاً للدعوة إلى الدين الحنيف ، فالسيئة والحسنة ليستا سواء. وعلى هذا المنهج الخالد سارت الدولة الإسلامية بقيادة المصطفى ρ الذي راح يسعى بشكل حثيث للحوار من أجل نشرها وإعلاء كلمة الله منذ بعثته متمثلاً القاعدة القرآنية العظيمة :

{ ✂︎🙦🙦⓾⇗⬋⇗ ◑⚇🖫■❼🗐 ◎⌛⚇❿✍⚞ ❻◆✉■⚇⌨◰
✉⚇🙦🙦💻⚐◆⚇▤⇖☺◰◘⚇ ❒◆✂︎🙦🙦◉⚏⚐☺◰❑⇗⇖⚇➔•◘⚇
✂︎🙦💻⚐◆◘○✽☾◆◘⚇ ☎ ❒◆♉◰⏲⑨⚇◉⚏⚐♑⭠⚐
✉⚇🙦🙦◉⚏⚐⭍☹☝⌀≙⚇❻“📖❒❍⇳○✽♊⭠ }[1]

التي فسر فيها ابن كثير قوله تعالى: { ❒◆♉◰⏲⑨⚇◉⚏⚐♑⭠⚐

✉⚇🙦🙦◉⚏⚐⭍☹☝⌀≙⚇❻“📖❒❍⇳○✽♊⭠ }

أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب"[2]..ويقول الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: "... فإنْ كان المدعو يرى أنَّ ما هو عليه الحق أو كان داعية إلى الباطل فيجادل بالتي هي أحسن وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً. ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها فإنَّه أقرب إلى حصول المقصود وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها ولا تحصل الفائدة منها بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها"[3].

---

1 النحل,125 .
2 تفسير ابن كثير, 2/ 917.
3 تفسير ابن سعدي ,93/3 .

وواجه النبي ρ الرفض من قومه, فحاورهم بشتى السبل لكنهم أصروا على الطعن فيما جاء به , وجادلوه وأكثروا جداله, مصرين على أن الحق إلى جانبهم , والنبي ρ يستمع إليهم ويسوق الحجج والبراهين المؤيدة لدعوته بل ويضع نفسه في مستوى من يحاوره، حيث حسم جداله معهم بقوله:

🗐❼■✍⮹➔⬧⧫ ⬀☠→🗎✍✸③⊘⧫ ⬃❐❐🕮 ✎✍❈✡⊘⧫◆❐ }
(1) { 🕮▫✓⊘⌨❿✌ ⧫✍⌚■🖬✿➷ ❼⊘× ⬃❐❐🕮 ❽◈⑨➔♎

في أعظم إشارة لاحترام حرية الآخر في الاختيار تاركًا الحكم لله رب العالمين:

✍◆☪☐✡⬃❹⧫✉ ←➚⮹☺⬂♑⬧⑥ ⬀✍➔🕭 }
✍◆☪☐✡⬃❹⧫✉ ←☒⧫✌⬂▦⧫③ ❍⚐➔⚐ ✍☐✡☙✉◆❻
◆❑➔♎◆❐ ⇯♎✉⮹⬧⬂⧫✍✍⊘✉
(2) { ❶⚐❿⊘🖬⮹➔⬂⧫✍✁ ←⮹✍✸☞☒▦⬂⧫✍✁

وقد انتقل النبي ρ بالنسق النظري المتمثل في القرآن الكريم حول آداب الجدل والحوار إلى البعد التطبيقي من خلال لقاءاته بقريش إبان سني الدعوة الأولى، فعن جابر ابن عبد الله **"قال: اجتمع قريش يومًا فقالوا:انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا, وشتت أمرنا, وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه, فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة, فقالوا :أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ρ, قال: أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ρ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت, وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك, إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك, فرقت جماعتنا, وشتت أمرنا, وعبت ديننا, وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا, وأن في قريش كاهنًا, والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى, أيها الرجل! إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً,**

---
1 سبأ, 24.
2 سبأ ,26.

وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا, فقال رسول الله ρ: فرغت؟ قال: نعم! فقال رسول الله ρ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: "حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"*"إلى أن بلغ" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ " فقال عتبة: حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: لا "[1]. "إن المتحدث البارع هو المستمع البارع الذي لا يقاطع من يحاوره، بل يشجعه على الحديث ويصغي إليه باهتمام, إن كثيرًا من الناس يخفقون في ترك أثر طيب في نفوس من يقابلونهم لأول مرة لأنهم لا يصغون إليهم باهتمام ويستمعون بنصف أذن, إنهم يحصرون همهم فيما سيقولونه لمستمعهم, فإذا تكلم المستمع لم يلقوا له بالاً"[2].

والنبي ρ لم يحسن الإنصات إلى عتبة فحسب, بل إنه منحه فرصة أخرى لإضافة ما يريد بقوله: "فرغت؟"، وفي رواية" أفرغت يا أبا الوليد؟" [3] في دلالة على الأدب الرفيع الذي تحلى به المصطفى ρ , مما دعا عتبة إلى الاستماع إليه والإصغاء لما قالهρ ، فحاول عتبة أن يؤثر بداية في رسول الله عندما وضعه في مقارنة مع والده وجده, محاولاً إقناعه بالفطرة البشرية في الانتماء إلى الآباء والأجداد ودفع الشبه عنهم, والنبي ρ يستمع إليه دونما جواب, متحليًا بالصبر, متسلحًا بسعة الصدر, مانحًا عتبة حرية التعبير عن فكرته دون مقاطعة, بل يتجلى صبره ρ والرجل يصفه بالشؤم, ويحقر من دعوته, ويتهمه بالإساءة لبني قومه وبجلب العار عليهم, والنبي ρ ينأى بنفسه عن الرد عليه بالتجريح, أو أن يسمه بالجهل وقلة الفهم, بل ما زال يستمع باحترام "وهدوء النفس وضبطها وعدم انفعالها مهم جدًّا عند الحوار لأنه يعطي قوة معنوية للمحاور, فتجعله واثقًا بما يحمل من مبادئ وأفكار, قادرًا على طرح وعرض ما عنده بحجة وبرهان, وأما الانفعال والصياح فإنه علامة عجز وضعف في مواطن العقل

---

1 البداية والنهاية, 493/1.
2 فنون الحوار والإقناع, 35.
3 البداية والنهاية, 494/1 .

ومقابلة الحجة بالحجة "[1]، وراح عتبة يتكلم بلغة عالية, عارضًا عروضًا سخية, محاولاً التأثير في رسول الله ρ بمغريات الحياة "المال والنساء", وفيما يبدو جدله مع رسول الله ρ في ظاهره منطقيًّا, حيث ساق له الاحتمالات ووضع بين يديه الخيارات, بيد أنه في حقيقته جدل إقصائي حاول أن يقصي فيه رسول الله ρ عن حقيقة ما بعث لأجله , حيث يصفه وبشكل غير مباشر بالمادية والشهوانية, مبطنًا ألفاظه بمعان مسيئة لأخلاقه ρ من خلال التنويع الذي ساقه في خياراته, والنبي ρ يصل إلى ذروة الحلم والصبر ولين الجانب ، حيث يسأله بتودد "أفرغت يا أبا الوليد؟ "، وكأنه يشير إلى أنه يقبل منه المزيد, فضلاً عن عدم انزعاجه بما ألمح إليه الرجل في حواره؛ ليجيبه بعد ذلك بهدوء, ويسوق له الدليل القاطع من القرآن الكريم موجزًا في عدة آيات حقيقة البعثة وكنه الرسالة العظيمة التي يحملها, وموقف المعارضين للدعوة, بجانب جزاء المصدقين بها, ثم حقيقة خلق الأرض والسماء وما فيهن, ليختم بذكر مصارع عاد وثمود وهي من القضايا المسلم بها عند العرب لمعرفتهم بأحوال الأمم السابقة.

وهكذا كان ρ واضحًا في طرح فكرته, مدللاً عليها بالبرهان الساطع من النص القرآني الكريم الذي جاء مبينًا ومؤكدًا ومحذرًا في آن, بعيدًا عن الغموض والتسفيه أو التقليل من شأن الطرف الآخر.

"لقد اعتصم النبي ρ في جدله معهم بصفات جعلته المثل الكامل للبشر, فقد اعتصم بالحلم والصبر على الأذى وخفض الجناح والرفق وحسن المعاملة, وكان إذا اشتد أذاهم , وانغمروا في الشر إلى لحاهم, قال مقالة الصابر المطمئن: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". وكان إخلاصه ρ لما يدعو له داعيًا لأن يجعل الكثيرين من ذوي العقول النيرة ينساقون لسماع قوله, وإذا سمعوا القرآن خفقت قلوبهم بالإيمان, فمن كتبه الله من السابقين سارع , ومن لم يقدر الله له ذلك سلط عليه من شياطينهم من يوسوس إليه فيفسد عليه ما اطمأن

---

1 أدب الحوار والخلاف في الشريعة الإسلامية ,118.

به قلبه وعمرت به نفسه كما كان شأن عتبة بن ربيعة وغيرهم"[1]. كما يدل على ذلك موقفه مع عامر بن الطفيل حين ساومه على أمور عدة مقابل إسلامه, فما كان منه ρ إلا أن رد عليه ردًّا هادئًا في حوار علت لغته وتضمن التهديد من عامر, فيما ركن إلى الهدوء والرفق والمنطق من رسول الله ρ , روى ابن سعد في طبقاته قائلاً : **" قدم عامر بن الطفيل ابن مالك بن جعفر بن كلاب وأربد بن ربيعة بن مالك بن جعفر على رسول الله، فقال عامر: يا محمد! ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك ؟ قال: ليس ذاك لك ولا لقومك، قال: أفتجعل لي الوبر ولك المدر؟ قال: لا ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس. قال: أو ليست لي لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ثم وليًّا. فقال رسول الله: اللهم اكفنيهما اللهم واهد بني عامر وأغن الإسلام عن عامر يعني ابن الطفيل"[2].**

لقد عمد المشركون في جدالهم مع رسول الله ρ إلى وضع الخيارات والاحتمالات أمامه حتى يلزموه بما أرادوا, بيد أنه كان يجيبهم بالمنطق وبما يملي عليه الحدث دون توتر أو انفعال مهما علت لغة المجادل, فعامر –هنا- ينهي جداله بالتهديد الصريح لرسول الله ρ, والنبي يفضل الصمت معرضًا عن الخوض في جداله بعد أن رأى منه التعاظم والتهديد ليكتفي -عليه الصلاة والسلام- بالدعاء .

وعندما أقام النبي ρ دعائم الدولة الإسلامية أرسى وثيقته النبوية التي تقر لأصحاب الديانات والمذاهب حقوقهم وتكفل لهم الحماية مع احتضان الخلاف بينهم وبين المسلمين في الفكر دون تجاهل أو إلغاء. وحاور ρ أهل الكتاب من اليهود والنصارى وعرض عليهم الدعوة, وناقشهم في معتقدهم مفندًا حججهم, ومؤيدًا كلامه بالبراهين على ضوء ما ورد عندهم في التوراة والإنجيل وما آمنوا به, مدللاً على كلامه بنصوص من القرآن الكريم، فعن ابن

---

1 تاريخ الجدل, 47 .
2 الطبقات الكبرى, 1/ 310.

عباس قال: **«حضرت عصابة من اليهود نبي الله ρ يومًا، فقالوا: يا أبا القاسم! حدثنا عن خلالٍ نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب -عليه السلام- على بنيه، لئن حدَّثتكم شيئًا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام؟ قالوا: فذلك لك، قال: فسلوني عما شئتم، قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، كيف يكون الذكر منه ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليّه من الملائكة ؟ قال: فعليكم عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم لتتابعني؟ قال: فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق، قال: فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى -عليه السلام- هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب -عليه السلام- مرض مرضًا شديدًا، وطال سقمه، فنذر لله نذرًا لئن شفاه الله -تعالى- من سقمه ليحرمن أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل, وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيهما علا كان له الولد والشبه -بإذن الله- إن علا ماء الرجل على ماء المرأة كان ذكرًا بإذن الله، وإن علا ماء المرأة على ماء الرجل كان أنثى بإذن الله، قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد عليهم، فأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، قالوا: وأنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك، قال: فإن وليي جبريل -عليه السلام- ولم يبعث الله نبيًّا قط إلا وهو وليه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك وصدقناك، قال فما يمنعكم من أن تصدقوه ؟ قالوا: إنه عدوّنا قال: فعند ذلك قال الله -عز وجل-:**

} ✂⊠❐←⑨♦⇖ ❧♍♎⊠✍ ♊♦✎ ⇗✍➔♎
▤❼■✍♦⇖ ➀←❍⬩♌❑❽♦✡ ➀←❍❋✡⚐✉⬩▫ ⬩✍③⚐❸⇗♌✐☓⚐♑♌
♎⬩▫⚐✉⚐✉✂ ➀⚐✉⚐♌♌⚐✉ ★✐✍✂ { **إلى قوله عز وجل:**

} ⧫❑⧫⧫ ★   ⬧⧫⧫ ⧫⧫❑⧫⬧
⬧⧫ ⧫⧫⧫⬧ ⧫⧫ ⧫⧫⧫ ⧫⬧⧫ ⧫⧫⧫ •♦
③♦➔⇳◘■☺←❑♍♈ } فعند ذلك
} ◘•⧗♦⧫⧫⬧❑⧫⬧ ❑⧫⧫ ⬧⧫⬧⧫ ⧫⧫⬧⧫ ⧫⬧⧫ {
(1)

"وترى من هذه المناظرة كيف كان النبي رفيقًا بهم, عطوفًا عليهم, يقسم عليهم بأحب أيامهم عليهم ليستدنيهم إليه وفي الوقت نفسه يلزمهم بما عندهم, فيلزمهم بما يقرون، وهكذا يكون المجادل الأريب فكيف إذا كان المجادل رسولاً من رب العالمين" [2]. وفي هذا الحديث إظهار نوع من المعجزة الدالة على صدقه ρ وهو إخباره بهذه المغيبات التي لم يحضرها ولم يقرأ عنها وإنما هي وحي يوحى، فبيان هذا لأهل الكتاب الذين يعلمونه من كتب أنبيائهم فيه مدعاة إلى تصديقهم برسالته ρ، وعليه فيكون في ذلك منهجًا من مناهج دعوته لهم, فقد دعا ρ اليهود في هذا الحديث إلى تصديقه ,حيث أخذ عليهم عهود الله ومواثيقه إن أخبرهم بما سألوه عنه طبق ما يعلمون في كتبهم السماوية المنزلة على أنبيائهم ليؤمنن به وليتابعنه , وقد أخبرهم بما علموا فقامت عليهم الحجة بذلك، ثم بعد ذلك حاولوا التخلص بما لا ينجيهم , وذلك أنهم يعلمون أن جبريل -عليه السلام- هو ولي أنبياء الله كما علموا من كتب الأنبياء من قبل, ويعلمون أيضا أنه ρ لا يكذب، فلابد أن يخبرهم بأنه وليه, فأوردوا شبهتهم الواهية تخلصا مما التزموه وتعهدوا به...ففي الحديث الشريف منهج حكيم وأسلوب عظيم من أساليب الدعوة الإسلامية[3]. وقد انطلق ρ في جدالهم مشترطًا عليهم عدم التعصب لفكرهم الذي جاؤوا يجادلون حوله أو التمسك برأيهم إن بدا لهم بطلانه, لأن الباحث عن الحقيقة لابد أن يقبلها أنّى وجدت, وجدلهم مع رسول الله ρ سيدور حول أصل عظيم، لذلك كان لابد لانطلاق الحوار معهم من التسليم المطلق بأن أحد طرفي الجدال على هدى والثاني على ضلال، فلابد من التعهد والالتزام باتباع الحق من حيث ظهر وتقبل النتائج وعدم المغالطات والمزايدات فيها, بيد

1 مسند الإمام أحمد ,459/1.
2 تاريخ الجدل, 53.
3 منهج الرسول ρ في دعوة أهل الكتاب, 71.

أن ما آل إليه جدال اليهود أكد بأنهم لم يكونوا من الأساس على استعداد نفسي لاتباع الحق مهما كانت الأدلة والبراهين, وما كان جدالهم إلا عن جهل ومكابرة, وحق فيهم ما وصفهم به قوله تعالى:

{ ❒◆✌❁⚐☞⬋☠ ♋❒☐♊ ④❒○⇨✌♦☺♉➚← ☽♏⚐❍●⚈⚞⌨☐
☎ ❒◆♉☐⌫☐➔☐❒♈◆✁ ⇱◆✍■❼▤ ♎➔❒❒▯☝✋☠⬀
☐♌☐✍♓☐☐⚈ ☐♌♌ ③◆▦⚞☽◆⚚←☐■← ❒◆⨯☒❼☑
➚◆✃❶◆✃✠✉☝✋☠⬀ ❒◆♎❷ॐ✃ ▤ ❒◆☽♒♌
③◆❷◆❒⬀✃☎ ▤➔✍☐ ➚◆✃③◆❒⌨ ◆∙ ③⬉◆⬀☝♉☾⬉❒✃☎
☝✋☐✍ ☽❍☐☹☐✉✃ ☽♒❶◆✃ ♊☐☎♌✎☈➚↓❒✇☒
⑥➚♑☐⑤⑨♉☜➚❒☼◆⌨☐ ③◆☽➔❒✌⬉ ✃✍✍☈✎⬈◆×◆
☞☒▦☒❷⬉❒▦✃☎ ☽♒♌⬀ ♎☐⓪☒✃✎ ☽♒◆⚑
♌☐☞⚈◆❷❸← ✃✍✍✿☞❒☐✎♒✉×◆ } (1)

فكان النبي يستحلفهم بأنبيائهم ويلزمهم بهم, بل إنه ركز في حواره معهم على مواطن الاتفاق حتى يكسب ثقتهم,وتعم روح التفاهم, ويفتح أفاقًا من التلاقي والقبول,مما يضيق الجفوة ويجعل فرص الوفاق أكبر والتنازع أقل, ذلك أن الحوار إذا انطلق من القواسم المشتركة بين الطرفين, ومن المنطلقات الثابتة والقضايا المسلم بها, كانت النتائج أفضل وأمكن ردم هوة الخلاف وإجلاء الحقيقة وبيان الحق، " والعقلاء–دائمًا- عندما تتضح لهم الحجة ويظهر لهم البرهان ويرون الدليل الساطع على صحة المسألة يقتنعون بذلك ويعترفون بالحق, أما السفهاء والجهلاء والمغرورون فإنهم يصرون على باطلهم ويجحدون الحق عن علم به لسوء نواياهم وضعف عقولهم وانطماس بصائرهم"[2]، وإذا كان هؤلاء اليهود قد سألوا رسول الله ρ عن غيبيات الزمن الماضي بالسؤال عن الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه, والزمن الحاضر بالسؤال عن منامه ρ وعن وليه من الملائكة, والزمن الممتد بسؤالهم عن تكوين الذكر والأنثى, فإن بعضهم قد أتى النبي ρ بتحد أبعد من ذلك جعله في سياق الزمن المفتوح إلى يوم القيامة, حيث سأله عن غيبيات المستقبل من خلال مصير الناس يوم القيامة, منطلقًا في أسئلة تأخذ بعضها برقاب بعض, ورسول الله ρ يجيب والرجل يصدق كلامه, حتى أنهى ذلك الجدل وهو

---

1 الأنعام, 25.

2 أدب الحوار في الإسلام, 27.

على يقين من صدق محمد ρ, عن ثوبان مولى رسول الله ρ، قال:**" كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ، فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ:السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ! فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلاَ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ρ:«إِنَّ اسْمِي محمد الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ρ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فَنَكَتَ رَسُولُ اللهِ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «سَلْ» فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ρ:«هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ»، قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ» قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ» قَالَ: فَمَا غَدَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا» قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، إِلاَّ نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلاَنِ. قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ. قَالَ جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟ قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلاَ مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله، وَإِذَا عَلاَ مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ الله» قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ρ :«لَقَدْ سَأَلَنِي هذَا عَنِ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ، وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ. حَتَّى أَتَانِيَ الله بِهِ».**[1]

ومثلما جادل ρ اليهود من أهل الكتاب، فقد جادل النصارى كذلك، بيد أن جدله مع النصارى" كان قليلاً؛ لبعدهم عنه ρ وعدم اختلاطهم بالمسلمين إلا قليلاً"[2]، فحاور الرسول ρ نصارى نجران في مسجده في المدينة واستقبلهم وأحسن وفادتهم, وعندما حان وقت الصلاة

1 صحيح مسلم, 3 /184.
2 تاريخ الجدل, 53.

"قاموا يصلون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله دعوهم"[1]، ولم يجد ρ حرجًا في استقبالهم وأدائهم طقوسهم أمام المسلمين في مسجده,وفي ذلك ما يؤكد حسن تعامله وسماحته وتلطفه معهم دون النظر إلى الخلاف العقدي بينه وبينهم, بل لقد احترم دينهم وأتاح لهم ممارسة شعائره حتى يؤلف قلوبهم, فاستقباله لهم في مسجده مع مخالفتهم لدينه, وقيامهم بتأدية صلاتهم المخالفة لصلاة المسلمين واستقبالهم المشرق خلافًا لقبلة المسلمين إنما كان من داعي التسامح وترغيبهم في قبول الحق, ثم يأتي المشهد الثاني في لقاء هذا الوفد حيث "أتوا النبي فأعرض عنهم ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا! فانصرفوا يومهم ذلك، ثم غدوا عليه بزي الرهبان، فسلموا عليه فرد عليهم ودعاهم إلى الإسلام"[2]، فأعطاهم النبي ρ درسًا عمليًّا في آداب الحوار، حيث لم يبدأ معهم الحوار لما لمحه منهم من تعاظم وكبر وخيلاء, فأراد أن يروض نفوسهم, وأن لا يصرفهم تعاظمهم عن قبول الحق والاستماع إليه، لذلك أعرض عنهم حتى ألقوا عنهم تلك الثياب، بل إنه -ρ- علل ذلك بقوله: "والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم"[3]،وانطلقوا في جدال النبي ρ **"ثم ساءلهم وساءلوه فلم تزل به وبهم المسألة حتى قالوا له:ما تقول في عيسى فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى يسرنا إن كنت نبيًّا أن نسمع ما تقول فيه؟فقال رسول الله:ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى فأصبح الغد، وقد أنزل الله هذه الآية:**

[illegible]

---

1 الطبقات الكبرى, 357/1.

2 الطبقات الكبرى, 357/1.

3 البداية والنهاية, 934/1 .

✍✁♦☼◆➚✏✍✁❁❍⧅⬧◆❑ ⬀⬁➚✍◆➚✏✍✁❑✡⬀⬁❑🕮◆❑
✍✁❑✡❁❍➔⬢☼❑🕮◆❑ ⬀☠➚✍◆➚✏✍✁❁❍⧅⬧◆❑
⬀⬉✗✗♦☺⬀⌛♦☼ ❍⚐➔⚐ ⬀☠➚⬢❁❍➔⬢☼❑🕮◆❑
❼■✍♦⬉ ★✏✍✁✂ ❁⬧◆☪⬀➔⅄♋ ⬉⬜➔⇳⬈◆☪⬥
✂✍✁♋⬂⌛⬜❍⓿✆⬁⬀⧅✓⬥✗ } (1)

فأبوا أن يقروا بذلك, فلما أصبح رسول الله ρ الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميل له وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة, وله يومئذ عدة نسوة, فقال شرحبيل لصاحبيه: قد علمتما أن الوادي إذا اجتمع أعلاه وأسفله لم يردوا ولم يصدروا إلا عن رأيي, وإني والله أرى أمرًا ثقيلاً, والله لئن كان هذا الرجل ملكًا متقويًا فكنا أول العرب طعن في عينه ورد عليه أمره لا يذهب لنا من صدره ولا من صدور أصحابه حتى يصيبونا بجائحة، وإنا أدنى العرب منهم جوارًا, ولئن كان هذا الرجل نبيًّا مرسلاً فلأعناه لا يبقى على وجه الأرض منا شعر ولا ظفر إلا هلك, فقال له صاحباه فما الرأي يا أبا مريم؟ فقال رأيي أن أحكمه فإني أرى رجلاً لا يحكم شططًا أبدًا، فقالا له: أنت وذاك، قال: فتلقى شرحبيل رسول الله ρ فقال: إني قد رأيت خيرًا من ملاعنتك، فقال: وما هو؟ فقال : حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح، فمهما حكمت فينا فهو جائز، فقال رسول الله ρ: لعل وراءك أحدًا يثرب عليك، فقال شرحبيل: سل صاحبي! فسألهما، فقالا: ما يرد الوادي ولا يصدر إلا عن رأي شرحبيل، فقال رسول الله ρ: كافر أو قال جاحد موفق"[2]، ففي سؤالهم عن عيسى -عليه السلام- مدعاة لأن يتريث النبي ρ في إجابتهم ولم يجد حرجًا في أن يرجئ الإجابة حتى ينزل الله في ذلك قرآنًا، مما يدل على منهجية الجدال معه ρ وحرصه على مصداقية ما يقول وتوكيده بإيراد الأدلة مع كل ما يصدر عنه ρ, ثم إنه ρتلا بين أيديهم ما أنزل الله في ذلك الشأن من آيات, ودعاهم لما أمر به -عز وجل- من مباهلة, بيد أن إيمانهم العميق بصدقه ρ -والذي عُزز من خلال حواراتهم السابقة معه-ألقى في قلوبهم الرعب من ذلك التحدي المطروح؛ لذلك استبدلوه بخيار التحكيم, بل إنهم أبدوا الرضى التام والمسبق على

---

1 آل عمران ,61.

2 البداية والنهاية, 934/1.

الحكم الذي سيصدر عنه -عليه الصلاة والسلام- مما يؤكد انتصار جانب الرسول ρ وبطلان جدالهم. لقد آثر النبي الكريم أن ينهي جداله معهم بهدوء بعد أن رفضوا كل الحجج العقلية والأدلة والبراهين التي ساقها بين أيديهم، وما كانت دعواه للمباهلة إلا إعراضًا عن ذلك الجدل الذي لم يكن ليؤتي أكله بعد أن ظهر له -عليه الصلاة والسلام- قوة إنكارهم ورفضهم لكل الحقائق والأدلة المسوقة.

ويتصل بجدال النصارى ما في تفسير آية { ✃◙↜✍⚐✍ ⬅⬆⬀ ✃✍◆✦ ⬧✋
⧫⬧◌☝❍◌ ⧫❒⬆⬆ ✃✍◆↜❍⬧❻❺ ✃✍◆↜❍◑◌❶⬧◑◑◻ ⇖⚐ }[1]

عن الربيع قال: **" إن النصارى أتوا رسول الله ρ خاصموه في عيسى بن مريم وقالوا من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا, فقال النبي ρ: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى! قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا؟ قالوا: لا! قال: أفلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى! قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئًا إلا ما علم ؟ قالوا: لا! قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء! فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى! قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذي كما يغذى الصبي ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا: بلى! قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ قال: فعرفوه ثم أبوا إلا جحودًا، فأنزل الله -عز وجل-:**

{ ✃◙↜✍⚐✍ ⬅⬆⬀ ✃✍◆✦ ⬧✋ ⧫⬧◌☝❍◌ ⬧☝❍◌
⧫❒⬆⬆ ✃✍◆↜❍⬧❻❺ ✃✍◆↜❍◑◌❶⬧◑◑◻ ⇖⚐ }[2]

---

1 آل عمران, 1-2.
2 تفسير الطبري, 3 /164.

لقد وجه -عليه الصلاة والسلام- لهم عدة أسئلة كانت إدانتهم فيها, مركزًا على القضايا العقدية الكبرى المتمثلة في وحدانية الله وتوحيده بأفعاله وصفاته، وتأكيد بشرية عيسى -عليه السلام-, مستخدمًا ρ معهم الأدلة البرهانية والبدهية التي لا يجحدها إلا مكابر أو معاند, فالإله لا يمكن أن يدخل في بطن امرأة، ولا يمكن أن يأكل الطعام، ولا يحدث الحدث؛ لأن هذه صفات نقص لا تليق بالكمال الإلهي، وقد خلت مجادلته من التعقيدات والتقسيمات الجدلية وكانت استدلالاته واضحة جلية .

ومما تقدم يمكن إجمال حوار الوفود مع رسول الله ρ فيما يلي:

1- يعد الحوار الأداة الأولى التي تواصل بها النبي ρ مع الوفود التي قدمت عليه باختلاف مآربها.

2- يمثل حواره ρ مع الوفود ما جاء في النص القرآني الكريم , فكانت حواراته تطبيقًا للقاعدة القرآنية مستمدًا أوامره ونواهيه وتوجيهاته مما جاء في القرآن, وعليه فقد عني ρ بإيراد الأدلة القرآنية والاستشهاد بها ما أمكن ودعت الحاجة.

3- تنوعت مضامين حواره -عليه الصلاة والسلام- مع الوفود, وشكل الحوار الديني القسم الأكبر من جملة الحوارات الأخرى.

4- أبدى النبي ρ في حواره سعة الصدر والحلم والتسامح حتى مع اختلاف لغات الوافدين، فمنهم من حاوره بلغة جافة قاسية، ومنهم أطال الحوار معه, ومنهم من أساء التصرف, بيد أنه ρ كان سمته اللين والتواضع، ولم يبد انزعاجًا من الوفود، مهما اختلفت أفكارهم وتنوعت حواراتهم, وتباينت مآربهم.

5- لم يكن ρ يبدي للوفد رفضه وغضبه وإنكاره، بل كان من منهجه إذا أنكر على الوفد عملاً أن يبادر بسؤاله" أأسلمتم"؟

6- حرص -عليه الصلاة والسلام- على قضية التعليل لأحكامه وأوامره حتى تكون أبلغ في النفس, وأدعى في التأثير والإقناع.

7- كان -عليه الصلاة والسلام- النموذج الأعلى وخير ممثل لما يصدر عنه من أوامر وتوجيهات, فلم يأت أمرًا نهى عنه, كما لم يترك أمرًا دعا إليه.

8- أحسن ρ استقبال الوفود فأكرم مثواهم وأجازهم ماديًّا ومعنويًّا.

9- كما حاور النبي ρ الوفود التي جاءته معلنة إسلامها، فقد جادل من وقف في وجه الدعوة من المشركين وأهل الكتاب من يهود ونصارى بالكلمة الطيبة امتثالاً للنص القرآني العظيم ﴿ ☎ ❑◆♉⍓🕔⑨♋📾♎⬂♑←🏳 📪♋♐♐📾⅄☹⬃♌ ♎♋❻" 📖❑❍⇳❍✽♊← ﴾ مع إيراد الحجج والبراهين لهم .

10- مثل النبي ρ النموذج الأعلى في جداله مع المخالفين لدعوته, فاحترم أفكارهم ولم يسفهها, وأحسن الاستماع إليهم, وجادلهم بالكلمة الطيبة وساق لهم الأدلة وتحلى بالصبر وسعة الصدر, كما أعرض عن الخوض معهم فيما لا طائل منه.

11- مثلما تنوع حواره ρ مع الوفود موضوعًا، فقد تنوع شكلاً, فتراه تارة يبادر الوفد بسؤال, وتارة يتداخل معه في حواره ومرة يستمع ثم يجيب وفق ما يملي عليه المقام.

الفصل الثالث

البناء الفكري للرسائل

الفصل الثالث

البناء الفكري للرسائل

عرفت البشرية الكتابة منذ الأزل, وتشير مصادر دينية وتاريخية وأدبية إلى أن أول من وضع الكتابة هو آدم -عليه السلام-, وتعلمها نبي الله إدريس -عليه السلام- وعلمها قومه, وتوارثها الأنبياء من بعده حتى سليمان -عليه السلام- الذي أشار القرآن الكريم إلى رسالته المكتوبة لبلقيس ملكة سبأ يدعوها فيها لعبادة الله [1]، يقول -جل شأنه- مشيرًا إلى حديث سليمان للهدهد:

{ [illegible] }[2].

وقد عرف العرب الكتابة بالخط العربي قبل الإسلام بثلاثة قرون, و أصبحت معرفة أهل الجاهلية من العرب بالكتابة من الأمور اليقينية التي يقررها البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس, من خلال الآثار والنقوش, ومن ثم بروز عدد من الكتاب عرفوا بعد ذلك بكتابة الوحي والمواثيق والعهود لرسول الله ρ.[3]

---

1 مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية 59 ، وفن الكتابة وبناء النص قراءة في الأسس المعرفية والتجليات الإبداعية ع 80 /57 .

2 النمل 28- 30.

3 فن الكتابة وبناء النص 57.

واتخذ عرب الجاهلية معلمين يعلمون الصبية القراءة والكتابة, وضروبًا من العلم, وأقامت البيئات المتحضرة كمكة, والمدينة, والطائف, والأنبار, والحيرة, مدارس تعلم الصبية الكتابة والقراءة العربية. [1]

كما كان شرط الرسول ρ في فداء أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة تعليم عشرة من صبيان المدينة ما يدل على شيوع الكتابة في العصر الجاهلي, فضلاً عما يدل عليه ذلك من حرصه ρ على نشر الكتابة بين أصحابه.[2]

وتنوعت موضوعات الكتابة في العصر الجاهلي, فقد كتبوا كثيرًا من شؤون حياتهم, والموضوعات التي كانت تفرضها عليهم حياتهم العلمية والعملية والوجدانية, ومن أبرز تلك الموضوعات التي دونوها: الكتب الدينية, فقد دون أهل الكتاب من اليهود والنصارى كتبهم, وبلغت مصاحف كثيرة, وجدها المسلمون بعد فتح خيبر وردوها لليهود, كما دونوا العهود والمواثيق التي يرتبطون بها فيما بينهم على مستوى الأفراد أو الجماعات، ومما يتصل بكتابة العهود والمواثيق والأحلاف كتابة كتب الأمان, وربما كانت أقل من سابقتها, إذ إنها لا تصدر إلا في حالات لا تتكرر كثيرًا, كما كتبوا الصكوك التي دونوا فيها حساب تجاراتهم, وحقوقهم على غيرهم ومداييناتهم, وثمة ضرب آخر من الصكوك وهو الذي كانوا يكتبون فيه ما يقطعه الوالي أو السيد للمتعرض لنواله, وكان هذا الصك يسمى الوِصر والإصر, وقد يسمى-أيضًا- القِط, ومن موضوعاتهم التي كتبوها -أيضًا- الرسائل التي كانت بين الأفراد, كتبوا فيها شؤون حياتهم وحملوها أخبارهم, كما كانوا يكتبون الرسائل يطلبون فيها العون والنصرة , وكان المسافرون النازحون يكتبون إلى أهلهم بما يعرض لهم من أمور[3].

وبعث ρ معلمًا للبشرية , وتنزل عليه الأمر الإلهي:

---

1 مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية 52.

2 تاريخ الأدب العربي –العصر الإسلامي 129.

3مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية 16-72.

⌧⌨⌫■⌫◆❻ ☜⚐⬄☙☞☞⌫⌫ ▫🕮◆❷⬂🕭☞✂ }
◆⌫■⍰⌧❁ ⬉⬊⬀ ◆⌫■⍰⌧❁ ❽⌫🕭⅄✐☞✂
▫🕮◆❷⬂🕭☞✂ ⬉⌘⬀ ⌫⌫■⍰◆⇖ ⇧♊⌫✌ ⌘♊⌚❁○♦♦❝☞✂
❽⌫🕭⅄✐☞✂ ⬉⌘⬀ ⇖⚐◆❷⬂☞☞❁☞✂ ⌧⌨☙⌫◆❻◆❐
⌘⚐✵⍰◆⬂ ⬉⌀⬀ ☜⚐■⍰⬩☽⬂☞☞⌫⌫ ⌘⚐✵⍰◆⬂
☞✂❝♦♦○❁⌚♊⌘ ✌◆☞ ☞⚐⬄ ③◆➔⬀☹⬩⬀ { [1]

فحرص -عليه أفضل الصلاة والسلام- على مبدأ العلم والقراءة والكتابة, واتخذ من الكتابة أداة مهمة لتدوين شؤون الدولة الإسلامية, وتعدد الكتاّب بين يديه ρ , كما تعددت مهامهم, فمن كتاب للوحي يكتبون الآيات المتنزلة عليه, إلى كتاب الرسائل والبعوث للملوك والقبائل, وكتاب يكتبون حوائجه ρ, وآخرين يكتبون بين الناس معاملاتهم وعقودهم وشؤونهم.

وقد أشار القدماء إلى كتاب رسول الله ρ, فذكر الجهشياري أسماء من ثبت على كتابة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- فـ " علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان كانا يكتبان الوحي, فإن غابا كتبه أبي بن كعب وزيد بن ثابت, وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه, وكان المغيرة بن شعبة والحسن بن نمر يكتبان مابين الناس, وكان عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث والعلاء بن عقبة يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياههم وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء, وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي ..وروي أن معيقيب بن أبي فاطمة حليف بني أسد كان يكتب مغانم الرسول ρ, وكان حنظلة بن الربيع بن الموقع بن صيفي بن أخي أكثم بن صيفي الأسدي خليفة كل كاتب من كتاب النبي إذا غاب عن عمله , فغلب عليه اسم الكاتب وكان يضع عنده خاتمه".[2] كما أشار المسعودي إلى كتاب رسول الله ρ وعقب بعد ذكرهم بقوله: "وإنما ذكرنا من أسماء كتابه ρ من ثبت على كتابته واتصلت أيامه فيها, وطالت مدته, وصحت الرواية

1 العلق 1-5 .
2 كتاب الوزراء والكتاب، 9.

على ذلك من أمره, دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة, إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتبًا ويضاف إلى جملة كتابه"[1].

وهذا التخصص لدى كتاب رسول الله ρ يدل على كثرتهم, فضلاً عن أن من ذكر منهم هو من ثبت على الكتابة عنده -عليه الصلاة والسلام- دون من كتب له على قلة, مما يزيد من إثبات كثرة الكتاب حول رسول الله ρ.

وسأحاول في هذا الفصل الوقوف على كتابات رسول الله ρ من الرسائل التي بعثها إلى الملوك والحكام و مكاتباته للوفود, متلمسة البناء الفكري لكتاباته ρ من خلال ما يأتي:

1- رسائله إلى ملوك العجم والعرب:

أ- رسائل الدعوة إلى الإسلام.

ب- الرسائل لمن أسلم من الملوك والحكام.

2- كتاباته للوفود ، ويأتي في ثلاثة محاور:

أ- العهد والميثاق.

ب- الأمان.

ج – العطاء.

تعد العرب من أهم الأقوام التي مارست مظاهر العلاقات العامة مع غيرها من الشعوب منذ الجاهلية، وذلك بفعل المؤثرات البيئية المختلفة التي دعتهم إلى إقامة علاقات سلمية على المستوى الداخلي، أي بين القبائل العربية المختلفة, وعلى المستوى الخارجي مع الشعوب المجاورة نتيجة لتأثير جملة من العوامل لعل من أهمها الموقع الجغرافي والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي دفعتهم إلى السفر والتنقل في داخل الجزيرة العربية وخارجها ، مما هيأ لإقامة تلك العلاقات المتبادلة, التي كانت تتم من خلال السفراء ومن ينتدب لتمثيل البلد أو حتى القبيلة, وجاء ρ فغير وجه التاريخ وأخذت تلك العلاقات العامة مظهرًا جديدًا , فإن

---

1 التنبيه والإشراف، 283-284.

كانت سفارات العرب في الجاهلية قد قامت على الأسس التجارية, فإن سفارات الرسول ρ قد استهدفت الدعوة إلى الإسلام ونشر الدين الجديد, لذلك استهل ρ علاقاته الخارجية بإرسال الرسائل , وإيفاد المبعوثين من الصحابة إلى الملوك والحكام, فضلاً عن تلك الكتب التي بعثها -عليه الصلاة والسلام- مع مندوبي القبائل الذين توافدوا عليه, على اختلاف موضوعاتها وأهدافها.

أولاً: الرسائل إلى ملوك العجم والعرب :

بعث النبي ρ للبشر كافة, ولم تقتصر دعوته على قومه فقط, إنما شملت الناس أجمعين, وكما بَعث ρ بعوثه إلى العرب قاطبة, فقد بعث إلى غير العرب من أهل الكتاب, ودعاهم إلى الإسلام, بالترغيب تارة والترهيب أخرى. وقد اتخذ ρ منهجًا حكيمًا في دعوة أهل الكتاب, فدعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة, وجادلهم بالتي هي أحسن, فخاطبهم أولاً في جملة عباد الله أجمعين, داعيًا إلى الله, مرغبًا فيما عنده من ثواب, ومحذرًا من العقاب, ثم اقتضى منهجه الحكيم أن يخصهم بدعوة خاصة, يبلغهم فيها رسالة ربه, ويخبرهم أنه أرسل إليهم بشيرًا ونذيرًا. وكان من منهجه ρ في دعوة أهل الكتاب أن يرسل إليهم الرسل والكتب يدعوهم فيها إلى الله , فأرسل إلى الملوك والحكام رسائله, ولما لم يستجب لدعوته من أهل الكتاب الذين أرسل لهم رسله إلا القليل اضطر إلى تغيير منهج الدعوة, فسير الجيوش جهادًا في سبيل الله, وكان القتال آخر سبل الدعوة التي اتخذها -عليه أفضل الصلاة والسلام.

لقد أتيحت الفرصة للرسول ρ بعد صلح الحديبية لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام داخل الجزيرة وخارجها, لأن الإسلام رسالة عالمية غير محدودة المكان, لذا كان من البدهي أن يقوم الرسول عليه الصلاة والسلام بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم المعاصرين له[1].

---

1 السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية 515, وجامع السيرة 14.

واتخذ " ρ الخاتم في المحرم ونقش عليه: محمد رسول الله وكاتب الملوك في شهر ربيع الأول, ونفذت كتبه ورسله إليهم يدعوهم إلى الإسلام "[1]. وكان من اتخاذه الخاتم ما جاء في حديث أنس τ عندما قال: " لمّا أرادَ النبيُّ ρ أن يَكتُبَ إلى الرُّوم قِيلَ له: إنهم لا يقرَؤُونَ كتابًا إلا أن يكونَ مختومًا، فاتَّخَذَ خاتمًا من فضَّة، فكأني أنظُرُ إلى بَياضهِ في يدِهِ، ونَقَشَ فيه: محمدٌ رسولُ الله».[2] لقد كان في اتخاذه الخاتم -عليه الصلاة والسلام- ما يدل على مراعاته لأحوال المدعوين وعوائدهم, لأن ذلك أدعى إلى استجابتهم, فحرص ρ أن يكتب لهم على النمط الذي عهدوه في مكاتباتهم ,وفي الكتب التي ترد عليهم، لذلك سارع ρ في اتخاذ الخاتم امتثالاً لقوله تعالى:

{ [illegible] }[3]

فكان من حكمته ρ أن يبذل كل الطرق التي تعطي هذه الدعوة الإصغاء والقبول.

أ-رسائل الدعوة إلى الإسلام:

" كان الفرس يحتلون أجزاءً كبيرة من جنوب الجزيرة, وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها, وقد انتشرت ديانة المحتلين في الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم, ومن العبث إرجاع هذا الانتشار إلى الحرية العقلية المحضة, وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم

---

1 وذلك في السنة السابعة للهجرة, التنبيه والإشراف 259.
2 صحيح البخاري، 1074/3.
3 النحل، 125.

التابعة للفرس, والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان, وكان أمراء هذه الأقاليم يعينون من قبل الدولة الحاكمة وينصاعون لأوامرها"[1].

وقد رأى ρ أن يرسل رسله إلى ملوك الدول الكبرى وإلى أمراء الأقاليم المحتلة على حد سواء, يدعوهم فيها إلى الله, ويعرض عليهم الإسلام، وأرسل ρ ستة نفر في يوم واحد في المحرم سنة ست للهجرة[2]،فبعث دُحْية بن خليفة الكلبي[3] إلى قيصر ملك الروم[4]، وأرسل معه كتابًا جاء فيه:" **«بسم اللهِ الرحمن الرَّحيم. من محمدٍ رسولِ الله، إلى هِرَقلَ عظيم الروم. سلامٌ على من اتَّبع الهدَى. أما بعدُ فإني أدعوكَ بدعايةِ الإسلام. أسلِمْ تَسلَم، وأسلِمْ يؤْتكَ اللَّهُ أجرَكَ مرَّتين. فإن تولَّيتَ فإن عليك إثمَ الأريسِيِّين. و{قُلْ يأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}** " [5].

افتتح ρ كتابه بالبسملة, وقد كان من عادة الجاهليين أن يبدؤوا كتبهم بـ "باسمك اللهم" ، وقيل: إن أمية بن أبي الصلت أول من علم أهل مكة ذلك فجعلوها في أول كتبهم[6].

"وكان ρ يكتب كما تكتب قريش باسمك اللهم حتى نزل عليه "اركبوا فيها باسم الله مجراها" فكتب بذلك إلى أن نزل عليه "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" فكتب باسم الله الرحمن, حتى نزل عليه "إنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن

---

1 فقه السيرة، 354.

2 البداية والنهاية 1-778 ، وتاريخ الأمم والملوك 2-84 ، وقد جاء في التنبيه والإشراف: أنه ρ بعث كتبه في العام السابع من الهجرة 256.

3 هو دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج بفتح المعجمة وسكون الزاي ثم جيم بن عامر بن بكر بن عامر الأكبر بن عوف الكلبي صحابي مشهور، أول مشاهده الخندق وقيل: أحد ولم يشهد بدرًا، وكان يضرب به المثل في حسن الصورة، وكان جبرائيل -عليه السلام- ينزل على صورته جاء ذلك من حديث أم سلمة ومن حديث عائشة. الإصابة في تمييز الصحابة 321/2.

4 صحيح البخاري 4/ 1657 و السيرة النبوية ,ابن هشام, 2-381.

5 السيرة النبوية لابن هشام 165/4.

6 مصادر الشعر الجاهلي 73.

الرحيم" فكتب بذلك"[1] . ويؤكد افتتاح كتابه ρ بالبسملة مشروعية التزامها حتى مع مخاطبة غير المسلمين, وقد سبق وخاطب سليمان -عليه السلام- بلقيس بذلك, ثم ينطلق ρ مباشرة إلى التعريف بالمرسل, معرفًا باسمه مكتفيًا بصفة الرسالة, لأن خطابه سيتضمن الدعوة إلى الله ، فقد بدأه بما يمهد لذلك واصفًا نفسه ρ برسول الله.

وفي "قوله: (من محمد) فيه أن السنة أن يبدأ الكتاب بنفسه، وهو قول الجمهور، بل حكى فيه النحاس إجماع الصحابة. والحق إثبات الخلاف"[2]. وفي المقابل يعترف للمرسل إليه بمكانته وسيادته, فيذكره باسمه "هرقل" ثم بملكه "عظيم الروم", وهذا يؤكد للمرسل إليه مكانته, كما يؤكد -بما لا يدع مجالاً للشك- بأنه ρ لا يسعى إلى منازعته في ملكه أو سلبه إياه, وإنما يهدف إلى دعوته, وقد أكد -عليه الصلاة والسلام- هذه الحقيقة بفكرة المسالمة في قوله: " سلام على من اتبع الهدى" وهو في ذلك يحذو حذو موسى وهارون -عليهما السلام- في مخاطبتهما لفرعون عندما أمرهما الله –سبحانه- أن يبدءا كلامهما مع فرعون بالسلام في قوله تعالى:

{ ⧫◆⌧⬅ ⬅■◆⑩ ☜⬧❏➔☽ ☸❁☼ ◆❻ ⬅❏⧫◆
❻◆⧫☜①⧫❻❏ ⧫➔☐◆ ❖ ☐ ⬧➔⧫◆
⧫ ◆❸ ◆❏ ☐➔➔⓿ ☐ ☎ ⑨⇧
☐⧫⬥◆ ☐◆☐ ☐⧫ ☐❻○ ☐ ☎
❏◆ ⧫ ⬧ ❍◆❼ ⬧◆ ☐◆➚☐
⬅⑨☐❽ }"[3].

وينطلق ρ إلى دعوة هرقل, مؤكدًا معنى السلام المشتق منه الإسلام, مرغبًا بأمرين, بدأ بأشدهما تأثيرًا عليه وهو بقاء الملك بقوله: " أسلم تسلم", و لاشك بأن الملك يعني لهرقل الحياة كلها, لذلك حاول ρ التأثير عليه بذلك أولاً, ثم الترغيب بالأجر العظيم من الله, فهو لن ينال الأجر كغيره من الرعية, إنما أجره مضاعف, ثم يرهبه ρ بقوله: " فإن توليت فعليك إثم

---

1 التنبيه والإشراف259.
2 فتح الباري شرح صحيح البخاري، 46/1.
3 طه، 47.

الأريسيين" [1]. والملاحظ هنا أنه لجأ في ترغيبه إلى التذكير ببقاء الملك, ثم بالأجر، بيد أنه في ترهيبه يكتفي ρ بفكرة العقاب المضاعف, كما أشار قبل ذلك إلى الثواب المضاعف, دون الإشارة إلى انتزاع الملك, وهذا ينم على حنكته -عليه أفضل الصلاة والسلام-, حيث يجيد مخاطبة الملوك مكتفًيا بقوله في مبتدأ خطابه " أسلم تسلم", دون الحاجة إلى تكرار فكرة القتال, لكنه ρ أكد مسألة مضاعفة العقاب، لأنه سيحتمل وزره ووزر رعيته, كما أنه سيؤجر على إيمانه وإيمان رعيته من بعده بدعوة الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام-، ثم يختم -عليه الصلاة والسلام- رسالته مقتبسا الآية القرآنية التي تعزز فكرة التقاء الأديان عند حقيقة واحدة, وهي وحدانية الله -سبحانه وتعالى-, وإفراده بالعبادة والتخلي عن الشرك, فرسالته -عليه الصلاة والسلام- ليست بدعًا من الرسالات السابقة, بل هي مؤكدة لما جاء فيها من معاني الدعوة إلى الله, وقد أراد ρ أن يبلُغ ذلك بالطرح القرآني العظيم لما فيه من تأكيد لصحة دعوته, وتأثير في المتلقي من خلال ديانته والاعتراف بها كما جاء بها الرسل دون زيادة أو نقصان.

لقد استطاع ρ بإيجاز بالغ أن يضمن هذا الكتاب رسائل عظيمة ساقها في ألفاظ موجزة شملت السلام, والملك, والثواب والعقاب, والعقيدة أيضًا. وهاجت حاشية هرقل لاكتراث القيصر بهذه الرسالة وازدادوا هياجًا عندما عرض عليهم –جادًّا أم هازلاً – أن يعتنقوا هذا الدين, وهرقل رجل سياسي, ولا يعنيه من أمر الدين إلا القدر الذي يدعم ملكه ويعزز قوته , وقد تولى أمر الدولة في وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلي غليان المرجل, وتثير في الأمة انقسامات مخيفة, وقد حاول التقريب بين وجهات النظر

---

1 اختلف في ضبط الأريسيين على أوجه أحدها بياءين بعد السين,والثاني بياء واحدة بعد السين, وعلى هذين الوجهين الهمزة مفتوحة, والراء مكسورة, والثالث الإرسين بكسر الهمزة وتشديد الراء وبياء واحدة بعد السين, ووردت اليريسيين بياء مفتوحة في أوله وبياءين بعد السين, واختلفوا في المراد بهم على أقوال: الأول وهو أصحها وأشهرها: أنهم الأكارون أي الفلاحون والزراعون, ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك, ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم أسرع انقيادًا فإذا أسلم أسلموا, وإذا امتنع امتنعوا, وهذا القول هو الصحيح. الثاني: أنهم اليهود والنصارى, وهم أتباع عبد الله بن أريس الذي تنسب إليه الأروسية من النصارى. الثالث:أنهم الملوك الذين يقودون الناس إلى المذاهب الفاسدة ويأمرونهم بها . منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب 205-206 .

المتباينة, وجمع الكنائس على مذهب واحد, فعجز وتمرد عليه اليعاقبة في مصر والشام, والكلام في الإلهيات ليس غريبًا عليه, وربما تألقت في نفسه لوقت محدود فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد ,بيد أنها انطفأت لما ستجره على الدولة من خلافات أشق في نظره, وهو الذي لا يعنيه إلا أمر الملك[1].

وأرسل ρ لأمراء الولايات التابعة للروم، ولم يكتف في دعوة أهل الكتاب بدعوة الملوك والزعماء الذين هم من أصل نصراني أو يهودي, وإنما أرسل لمن تنصر من العرب أيضًا, فكتب إلى والي دمشق الحارث بن أبي شمر، وبعث كتابه مع شجاع بن وهب الأسدي[2]، وجاء فيه **:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحرث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك" [3].** لقد كان في دعوته للحارث حاكم دمشق وهو مولّى من قبل الروم ما يدل على حرصه ببلوغ الدعوة إلى كل أنحاء المعمورة , وقد جاء خطابه مشتملاً على ما جاء في خطابه ρ لهرقل, مبتدئًا بالبسملة ثم السلام على من اتبع الهدى, مثبتًا صفة الرسالة لنفسه بقوله: "محمد رسول الله" ، كما زاد الإيمان والتصديق على اتباع الهدى, وجاءت دعوته أكثر تفصيلاً من قوله لهرقل: "أسلم تسلم"، فهو هنا يؤكد معنى الإيمان بالله وحده لا شريك له, ثم يدعم هذه الدعوة بالترغيب ببقاء ملكه إن هو استجاب لها, مكتفيًا بهذه الإلماحة دون اللجوء إلى التهديد المباشر.

لقد ركز ρ على أمر حساس جدًّا, وهو الملك والزعامة، حيث ظن كثير من الملوك والزعماء أن ملكهم سيتبدد بالإسلام, فأراد ρ أن يطمئنهم على أن مكانتهم ستبقى, بل إن

---

1 فقه السيرة، 355.

2 السيرة النبوية لابن هشام 2-381 و البداية والنهاية 1-778 وتاريخ الأمم والملوك 2-84.وهو شجاع بن وهب ويقال بن أبي وهب بن ربيعة بن أسد بن صهيب بن مالك بن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي ذكره بن إسحاق في السابقين الأولين وفيمن هاجر إلى الحبشة وفيمن شهد بدرا وكذا ذكره موسى بن عقبة وابن الكلبي وعروة وقال بن أبي حاتم شجاع بن وهب أخو عقبة من المهاجرين الأولين وروى الطبراني من حديث المسور بن مخرمة قال بعث النبي صلى الله عليه وسلّم شجاع بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني. الإصابة في تمييز الصحابة 256/3.

3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، 453.

الإسلام سيعزز وضعهم السياسي, وسيتوسع نفوذهم بالإسلام, هادفًا ρ إلى التأثير النفسي من خلال تبديد المخاوف, مما يهيئ للانضواء تحت راية الإسلام, ولاسيما أن هؤلاء الزعماء مطاعون في قومهم ولهم التأثير البالغ عليهم، لكن الحارث لم يستجب لدعوة الرسول ρ واستكبر قائلاً: "من ينزع مني ملكي أنا سائر إليه، قال النبي ρ: باد ملكه"[1].

وبعث ρ حاطب بن أبي بلتعة[2] بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية[3]، فقرأ الكتاب فإذا فيه **:"بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله ρ ، وفي رواية عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط, سلام على من اتبع الهدى, أما بعد ! فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين, فإن توليت فعليك إثم القبط,**

{ [illegible] }"[4].

ويلاحظ أن نص كتابه ρ للمقوقس عظيم القبط جاء مطابقًا لنص كتابه لهرقل, بيد أنه أشار –هنا- إلى القبط، وهم أهل مصر[5]، وفي ذلك ما يؤكد عظيم مكانة المقوقس, وكان رد المقوقس على كتاب رسول الله ρ ردًّا حسنًا, "وقبّل الكتاب، وأكرم حاطبًا، وأحسن نزله، وسرحه إلى النبي ρ ، وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين إحداهما أم إبراهيم

---

1 تاريخ الأمم والملوك، 88/2.

2هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي حليف بني أسد بن عبد العزى يقال: إنه حالف الزبير، وقيل: كان مولى عبيدالله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد، فكاتبه، فأدى مكاتبته. اتفقوا على شهوده بدرًا وثبت ذلك في الصحيحين من حديث علي في قصة كتابة حاطب إلى أهل مكة يخبرهم بتجهيز رسول الله ρ إليهم فنزلت فيه { [illegible] } الآية. فقال عمر: دعني أضرب عنقه، فقال: إنه شهد بدرًا واعتذر حاطب بأنه لم يكن له في مكة عشيرة تدفع عن أهله فقبل عذره. الإصابة في تمييز الصحابة 4/2.

3 السيرة النبوية لابن هشام 2-381 والبداية والنهاية 2-778 وتاريخ الأمم والملوك 84/2.

4 المصباح المضي، 535 .

5 لسان العرب (قبط).

وأما الأخرى فوهبها رسول الله ρ لمحمد بن قيس العبدي"[1]، وقيل إن المقوقس لما " فرغ أخذه فجعله في حق من عاج وختم عليه"[2]، ولم يكتف المقوقس بالهدايا التي أرسلها إلى رسول الله ρ ، بل بعث له بكتاب قال فيه:" **لمحمد بن عبد الله – وزاد غيره بسم الله الرحمن الرحيم- من المقوقس، عظيم القبط، سلام عليك أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك"[3] .** وهنا يبدأ كتابه بتقديم الرسول ρ ، وفي هذا دلالة على تعظيم شأنه, بيد أنه ناداه باسم أبيه ولم يصفه بالرسالة, وهذه إشارة لعدم اتباعه ما جاء في كتاب الرسول -عليه الصلاة والسلام-, لكن ذلك لا يعني تكذيبه، إذ خاطبه بلطف وأكد له استيعابه لما تضمنه خطابه ρ, بل أشار إلى سابق علمه بظهور نبي يبعث بعد عيسى- عليه السلام, لكنه اعتقد أنه سيبعث في الشام, وفي هذا التصديق ما يدل على إيمان المقوقس بصدق الدعوة المحمدية, بيد أن أمورًا تمنعه من اتباعه وقد شرحها لحاطب بقوله: " قد كنت أعلم أن نبيًّا قد بقي، وقد كنت أظن أن مخرجه الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله, فأراه قد خرج في العرب في أرض جهد وبؤس, والقبط لا تطاوعني في اتباعه, ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك, وسيظهر على البلاد, وينزل أصحابه هاهنا ,وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفًا, فارجع إلى صاحبك"[4]، وحاول المقوقس إرضاء النبي ρ بذكر الهدايا التي بعثها مع سفير رسول الله وإكرامه له, بل إنه زاد في تأكيده قيمة تلك الهدايا, مفصلاً في ذكرها, خاتمًا كتابه بالسلام على الرسول ρ بخلاف ما جاء في كتابه ρ ، حيث لم يوجه السلام له مباشرة وإنما شرطه بمن اتبع الهدى, ويظهر أن

1 البداية والنهاية، 836/1.
2 الإصابة، 376/6.
3 كتاب النبي، 536.
4 المصدر السابق نفسه .

المقوقس لم يصرح برفضه لما جاء في كتابه ρ كما فعل غيره من الملوك, لكنه استطاع إيصال ذلك بحنكته ورده الحسن.

وبعث ρ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي[1] "ملك النصارى بالحبشة وهو أصحمة بن أبجر"[2] ,وكتب معه كتابًا جاء فيه: **" بسم الله الرحمن الرحيم, من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم[3] ملك الحبشة سلم أنت, فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن, وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته, ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى, فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه, وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته, وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني, فإني رسول الله, وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين, فإذا جاءك فاقرهم, ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله, فقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى "[4]**، فهذه الرسالة حملت معالم الحوار الإنساني المنطقي الديني، الذي لا يمكن أن يقرأها عاقل إلا وجد فيها نفس الإخوة الإنسانية، فليس فيها استعلاء ولا انتقاص ولا تهديد ولا وعيد، إنما فيها دعوة إلى الحق والعقل والمنطق، وإذا قارناها بالرسائل الأخرى وجدناها تحمل خطابًا خاصًّا مختلفًا، لأن الرسول ρ كان قد بعث بعض المسلمين في هجرة معروفة إلى الحبشة، حيث قال: إن فيها ملكًا حليمًا، وهذا يدل على أن علاقة حميمة كانت موجودة سلفًا بين النبي -عليه الصلاة والسلام- وبين ملك الحبشة. لقد بدأ ρ خطابه للنجاشي بمنطق المسالمة في قوله: "سلم أنت" ، مما يوحي بما سيحل على المرسل إليه من سلم وأمان داخلي وخارجي, كما

---

1 السيرة النبوية لابن هشام 381/2 ، وتاريخ الأمم والملوك 88/2. وهو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبدالله بن إياس بن عبد بن ناشرة بن كعب بن جدي بن ضمرة الضمري، أبو أمية، صحابي مشهور، له أحاديث روى عنه أولاده جعفر وعبدالله والفضل وغيرهم. قال ابن سعد: أسلم حين انصرف المشركون من أحد وكان شجاعًا، وكان أول مشاهده بئر معونة فأسره عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأطلقه، وبعثه النبي ρ إلى النجاشي في زواج أم حبيبة وإلى مكة، فحمل خبيبا من خشبته، وله ذكر في عدة مواطن وكان من رجال العرب جرأة ونجدة، وعاش إلى خلافة معاوية، فمات في المدينة. وقال أبو نعيم: مات قبل الستين. الإصابة في تمييز الصحابة 496/4.

2 البداية والنهاية 778/1.

3 ورد اسمه في بعض المصادر "أصحمة" البداية والنهاية 1/ 778.

4 تاريخ الأمم والملوك 89/2.

تدل على تفاؤل النبي ρ برد النجاشي, ثم يتوجه بخطابه إلى المنحى الديني, وهذا ما يميز كتابه ρ للنجاشي عن غيره من الملوك, لقد فطن ρ إلى المكانة الدينية التي كان يتزعمها ملك الحبشة, فضلاً عن تدينه وعميق إيمانه بنصرانيته, لذلك عمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- إلى التأثير على المرسل إليه بفكره الديني, متجاهلاً ρ قضية الملك، ففصل في أسماء الله الحسنى, مقتبسًا من قوله تعالى:

{ [illegible] } [1].

ثم يشهد -عليه الصلاة والسلام- بعيسى بن مريم, ويقر بأنه من روح الله وأمره, ويفصل ρ في حديثه عن عيسى وأمه مريم -عليهما السلام, فلم يكتف بإيمانه بهما، بل إنه يذهب إلى ذكر قصة حمل مريم, ذاكرًا صفاتها الطيبة, مشبها عيسى بآدم -عليهما السلام, فكلاهما من روح الله وأمره,لقد كان في تفصيل رسول الله ρ عظيم الأثر في نفس النجاشي, فهذا الإيمان من نبي أرسله الله حديثًا بنبي بعث قبله يؤكد مصداقية هذه الدعوة, بل إن علمه ρ بحقيقة عيسى وتأكيد أنه من أمر الله وخلقه, ثم ربطه بين خلق عيسى من أم بلا أب مع خلق آدم -عليهما السلام- بلا أم وأب مما يوحي بعظيم قدرة الله, فالذي خلق آدم من عدم قادر على خلق عيسى بلا أب, كل ذلك استطاع ρ أن يؤكده من خلال فكرة التشابه التي ضمنها كتابه, فضلاً عن تأكيد أن عيسى إنما هو رسول مرسل وليس إلها.

وبعد هذه المقدمة الدينية ينتقل ρ إلى الغرض من كتابه, وهو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له, وموالاة النبي -عليه الصلاة والسلام- واتباعه, والإيمان بالذي جاءه من الحق, مركزًا على رسالته في قوله "فإني رسول الله".

---

1 الحشر، 23.

ثم يلتفت ρ إلى قضية مهمة, وهي قضية الرسل الذين حملهم أمر الدعوة, فهو لم يبعث أحدًا من عامة المسلمين, وإنما بعث ابن عمه جعفر وهو من آل بيته ρ, ومع نفر من المسلمين, وفي هذا التذكير ما يدل على عظيم منزلة النجاشي ,حيث تخير له صلى ρ أقرب المبعوثين من أهله, وأمره ρ بإكرامهم , ثم يعود إلى ما بدأ به خطابه ,وهو الدعوة إلى الدين, بيد أنه –هنا- يدعوه مع جنوده, ويحذره من التجبر على الدين, حيث بلغه ρ ونصحه، ويختم كتابه بالسلام بقوله : "والسلام على من اتبع الهدى", وقد أرجأ ρ هذه العبارة ليختم بها كتابه، بينما نجده يفتتح بها كتبه لغيره من الملوك, مما ينم على أهمية هذه العبارة فهي تأتي في كتبه ρ مفتتحة أو مختتمة.

لقد بلغ كتابه ρ للنجاشي غايته, فأسلم وكتب إلى رسول الله ρ كتابًا, جاء فيه : " **بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر ، سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته. من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام أما بعد ! فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى, فورب السماء والأرض أن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقا[1], إنه كما قلت, وقد عرفنا ما بعثت به إلينا, وقد قربنا ابن عمك وأصحابه, فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا, وقد بايعتك وبايعت ابن عمك, وأسلمت على يديه لله رب العالمين, وقد بعثت إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر فإني لا أملك إلا نفسي, وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله! فإني أشهد أن ما تقول حق, والسلام عليك يا رسول الله"[2].**

بدأ النجاشي كتابه بالبسملة محتذيًا ما جاء في كتاب رسول الله ρ, ثم قدم ذكر النبي الكريم تأدبًا وتكريمًا له, واصفًا إياه بالنبوة بقوله: "رسول الله" ما يشعر بمضمون الكتاب وما

1الثغروق: قمع البسرة والتمرة, وقيل: هو ما يلزق به القمع من التمرة, والغلاف مابين النواة والقمع. لسان العرب (ثفرق).
2 تاريخ الأمم والملوك 89/2 .

سيأتي فيه, ويلاحظ أن النجاشي لم يصف نفسه بالملك, لأن إيمانه بالرسول ρ دعاه إلى التأدب في مخاطبته, فهو لا يلتفت لقضية الملك, بل إنه يهتم فقط بهذه الدعوة العظيمة التي وجهت له من رسول الله ρ, ويدل ذلك على حسن تواضع النجاشي, وتأثره البالغ بأمر كتاب رسول الله, ثم يعقب بالسلام التام على نبي الله ناطقًا بالألوهية لله وحده الذي هداه لاتباع الدين, مؤكدًا للرسول -عليه الصلاة والسلام- وصول كتابه, مقرًّا بصدق ما ذكره ρ عن عيسى -عليه السلام- ومطابقته للحقيقة, ثم يؤكد النجاشي اتباعه المطلق لرسول الله ρ، ولكل ما ورد في خطابه, فهو لم يقف عند حد الإيمان بالدعوة, بل إنه طبق كل ما جاء فيه فأكرم مبعوث النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه, وهذا يبين حرص النجاشي على تطبيق كل ما أمر به ρ, فضلاً عن فكرة الانقياد له -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم-, بل إنه يدعم ذلك بالشهادة برسول الله ρ ومبايعته ومبايعة ابن عمه, لأنه المفوض منه ρ، فقد أسلم على يديه, ويعزز النجاشي موقفه الإيماني ببعث ابنه إلى رسول الله ρ ؛ ليوثق عُرا التواصل بينهما, بل إنه يبدي استعداده للقدوم بنفسه والمثول بين يدي الرسول الكريم ρ , وبهذا يكون النجاشي قد بلغ غاية التواضع من ملك تقف الناس ببابه, وتقصد قصره, إلى مؤمن رضي اللحاق برسول الله ρ, معلنا إسلامه واتباع الحق الذي جاء به المصطفى -عليه أفضل الصلاة والسلام-, مكررًا لفظ"رسول الله" إيمانًا به وتصديقًا.

وكما بعث ρ رسله وكتبه إلى نصارى الروم وغيرهم, فقد بعث إلى مجوس فارس أيضًا, وهي القوة العظمى مع الروم آنذاك, فأرسل ρ عبد الله بن حذافة السهمي[1] إلى كسرى ملك فارس[2] ، وهو أبرويز بن هرمز أنوشروان [1] ، وكتب له: **"بسم الله الرحمن الرحيم من**

1 هو عَبْدِ اللَّهِ بنُ حُذَافَة بن قَيس بن عَدِيّ بن سَعِيد بن سَعْدِ بن سَهْم بن عَمْرو بن هُصَيْص القُرَشِي السَّهْمِي، أبو حُذَافَة (س). أسلم قديمًا، وهاجر إلى الحبشة مع أخيه قيس، وقيل: إنه شهد بدرًا، ونزل فيه قوله تعالى: {
} تهذيب التهذيب 179/3.
2 السيرة النبوية 381/2 ، والبداية والنهاية 778/1.

محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى , وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله, وأدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك" (2).

لقد اتبع -عليه أفضل الصلاة والسلام- في خطاب كسرى ما اتبعه في خطاب هرقل, بيد أنه جاء أكثر تفصيلاً, فهو يؤكد فيه مبدأ الإيمان بالله ورسوله من خلال الشهادتين, ثم يدعوه دعوة صريحة للأيمان مبينًا له أنه مبعوث رب العالمين, ليس فقط لقومه وإنما للناس كافة، مضمنا قوله تعالى:

{ ♍︎♏︎♋︎⑩☐❍ ♦︎♌︎♎︎☒✍︎ ♊︎♦︎✌︎ ◆❻☞⓿☪⬉⑩♑︎ ♏︎♍︎
❐◆⬧⑥♦︎♑︎☐✉︎ ☐ ✂♋︎♎︎♍︎ ⬀☐⬧☽ ⬉✌︎⬀ ⬉♦︎✍︎■❼
✂♋︎♍︎♎︎⬂☐⬧🕔︎▦♑︎❷♾︎⇦▫︎♒︎ } (3)

ثم ينحى ρ بخطابه منحى الترغيب والترهيب على حد سواء, فهو يدعوه للإسلام بما يضمن له السلامة والميثاق منه ρ ببقاء ملكه, كما يذكره بزوال ملكه إن هو أعرض ونأى بجانبه عن هذه الدعوة, وهذا ما فعله ρ مع هرقل عظيم الروم, كما عمد إلى تذكيره بمضاعفة العذاب, فهو لن يحمل وزره فقط, بل سيحمل وزر المجوس كافة لأنهم أتباعه ويسيرون وفق نهجه وأمره.

لقد حمل خطابه ρ لأعظم قوتين على الأرض آنذاك –الروم والفرس- دلالات عظيمة توحي بثبات هذا الدين, وتدل على إصرار حامل لوائه على متابعة الدعوة ونشرها عبر أصقاع الأرض, مستصغرًا كل قوة أمام حقيقة الدعوة المتمثلة في قوله -جل شأنه-:

{ ❐◆✌︎♦︎♋︎✎ 🕮︎❐❻⬀♌︎☐▪︎✡︎☐🕓︎⌨︎☐ ☽♑︎⬥⬩ 🗏︎⬥♋︎✎▫︎⍓︎☐☪︎
♍︎♏︎♑︎■✡︎☐♋︎☐⬃ 🗀︎☐⌖︎♑︎❷❸☪︎✂ ❐◆☼◆⓿☞③❷ॐ✂

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء 309/2.

2 تاريخ الأمم والملوك 90/2.

3 يس، 70.

◆◆ ✎□✍□☪♑♋✍✂ ◆❸♦✡⇩🗎❒🕮 ●♊⬀▤🕒♦♑♋◆❒
③♦➔⇳🖬■☺←❑♍♐ } [1]

" إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل, لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم, ويوسعونه جحودًا وكنودًا... فما يكون شأن الروم والعجم وهم يرون العرب دونهم منزلة وحضارة وثقافة وسياسة ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران؟ بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور, فإن ثقافتهم العميقة في سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها تصغر العقبات المفروضة في الطريق وتجعلها-ولو كانت الشم الرواسي- هباءً منثورا"[2].

واستمرت دعوته ρ لملوك العرب والعجم كافة فبعث سليط بن عمرو[3] إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة [4]، وكتب له:**" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر أسلم تسلم واجعل لك ما تحت يديك"[5].**

لقد عرض صلى الله عليه وسلم دعوته على هوذة بن علي بأسلوب التهديد الهادئ الذي يبدد على المرسل إليه كل فكرة للمقاومة , فأخبره صلى الله عليه وسلم في مطلع كتابه بأن هذا الدين سيتوج وسينتشر حتى يصل إلى أقصى ما تصل إليه أخفاف الإبل وحوافر الخيل, وأن هذه الدعوة ستملأ الأرض , مما يحبط أي محاولة محتملة للمقاومة, ثم يعود ρ ليؤكد حقيقة هذا الدين فهو دين المسالمة, لا يسلب الناس حقوقها, ولا ينتزع الملك من أصحابه, مبينا لهوذة أن إسلامه يعني سلامته وبقاء ملكه وما تحت يديه, وهذا لاشك أمر بالغ الأهمية لملك قضى مدة

---

1 سبأ، 28.

2 فقه السيرة، 361.

3 هو سليط بن عمرو بن عبد شمس العامري، تقدم نسبه في الذي قبله وتقدم ذكر أخيه السكران بن عمرو قريبًا وأسلم سليط قديمًا قبل عمر، وقد ذكره ابن إسحاق في مهاجرة الحبشة , وذكره بن إسحاق في تسمية الرسل إلى الملوك، فقال: وسليط بن عمرو أرسله إلى هوذة بن على رئيس اليمامة. الإصابة في تمييز الصحابة 136/3.

4 السيرة النبوية 381/2، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي461/7.

5 عيون الأثر في فنون المغازي والسير342/2 .

طويلة من حياته سيدًا مطاعًا في قومه, لقد حرص ρ في كتابه على التأثير النفسي من خلال حب الملك والزعامة, فاستغل ذلك وجعله منطلقًا لدعوة هوذة بن علي.

وقد كانت ردود ملوك النصارى الثلاثة –هرقل والمقوقس والنجاشي متقاربة, حيث تمهل قيصر وبحث كثيرًا, وسأل عن محمد ρ, ولعله هم بالإسلام بيد أنه بقي على كفره ضنًّا بملكه, وقد كرم مبعوث رسول الله ρ وعظم الكتاب أيما تعظيم, ومثله المقوقس الذي آمن بصدق ما جاء في كتابه ρ, بيد أنه جعل من موقف القبط ذريعة لعدم اتباعه, أما النجاشي فأسلم ولم يخالف, ويظهر من ردات الفعل الثلاثة أنها لم تطلب الملك والتمكين منه ρ بل اكتفت بما هي عليه, بينما يأتي موقف هوذة الذي كان على دين النصرانية ليأخذ طابعًا مختلفًا عن ردود أفعال الثلاثة السابقين, فقد رد على رسول الله ρ بقوله: **" ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله, وأنا شاعر قومي وخطيبهم, والعرب تهاب مكاني, فاجعل لي بعض الأمر أتبعك"**[1].

لقد طمع هوذة في الإمارة ولعل لانتمائه العربي سببًا جعله يطلب التمكين من رسول الله ρ, بل إنه حاول مضاعفة التأثير في النبي -عليه الصلاة والسلام -لا من خلال مكانته السياسية فحسب- بل من خلال مكانته الأدبية أيضًا, وقدرته على إقناع قومه بما يملك من شاعرية وبيان, ثم إنه "أجاز سليطًا أثوابًا من نسيج هجر, فقدم بذلك على رسول الله ρ فأخبره , وقرأ ρ كتابه, فقال: " لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت باد وباد ملكه في يديه"[2].

وكما كان خطاب النبي ρ الدعوي لهوذة توجه بمثله إلى جيفر وعياد ابني الجلندى الأزديين,ملكي عمان, وبعث كتابه مع عمرو بن العاص[3]، وجاء فيه:**" من محمد بن عبد الله**

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والسير 2/ 343.

2 المصدر السابق نفسه , والسيابة: البلح وقيل البسر الأخضر. اللسان:سيب.

3 السيرة النبوية 2/ 381(عياد) هكذا ورد في السيرة النبوية وجاء في مصادر أخرى(عبد) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير340/2، والمصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي449 وورد(عباء). تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي 461/7. وعمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بالتصغير بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر يكنى أبا عبدالله وأبا محمد, وكان يقول أذكر الليلة التي ولد فيها عمر بن الخطاب، قيل: إن إسلامه كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة . الإصابة في تمييز الصحابة 537/4.

إلى جيفر وعياد ابني الجلندى سلام على من اتبع الهدى، أما بعد! فإني أدعوكما بداعية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكم وتظهر نبوتي على ملككما[1].

لقد ركز ρ في دعوته على قضية الملك, بيد أن خطابه هذا ينحى منحى التهديد المباشر على غير ما ورد في رسائله السابقة, فالملك مرهون بإسلامهما, وزواله حاصل بإعراضهما, بل إنه ρ سيحل بخيله في ساحتهما وستغلب نبوته ملكهما, ولعل طبيعة هذين الملكين وظروفهما جعلت النبي ρ يشتد في خطابهما, ولاسيما أن رسول الله ρ كان يراعي طبيعة المرسل إليهم , ويتعامل بحكمة مع تلك الشخصيات, وعلى الرغم من تلك الشدة التي ظهرت في هذا الكتاب، إلا أنه اشتمل كذلك على جانب من الترغيب قدمه ρ على الشدة, حيث وعدهما بالولاية إن أقرا بالدين, وبذلك جعل ρ لهما حرية الخيار بين السلم أو الحرب.

وتميل لغة خطابه ρ إلى التهديد الصريح والأعنف في كتابه ليحنة بن روبة, وسروات أهل أيلة، حيث جاء فيه: **"سلم أنتم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو, فإني لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم, فأسلم أو أعط الجزية, وأطع الله ورسل رسوله وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة, غير كسوة الغزاء, واكس زيدًا كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي رضيت وقد علم الجزية, فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ورسل رسوله, ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله وحق رسوله, وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئًا حتى أقاتلكم, فأسبي الصغير وأقتل الكبير, فإني رسول الله بالحق, أومن بالله وكتبه ورسله وبالمسيح بن مريم أنه كلمة الله ,وإني أومن به أنه رسول الله, وائت قبل أن يمسكم الشر، فإني قد أوصيت رسلي بكم, وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعير، وإن حرملة شفع لكم**

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير340/2.

وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئًا حتى ترى الجيش, وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن يكون منه, وإن رسلي شرحبيل وأبي وحرملة وحريــث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته, وإن لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله , والسلام عليكم إن أطعتم, وجهزوا أهل مقنا إلى أرضكم."[1]

بالرغم من حدة خطابه ρ وصيغة التهديد التي صبغت به إلا أنه يبدأه -عليه والصلاة والسلام- بإلقاء السلام, فهو أساس تعامله ρ مع المسلمين وغيرهم, وهو أصل الإسلام, ثم يعقب بحمد الله –سبحانه- وتوحيده , مدلفًا إلى موضوع كتابه الذي يتجلى في مقدمته عدله ρ وتسامحه حيث لم يبادرهم بقتال قبل أن يرسل إليهم رسله ويضع أمامهم الخيارات المتعددة إما الإسلام أو الجزية أو القتال, وهو يوجه خطابه ليحنة فهو ممثل عن أهل أيلة, وإسلامه يعني إسلامهم, والخيار الذي سيقدم عليه سيتبعه قومه فيه, ثم يذكره بقضية الأمان وبقاء حكمه وأملاكه في البر أو البحر، وأنه مشروط بطاعة الله –سبحانه- وطاعة نبيه , بل إن هذه الطاعة توجب لهم سقوط كل حق كان عليهم من عرب أو عجم, باستثناء حق الله ورسوله فهو قائم عليهم، والنبي ρ هنا يتدرج في خطابه من فكرة السلم إلى الأمان, حتى يصل إلى التهديد, مستعينًا بسفرائه الذين بعثهم, وأمر بطاعتهم كما أمر بطاعة الله ورسوله, مؤكدًا بأنه إن خالفهم ولم يكرمهم ويرضهم فقد آذنه بحرب, وقضية المبعوثين والسفراء كانت من القضايا التي شدد عليها ρ, فقد كان حريصًا على سلامة أصحابه من المرسلين , مهتمًّا بتقديرهم وإكرامهم, ونراه هنا يلح على هذه المسألة بل إنه يجعلها سببًا في الحرب إن لم يلتزم بها المرسل إليه, ثم إنه ρقد بين منهجه الحربي بقوله: " فأسبي صغيركم وأقتل كبيركم"، فهو ρ لا يقتل الأطفال، بل إنه قدم مسألة السبي على القتل لتأكيد سماحة الدين.

1 الطبقات الكبرى 277/2.

لقد لجأ ρ في مطلع كتابه إلى التأثير النفسي في يحنة واستمالته من خلال بقاء ممتلكاته, وإن كان الخطاب بدا حادًّا بيد أن تأثيره كان قويا لما جبلت عليه النفس البشرية من حب للمال, ثم يعود ρ هنا إلى التأثير الديني من خلال ذكر عقيدة المخاطب بل وتصحيحها, فهو ρ نبي الله لكن نبوته لا تعني إنكار ما كان قبله من رسالات فهو مؤمن بالله وكتبه ورسله, ثم يخص عيسى بن مريم بالذكر؛ لأنه ممثل لعقيدة المسيح, ويؤكد -عليه الصلاة والسلام- أنه إنما كان رسول الله , وكلمته ألقاها على مريم.

ثم يعود عليه ρ مركزًا على أمر الرسل الذين بعثهم, وأهميتهم من خلال أربعة أمور: الأول: الأمر بكسوتهم, والثاني: قبول شفاعتهم في يحنة وقومه, والثالث: وجوب طاعتهم والانقياد لهم بما يوجب بذلك الدخول في حماية الله ورسوله ومن يتبع رسوله, وأخيرًا: تحكيمه في أمرهم وقبوله بقضائهم فهم مفوضون منه تفويضًا كاملاً بفعل ما يخدم الدعوة وما يرونه صالحًا, بما يوجب كذلك للمرسل إليه الدخول في ذمة الله وذمة رسوله, ولعل هذه الأمور تدل على مكانة سفرائه ρ وتوسيع صلاحياتهم, فهي لا تقف عند حدود إيصال الكتب والرسائل بل تتجاوز ذلك, ثم يختم كتابه بالسلام المشروط بالطاعة فقط فبدون طاعة وانقياد فلا سلم ولا سلام أكد ذلك بقوله وجهزوا أهل مقنا.

وقدم يحنة بن روبة على النبي وكان ملك أيلة, وأشفق أن يبعث إليه رسول الله كما بعث إلى أكيدر, وأقبل ومعه أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ومن جربا وأذرح, فأتوه فصالحهم وقطع عليهم جزية معلومة وكتب لهم [1] كتاب أمان وسيأتي ذكره في الحديث عن كتب الأمان من هذا الفصل.

وكما خاطب -عليه الصلاة والسلام- الملوك والحكام من خلال كتبه, فقد كتب ρ لشخصيات أخرى لها ما للملوك من مكانة في أقوامهم, وهم العلماء والعبّاد, فبعث إلى الأساقفة

1 الطبقات الكبرى 288/1.

والرهبان تيقنًا منه ρ بأن الرؤساء والعلماء إذا استجابوا لشيء استجابت له باقي الأمة, فبعث إلى أسقفة نجران **"بسم الله من محمد رسول الله إلى أسقفة نجران بسم الله ، فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، أما بعد! ذلكم فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام"[1].** لقد نحا ρ بخطابه هنا المنحى الديني مستدعيًا ذكر الأنبياء السابقين, ثم ينطلق بدعوته من خلال التقابلات الذي يسوقها بين عبادة الله وعبادة العباد وولاية الله وولاية العباد, منهيًا خطابه الموجز بالتخيير بين الدين أو الجزية أو الحرب ولاشيء غير ذلك, حيث ختم كتابه سريعًا بقوله "والسلام" وجعل السلام مطلقًا دون تخصيص، مما يؤكد فكرة الإيجاز في هذا الكتاب.

ب – الرسائل لمن أسلم من الملوك والحكام:

اختلفت ردود الأفعال حول رسائل النبي ρ للملوك والحكام ودعوتهم للإسلام, فرفض بعضهم هذه الدعوة واستهان بها, ورد عليها ردًّا عنيفًا, ككسرى الذي مزق كتاب رسول الله ρ فقال -عليه الصلاة والسلام-: مزق الله ملكه[2], وهدد المنذر بن الحارث وتوعد النبي وصحبه بالقتال, فدعا عليه ρ قائلاً: "باد وباد ملكه"[3] ,ورفض آخرون هذه الدعوة بطرق أخرى, فعمد كل من رعية السحيمي وسمعان بن عمرو إلى رقع دلويهما بكتاب النبي ρ [4], وتقبل بعض الملوك مبعوثي رسول الله ρ, وكانت ردودهم لطيفة بيد أنهم لم يستجيبوا للدعوة خوفًا على زوال ملكهم وغضب شعوبهم, كما فعل عظيم الروم الذي قال لدحية: "والله ! إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل, وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتبنا, ولكني أخاف الروم على نفسي,

---

1 تاريخ اليعقوبي 81/2.
2 تاريخ الأمم والملوك 90/2.
3 المصدر السابق 88/2.
4 الطبقات الكبرى 80/1 -81 .

ولـولا ذلـك لاتبعتـه"[1] , ثـم أعطـاه دنـانير وصـرفه فـأمر النبـي ρ بالـدنانير، فقسـمت علـى المحتاجين[2], وكذلك فعل المقوقس حيث رد على النبي ρ ردًّا حسنًا ولم يؤمن به خوفًا من القبط [3], وأرسل له الهدايا [4].

وبالمقابل أسلم بعض الملوك, وانقادوا لدعوة النبي ρ, كما تقدم في ذكر النجاشي.

وقد بعث ρ كتبه كذلك لمن أسلم من الملوك والرؤساء, فكتب إلى المنذر بن ساوي العبدي [5] ملك البحرين، وبعث كتابه مع العلاء بن الحضرمي[6]، فاستجاب وقال: " قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا, فما يمنعني من قبول دين فيه راحة الدنيا وراحة الموت, وقد عجبت أمس ممن يقبله, وعجبت اليوم ممن يرده, وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله " [7], ثم بعث لرسول الله ρ كتابًا جاء فيه:" **أما بعد: يا رسول الله ! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه, ومنهم من كرهه, وبأرضي مجوس ويهود فأحدث في ذلك أمرك"**[8].

لقد حرص المنذر أن يسأل رسول الله ρ عن أمر من لم يؤمن من قومه وبقي على مجوسيته أو يهوديته, وكيف له أن يتعامل معهم, فرد عليه ρ بقوله:"**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي سلام عليك, فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله, أما بعد: فإني أذكرك الله -عز وجل-, فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه, وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني, ومن نصح لهم فقد نصح لي,**

---

1 تاريخ الأمم والملوك 88/2 .
2 فقه السيرة، 356.
3 المصباح المضي في كتاب النبي الأمي، 536.
4 البداية والنهاية، 836/1 .
5 المنذر بن ساوى بن الأخنس بن بيان بن عمرو بن عبدالله بن زيد بن عبدالله بن دارم التميمي الدارمي, وكان عامل البحرين وكتب إليه النبي ρ مع العلاء بن الحضرمي قبل الفتح فأسلم. الإصابة في تمييز الصحابة 169/6.
6 السيرة النبوية381/2، وتحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي 461/7. والعلاء بن الحضرمي كان اسمه عبدالله بن عماد بن أكبر بن ربيعة بن مالك بن عويف الحضرمي، واستعمل النبي ρ العلاء على البحرين، وأقره أبو بكر، ثم عمر، مات سنة أربع عشرة، وقيل سنة إحدى وعشرين.الإصابة في تمييز الصحابة 445/4.
7 إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون 300/3 .
8 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ 471 .

وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا, وإني قد شفعتك في قومك, فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه, وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم, وإنك مهما تصلح لن نعزلك عن عملك, ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية"[1].

لقد كان في كتابه ρ للمنذر بن ساوى نصح أعقبه ثناء وترغيب, ثم ختمه بالتوجيه. فجاء بناؤه الفكري أكثر توسعًا, وتناول موضوعات عدة صاغها ρ بأوجز عبارة.

وأرسل ρ لوالي همدان حينما بلغه إسلامه قائلاً: **" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى عمير ذي مران ومن أسلم من همدان، سلام عليكم! فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإننا بلغنا إسلامكم مقدمنا من أرض الروم فأبشروا فإن الله تعالى قد هداكم بهداية, وإنكم إذا شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ,وأقمتم الصلاة ,وأديتم الزكاة, فإن لكم ذمة الله وذمة رسوله على دمائكم وأموالكم وعلى أرض القوم الذين أسلمتم عليها سهلها وجبالها, غير مظلومين ولا مضيق عليها، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته، وإن مالك بن مرارة الرهاوي قد حفظ الغيب وأدى الأمانة وبلغ الرسالة فآمرك به خيرًا فإنه منظور إليه في قومه "[2] , وورد في تاريخ اليعقوبي:" على دمائكم وأموالكم وأرض البور التي أسلمتم عليها سهلها وجبلها وعيونها وفروعها غير مظلومين ولا مضيق عليكم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هي زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين"[3]**، فجاءت هذه الرسالة جامعة فهي مبعوثة لكل من أسلم من همدان ممثلة باسم واليهم عمير ذي مران , وقد حدد ρ زمن هذه الرسالة, حيث بعثها بعد مقدمه من أرض الروم, مهنئا همدان بإسلامهم, ومبشرًا لهم بالخير, حيث اختار لهم عز وجل الهداية واتباع النبي -عليه الصلاة والسلام-, ثم يحرص ρعلى تذكيرهم بأركان الدين ودعائمه, من شهادتين وصلاة وزكاة, ويلاحظ أنه ρ لم يذكر الصيام مع أنه

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير239/2.
2 عون المعبود شرح سنن أبي داود 268/8 .
3 تاريخ اليعقوبي 81/2.

كان قد فرض في السنة الثانية للهجرة النبوية الشريفة[1], وكتابه هذا بعد مرجعه من تبوك في السنة التاسعة[2] ,ولعله ρ ركز على أساس الدخول في الدين وهو الشهادتين, ثم اهتم بالعلاقة المتصلة بين العبد وربه والمتمثلة في الصلاة، فإذا صلحت صلح سائر العمل, ثم العلاقة بين الناس أغنيائهم وفقرائهم من خلال مبدأ الزكاة والعطاء, فذكر ρ من أركان الدين ما يخدم خطابه , علمًا منه -عليه الصلاة والسلام- بأن همدان قد فقهت أمر الدين بأركانه.

وجعل ρ هذه الأمور موجبة للدخول في ذمة الله وذمة رسوله ρ على دمائهم بما يقابل فكرة أداء الصلاة المتعلقة بالجسد والروح, وعلى أموالهم –بما يقابل فكرة إخراج الزكاة, وعلى ما يملكونه من الأرض التي أسلموا عليها, مفصلاً ρ في ذلك بذكر سهلها وجبلها بلا ظلم أو تضييق, ثم يؤكد ρ حقيقة حري بالناس وخاصة حديثي العهد بالدين أن يعرفوها, وهي أن الصدقة لا تحل لمحمد ρ ولا لأهل بيته, حتى لا يتوهم أن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- يجمع الزكاة لنفسه ولأهله, ثم يتوجه إلى ضرورة إكرام مبعوثه, فقد أدى ما أنيط به من مهمة،وكان خير سفير لرسول الله ρ ،فضلاً عن مكانته الكبيرة في قومه.

وتكرر مثل هذا الخطاب منه ρ من خلال رسالته التي بعثها لفروة بن عمرو الجذامي[3] عامل الروم على عُمان من أرض البلقاء قائلاً: **"من محمد رسول الله إلى فروة ابن عمرو، أما بعد: فقد قدم علينا رسولك وبلغ ما أرسلت به، وخبر عما قبلكم وأتانا بإسلامك، وأن الله هداك بهداه، إن أصلحت وأطعت الله ورسوله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة"**[4].

وكتب رسول الله ρ إلى أسيحت بن عبد الله صاحب هجر **"أنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك, وإني قد شفعتك وصدقت رسولك الأقرع في قومك, فأبشر فيما سألتني وطلبتني فيما تحب, ولكني نظرت أن أعلمه أو تلقاني, فإن تجئنا أكرمك, وإن تقعد**

1 البداية والنهاية 664/1.
2 السيرة النبوية 322/2.
3 فروة بن عامر الجذامي أو بن عمرو، وهو أشهر، أسلم في عهد النبي ρوبعث إليه بإسلامه، ولم ينقل أنه اجتمع به وبعث فروة بن عمرو إلى النبي ρ رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام، فبلغ الروم إسلامه، فطلبوه فحبسوه، ثم قتلوه . الإصابة في تمييز الصحابة 295/5.
4 الطبقات الكبرى 281/1 .

أكرمك.أما بعد: فإني لا أستهدي أحدًا وإن أهد لي أقبل هديته، وقد حمل عمالي مكانك وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين، وإني قد سميت قومك بني عبد الله، فمرهم بالصلاة وبأحسن العمل والبشر والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين"[1].

لقد بدا في رده ρ على خطاب أسيحت الرضا التام منه ρ ليس عليه وحسب وإنما على مبعوثه الأقرع كذلك, ومن ثم قبوله ρ لشفاعة أسيحت في قومه, وتصديقه لرسوله الأقرع, ثم يبشره -عليه الصلاة والسلام- بإنجاز ما سأله وطلبه في كتابه, لكنه ρ أحب أن يبقي المبعوث عنده حتى يعلمه أمور الدين, ثم يوجه دعوة كريمة لأسيحت كي يأتيه, مؤكدًا بأنه سيجد منه صلى الله عليه وسلم التكريم , بيد أنه استدرك مراعيا صلى الله عليه وسلم ظروفه إن لم يقدر قائلاً: " وإن تقعد أكرمك", وهذا زيادة في تجاوبه صلى الله عليه وسلم مع هذا الحاكم وتقديره, ثم يقر عليه الصلاة والسلام حقيقة مهمة وهي أنه لايطلب الهدايا, لكنه يقبلها إن قدمت له عليه أفضل الصلاة والسلام, وهذا منهجه ρ ، وقد ذكر في خطاب سابق بأن الصدقة لا تجوز له ولا لأهله، وهنا يكمل هذا النهج بأنه لا يطلب الهدية لكنه يقبلها, ثم يوصيه بيد أن وصيته ρ جاءت مختلفة عن وصاياه السابقة، فهو يقدم لها بقوله: "بأحسن الذي أنت عليه" وكأنه يقر للمرسل إليه بأنه عالم بحاله وحسن إسلامه, لكنه يذكره فقط , ويطالبه أن يستمر على تمسكه بالصلاة والزكاة وقرابة المسلمين, ثم يخبره ρ بأنه قد أسمى قومه بني عبد الله تيمنًا بالخير الذي فيهم دالاً على ذلك بقوله فمرهم بالصلاة ويؤكد فكرة أحسن العمل, لينهي خطابه بالسلام عليه وعلى قومه المؤمنين, ووصفه ρ لهم بالمؤمنين يعلل تلك اللغة التي انتقاها ρ في خطاب أسيحت وأراد أن ينقلها لقومه.

---

1 الطبقات الكبرى 281/1.

وكما بعث ρ مهنئًا , فقد بعث لمن أسلم من الحكام مبينًا ما لهم وما عليهم, معطيًا لهم العهد والميثاق, فكتب لأكيدر دومة الجندل "**حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد -سيف الله- في دومة الجندل وأكنافها أن له الضاحية من الضحل, والبور, والمعامي, وأغفال الأرض, والحلقة والسلاح, والحافر والحصن ,ولكم الضامنة من النخل, والمعين من المعمور, وبعد الخمس لا تعدل سارحتكم, ولا تعد فاردتكم**[1] ، **ولا يحظر عليكم النبات, ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات, تقيمون الصلاة لوقتها, وتؤتون الزكاة بحقها, عليكم بذاك العهد والميثاق, ولكم بذلك الصدق والوفاء, شهد الله ومن حضر من المسلمين**". [2] جاء كتابه ρ لأكيدر متضمنًا ما لرسول الله ρ والمسلمين من أرض دومة الجندل, وما سيبقيه لأكيدر وأهل دومة, والملاحظ أنه -عليه والصلاة والسلام- لم يعمد إلى سلب الحقوق, ولم يأخذ ملكًا من أصحابه وإنما أخذ من الماء أقله, وما ليس له عمق , ومن الأرضين الأغفال التي لا مالك لها وكانت خارج حدود العمارة, والأراضي التي لا حد لها, ومن الأسلحة الدروع وما يمتنع به من العدو, والحوافر من الخيل والحصن, وأبقى لهم مقابل ذلك كل ما اشتملت عليه حدود بلدهم, وما كان داخلا فيها من نخل وزروع, ومن الماء الجاري المعين العذب, مما يدخل في حدود العمارة, كما ضمن لهم ρ حرية المرعى فلا تمنع ماشيتهم عن مرعى تريده, ولا تعد الفاردة الزائدة على الفريضة فتحسب عليهم, ثم يبقي لهم حق التصرف في النبات, محددًا ما يؤخذ عليهم منه وهو عشر الثبات من" النخل القديم الذي قد ضرب عروقه في

---

1 الضّاحِيةُ من الضَّحْل: القليل من الماء، وقيل: الماء القريب المكان. الضَّحْلُ: القريبُ القَعْر.والضَّحْل: الماءُ الرقيق على وجه الأَرض ليس له عَمْقٌ.والبُورُ:الأَرض التي لا تزرع.والمَعَامي: المجهولة والأَغفال ونحوها. وفي كتاب النبي: لأُكَيْدِرِ دُومَةَ: ولكُمُ البَوْر والمعامي وأَغفال الأَرض؛ وهي الأَرض الخراب التي لم تزرع. وبارَ المتاعُ: كَسَدَ. وبارَ عَمَلُه: بَطَلَ. الحلقة: اسم لجُملة السِّلاح والدُّروع وما أَشبهها ؛ والحلْقةُ ، بسكون اللام: السلاحُ عامّاً، وقيل: هي الدروع خاصّة. والحافِرُ: من الدواب يكون للخيل والبغال والحمير: اسم كالكاهل والغارب.الحصن: الحِصَانُ: الفَحلُ من الخيل، والجمع حُصُنٌ. الضَّامِنَةُ: من كل بلد: ما تَضَمَّنَ وَسَطَه. والضامِنَةُ: ما تَضَمَّنَتْه القُرْى والأَمْصارُ من النخل، قال أَبو عبيد: الضَّاحية من الضَّحْل ما ظَهر وبَرَزَ وكان خارجاً من العِمارة في البَرِّ من النخل، والبَعْلُ الذي يشرب بعروقه من غير سَقْيٍ. والضَّامِنَة من النحل: ما تضَمَّنَها أَمْصارُهم وكان داخلاً في العِمارة وأَطاف به سُورُ المدينة، قال أَبو منصور: سميت ضامنة لأَن أَربابها قد ضَمِنُوا عمارَتَها وحفظها، فهي ذاتُ ضَمانٍ. والمَعْنُ والمَعِينُ: الماء السائل، وقيل: الجاري عى وجه الأَرض، وقيل: الماء العذب الغزير، وكل ذلك مِنَ السُّهولة. والمَعْنُ: الماءالظاهر،السارحة: أَراد أَن ماشيتهم لا تُصْرَفُ عن مَرْعًى تريده يقال عَدَلْتُه أَي صرفته فَعَدَلَ أَي انصرف والسارحة : هي الماشية التي تَسْرَحُ بالغداة إِلى مراعيها. الفاردة:المنفردة, وفي الحديث: لا تُعَدُّ فارِدَتُكُم؛ يعني الزائدة على الفريضة أَي لا تضم إِلى غيرها فتعد معها وتُحْسَب.اللسان: (ضحا- ضحل- بور- حلق-حفر-حصن- ضمن-معن-سرح-فرد).

2 الطبقات الكبرى349/1.

الأرض وثبت"[1], وبعد أن بين ρ ما لهم وما عليهم عاد فأكد أهمية إقامة الصلاة مشروطة بوقتها, وإيتاء الزكاة مشروطة بحقها, كل ذلك أوجب لهم العهد والميثاق والصدق والوفاء منه ρ مشهدًا على ذلك الله ومن حضر الكتاب من المسلمين.

وكتب ρ لملوك حمير وزعمائها بعد أن قدم رسولهم عليه ρ عقب مقدمه من تبوك, فكتب لهم كتابًا ردًّا على كتابهم, ولما كان اليهود قد دخلوا اليمن قبل الإسلام بمدة طويلة في زمن تبع الأصغر[2], وكان من جملة أهل اليمن في ذلك الوقت كثير من اليهود الذين استوطنوها, فقد ذكر في هذا الكتاب شأن اليهود والنصارى وجاء فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال , ونعيم بن عبد كلال, والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر, أما بعد ذلكم: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ,أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ,فلقينا بالمدينة ,فبلغ ما أرسلتم وخبر ما قبلكم ,وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين, وإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله, وأقمتم الصلاة, وآتيتم الزكاة, وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه, وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين وما سقت السماء, وكل ما سقي بالغرب نصف العشر ,وفي الإبل في الأربعين ابنة لبون , وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر, وفي كل خمس من الإبل شاة , وفي كل عشر من الإبل شاتان ,وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة ,وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة, وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة فمن زاد خيرا فهو خير له, ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين, له ما لهم وعليه ما عليهم, وله ذمة الله وذمة رسوله, وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم, ومن كان على يهوديته

1 المصباح المضي في كتاب النبي423.
2 شرح السيوطي على السنن الصغرى 5/5.

أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها, وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو قيمته من المعافر أو عرضه ثيابًا، فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله, ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله, أما بعد ، فإن رسول الله محمدًا النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن, أن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرة وأصحابهم, وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وبلغوها رسلي, وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيًا, أما بعد، فإن محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله, ثم إن مالك بن مرة الرهاوي قد حدثني أنك أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين, فأبشر بخير وآمرك بحمير خيرًا ,ولا تخونوا ولا تخذلوا فإن رسول الله مولى غنيكم وفقيركم, وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهله, وإنما هي زكاة يتزكى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل, وإن مالكًا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب, وآمركم به خيرًا, وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني وأولي علمهم فآمركم بهم خيرًا فإنه منظور إليهم, والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[1].

بعث ρ هذا الكتاب باسم عدة حكام, ولم يبعثه لواحد بعينه إنما حرص في مقدمته أن يعددهم بأسمائهم؛ ليبين أهمية كل منهم ,ولما لهم من مكانة في حمير, ويكرر فيه الرسول الكريم ما خبره به رسولهم من إسلامهم وجهادهم وهدايتهم, وفي تفصيل رسول الله ρ هذا ما ينم على شدة اهتمامه لما بلغه من رسول حمير, ثم يتجه خطابه ρ إلى المنحى التعليمي بإيضاح كل ما يجب عليهم حتى يثبتوا على هداية الله -جل شأنه- ويبلغوا طاعته وطاعة رسوله, فشرط عليهم إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإعطاء الخمس من المغانم لله ولنبيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة, ثم يفصل -عليه الصلاة والسلام- في زكاة المال فيبدأ بزكاة النخيل,

1 تاريخ الأمم والملوك،191/2. والعَقارُ: المنزل والضَّيْعةُ؛ يقال: ما له دارٌ ولا عَقارٌ، وخص بعضهم بالعَقار النخلَ. يقال للنخل خاصة من بين المال: عَقارٌ.وفي الحديث: مَن باع داراً أَو عَقاراً؛ قال: العَقارُ، بالفتح، الضَّيْعة والنخل والأَرض ونحو ذلك, والغَرْبُ الرَّاوِيَةُ التي يُحْمَلُ عليها الماء. والغَرْبُ دَلْو عظيمة من مَسكِ ثَوْرٍ. ومَعافِرُ، بفتح الميم: حيٌّ من هَمْدانَ .اللسان: (عقر-غرب- عفر).

ويخصص لكل ما سقي من فعل الطبيعة –بعيونها أو أمطارها- وما سقي بفعل الإنسان قدرًا محددًا , ويجعل زكاة ما سقي من الناس بالغرب نصف ما سقته الطبيعة, وفي ذلك دليل على سماحة الدين وتقديره لجهد الإنسان وتعبه, ثم يخصص كذلك زكاة الأنعام فيبدأ بالأكثر استخدامًا عند العرب وهي الإبل, ثم البقر ثم الغنم, ومن أدى ذلك فله ذمة الله ورسوله، ومن أسلم من يهود أو نصارى فله ما للمسلمين. ويدل هذا على حرص رسول الله ρ على مبدأ المساواة بين المسلمين مهما اختلفت أعراقهم ومعتقداتهم،فإن لحاقهم بركب الدين قد أسقط كل تلك الفروقات ولم يبق إلا عامل الدين والمساواة, وبعد أن يقر ρ ما للمسلمين وما عليهم, يتجه بخطابه إلى أصحاب الديانات الأخرى من يهود ونصارى ممن لم يلحقوا بالإسلام ففرض عليهم الجزية وحددها للذكر والأنثى, ثم أوجب لهم بها ذمة الله وذمة رسوله, أما من منعها فقد عادى الله ورسوله.

وبعدئذ ينتقل ρ إلى موضوع جديد, بدأه بقوله : أما بعد، وكأنه كتاب آخر وصى فيه بمبعوثيه خيرًا وعددهم بأسمائهم وأمر بجمع الصدقات والجزية وتسليمها لهم, ويظهر أن رسول الله ρ كان له منهج في إرسال الرسل, فإذا اضطر إلى إرسال أكثر من مبعوث لمكان واحد فإنه يعين لذلك البعث أميرًا يكون الموكل منه ρ عليهم, يتضح ذلك من قوله: "وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيًا"، وينتقل -عليه الصلاة والسلام- من صيغة الأمر إلى التلطف مع المخاطب, إذ بشره بالخير لما بلغه عنه مالك الرهاوي من حسن إسلامه وقتله للمشركين, ثم يوصيه برعيته خيرًا,ويقر حقيقة أمر الصدقة فهي لعامة فقراء المسلمين، ولا تحل لنبي الله ولا أهل بيته, وقد تكرر ذلك في خطابات سابقة, وأخيرًا يختم كتابه مؤكدًا على مكانة مبعوثيه لثلاثة أسباب: أنهم من صالح أهله, ومن أولي الدين, ومن أولي العلم, وهذا جعل لهم مكانة منظورة عند رسول الله ρ, وختم كتابه بالسلام الذي استغنى عنه في مطلع كتابه بالحمد والثناء على الله.

ثانيًا: مكاتباته - صلى الله عليه وسلم- للوفود:

تقدم فيما سبق من هذا الفصل كيف أرسل ρ رسائله إلى الملوك والعظماء يدعوهم إلى الدخول في الإسلام, أو يهنئهم بالامتثال لتلك الدعوة, وقد حمل ρ سفراءه الكرام تلك الرسائل, فاستطاعوا أن يبلغوها في أمانة وإخلاص ودراية وحكمة, وتعد رسائله ρ من طليعة الدعوة الإسلامية,التي سرعان ما ملأت أرجاء المعمورة, وكما أوفد ρ رسله وسفراءه إلى الملوك والحكام ومن هم على مكانتهم, فقد استقبل -عليه الصلاة والسلام- سفراء الوفود, وأقر ρ منذ إنشاء الدولة الإسلامية نظام استقبال الرسل والوفود, وحسن إكرامهم والاحتفاء بهم, وكان أن حمل ρ بعض الوفود رسائل ومكاتبات, أعطاهم فيها العهود والمواثيق, والأمان, وأقر لهم فيها ببعض الأعطيات والإقطاعات, مبينًا ما لهم وما عليهم, ويمكن تقسيم تلك الكتب بحسب موضوعاتها وأهدافها إلى ثلاثة أقسام:

أ- كتب العهود والمواثيق.

ب- كتب الأمان.

ج- كتب العطاء.

أ- كتب العهود والمواثيق:

كان للقاءاته ρ وقع وتأثير بالغين في الوفود التي جاءته على اختلاف أغراضها, ولم تنته مهمة تلك الوفود برحيلهم لبلادهم، بل إنه ρ قد حمل بعضهم كتبًا ومعاهدات كفلت لهم كامل حقوقهم مع ما يتوافق والشريعة الإسلامية السمحة, وجاءت تلك الكتب مفصلة مبينة ما لهم وما عليهم , فضلاً عما تضمنته من نصائح دينية شدد فيها ρ على التمسك بفرائض

الإسلام، وإقامة شرائعه, بيد أن المتأمل في تلك العهود والمواثيق يجد أن النصيب الأكبر فيها جاء في الحديث عن الجزية والزكاة والصدقة, ولعلها كلها أمور تغذي مصالح المجتمع بأكمله, فالرسول ρ قد أعطى تلك القبائل عهودًا ومواثيق, مشروطة بإقامة حق الله وحق عباده, مما يؤكد إنسانية هذا الدين العظيم في التعامل مع الناس, من خلال تطبيق مؤسس تلك الدولة الإسلامية ρ لمفاهيم العلاقات العامة, بما يضمن لكل طرف كامل حقوقه من غير إجحاف أو تمييز.

لقد كتب ρ لأهل نجران كتابًا , بيّن فيه ما يحق لهم التمتع به تحت راية الإسلام, وما فرض عليهم, وذلك بعد أن دخل ρ مع وفد نجران في المجادلة حول فكره الديني, ثم دعاهم -عليه الصلاة والسلام- إلى المباهلة, وانتهى الأمر بأن كتب لهم ρ كتاب صلح[1]. والملاحظ أنه ρ لم يُكره اليهود ولا النصارى على الإسلام، لكنه فرض عليهم الجزية, مبينًا مقاديرها وأزمانها, فجاء في كتابه لأساقفة نجران:" **من محمد النبي رسول الله لأهل نجران:أنه كان له عليهم حكمه في كل ثمرة صفراء, أو بيضاء ,أو سوداء, أو رقيق فأفضل عليهم ,وترك ذلك كله على ألفي حلة من حلل الأواقي, في كل رجب ألف حلة, وفي كل صفر ألف حلة كل حلة أوقية, فما زادت حلل الخراج أو نقصت على الأواقي فبالحساب, وما قبضوا من دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم فبالحساب, وعلى نجران مثواة رسلي عشرين يومًا فدون ذلك, ولا تحبس رسلي فوق شهر, وعليهم عارية ثلاثين درعًا, وثلاثين فرسًا, وثلاثين بعيرًا إذا كان باليمن كيد, وما هلك مما أعاروا رسلي من دروع أو خيل أو ركاب فهو ضمان على رسلي حتى يؤدوه إليهم, ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم وملتهم, وأرضهم وأموالهم, وغائبهم وشاهدهم, وبيعهم وصلواتهم, لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته, ولا راهبًا عن رهبانيته, ولا واقفًا عن وقفانيته وكل**

1 زاد المعاد في هدي خير العباد 634/3.

ما تحت أيديهم من قليل أو كثير, وليس ربًا ولا دم جاهلية, ومن سأل منهم حقًا فبينهم النصف, غير ظالمين ولا مظلومين, لنجران ومن أكل ربًا من ذي قبل فذمتي منه بريئة, ولا يؤاخذ أحد منهم بظلم آخر, وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة النبي أبدًا حتى يأتي الله بأمره إن نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم, شهد أبو سفيان بن حرب, وغيلان بن عمرو, ومالك بن عوف النصري, والأقرع بن حابس, والمستورد بن عمرو أخو بلي, والمغيرة بن شعبة, وعامر مولى أبي بكر"[1].

وجه ρ هذا الكتاب لأهل نجران عامة, مبينا أنه ترك ما كان له عليهم في الثمار والرقيق وأفضل عليهم فاستبدل ذلك بحلل الأواقي, محددًا -عليه الصلاة والسلام- قيمة ما يجب عليهم دفعه من تلك الحلل, وهي ألفا حلة, وكل حلة تساوي أوقية, محددًا كذلك زمن إخراجها, حيث كان من حلمه ρ أن يجعلها على دفعتين تيسيرًا لهم, في كل رجب ألف حلة, وفي كل صفر ألف حلة, "حيث كانت تلك الحلل تصنع محليا"[2]، ولعل هذا التقسيم يصب في صالح المسلمين -أيضًا-لإتاحة فرصة أكبر للانتفاع بتلك الجزية, ويلاحظ أنه ρ قد أعطى نصارى نجران الخيار في الدفع حللاً أو أواقي, يقول أبو عبيد معللاً ذلك :"إن الخراج وقع على الأواقي، لكن الرسول ρ جعله حللاً، لأنه أسهل عليهم من المال"[3] .ولعل هذه الجزية كانت كبيرة قياسًا بما فرضه ρ من جزية على المناطق الأخرى , حتى إن ابن قدامة قد علق على الجزية المفروضة على أهل نجران بقوله: "إن قيمة الجزية على نصارى نجران كبيرة بالنسبة لحديث معاذ بن جبل الذي أخذ من كل حالم دينارًا"[4], وقد ذهب بعضهم إلى تعليل ذلك بأن تقدير الجزية يرجع حسب الاتفاق والمصالحة , وللإمام أن يزيد أو ينقص فيما وقع عليه

1 الطبقات الكبرى 287/1.

2 دبلوماسية محمد، 108.

3 الأموال، 87.

4 المغني 502/8 . أراد بذلك ما ورد في سنن أبي داود من أن النبي ρ عندما أوفد معاذ بن جبل إلى اليمن أمره أن يأخذ جزية من كل حالم دينارًا أو عدله من المعافر. سنن أبي داود 183/2. وقد علل ابن قدامة فرض النبي ρ دينارًا على أهل اليمن لغلبة الفقر عليهم، وقد أخذها منهم ثيابًا لتيسير الأمر عليهم. المغني 502/8.

الصلح من دينار وأكثر[1], ولعل هذا يرجع إلى يسر حالهم آنذاك, وقد أشارت بعض المصادر إلى أن أول من دفع الجزية للرسول ρ هم نصارى نجران [2].

كما أضاف ρ عليهم الدروع والخيول والركاب, وقد فرضت حاجة الدولة الإسلامية في بدايتها, أن تطلب من أهل الذمة المواد العينية؛ لأنها أنفع لسد حاجة المهاجرين في المدينة, يقول الدوري:" فكان أساس صلح نجران هو المواد العينية (الحلل)لأسباب عسكرية"[3] , وكذلك طلب ρ ما يقضي حاجة المسلمين من المواد العينية التي تستخدم في الحرب, كالدروع والخيول.

وبالإضافة إلى الجزية, فقد فرض ρ على أهل نجران ضيافة رسله, وحددها بعشرين يومًا ومادون ذلك, وكانت الضيافة في عهود الصلح توضع على القبائل البعيدة عن المدينة المنورة ,سواء أكانت هذه القبائل شمال الجزيرة أم جنوبها , وذكرت بعض المصادر أن الرسول ρ حدد شرط الضيافة بثلاثة أيام[4], ثم يعود ρ ليؤكد ما فرض عليهم من أسلحة, مشيرًا إلى أهمية إعانة الرسول ρ وصحبه بالسلاح في حال تعرض المسلمون للاعتداء من اليمن.

وتأكيدًا على ما تقدم فقد أعطى -عليه الصلاة والسلام- أهل نجران استقلالهم , ومنحهم كافة الضمانات التي تكفل لهم الأمن والسلام في أنفسهم ,وملتهم ,وأرضهم, وأموالهم وغائبهم, وشاهدهم, وبيعهم وصلواتهم, مؤكدا أيضًا على استقلاليتهم بالدين الذي ارتضوه لأنفسهم, لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته, ولا راهبًا عن رهبانيته ولا واقفًا عن وقفانيته, طالبًا منهم عدم التعامل بالربا ووضع دماء الجاهلية, مظهرًا إنصاف الدين فلا يؤخذ أحد بجريرة أحد,لهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله.

---

1 الأم 183/3 ، والمغني 502/8، والهداية401/2.
2 الخراج 71 ، ونيل الأوطار 63/8.
3 مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي، 144.
4 سنن البيهقي 313/9 ؛ والإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف 4/ 217.

وقد أشهد ρ على هذا الكتاب سبعة من أصحابه مما ينم على أهمية هذا الكتاب, والملاحظ أن هؤلاء السبعة من قبائل مختلفة, ولعله أراد ρ أن يؤكد لأهالي نجران ذلك العهد والميثاق من خلال إشهاد قبائل العرب ممثلة في رجل من كل قبيلة.

وكتب -صلى الله عليه وسلم- إلى يهود تيماء[1] كتابًا فرض فيه عليهم الجزية أيضًا, بيد أنه لم يحددها كما جاء في كتابه إلى نصارى نجران, وقد جاء في كتابه:" **هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غاديا أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء الليل مد والنهار شد وكتب خالد بن سعيد"[2],وأضاف ابن سعد معلقًا على الكتاب بقوله: " قالوا: وهم قوم من يهود وقوله مد يقول: يمده الليل ويشده النهار لا ينقضه شيء"[3].**

لقد فرض ρ على أهل تيماء الجزية دون أن يحددها ولم يتعرض ρ لأملاك يهود تيماء وأبقى الأرض بأيديهم, ولم يأمر بإجلائهم عن أراضيهم، بل إنه -عليه أفضل الصلاة والسلام- أعطاهم الذمة والميثاق, وزاد في تأكيد ذلك بقوله: الليل مد والنهار شد كناية عن قوة العهد بينه وبينهم. والملاحظ أن الروايات لم تذكر مقدار الجزية التي فرضها ρ على يهود تيماء وهل كانت عينية, أم مالية, أم على الرؤوس[4].

وحدد ρ قيمة الجزية وزمانها في كتابه ليهود بني عريض , فجاء فيه:" **هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قمحًا, وعشرة أوسق شعيرًا في كل حصاد, وخمسين وسقًا تمرًا, يوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئًا, وكتب خالد بن سعيد . قال: وبني عريض قوم من يهود"[5].**

1 بليد من أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاجّ الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرف عليها، فلذلك كان يقال لها تَيماءُ اليهودي..ولما بلغ أهلَ تَيماءَ في سنة تسع وَطءُ النبي ρ، وادي القرى أرسلوا إليه وصالحوه على الجزية وأقاموا ببلادهم وأرضهم بأيديهم.معجم البلدان باب التاء والياء ومايليهما.

2 الطبقات الكبرى 279/1.

3 المصدر السابق نفسه.

4 انظر:المغازي، 711/2 ، والطبقات 1/ 279 ، وفتوح البلدان، 39.

5 الطبقات الكبرى، 1/ 279.

والملاحظ أنه ρ قد راعى المصلحة العامة حتى في فرض الجزية على غير المسلمين, فهو -عليه الصلاة والسلام- يسعى لتطبيق العدل دونما إجحاف, لذلك نراه يقدر مقدار القمح والشعير بعشرة أوسق, بينما يجعل مقدار التمر خمسين, ومن المعلوم أن رعاية التمر لا تتطلب الجهد الذي تتطلبه رعاية وزراعة القمح والشعير وحصاده, بل إنه أكد ذلك بإعطائهم حق الإنصاف في التعامل وعدم الظلم لكنه مع ذلك اشترط عليهم الالتزام في دفع الجزية كل عام.

وكما فرض ρ الجزية على النصارى واليهود, فرضها على المجوس كذلك, فبعث للمنذر بن ساوى كتابًا جاء فيه : **" بسم الله الرحمن الرحيم , من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام الله عليك ,فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ,أما بعد: فمن استقبل قبلتنا, وأكل ذبيحتنا, فذلك المسلم الذي له ما لنا وعليه ما علينا, ومن لم يفعل فعليه دينار من قيمة المعافري[1]، والسلام ورحمة الله ويغفر الله لك"[2].**

لقد اشترط ρ في هذا الكتاب إقامة الصلاة مكنيا عنها باستقبال القبلة, كما اشترط شرطًا كان قد فرضه على المجوس, وهو أكل ذبائحهم مما يكنى عن إسلامهم, ذلك أنه قد جاء في كتابه لمجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام قوله: "فمن أسلم قبل منه, ومن لا فرضت عليه الجزية بأن لا تؤكل له ذبيحة ولا تنكح له امرأة"[3] , وبتحقق شرط إقامة الصلاة والإسلام فإن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين, وقد قدم ρ ما لهم على ما عليهم ترغيبًا، ثم توجه إلى الفئة الثانية التي لم تلحق بالإسلام من المجوس, ففرض عليهم الجزية وحددها بدينار من قيمة المعافري. وعلل أكثر أهل العلم جزية المجوس بأنهم ليسوا أهل كتاب, وإنما أخذت الجزية من اليهود والنصارى بالكتاب, ومن المجوس بالسنة [4], كما أن الجزية التي فرضها ρ عليهم هي جزية الرؤوس, فعلى كل شخص أن يدفع دينارًا من قيمة ثياب اليمن,

---

1المَعافِرِيّ، وهي برود باليمن منسوبة إلى مَعافِر، وهي قبيلة باليمن. اللسان: (عفر).
2 الخراج، 131.
3 الأموال، 21.
4 معالم السنن، 3/ 39.

والملاحظ هنا أن الجزية جاءت قليلة قياسًا بجزية نصارى نجران, ولعلها تتفق والجزية المفروضة على أهل اليمن , ومثلهما كانت جزية مجوس البحرين, فقد فرض عليهم ρ دينارًا على كل حالم بقوله: **"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين, صالحهم على أن يكفونا العمل, ويقاسمونا التمر, فمن لم يف بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين , أما جزية الرؤوس فإنه أخذ لها من كل حالم دينارًا" [1].**

فوضح ρ ما على أهل البحرين من التزامات يقدمونها لينالوا العهد والذمة، حيث فرض عليهم مقاسمة التمر على أن يتولوا هم رعايته مشددًا على أهمية الالتزام بذلك مشيرًا إلى أن من نكث فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين, والملاحظ أن هذا الفرض لا يدخل بباب الجزية دل على ذلك تنصيصه على لفظ الجزية بقوله:أما جزية الرؤوس, وقد حددها ρ من جهتين: الأولى من تستحق منه وهو كل حالم , دون الإشارة إلى الذكر أو الأنثى, أما الثانية فهي قيمتها دينارًا, ولعل هذه الجزية كانت أقل ما فرض من الجزية عمومًا.

واختلاف قيمة الجزية من قوم لآخرين يدل على حسن مراعاته ρ لأحوال الناس ورحمته حتى بمن لم يلحق بالدين الإسلامي .

وقد فرض ρ جزية الرؤوس على أهل الذمة والمجوس، ولم يفرض جزية على أرض أهل الذمة , وقد علق الإمام مالك على بعض الروايات التي أوردت أن الرسول ρ قد فرض الجزية على نخيل أهل الذمة بقوله: **" ليس على أهل الذمة ، ولا على المجوس في نخيلهم ولا كرومهم ولا زرعهم ولا مواشيهم صدقة, إنما وضعت على المسلمين تطهيرًا لهم وردًّا على فقرائهم"[2].**

---

1 فتوح البلدان، 89.
2 أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك 101/6.

وكما فرض ρ الجزية على غير المسلمين, فقد فرض الزكاة على من أسلم من القبائل, وجعلها في زروعهم ومواشيهم وأراضيهم, هادفًا إلى إقامة العدل بالأخذ من مال الأغنياء ورده إلى فقراء المسلمين, مما يكفل الحياة الكريمة لكل مسلم.

لقد فرضت الزكاة في السنة التي فرضت فيها الجزية,وهي السنة التاسعة للهجرة [1]، حيث دفعت التطورات السياسية -بعد فتح مكة -في السنة الثامنة إلى ضرورة قيام مؤسسات في الدولة الفتية لإدارة شؤون الدولة, وقد حولت الصدقة الطوعية إلى فرض أو زكاة[2], وقد توالت القبائل العربية عليه ρ بعد الفتح, فكتب لهم بما يجب عليهم من زكاة, ومثلما قبلت أغلب القبائل هذا التشريع الديني, فقد رفضت بعضها وعدتها إتاوة[3] وتبعية للمدينة, حتى إن ثعلبة بن حاطب امتنع عن دفع الزكاة قائلاً: " ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية"[4].

والحق أن هناك فرقًا كبيرًا بين مفهوم الإتاوة أو الضريبة في العصر الجاهلي , وبين الصدقة والزكاة في الإسلام, فبينما عدت الإتاوة في الجاهلية رمزًا للذل والتبعية لمن يدفعها[5], فما الزكاة إلا طاعة لله, وتطهير للنفس, وضرب من ضروب التعاون للوقوف إلى جانب المحتاجين في المجتمع الإسلامي, فضلاً عن أن الإتاوة ضريبة ثابتة المقدار, لا تنظر إلى حال صاحبها, فيما شرطت الزكاة ببلوغ النصاب, يدفعها المسلم حال اكتماله كل حول, ولا تجب على المعسر.

أما فيما يختص بالجزية والزكاة, فإن الأولى تجمع لخزينة الدولة الإسلامية حتى تغطي نفقاتها, وتجهز جيوشها, أما الزكاة فقد حدد الشارع الحكيم مكان إخراجها بقوله تعالى:

{ ◑☸☼❋☺⌧♐ ✁♐♑◷❍⑨⌧♫♦◷☼●→
♑◵▪◵□▦→◑♦❷♦✁✎➚◵ ❒◆✁♐♑⇘☺⌧❍✿◷▤⇖✓✗⇗

1 السنن الكبرى 2/ 43 .

2 نشأة الدولة الإسلامية في عهد الرسول ρ114.

3 الإتاوة: كل ما أخذ بكره أو قسم على قوم من الجباية أو ما أخذ من الناس جبرا في السنة بقدر معلوم . اللسان : (أتو).

4 أسد الغابة في معرفة الصحابة1/ 349 .

5 العرب قبل الإسلام، 197.

[illegible] }[1].

لقد كاتب ρ بعض وفود العرب بما يجب عليهم في الزكاة وغيرها من فرائض الدين, وجاءت أغلب كتبه مشروطة بشروط كان يذكرها -عليه أفضل الصلاة والسلام- في كتبه لهم, وكان من أبرز تلك الشروط :إقام الصلاة وإيتاء الزكاة, فقد أعطى مالك بن نمط وقومه ميثاقًا مشروطًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة, يحق لهم به أن ينتفعوا بأوديتهم, وما استوى واطمأن وأنبت من أراضيهم, مع حق المرعى قائلاً: " **بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله ρ , لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل, مع وافد هذا المشعار لمالك بن نمط ولمن أسلم من قومه, على أن له فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة, يأكلون علافها, ويرعون عافيها[2], لهم بذلك عهد الله وذمام رسول الله, وشاهدهم المهاجرون والأنصار"**[3]، وقد أشهد ρ على هذا الكتاب جملة المهاجرين والأنصار، مما يدل على أهمية هذا الكتاب فضلاً عن حرصه ρ على إقناع المرسل إليه بالتزام هذا العهد من قبل الرسول والمسلمين جميعًا.

وكتب كذلك لرجل من الأجئيين كتابًا مشروطًا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة جاء فيه: " **هذا كتاب من محمد رسول الله لحبيب بن عمرو أخي بني أجا ولمن أسلم من قومه وأقام الصلاة وآتى الزكاة: أن له ماله, وماءه ,ما عليه حاضره وباديه , على ذلك عهد الله وذمة رسوله"**[4] ,وجاء هذا الكتاب باسم حبيب بن عمرو وموجها لكل من أسلم من قومه , مما يوحي بشمول هذا العهد فهو ليس مختصا بالرجل فقط بل بقومه أيضًا. وكتب رسول الله لبني

---

1 التوبة، 60 .

2 الفِراعُ الأَوْدِيةُ. والوَهْطُ: المكان المطمئنّ من الأَرضِ المُستوي ينبُت فيه العِضاهُ والسَّمُر والطَّلْح والعُرْفُط، وخَصّ بعضهم به مَنْبِت العرفط، والجمع أَوْهاط ووِهاطٌ.العلاف : جمع علَف، وهو ما تأْكله الماشية, وأَرضٌ عافيةٌ: لم يُرْعَ نَبْتُها فوَفَرَ وكثر. اللسان: (فرع-وهط-علف-عفا).

3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّي، 474.

4 الطبقات الكبرى، 280/1.

جناب من كلب" **هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لبني جناب وأحلافهم ومن ظاهرهم على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتمسك بالإيمان والوفاء بالعهد, وعليهم في الهاملة الراعية في كل خمس شاة غير ذات عوار والحمولة المائرة لهم لاغية, والسقي الرواء, والعذي من الأرض يقيمه الأمين وظيفة[1] لا يزاد عليهم, شهد سعد بن عبادة, وعبد الله بن أنيس, ودحية بن خليفة الكلبي"[2].**

وكتابه هذا لم يأت لبني جناب فقط, بل شمل كذلك أحلافهم ومن عاونهم,مشروطًا بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والتمسك بالدين, ثم ما يجب عليهم في الإبل, والملاحظ أنه ρ قد فرض الصدقة أو الزكاة في الإبل التي لا راعي لها يشقى في تربيتها, فهي ترعى بنفسها, ولا عمل لها, بينما أتى على الإبل ذات الحمولة, والتي ينتفع بها صاحبها فوضع الزكاة عنها, مما يدل على مراعاته ρ لأحوال القبائل ومنافعهم, كما أوجب في الماء العذب الرواء, وفي الأرض الطيبة الكريمة لكنه لم يحدد فيها, بل جعلها وظيفة يقيمها الأمين, فلا يزاد عليهم فيها.

وقد أشهد على هذا الكتاب ثلاثة من أصحابه ρ , منهم دحية الكلبي، وهو ينتمي لهذه القبيلة التي كتب العهد باسمها, حرصًا منه ρ أن يشهد شاهدًا منهم .

ولم يكتب -عليه أفضل الصلاة والسلام- لوفود القبائل المعروفة فقط , وذات المكانة والسؤدد, بل نجده ρ يكتب -أيضًا- للصوص والعبيد, فكتب ρ **"لجماع كانوا في جبل تهامة, قد غصبوا المارة, من كنانة ومزينة والحكم والقارة ومن اتبعهم من العبيد, فلما ظهر رسول الله وفد منهم وفد على النبي, فكتب لهم رسول الله :هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء, أنهم إن آمنوا ,وأقاموا الصلاة, وآتوا الزكاة, فعبدهم حر, ومولاهم محمد ومن**

---

1 وبعيرٌ هامِل من إِبل هَوامِل, ولا يكون ذلك في الغنم ,وإِبِل هَوامِل :مُسَيَّبة لا راعي لها. والعُوّار: الرمد,والعُوّار: الرمص الذي في الحدقة. والحَمُولَة المائِرَةُ لهم لاغِيةٌ؛ يعني الإِبل التي تُحْمَلُ عليها الميرة وهي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع، لا يُؤْخَذُ منها زكاةٌ لأَنها عَوامِلُ. والحَمُولةُ المائرةُ لهم لاغيةٌ أَي مُلغاة لا تُعَدُّ عليهم ولا يُلْزَمُون لها صدقة. والمائرةُ من الإِبل التي تَحمِل المِيرة. العَذَاةُ: الأَرضُ الطَّيِّبة التُّرْبَةِ الكَريمَةُ المَنْبِتِ التي ليستْ بسَبِخَةٍ، وقيل: هي الأَرضُ البعيدةُ عن الأَحْساءِ والنُّزُورِ والريف، السَّهْلَة المَريئَة التي يكون كَلَؤُها مَريئًا ناجِعًا.اللسان:همل-عور-مير- عذا.

2 الطبقات الكبرى 286/1.

كان منهم من قبيلة لم يرد إليها ,وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم ,وما كان لهم من دين في الناس رد إليهم, ولا ظلم عليهم ولا عدوان ,وإن لهم على ذلك ذمة الله, وذمة محمد, والسلام عليكم"[1].

لقد كان في احتوائه ρ لهذه الفئة من المجتمع أثر بالغ ,ودليل عظيم على عظمة هذا الدين وتجاوزه عن المخطئ المسيء في حال توبته, حيث شرط عليهم ρ الإيمان, وإقام الصلاة ,وإيتاء الزكاة بل إنه وصفهم في مطلع كتابه بعباد الله تكريمًا لهم ودليلاً على خروجهم من عبودية البشر إلى عبودية رب البشر, وضمن لهم ρ الحرية المطلقة من تلك العبودية التي دانوا لها في جاهليتهم, ومولاهم رسول الله زيادة في تكريمهم وإشعارهم بمكانتهم في المجتمع, بل إنه ρ قد أنعم عليهم بوضع كل دم أصابوه عنهم , مع حق التمتع بأموالهم التي أخذوها دون النظر إلى مصدرها ورد ما لهم من ديون في الناس, ومع هذه الحقوق المادية, أعطاهم حقوقا معنوية فلا يظلمون ولا يعتدى عليهم لهم بذلك ذمة الله ورسوله.

وكان من شروطه ρ الالتزام بالعهود والمواثيق من الطرف الآخر, فقد شرط ρ على بني نهد الوفاء بالعهد وعدم نكثه ولهم بذلك العهد والذمة,وجاء في كتابه: **"من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد: السلام على من آمن بالله ورسوله, لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة, ولكم العارض والفريش, وذو العنان الركوب, والفلو الضبيس, لا يمنع سرحكم, ولا يعضد طلحكم, ولا يحبس دركم, ما لم تضمروا الإماق, وتأكلوا الرباق, من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة, ومن أبى فعليه الربوة"[2].**

---

1 الطبقات الكبرى 1/ 278.

2 الفائق في غريب الحديث 2/ 278.و والوَظِيفُ لكل ذي أَربع: ما فوق الرُّسْغ إلى مَفْصِل الساق. والفَرِيضةُ من الإِبل والبقر: ما بلغ عَدَدُه الزكاةَ. والفَرِيضةُ ما فُرِضَ في السائمةِ من الصدقة. والعارِضةُ الشاةُ أَو البعير يُصِيبه الداء أَو السبع أَو الكسر فَيُنْحَرُ. وفي الحديث: لكم في الوظيفة الفَرِيضةُ ولكم العارِضُ؛ العارض المريضة. والفَريشُ؛ قال القتيبي: هي التي وَضَعَت حديثاً كالنُّفَساء من النساء. والفَرِيشُ من ذوات الحافر: بمنزلة النُّفَساء من النساء إِذا طهُرت وبمنزلة العُوذِ من النوق. وذو العِنانِ الرَّكُوبُ؛ يريد الفرس الذَّلُولَ، نسبه إلى العِنانِ والرَّكوب لأَنه يُلْجَم ويُرْكَب. الفَلُوُّ: المُهْرُ والضَّبِيسُ: الصَّعْبُ العَسِرُ. والإمْآق نكث العهد من الأنفَة, وفي الصحاح : يعني الغيظ والبكاء مما يلزمكم من الصدقة فأَطلقه على النَّكْثِ والغدر.والرِّبْقُ، بالكسر، كل ذلك: الحبْلُ والحَلْقةُ تشدّ بها الغنم الصغار لئلا تَرْضَع، والجمع أَرْباقٌ ورِباقٌ ورِبَقٌ. ما لم تأْكُلوا الرِّباقَ؛ شبَّه

لقد أوجب ρ على بني نهد ما فرض في السائمة من الزكاة, ثم أشار بقوله "ولكم العارض..." إلى ما لا تجب فيه الزكاة من البهائم التي أصابها الداء, أو اعتدى عليها السبع, أو أصيبت بكسر, والفرس المستخدمة للركوب, والمهر العسر الذي لم يروض, حيث إن الزكاة أعطية لابد أن تكون صالحة , ثم يعطيهم العهد بألا يمنع سرحهم من المرعى, ولا يقطع طلحهم , ولا يحبس من بهائمهم ذوات الدر عن المرعى إلى أن تجتمع الماشية ثم تعد لما في ذلك من إضرار بها[1], ويلاحظ أن الشرط في قوله" ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق" جاء في أخر الكتاب, فيما كان شرطه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يأتي في مطلع كتبه, ولعله ρ كان يقدم ذلك الشرط لأنه متعلق بالدين والعقيدة فتقديمه دليل على أهميته, أما ما يتعلق بإبرام العهد والوفاء به فقد أخره, وقدم ما لهم وما عليهم, رغبة منه ρ في ترغيبهم واستجابتهم, فضلاً عن أنه ألحق ذلك الشرط بتهديد هادئ لمن أبى بأن عليه الزيادة عقوبة على رفضه, ولم تشر المصادر إلى أنه ρ قد أشهد على هذا العهد أحدا, ولعل في صيغة هذا العهد ما يجزي عن الإشهاد عليه, فقد هدد ρ في ختامه من لم يلتزم به ولعل في ذلك التهديد ما أغنى عن الشهود.

وكما جاءت بعض كتبه مشروطة، فقد كتب لبعض القبائل دون شرط , فأقر لهم حقوقهم, مبينًا ما يجب عليهم إن في الزكاة أوفي غيرها, معطيًا لهم في كل كتاب العهد والذمة من الله ورسوله. فكتب إلى بارق:" **هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق لا تجز ثمارهم ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسالة من بارق, ومن مر بهم من المسلمين في عرك أو جدب فله ضيافة ثلاثة أيام, وإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير أن**

ما يَلزم الأَعناقَ من العَهْدِ بالرِّباق واستعار الأكل لنقْض العهد، فإِن البهيمة إِذا أَكلت الرِّبق خلَصت من الشَّدّ. الرِّبْوَةُ أَي من تَقاعَدَ عن أَداءِ الزكاةِ فعليه الزيادةُ في الفريضة الواجبة عليه كالعُقُوبة له، ويروى: من أَقَرَّ بالجِزْية فعليه الرَّبْوَةُ أَي من امتنع عن الإِسلام لأَجْل الزكاة كان عليه من الجِزْية أَكثرُ مما يجب عليه بالزكاة.وأَرْبى على الخمسين ونحوها: زاد ,رَبا الشيءُ يَرْبُو رُبُوّاً ورِباءً: زاد ونما. اللسان: (وظف- فرض- عرض- فرش- عنن- ضبس- أمق- ربق- ربو).

1 اللسان: (درر).

يقتسم ,شهد أبو عبيدة بن الجراح وحذيفة بن اليمان وكتب أبي بن كعب"[1] ,وهنا بدأ -عليه الصلاة والسلام- بإعطاء العهد لهم أولا بضمان حماية أراضيهم ومراعيهم, فلا يحق لأحد الانتفاع بها إلا بإذن منهم, ثم أوجب عليهم ضيافة من مر ببلادهم من المسلمين وحددها بثلاثة أيام سواء كانت أراضيهم مجرودة بفعل الماشية أم مجدبة,إشارة إلى أن الإسلام قد رعى حقوق الإنسان في حله وترحاله, وأقر ρ لابن السبيل اللقاط من السنبل الذي ينتثر على الأرض فتخطئه المناجل, كما أنه رهن هذه الأعطية بإيناع الثمر, ويلاحظ أنه ρ لم يجهدهم أو يفرض عليهم من أصل ثمارهم, وإنما اكتفى بلقاط الأرض وجعله مختصًّا بابن السبيل, مما يشعر بحاجة القبيلة للانتفاع بكامل حصادها، ثم أشهد على هذا الكتاب اثنين من أصحابه.

وكتب رسول الله لخثعم :**"هذا كتاب من محمد رسول الله لخثعم من حاضر ببيشة وباديتها: أن كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع, ومن أسلم منكم طوعًا أو كرهًا في يده حرث من خبار أو عزاز تسقيه السماء أو يرويه اللثى فزكا عمارة في غير أزمة ولا حطمة فله نشره وأكله, وعليهم في كل سيح العشر, وفي كل غرب**[2] **نصف العشر, شهد جرير بن عبد الله ومن حضر"**[3].

وقد جاء كتابه هذا أكثر تفصيلاً, في أمر الزكاة, والملاحظ أنه عمم هذا الكتاب بحاضرة بيشة وباديتها على السواء, واضعًا عنهم كل دم أصابوه في الجاهلية, لينطلق من ذلك إلى ما يجب لهم في زروعهم وما يجب عليهم من زكاة, وتظهر عظمة الدين في مراعاة مقادير الزكاة بما يتوافق وجهد أصحاب الأرض فيها , فيؤخذ مما يسقى بفعل الإنسان نصف مقدار ما يؤخذ مما تسقيه السماء أو المياه الجارية.

---

1 الطبقات الكبرى 1/ 352.

2 الخبار:القاع ينبت السدر, وخص بعضهم به منبت الماء في أصول السدر, والخبار: الأرض السهلة اللينة. العَزازُ: ما غَلُظَ من الأَرض وأَسْرَعَ سَيْلُ مطره يكون من القِيعانِ. اللثى :ما سال من ماء الشجر من ساقها خاثراً. الأَزْمة: الشدّة والقَحْط،و السَّنة المُجْدِبة. الحُطْمةِ: هي الشديدة الجَدْبِ. السنة الشديدة لأنها تَحْطِمُ كل شيء، السَّيْحُ: الماءُ الظاهر الجاري على وجه الأَرض، والغَرْبُ: الرَّاوِيَةُ التي يُحْمَلُ عليها الماء.والغَرْبُ دَلْو عظيمة من مَسكِ ثَوْرٍ.اللسان: (خبر-عزز-لثي- أزم- حطم- سيح- غرب).

3 الطبقات الكبرى 286/1.

وحدد ρ زكاة النخيل في المناطق التي اشتهرت بزراعته، وكتب لوفد ثمالة والحدان مفصلا في ذلك بقوله:**" هذا كتاب من محمد رسول الله لبادية الأسياف, ونازلة الأجواف, مما حازت صحار, ليس عليهم في النخل خراص ولا مكيال مطبق حتى يوضع في الفداء, وعليهم في كل عشرة أوساق[1] وسق وكاتب الصحيفة ثابت بن قيس بن شماس, شهد سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة"[2].**

وكان النبي ρ يبعَث الخُرّاصَ على نخِيل خَيْبَر عند إدراك ثَمَرِها ,فيَحزِرُونه رُطَبًا كذا وتمْرًا كذا، ثم يأْخذهم بمَكِيلة ذلك من التمر الذي يجِب له وللمساكين، وإنما فعل ذلك ρ لما فيه من الرِّفْق بأصحاب الثمار فيما يأْكلونه منه ,مع الاحتياط للفقراء في العُشْر ونِصْف العُشْر ولأَهلِ الفَيْءِ في نصيبهم [3], لكنه مع هذا الوفد يضع عنهم الخراص حتى يوضع التمر في موضعه الذي ييبس فيه, فلم يشترطه رطبًا, وإنما جعل لهم حق الانتفاع به دون زكاة حتى يوضع في الفداء استعدادًا لتيبيسه ,وعليهم عندها في كل عشرة أوسق واحد, والسؤال هنا هو عن السبب الذي جعله ρ يقيم عنهم الخراصة بينما فرضها على غيرهم ؟ ولعل السبب هنا يعود إلى اعتماد أهل هذه المنطقة على ما يحصلون عليه من نخيلهم وحاجتهم إليه.

ب- كتب الأمان:

أكد الإسلام منذ بزوغ فجره مبدأ التعايش السلمي بين الناس, مسلمين وغير مسلمين, وذلك من خلال تعزيز فكرة الأمن في المجتمع الإسلامي, وعليه فقد حرص ρ أن يحقق ذلك المنهج من خلال تطبيقه في دولته الإسلامية, ومن ثم إعطاء وفود القبائل العربية ذلك الحق في ممارسة حياتهم آمنين مطمئنين, فكتب ρ كتبًا في الأمان, وحملها بعض وفود العرب, وكما

---

1 الفداء: هو مَسْطَحُ التمر بلغة عبد القيس ,الفَداء والجُوخانُ واحد، وهو موضع التمر الذي يُيَبَّس فيه، قال: وقال بعض بني مُجاشِعٍ الفَداء التمر ما لم يُكْنَز. الوَسْقُ والوِسْقُ: مِكْيَلَة معلومة، وقيل: هو حمل بعير وهو ستون صاعًا بصاع النبي ρ وهو خمسة أَرطال وثلث. اللسان: (فدى- وسق).

2 الطبقات الكبرى 286/1.

3 اللسان: (خرص).

كانت بعض مكاتباته في العهود مشروطة, فإن أغلب مكاتبات الأمان جاءت بشروط وضعها ρ في كتبه كذلك.

ولعل الجزية من أهم الشروط التي حرص عليها ρ في كتبه لغير المسلمين حتى يحقق الأمان ويقام العدل .

وقد كتب إلى أهل أذرح :**"هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح أنهم آمنون بأمان الله ومحمد, وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة, والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين, ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتعزير إذا خشوا على المسلمين, وهم آمنون حتى يحدث إليهم محمد قبل خروجه- يعني إذا أراد الخروج- قال :ووضع رسول الله الجزية على أهل أيلة ثلاثمائة دينار كل سنة وكانوا ثلاثمائة رجل"**[1].

لقد أعطى ρ الأمان لأهل أذرح في مطلع كتابه, لكنه شرط ذلك بدفع جزية معلومة محددة بزمن, وهو شهر رجب وقد ورد تحديد جزية نصارى نجران قبل ذلك بشهر رجب وشهر صفر, ولعله ρ كان يحدد رجب لأنه الشهر المفرد من الشهور الحرم فمن لم يدفع فيه الجزية فللرسول ρ متسع من الوقت لإمهاله أو قتاله, ثم بقوله ρ "وافية طيبة" دليل على أنه يشترط فيها كذلك التمام فلا تجزأ ولا تنقص, ثم أمرهم ρ بتقديم النصح والإرشاد للمسلمين ولمن لجأ إليهم من المسلمين مخافة ذنب اقترفه, وأكد عليه الصلاة والسلام الأمان لهم بيد أنه حدده بمدة خروجه من تبوك وعودته إلى المدينة[2], فالأمان هنا مرهون بزمن محدد وليس مفتوحًا.

ويتبادر إلى الذهن هنا كيف يمكن التوفيق بين فرض الرسول ρ على أهل أذرح الجزية في كل رجب من كل عام, ثم تحديد فترة الأمان وعدم استمراريته؟ ولعله ρ عمم في

---

1 الطبقات الكبرى 290/1.

2 المصدر السابق 291/1 .

مسألة الجزية تحرزًا لأي تأخير في خروج النبي ρ أو مخاطبته لهم, أو أنه أراد بذلك أن الجزية فرض قائم عليهم, وأن الحدث الذي أراده -عليه الصلاة والسلام- لا يختص بالجزية.

كما أنه ρ قد حدد مجمل الجزية المفروضة على أهل أذرح بثلاثمئة دينار دون تحديد ما يلحق بالفرد الواحد, لكن ابن سعد علق بقوله: "وكانوا ثلاثمئة رجل " مما يعني أن على كل رجل دينار , لكن تلك الجزية ثابتة لاتزيد كما هو الحال في جزية أهل اليمن التي جعلها ρ دينار على كل حالم مما يهيئ لها الزيادة في كل عام.

وكما حدد ρ مدة الأمان في كتابه لأهل أذرح, فقد حددها بشهرين لبعض وفود القبائل وأعطاهم مهلة، إما للدخول في الإسلام أو الامتثال بدفع الجزية , فكتب لرفاعة بن زيد بن عمير بن معبد الجذامي **"هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله، فمن أقبل ففي حزب الله، ومن أبى فله أمان شهرين"**[1].

وهذا الكتاب على إيجازه إلا أنه دل على معان كثيرة ,حيث أعطاهم به الأمان مشروطًا بالإسلام, وأخبرهم بما سيحل بهم إن هم لم يقبلوا أو يمتثلوا لأمره ρ دون أن يهدد أو يتوعد, لكن في قوله "أمان شهرين" ما يشعر بالخطر بعد هذه المهلة إن لم يستجيبوا, ومثل ذلك فعل مع زمل بن عمرو, حيث بعث له بكتاب جاء فيه مثل ما جاء في كتاب رفاعة: **"من محمد رسول الله لزمل بن عمرو ومن أسلم خاصة إني بعثته إلى قومه عامة من أسلم منهم ففي حزب الله-ومن أبى فله أمان شهرين"**[2]، بيد أنه هنا عبر بقوله "أسلم" مما يدل على اشتراط الإسلام دون غيره فالخيارات أمامهم ضئيلة, بينما في كتابه السابق عبر بلفظ "أقبل" ، مما يعطي معاني أكثر فلعل الإقبال يكون بإسلامهم, أو بانقيادهم لدفع الجزية .

وسعى النبي ρ إلى تعزيز تأثير الولاة والحكام على رعاياهم وهو هنا يركز على دعوة هؤلاء الحكام أقوامهم ممن لم يلحقوا بالإسلام لاعتناقه, ومن خلال رؤيته الثاقبة ρ

---

1 الطبقات الكبرى 1/ 354.
2 دبلوماسية محمد، 285.

أعطى الأمان لمدة شهرين مهلة للفرد الذي لم يسلم, متيحًا لذلك الفرد فرصة التفكير والموازنة بين دينه والدين الذي دعي إليه, بل إن في تعايشه مع المسلمين واختلاطه بهم ومشاهداته لممارساتهم الدينية ما يهيئ له سبيل الإيمان, وعلى هذا فإن هذه المدة كافية لتدبر النفس في احتياجاتها الحقيقية .

وفرض ρ الجزية على يحنة بن روبة مقابل الأمان , ذلك أنه قدم على رسول الله ρ **"وكان ملك أيلة , وأشفق أن يبعث إليه رسول الله كما بعث إلى أكيدر , وأقبل ومعه أهل الشام , وأهل اليمن, وأهل البحر ومن جربا وأذرح, فأتوه فصالحهم , وقطع عليهم جزية معلومة, وكتب لهم كتابًا: هذا أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن روبة وأهل أيلة لسفنهم وسيارتهم في البر والبحر, لهم ذمة الله ,وذمة محمد رسول الله, ولمن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر, ومن أحدث حدثًا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيبة لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقًا يريدونه من بر وبحر هذا كتاب جيهم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة بإذن رسول الله"[1].**

وقد جعل الرسول ρ الأمان من الله -سبحانه وتعالى- ثم منه في مطلع كتابه, وهذا الكتاب لم يأت خاصًّا, وإنما وجه باسم يحنة وأهل آيلة وكل من معهم من أهل الشام واليمن وأهل البحر, أعطاهم فيه أمانا شاملا للبحر مكنيا عنه بالسفن وللبر مكنيًا عنه بالسيارة لكنه استثنى من ذلك الأمان من أحدث حدثا فلا يفتديه المال, ثم أقر لهم حق ورود الماء , والسفر برًّا أو بحرًا بأمان , ثم ذكر ρ من كتب ذلك الكتاب بأمر رسول الله ρ , ويلاحظ أن هذا الكتاب لم ينص على الجزية, لكن ابن سعد أشار إليها عند تقديمه لهذا النص, لكنه ρ قد ركز على إعطائهم الأمان في برهم وبحرهم ولتأكيد ذلك كتب لهم به كتابًا موثوقًا.

وأكد ρ مبدأ الأمان الشامل للبر والبحر في كتبه, مما ينم على أن الإسلام هو دين السلام, وقد كتب إلى بني عبد القيس :**" من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس :أنهم**

---

1 الطبقات الكبرى 1/ 288.

آمنون بأمان الله, وأمان رسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القحم, وعليهم الوفاء بما عاهدوا ,ولهم أن لا يحبسوا عن طريق الميرة, ولا يمنعوا صوب القطر, ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه, والعلاء بن الحضرمي أمين رسول الله على برها وبحرها وحاضرها وسراياها وما خرج منها وأهل البحرين خفراؤه[1] من الضيم, وأعوانه على الظالم ,وأنصاره في الملاحم عليهم بذلك عهد الله وميثاقه, لا يبدلوا قولا ولا يريدوا فرقة ,ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء, والعدل في الحكم, والقصد في السيرة[2] حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما ,والله ورسوله يشهد عليهم"[3].

فأعطى ρ لبني عبد القيس أمانًا فيما مضى وأحدثوا من أمور عظام في جاهليتهم, كما أعطاهم أمانًا لحاضرهم ومستقبلهم, شمل أمان التجارة والسفر, وحق الانتفاع بماء المطر والثمار عند اكتمالها, وقد عين عليهم ρ في هذا الكتاب العلاء بن الحضرمي أمينا مع معاونة أهل البحرين له, وقد بين -عليه الصلاة والسلام- ما يحق لهم على جند المسلمين وهي أمور ثلاثة: المشاركة في الفيء والغنائم, والعدل في الحكم و التعامل, والقصد في السنة.

ومثلما جعل ρ الجزية شرطًا للأمان في مكاتباته لغير المسلمين، فقد شرط الصلاة والزكاة في كتبه للقبائل التي أعلنت إسلامها , فكتب لمالك بن أحمر:" **بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد بن عبد الله لمالك بن أحمر ولمن تبعه من المسلمين: أمان ما أقاموا الصلاة ,وآتوا الزكاة, واتبعوا المسلمين وخالفوا المشركين, وأدوا الخمس من المغنم ,وسهم الغارمين, وسهم كذا وكذا- ذكر السهم الثاني- وهم آمنون بأمان الله عز وجل, وكتبه محمد عليه السلام."**[4]

---

1 والقُحَمُ: الأُمور العِظام التي لا يَركبها كل أَحد.وللخصومة قُحَم أَي أَنها تَقْحَمُ بصاحبها على ما لا يريده. خَفِيرُ القوم مُجيرهم الذي يكونون في ضمانه ما داموا في بلاده، وهو يَخفِر القومَ خَفارَةً.اللسان: (قحم-خفر).

2 السيرة: الطريقة وتجمع على سير, يقال سار في الناس سيرة حسنة أو قبيحة, والسيرة اهيئة والحالة. المصباح المنير (سير).

3 الطبقات الكبرى 1/ 283.

4 معجم الصحابة 66/3.

وإن لم يكن ρ قد حدد مقادير الزكاة في هذا الكتاب الذي جاء عاما , فإنه قد حددها في كتب أخرى , ككتابه لمطرف بن الكاهن الباهلي: **" هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكاهن ولمن سكن بيشة من باهلة :أن من أحيا أرضًا مواتًا بيضاء فيها مناخ الأنعام ومراح فهي له, وعليهم في كل ثلاثين من البقر فارض, وفي كل أربعين من الغنم عتود, وفي كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة[1] وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها, وهم آمنون بأمان الله"[2]**، وقد تناول ρ في هذا الكتاب قضيتين, الأولى مسألة الأرض الموات التي لا صاحب معروف لها, وكانت صالحة للمرعى فهي لمن أحياها حق له, والقضية الثانية زكاة الأنعام, محددا مقاديرها ومشترطًا مكان إخراجها, وجاء الأمان لهم في ختام الكتاب .

ج- كتب العطاء:

أعطى ρ وفود القبائل العهد والأمان, ومع هذا العطاء المعنوي كان هناك عطاء مادي, شمل إقطاعات بعض الأراضي والمزارع, مع ما أقره ρ من أملاك بعض القبائل وكتابته لهم بها .

وكان من هذه العطاءات ما هو فردي شخصي, خص به ρ شخصًا بعينه, إما بطلب منه ,أو بدون طلب كما فعل مع سعيد بن سفيان الرعلي، حيث كتب له :**"هذا ما أعطى رسول الله سعيد بن سفيان الرعلي, أعطاه نخل السوارقية [3], وقصرها, لا يحاقه فيها أحد, ومن حاقه فلا حق له وحقه حق, وكتب خالد بن سعيد"[4]**، وهذا العطاء منه ρ جاء مؤكدًا بقوله: " لا يحاقه فيها أحد" بل إنه ρ أنكر حق كل من حاول أن ينازعه إياها , وبمثل هذه العبارة كتب

---

1 الفارض:المسن من البقر.العتود: والثاغية:الشاة, والثغاء: صوتها إذا صاحت قاله الجوهري. اللسان: (فرض-عتد-ثغى).

2 الطبقات الكبرى 284/1.

3 السوارقية: قرية غناء كبيرة ,كثيرة الأهل, فيها منبر ومسجد جامع وسوق, تأتيها التجار من الأقطار, لبني سليم خاصة ولكل من بني سليم فيها شيء, وفي مائها بعض الملوحة ويستعذبون من آبار في واد يقال له سوارق . معجم البلدان276/3.

4 الطبقات الكبرى 285/1.

ρ لعتبة بن فرقد:" **هذا ما أعطى النبي عتبة بن فرقد, أعطاه موضع دار بمكة يبنيها مما يلي المروة, فلا يحاق فيها أحد ومن حاقه، فإنه لا حق له وحقه حق وكتب معاوية"**[1].

وكان ρ يعطي أحيانًا إقطاعات لرجل واحد من الوفد, كما فعل مع مجاعة بن مرارة عندما وفد مع بني حنيفة, فكتب له ρ كتابًا: **"هذا كتاب كتبه محمد رسول الله لمجاعة بن مرارة, أنى أقطعتك الغورة وعوانة والحبل**[2]**، فمن حاجك فإلي"**[3].

وقد أكد ρ هذا العطاء بقوله "فمن حاجك فإلي" مما يدل بأنه ρ كفيل له على ملكية ما أعطاه.

وأقطع ρ إقطاعات جماعية كذلك, وكان-عليه الصلاة والسلام- حتى في إقطاعاته الجماعية يعمد إلى ذكر من أعطاهم الكتاب توكيدًا لهم, وضمانًا لحقوقهم ,فكتب لربيع بن معاوية بن خفاجة بن عمرو بن عقيل ومطرف بن عبد الله بن الأعلم بن عمرو بن ربيعة بن عقيل , وأنس بن قيس بن المنتفق بن عامر بن عقيل, من بني عقيل كتاب عطاء جاء فيه:" **هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعًا ومطرفًا وأنسًا أعطاهم العقيق**[4] **ما أقاموا الصلاة, وآتوا الزكاة, وسمعوا وأطاعوا ,ولم يعطهم حقا لمسلم"**[5]. وهذا الكتاب جاء مشروطًا بالصلاة والزكاة والسمع والطاعة مع التوكيد بأن هذه الأراضي ليست منزوعة من حقوق المسلمين .

وأعطى-عليه الصلاة والسلام-لبعض الداريين محددًا أسماءهم, وكتب لهم كتابًا : **"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته جرون والمرطوم بيت**

---

1 المصدر السابق 285/1.

2 الغورة: موضع باليمامة .معجم ما استعجم 1008/3, حبل موضع باليمامة. معجم البلدان 214/2, عوانة بفتح أوله، وبالنون : ماءة بالعرمة من أرض اليمامة, معجم ما استعجم 979/3 .

3 معجم ما استعجم 1008/3.

4 العقيق بفتح أوله وكسر ثانيه على وزن فعيل عقيقان عقيق بني عقيل ومن أوديته قو, وعقيق المدينة, وقال الخليل العقيقان بلدان في ديار بني عامر. معجم ما استعجم 952/3.

5 الطبقات الكبرى 1/ 301.

عينون بيت إبراهيم وما فيهن نطية بتة[1] بذمتهم, ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم, فمن إذاهم إذاه الله ,فمن إذاهم لعنه الله, شهد عتيق ابن أبي قحافة, وعمر بن الخطاب, وعثمان ين عفان وكتب علي بن أبي طالب وشهد"[2]، وقد أكد ρ هذا العطاء كذلك بقوله : "بتة بذمتهم" ، كما أنه لم يجعل هذا العطاء منقطعًا بهم، بل هو دائم متوارث لهم ولأعقابهم, ويلاحظ أنه ρ قد أشهد على هذا الكتاب ثلاثة من كبار الصحابة, تقدمهم بلال وهو عتيق أبي بكر الصديق، إذ تقدم على عمر وعثمان وعلي، فضلاً عن علي بن أبي طالب الذي كتبه وشهد عليه كذلك, وهذا يدل على عنايته ρ بتوثيق ما جاء فيه وتأكيده, بل إن هذا الكتاب اكتسب أهميته وحرمته بقوله ρ: **"فمن آذاهم آذاه الله, فمن آذاهم لعنه الله".**

ومثلما أعطى ρ هذه الإقطاعات, فإنه استجاب لبعض القبائل التي طلبته أن يكتب لها في أملاكها , كما فعل مع وفد ثقيف, حيث سألوا رسول الله ρ أن يحرم لهم وجًّا[3]، فكتب لهم:**" هذا كتاب من محمد رسول الله إلى المؤمنين: إن عضاة وج وصيده لا يعضد[4]، فمن وجد يفعل ذلك فإنه يؤخذ فيبلغ النبي, وهذا أمر النبي محمد بن عبد الله رسول الله, وكتب خالد بن سعيد بأمر النبي محمد بن عبد الله, فلا يتعدينه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله"[5].**

وقد أكد كذلك ρ أهمية هذا الكتاب مستدركًا -بعد أن ذكر اسم كاتبه- بقوله:**"** فلا يتعدينه أحد فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله" مما ينم على حرصه ρ فيما أعطى.

وكما أعطى ρ وفود القبائل, فقد أقر لبعض الحكام والولاة ممتلكاتهم وأراضيهم , فكتب لوائل بن حجر لما أراد الشخوص إلى بلاده, إذ طلب من الرسول -عليه الصلاة والسلام-

---

1 البَتَّةُ اشتقاقُها من القَطْع، غير أَنه يُستعمل في كل أَمْرٍ يَمضي لا رَجْعَةَ فيه، ولا الْتِواءَ.اللسان: بتت (وفي النص لغة سيرد الحديث عنها في الجانب الفني.

2 نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية 148.

3 وج: الطائف, وهي أرض سهلة، ولذلك قالوا: أسهل من وج. معجم ما استعجم 389/1.

4 العضاه اسم يقع على شجر من شجر الشوك له أَسماء مختلفة يجمعها العضاه، واحدتها عِضاهةٌ. وعضَدَ الشجرَ: قطعه بالمِعْضَد. اللسان: (عضض- عضد).

5 الطبقات الكبرى 1/ 285.

أن يكتب له في أرضه التي كانت في الجاهلية, وشهد له أقيال حمير وأقيال حضرموت [1], فكتب له ρ:" **هذا كتاب من محمد النبي لوائل بن حجر قيل حضرموت: وذلك أنك أسلمت وجعلت لك ما في يديك من الأرضين والحصون, وأنه يؤخذ منك من كل عشرة واحد, ينظر في ذلك ذوا عدل, وجعلت لك أن لا تظلم فيها ما قام الدين والنبي والمؤمنون عليه أنصار"[2]، قالوا وكان الأشعث وغيره من كندة نازعوا وائل بن حجر في وادي حضرموت فادعوه عند رسول الله, فكتب به رسول الله لوائل بن حجر[3].**

وأعطى ρ عك ذا خيوان الأمان على ممتلكاته وحق الانتفاع بأراضيه, ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد **"بَعَثَ مَالِكَ بنَ مِرَارَةَ الرَّهَاوِيَّ إِلَى اليَمَنِ جَمِيعاً فَأَسْلَمَ عَكُّ ذُو خَيْوَانٍ، فَقِيلَ لِعَكَ: انْطَلِقْ إِلَى رَسُولِ الله ρ فَخُذْ مِنْهُ الأمَانَ عَلَى قَرْيَتِكَ وَمالِكَ، فَقَدِمَ فَكَتَبَ لَهُ رَسُولَ الله ρ: بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ρ لِعَكٍّ ذِي خَيْوَانَ إنْ كَانَ صَادِقًّا في أرْضِهِ وَمَالِهِ وَرَقِيقِهِ فَلَهُ الأمَانُ وَذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، وَكَتَبَ خَالِدُ بنُ سَعِيدِ بنِ الْعَاصِ"[4].**

وهكذا أعطى ρ كل ذي حق حقه, مع ما تكرم به -عليه أفضل الصلاة والسلام- لبعض وفود القبائل من إقطاعات وأعطيات كانت كلها مشروطة بعدم إلحاق الضرر بأحد, أو سلب الحقوق من أصحابها.

ومما تقدم يمكن إجمال أبرز مايميز البناء الفكري لرسائله ρ للملوك ,ومكاتباته للوفود فيما يأتي:

---

1 الطبقات الكبرى 1/ 287.
2 المصدر السابق نفسه.
3 المصدر السابق نفسه.
4 سنن أبي داود 826/8.

1- حرص الرسول ρ على تقديم الإسلام دينا منقذا للبشرية ومحررا من الأغلال التي كانوا عليها, من خلال نشر الدعوة ليس على الصعيد الداخلي للجزيرة العربية فحسب, بل على الصعيد الخارجي كذلك مصداقًا لقوله تعالى:

{ ❐◆✌♦✍⁄❐📖❐❻⇗ღ☐◘⇗❐✡❐🕔🖮☐ ⟆♌⁕ ·🗎•⁄✍▫⅄☐☪
ஐ∂ℯ❦◘✡☐⁄☐⇘ 🗀☐⌖❦❷❸☪✁ ❐◆☼♦⓿✐③❷ॐ✁ }.

2- كثف النبي ρ في سنة واحدة -وقبل أن يبدأ حواراته مع القبائل العربية في عام الوفود- من مراسلاته للملوك والحكام والرؤساء, في حركة دبلوماسية نشيطة, راسل من خلالها كل الدول المتاخمة للمدينة.

3- أكد ρ -بما لا يدع مجالاً للشك-عالمية الدين الإسلامي من خلال مراسلاته وسفاراته إلى الملوك والحكام في عصره, فاستطاع ρ مراسلة أعظم قوتين وهما: الروم والفرس, بل إنه تجاهل -أيضًا- النفوذ الاستعماري لتلك القوتين على بعض المناطق العربية, فكتب ρ لحكام تلك المناطق مباشرة دون وسيط .

4- تنقسم خصائص مراسلاته ρ للملوك إلى قسمين:

أ- ما يختص بالرسائل:

- كان النبي ρ آخذًا بأسباب عصره ,مستخدما كل الوسائل المتاحة لنشر الدين الإسلامي ما لم تكن حرامًا أو إثمًا, واهتم -عليه الصلاة والسلام- بأن يتبع فيها المنهج الملكي المعروف في المراسلات آنذاك, فعندما قيل له: إن الملوك لا تقرأ إلا الرسائل المختومة اتخذ خاتمًا وكتب عليه "محمد رسول الله"، وهذه سياسة عظيمة منه ρ,أعطى بها الأهمية لسفرائه وكتبه.
- يعد ρ المؤسس الأول لنظام السفارة في الإسلام من خلال بعوثه -عليه الصلاة والسلام- للملوك والحكام, والواقع التاريخي يشهد للنبي ρ بالسبق في مجال التعامل مع

الآخر وإقامة العلاقات الدولية وسفارة النبي الكريم سفارة متميزة أرسل من خلالها سفراءه على أساس واحد وهو الدعوة دون إقامة أي مصالح نفعية متبادلة وإنما هدف لمصلحة الآخر دون مصلحته.

- استطاع ρ من خلال سفرائه أن يؤكد أن الإسلام نظام متكامل, وتشريع شامل, قوي البنيان, ينطلق من غاية واحدة وهي سلام البشرية, وأمن الوجود الإنساني, لذلك جهد ρ أن يبلغ هذه الحقيقة لكل الأمم مهما اختلفت معتقداتها.
- كل ما جاء في رسائله ρ معبر عن روح الإسلام داعيًا إلى اعتناقه, من خلال التركيز على مبدأ الإنسانية, واحترام القيم المشتركة, مع مراعاة الأسس الفطرية , دون اللجوء إلى التعصب, أو الأثرة أو الميل إلى الأطماع المادية, يدل على ذلك تكراره لفكرة "أسلم تسلم" و" أسلم يبق لك ملكك" ,في محاولة جادة منه ρ لتقريب وجهتي النظر بين المرسل والمرسل إليه, فالمرسل ρ غايته الأولى الإسلام , أما المرسل إليه فغايته بقاء ملكه واحتفاظه به.
- صيغت كتبه ρ بحكمة بالغة, أبدى فيها -عليه الصلاة والسلام- سماحته ,فهو يدعو ولا يهدد, بل إنه يؤكد أنه ليس طالب ملك, وأن سلطان المخاطبين باق لهم في ظل الإسلام, وخاطب ρ الملوك بألقابها, كعظيم الروم, وعظيم القبط, وعظيم فارس, وغيرها, وهو بهذه الألقاب ρ يهدف إلى التأثير في نفسية المخاطب, واستمالته من خلال رفع مكانته وإشباع غروره, لعله يستجيب ويأمن على ملكه. ولعل هذه الدبلوماسية في تعامله ρ مع خطابات الملوك قد آتت أكلها وأثمرت, فآمن منهم من آمن, وطلب بعضهم مهلة للتفكير في هذا الدين, بينما تمسك آخرون بدينهم لكنهم احترموا هذه الدعوة, وأحسنوا الرد عليها, وقلة منهم رفضها بعنف.

- لم يعمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- إلى لغة العنف في خطابه, أو التهديد المفرط, بل احترم المخاطبين, واستخدم ρ لغة الترغيب والترهيب المشتركة, وإن اضطر إلى الشدة في الخطاب فإنه ما يلبث أن يعود إلى مخاطبة العقل من خلال الإقناع, كما فعل مع هوذة, وملكي عمان, ومع أهل أيلة فقد استخدم معهم التهديد بالقتل والسبي, ولعله فعل ذلك بسبب تحرك أهل الذمة ضد الدعوة الإسلامية والدين الجديد, فأراد استخدام الشدة معهم لإدخال المهابة في قلوبهم, بيد أنه صلى الله عليه وسلم لا يلبث أن يعود إلى الملاطفة واللين, معلنا إيمانه بدين المسيح, مؤكدًا حقيقته, فهو كلمة الله ألقاها على مريم الطاهرة وهو عبد الله ورسوله .

- أجاد ρ في مخاطبة كل ملك بحسب ظروفه ومعتقده, فإن كان كتابيًّا فهو -عليه الصلاة والسلام- يعمد إلى الإشارة إلى ما بين الأديان السماوية من روابط, مؤكدًا إيمانه بالرسالات السابقة, مشيرًا إلى أن رسالته جاءت مكملة لها وغير متعارضة معها, مدعما ذلك بآي الذكر الحكيم في قوله:

} ... {...[1].

وإن كان المرسل إليه من غير أهل الكتاب كالمجوس, فإنه ρ يشير إلى وجوب التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة من سواه.

- ركز ρ على قضية السلم في كتبه, وجعل من سفاراته وسيلة للمسالمة والمهادنة بما يتوافق والمصالح الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية, فيكرر ρ قوله" السلام على من اتبع الهدى " وقوله "سلم أنتم" رغبة منه في تأليف القلوب واستمالتها بالتي هي أحسن , من خلال المبادرة بالسلام.

---

1 آل عمران، 64.

- حدد -عليه أفضل الصلاة والسلام- في رسائله مهام الملوك تجاه شعوبهم ورعاياهم, ومسؤوليتهم أمام الله فيما يعتنقه الشعب إن لم يحكموا بالإسلام ويدعونهم إليه,لأنهم يملكون القدرة الإعلامية في التبليغ, وإن لم يفعلوا فسيبوؤون بإثمهم مصداقًا لقوله :"كلكم راع ومسؤول عن رعيته"[1]. وبالمقابل فالأجر مضاعف لمن دعا منهم لله.

- تلقى ρ ردودًا من الملوك على رسائله, وإن اختلفت مضامينها، إلا أنها جميعًا تنم عن احترام تلك الدعوة, واحترام صاحبها وتقديره, مما يثبت قدرته البالغة بما أوتي ρ من حكمة وبيان على التأثير في المخاطب, كما تلقى الهدايا وقبلها منهم ولم يردها, وهو -عليه الصلاة والسلام- يدرك ما لقبول الهدايا من أثر بالغ في تسهيل إقامة العلاقات وإشاعة السلم, وقد وجد هذا العرف قديما منذ بلقيس التي أرادت أن تطمئن على ملكها , فأرسلت بهدية لسليمان عليه السلام قائلة:

☠︎🙰🙘⬀❸⬧🕿♋☽   ⬊🕯♦✁⬁♒⬀❷⬉✌   ❼♋☐❄♋☽◆❒   }
⬅⬈⬁♉⬀❷♦③ ⌘☠︎♋🖎 🖰☐♦❷♎⬅🙳☐✡⬧▭ 🖮◼✸③♎⑨⬜♑♋🖎
[2] { ♦♌❑➔🖬⬜♒⬀❷⬅☺⬂♏🙳✁

ب- ما يختص بالسفراء المبعوثين:

- السفارة مهمة عظيمة, وتكليف خطير, لا يحق لأي شخص ممارستها, كما لا يصلح أن يقوم بها كل فرد, فالسفير لسان قومه, والمتحدث الرسمي لباعثه, لذا فإنه لا ينتدب لهذه المهمة إلا من تتحقق فيه القدرة والكفاءة المطلقة لمواجهة كبار الحكام والتعامل معهم, وانطلاقًا من ذلك فقد اختار ρ من الصحابة من اتصف بصفات السفير الناجح, من فصاحة وبلاغة وجرأة وإقدام في تنفيذ كل مايكلفون به.

- كما حرص ρ على الصفات الخُلقية لسفرائه, فقد تخير فيهم صفات خَلقية وأخرى اجتماعية, حيث عمد ρ إلى إرسال من تمتع بقدر كبير من حسن المنظر وبهاء الشكل

---

1 صحيح البخاري، 431/1.
2 النمل، 35.

وجمال الجسم, ذلك أن النفس الإنسانية مجبولة على الميل إلى الجمال, منساقة إلى تكريمه, ففي حسن الطلعة ما يبهر الناظر ويشده إليه, لذلك أوفد ρ من اتسم بالجمال من الصحابة كدِحْيَة الكلبي الذي عرف بحسنه وضرب به المثل لجماله ,حتى إن جبريل -عليه السلام- كان يتنزل في صورته أحيانًا[1], كما حرص -أحيانًا- على توكيد النواحي الاجتماعية من خلال تخير السفراء, وأشار إلى ذلك في كتبه بقوله:" وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي, وأولي ديني, وأولي علمهم, فآمركم بهم خيرًا فإنه منظور إليهم".

- واجتهد -عليه الصلاة والسلام- في اختيار سفرائه ممن أسلم قديمًا, حتى إن أغلبهم كان قد شهد بدرًا وأحدًا, وللنبي ρ غاية في ذلك, فمن شهد بدرًا ونافح عن الدين في بداياته على قلة أهله وضعف شوكته دون خوف أو تردد, قادر على مجابهة الملوك بعد أن بلغ الدين الإسلامي ذلك المبلغ,وعلت رايته وقويت شوكته,فضلاً عن أن أغلب سفرائه كانوا ممن هاجر إلى الحبشة, ولهم دراية بالسفر واختلاط بالأمم الأخرى, فقد انتدب ρ عبد الله بن حذافة السهمي لعظيم الفرس, وهو ممن أسلم قديمًا وشهد بدرًا, وله من الشجاعة والبطولة ما جعله يأبى تقبيل رأس ملك الروم, ويفضل أنفة المسلم على حريته,لكنه عاد وفعل ذلك تضحية لإطلاق سراح أسرى المسلمين عند الروم[2], والتوجه إلى الفرس أمر ليس بالسهل, لما عرف عنهم من بطش, لكن رسول الله ρ أحسن اختيار سفيره فمثله خير تمثيل, وقد خص رسول الله ρ عبد الله بن حذافة بإرساله إلى كسرى لأنه كان يتردد عليهم كثيرًا ويختلف إلى بلادهم. [3]

1 شرح السيوطي على السنن الصغرى 470/8 و الإصابة في تمييز الصحابة 321/2.
2 تهذيب التهذيب 179/3.
3 المصباح المضي في كتاب النبي الأمي 368.

وانتدب ρ إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة وهو قديم الإسلام [1] شهد بدرًا والحديبية, وكان أحد فرسان قريش في الجاهلية وشعرائها[2]، مما أعطاه فصل الخطاب, وقد شهد له المقوقس بالحكمة عندما سأله عن نبوة محمد ρ, قائلاً فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟ فقال حاطب: فعيسى بن مريم تشهد أنه رسول الله، فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى رفعه الله إليه في السماء الدنيا؟ فقال المقوقس: أنت حكيم جاء من عند حكيم[3], وكذلك بعث ρ عمرو بن أمية إلى النجاشي وهو سابق في الإسلام,ومن المهاجرين الأول إلى الحبشة, وكان رسول الله-عليه الصلاة والسلام-يبعثه في أموره لنجدته وجرأته[4], وكان من أكثر رجال العرب شجاعة وجرأة ونجدة[5], أما هوذة بن علي ملك اليمامة فقد أرسل له ρ سفيره سليط بن عمرو العامري, وقد تخيره -عليه الصلاة والسلام- لأنه كان كثيرًا ما يختلف إلى بلادهم [6]، وقد أسلم سليط قديمًا قبل عمر, وشهد بدرًا، وكان ممن هاجر إلى الحبشة[7].

وانتدب ρ عمرو بن العاص لملكي عمان, وكان عمرو من أبطال قريش في الجاهلية مذكورًا بذلك فيهم، وفضائله ومناقبه كثيرة جدًّا, وقد قيل: دهاة العرب أربعة: معاوية، وعمرو، والمغيرة،وزياد، فأما معاوية فللحلم،وأما عمرو فللمعضلات، وأما المغيرة فللمبادهة، وأما زياد فللصغير والكبير, وروي عن قبيصة بن جابر: صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين، أو قال أنصع رأيًا، ولا أكرم جليسًا، ولا أشبه سريرته بعلانيته منه.[8]

---

1 تهذيب التهذيب 446/1.
2 الإصابة في تمييز الصحابة 2/ 4 .
3 المصباح المضي في كتاب النبي الأمي 538.
4 المصدر السابق 258.
5 الإصابة في تمييز الصحابة 496/4 .
6 المصباح المضي في كتاب النبي الأمي 486.
7 الإصابة في تمييز الصحابة 136/3.
8 تهذيب التهذيب 4/ 419.

- لوحظ في اختياره ρ لسفرائه أنهم كانوا من قبائل متعددة , ولم يكن هناك سفيران من قبيلة واحدة, وفي هذا إشارة منه ρ إلى أن هذه الدعوة ليست قبلية , بل تتشارك فيها كل قبائل العرب, وتجمعها وحدة واحدة وهي وحدة العقيدة وتبليغ الرسالة, بل إن الملاحظ –كذلك- أن قريشًا لم يكن لها حظ وافر من تلك السفارات إلا من خلال عبد الله بن حذافة السهمي القرشي, وفي هذا رسالة منه ρ إلى أن مناط الاختيار هو الأصلح والأجدر, وأن التكليف بالمهمة لا يستند إلى النسب أو المكانة الاجتماعية , وإلا لكانت قريش أولى الناس بها, بيد أنه ρ ينظر للأمور نظرة المتجرد الذي يعنى بمصالح الأمة والدعوة لا بمصالح القبيلة وأولي القربى.
- حرص ρ على حماية سفرائه,وتقرير حقوقهم وإسباغ وافر العناية بهم والإكرام لهم, وهو ما يسمى اليوم بالحصانة الدبلوماسية, فالسفير ممثل لدولته,وإكرامه تكريم للدولة ولحاكمها, فضلاً عن أن هذا السفير إن كان مؤتمنًا على ما سفر من أجله فالحاكم مؤتمن على حياته وتوفير حمايته بما يضمن له السلامة, ولذلك أوصى بهم ρ فقال: "إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا معاذ بن جبل, وعبد الله بن زيد, ومالك بن عبادة, وعقبة بن نمر, ومالك بن مرة وأصحابهم" وقال في كتاب آخر:" وإني قد بعثت إليكم من صالحي أهلي وأولي ديني وأولي علمهم فآمركم بهم خيرا فإنه منظور إليهم", وأمر ρ بإكرام سفرائه وكسوتهم, في محاولة جادة منه لرفع قيمة مبعوثيه, فأمر النجاشي بإكرام رسله قائلاً: " وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين, فإذا جاءك فاقرهم", بل إنه ρ يعمد إلى ذكر أسماء سفرائه واحدًا واحدًا ، مما أسبغ عليهم الهيبة والمنعة والتأثير في نفوس المتفاوضين .
- وقد دعم ρ مكانة سفرائه قارنًا رضاه برضا رسله مؤكدًا إكرامهم بقوله:" وأطع الله ورسل رسوله وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة, غير كسوة الغزاء, واكس زيدًا كسوة

حسنة فمهما رضيت رسلي رضيت". وخصص أمير الوفد بالتوصية, فأمر بإرضاء معاذ بن جبل قائلاً:" وإن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضيًا"، وركز المصطفى ρ على طاعة رسله فهم المتحدثون الرسميون عنه ρ:" وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني, ومن نصح لهم فقد نصح لي"، وهذا دليل على موضوعيته -عليه الصلاة والسلام- فهو يقبل النصح لرسله وله أيضًا .

- وأعطى ρ الرسل صلاحيات أخرى بجانب تبليغ الرسالة, وتوجهم بمنزلة رفيعة, فلهم أن يقاضوا المرسل إليه, وأن يحكموا في أمره فهم مفوضون منه ρ , وقد قبل بحكمهم, يدل على ذلك قوله :" وإن رسلي شرحبيل، وأبي وحرملة، وحريث بن زيد الطائي فإنهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته".
- وكما كان السفير موفد الحاكم ولسانه المتحدث عنه, فقد كان عينه التي تنقل له مشاهداته خلال رحلته, وقد أكد ρ هذه الفكرة, فسمع من سفرائه, وقبل شهاداتهم وقد عبر عن ذلك بقوله: "وإن رسلي قد أثنوا عليك خيرًا".
- كما أمر الرسول ρ بحماية رسله وإكرامهم وأعطاهم الحصانة, فقد أقر للرسل والسفراء الذين وفدوا إليه في دولته الإسلامية في السلم أو الحرب بحق الحماية كذلك, ولهم من الحرمة ما يكفل لهم حق القيام بمهمتهم التي بعثوا لها ووكلوا من أجلها, فلا يعتدى عليهم ولا تساء معاملتهم ماداموا في سفارتهم حتى وإن اقترفوا أمرا يوجب المحاسبة ويستحق العقاب, والدليل على ذلك أنه ρ قد تسامح مع رسولي مسيلمة الكذاب, وهما: ثمامة بن أثال، وعبد الله بن النواحة، إذ جاءاه بكتاب مسيلمة الذي يقول فيه: "من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد: فاني قد أشركت في الأمر معك أن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريش قوم يعتدون

"، فقال لهما رسول الله ρ حين قرأ الكتاب: فما تقولان أنتما؟ قالا : نقول كما قال، فقال :أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما"[1].

- تبادل ρ الوفود والمبعوثين, فكانت وفوده تضرب في أصقاع المعمورة تنشر الإسلام وتدعو إلى السلم, وتؤدي المفاوضات على أكمل وجه, كما كانت الوفود تفد عليه في المدينة على اختلاف أغراضها، فمنها من وفد مبايعًا ملتزمًا بمحض إرادته بعد أن وجد في الدين الإسلامي ضالته, ومنها من استسلم ورضي بعد أن قويت شوكة هذا الدين, ومع كل ذلك كان ρ يأمر السفراء بإعطاء الأمان وحسن المعاملة لمن التحق بركب الدين, كما كان ρ النموذج الأعلى في حسن تعامله مع الوفود التي قصدته من كل مكان, فكتب لهم العهود والمواثيق, وأعطاهم الذمة والأمان على الصعيد المعنوي, وقطع لهم الأراضي والعطاءات على الصعيد المادي.
- تجلت سماحته ρ في معاملة من وفد إليه قاصدًا الحماية دون اللحاق بالإسلام, فاستمر في تنفيذ سياسته الحكيمة في التعامل مع النصارى واليهود والمجوس بروح التسامح, فلم يكرههم على اتباع الدين بل اكتفى بفرض الجزية عليهم, موصيًا بذلك في قوله لنصارى نجران:" لا يغيروا أسقفًا عن أسقفيته ,ولا راهبًا عن رهبانيته, ولا واقفًا عن وقفانيته, وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير" وفرض على يهود تيماء الجزية وأبقى لهم أملاكهم وأراضيهم ولم يجلهم عنها, كما أحسن معاملة يهود أذرح وجرباء فارضًا عليهم الجزية, وكذلك تعامل مع مجوس البحرين فأمرهم بالجزية في غير إكراه على اتباع الدين .
- استفاد ρ من النظام الضريبي الذي كان سائدًا عند العرب في الجاهلية وفي الدول المجاورة, ففرض الجزية على من لم يسلم من القبائل, ولوحظ أن الجزية التي فرضها

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ 477.

ρ على غير المسلمين من يهود ونصارى ومجوس لم يكن لها نظام محدد أو قواعد ثابتة, وكانت تستند إلى حال المفروض عليهم, وفي هذا ما يؤكد سماحة الرسول الكريم والإنسانية التي هي أساس التعامل في الإسلام, فقد أخذ ρ الجزية من الذميين نقدًا أو مواد عينية, كما لم تكن محددة المقدار, فقد اختلفت من قوم لآخرين قلة وكثرة, فردية أو مشتركة, كما اختلفت أزمانها فجعلها محددة برجب مرة, وبرجب وصفر أخرى, فيما جعلها مع كل حصاد أحيانًا.

- أعطى ρ القبائل التي آمنت, والقبائل التي رضيت بدفع الجزية الأمان المطلق, فيما أعطى من تردد وأبى أمانًا محدودًا بشهرين، وهي مهلة كافية لمحاسبة النفس وموازنة الأمور قبل الدخول معه ρ في مواجهة حربية .
- ركز ρ في معاهداته مع القبائل العربية على شرط إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة , مما ينم على رعاية الدين لمصالح الفرد والتكافل الاجتماعي من خلال إخراج الزكاة الواجبة, بل إنه لم يجعل للزكاة حدا أدنى ورغب في زيادتها بقوله في كتابه لأهل اليمن "فمن زاد فهو خير له".
- فيما أكد ρ فريضة الزكاة وأوجب جبايتها من أصحابها, فقد أكد كذلك بأن الزكاة لا تحل له ولا لأهل بيته, وإنما هي صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين فترد على فقرائهم, فهو ليس بطالب مال, وإنما بعث لإقامة العدل فيما أورثه الله لعباده في الأرض.
- أقر -عليه الصلاة والسلام- الحقوق لأصحابها,وأعطى القبائل حق الانتفاع بأراضيهم بما لا يلحق الأذى أو يسبب الضرر لأحد من المسلمين, فكتب الإقطاعات الفردية والجماعية, وكان مشددًا ρ في أحقية ما يكتب لصاحبه,وجعل من نفسه وكيلاً عليهم.

الباب الثاني

تشكيل أدب الوفادة

مدخل

اللغة هي أداة التعبير الأولى، ونتيجة اختيار بعض أدواتها يتم بناء النصوص الأدبية إما لغايات فكرية, أو لغايات تعبيرية, وقد تعددت مناهج الدراسة النقدية حول دور اللغة في عملية الإنتاج الأدبي قديمًا وحديثًا, وإن كان علم البلاغة العربية قد عني بتناول جماليات التعبير الأدبي, فقد توشح ثوبًا جديدًا في الدراسات الغربية عرف باسم الأسلوب[1]، وتعددت تعريفات علم الأسلوب، إذ رأى بعض الدارسين أن الأسلوب يعود إلى التنفيذ الفردي للغة وإلى مجال الكلام والممارسة.[2]

"والأسلوبية علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب, ولكنها–أيضًا-علم يدرس الخطاب موزعًا على مبدأ هوية الأجناس, ولذا كان موضوع هذا العلم متعدد المستويات, مختلف المشارب والاهتمامات, متنوع الأهداف والاتجاهات, ومادامت اللغة ليست حكرًا على ميدان إيصالي دون آخر, فإن موضوع علم الأسلوبية ليس حكرًا -هو أيضًا- على ميدان تعبيري دون آخر"[3]، وينبغي فهم الأسلوبية على أنها نظرية فرعية في علم اللغة[4]، إذ الأسلوبية علم يمثل جسرًا بين الأدب وعلم اللغة, أو اللغة الفنية التي تتحكم فيها المتغيرات والثوابت فيما يسمى الشعور الفني أو الجمالي[5].

1 علم الأسلوب, 152.
2 علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة, 49.
3 الأسلوبية وتحليل الخطاب, 27.
4 علم اللغة والدراسات الأدبية, 25.
5 اتجاهات البحث, 211.

ويهدف علم الأسلوب إلى تقديم صورة شاملة لأنواع التراكيب وما يختص بها من دلالات[1]، ووفق هذا المنهج تحتم على الباحث والناقد أن يجند معرفته اللغوية والتاريخية والنفسية لدعم قراءاته وصونها عن الانزلاق وراء التذوق العشوائي[2]، وبذلك يكون علم الأسلوب في مفهومه النقدي العلم الذي يكشف عن القيم الجمالية في الأعمال الأدبية انطلاقاً من تحليل الظواهر اللغوية والبلاغية للنص الأدبي فهي تبحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب الأدبي .

والأسلوبية نهضت بعد أن أغرقت البلاغة نفسها في المعيارية المتحجرة التي بقيت فيها حقبة زمنية طويلة, وبذلك عملت الأسلوبية على توحيد رؤية البلاغة التي تعمل على فصل العلاقة القائمة بين النص ومدلوله[3]، "فالبلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وتصنيفات جاهزة, بينما تتحدد الأسلوبية بقيود منهج العلوم الوصفية, والبلاغة ترمي إلى خلق الإبداع بوصاياها التقييمية بينما تسعى الأسلوبية إلى تعليل الظاهرة الإبداعية بعد أن يتقرر وجودها"[4].

لقد "ظلت علوم البلاغة الثلاثة منفصلة ولم يتح لها مجال التلاقي في إطار واحد مخصب يفيد في تحليل شمولي يتناول بنية النص عامة , وقد ظل التركيب اللغوي هو محط الاهتمام لدى البلاغة القديمة يتعاوره أحد العلوم البلاغية, فحلل كل علم هذا التركيب من جوانب عديدة غير أنها منفصلة غير متلاقية...أما الأسلوبية فإنها تهتم بالنص وتدرسه من الداخل لكشف طبيعة العناصر اللغوية التي نظمت في نسق واحد متآلف"[5]. ولعل في هذا الرأي هجوم على البلاغة العربية التي وسعت كل ما حوته الأسلوبية , بل إن الأسلوبية قد أفادت من البلاغة فجمعتها مع غيرها من العلوم, ولشمولية هذا المنهج وقيامه على ثوابت مستقاة من علوم اللغة المختلفة مما يمكن للدارس استثمارها كالبلاغة والنحو والأصوات

1 مدخل إلى علم الأسلوب, 43.
2 في معرفة النص, 19.
3 القراءة النسقية, 35.
4 الأسلوبية والأسلوب, 53.
5 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 71.

وغيرها، فقد آثرت أن يتسلح العمل في هذا الباب بالمنهج الأسلوبي، فضلاً عن وجود ما عرف" بالمنهج البلاغي في دراسة الأسلوب"[1]، مما يتيح الجمع بين البلاغة والأسلوب في آن.

ومن الأهمية بمكان قبل الشروع في دراسة التشكيل الأسلوبي في أدب الوفادة في عصر النبوة الإشارة إلى أهم الأدوات الإجرائية للمنهج الأسلوبي, أو أهم الظواهر التي ستلقي بظلالها في مختلف فصول الدراسة في هذا الباب, وهي ظاهرة الانزياح: "ويكاد الإجماع ينعقد على أن الانزياح خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر أو هو خروج عن المعيار لغرض قصد إليه المتكلم أو جاء عفو الخاطر لكنه يخدم النص بصورة أو بأخرى وبدرجات متفاوتة"[2]، ويرى د. نعيم اليافي أن الانزياح يصيب سائر المكونات الشعرية، وذلك من خلال قوله بالانزياح المجازي ويتمثل بجميع أنماط الصور البيانية, والانزياح الإيقاعي, والانزياح اللغوي, بجميع ضروبه, وانزياح صفات وانزياح تقديم وتأخير , والانزياح الدلالي ما بين الصوت والمعنى أو الدال والمدلول[3]، و"عرف علماء العربية الانزياح في ظل المعنى المفهومي للعدول والتوسع والاتساع"[4]. وإذا كان النحاة واللغويون قد عنوا ببعض التحولات اللغوية فقد حرص البلاغيون "على العكس من النحاة واللغويين على رعاية صفة مخالفة في الاستخدام الفني للغة, هذه الصفة هي المغايرة والانحراف على نحو معين من القواعد والمعايير المثالية التي تحكم اللغة العادية"[5].

وشاع مصطلح العدول عند القدماء و" جاءت هذه الكلمة على صيغة الفعل وعلى صيغة الاسم لتشير على الخروج عما هو مألوف وحقيقي وعادي, وقد جاءت على صيغة فعل

1 اتجاهات البحث الأسلوبي, 211.
2 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 180.
3 الانزياح والدلالة, 5 .
4 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 182.
5 نظرية اللغة في النقد العربي, 209 .

مثل عدل ويعدل كما جاءت على صيغة الاسم العدول"[1] ,ومن أبرز هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي حرص حرصًا شديدًا على الوقوف على جماليات الصور البلاغية, ومن أهمها ما يعرف الآن في الدرس الأسلوبي بالانزياح التركيبي,فقد أولى الجرجاني كل اهتمامه لهذا المظهر, وعد العدول في الأسلوب ميزة كبيرة في الشعر إذ يصبح أصل الفائدة ومبعث الرقة وسبب الاستمتاع[2].

وفي عصرنا الحديث نظر إلى الانزياح نظرة متقدمة تخدم التصور النقدي القائم على أساس اعتبار اللغة الشعرية لغة خرق وانتهاك للسائد والمألوف وبقدر ما تنزاح اللغة عن السائد والمألوف تحقق قدرًا من الشعرية في رأي كوهين[3].

فالانزياح "جاء لإخراج اللغة من دائرة المعاني المعجمية الضيقة والمعيارية المحددة إلى دائرة النشاط الإنساني الحي, ومن غايات الانزياح لفت الانتباه ومفاجأة القارئ أو السامع بشيء جديد والحرص على عدم تسرب الملل إليه" [4]، "وصاحب الخطاب يقوم باستعمال طوعي وواع للغة .. وهو فوق كل شيء يستعمل اللغة بقصد جمالي, ويناضل من أجل إبداع للجمال بوساطة الكلمات كما يعمل الرسام بالألوان والموسيقي بالموسيقى" [5].

وفي الوقت ذاته فإن الانزياح يعكس قدرة كبيرة عند المبدع على استخدام اللغة وتفجير طاقاتها وتوسيع دلالاتها وتوليد أساليب وتراكيب جديدة لم تكن دارجة أو لم تكن شائعة في الاستعمال, فالمبدع يشكل اللغة حسبما تقتضي حاجته غير آبه بالحدود والأنظمة والدلالات الوضعية، فهو يعمد إلى الانتقال مما هو ممكن إلى ما هو غير ممكن من خلال استخدامه الخاص للغة[6].

---

1 الانحراف مصطلحًا نقديًّا ,مج 10 /ع147/4.
2 دلائل الإعجاز ,106 .
3 بنية اللغة الشعرية, 182.
4 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 184 .
5الأسلوب والأسلوبية , كراهام هاف, 3.
6 الانحراف مصطلحًا نقديًّا,154.

كما أن رصد ظواهر الانحراف في النص يمكن أن تعين على قراءته قراءة استبطانية جوانبية تبتعد عن القراءة السطحية والهامشية، وبهذا تكون ظاهرة الانحراف ذات أبعاد دلالية وإيحائية تثير الدهشة والمفاجأة، ولذلك يصبح حضوره في النص قادرًا على جعل لغته لغة متوهجة ومثيرة تستطيع أن تمارس سلطة على القارئ من خلال عنصر المفاجأة والغرابة[1].

---

1 الانحراف مصطلحًا نقديًا, 146.

الفصل الأول

التشكيل اللغوي

الفصل الأول

التشكيل اللغوي

جاء الأدب العربي متميزًا عن آداب الشعوب الأخرى، فمكنت لغته لأهلها القدرة على الإبداع, ذلك أن هذه اللغة قادرة على استيعاب أكثر الصور الفنية رقيًّا وامتدادًا، بما تمتاز به من تمايز في الدلالات، واقتدار على الإيحاء، وبما يحمله صوت الحرف العربي من موسيقى خفية ، تضيف إلى المعنى المباشر تجليات وإيحاءات تشي بعظمة هذه اللغة ورشاقتها وعبقريتها. وبالنظر إلى السياقات الدلالية في أدب الوفادة في عصر النبوة يبرز التشكيل اللغوي كأحد أهم العناصر المؤثرة في الوظيفة الأدائية لهذا الفن, حيث تعاضدت التلوينات اللغوية؛ لتشكل منظومة جمالية شملت معطيات اللغة كلها, أي إنها تبدأ من الوحدة الأولى للبناء التركيبي في الكلمة وهو الصوت, لتصل إلى الوحدة الأعظم في البناء وهي الدلالة .

وسيتناول هذا الفصل دراسة التشكيل اللغوي لأدب الوفادة منطلقا من الصوت كوحدة صغرى, وصولا إلى اللفظة فالجملة, مع الوقوف على أبرز اللهجات التي وردت في ذلك الأدب أو تكلم بها المصطفى ρ.

أ- الأصوات والحروف:

مما لا شك فيه أن الصوت وعاء الألفاظ ولحاء معانيها , وسواء أكان الصّوت قادرًا على إفادة المعنى بمفرده أم بتضافره مع الأصوات الأخرى في اللفظة أو الجملة, فإنّ له مكانة هامّة ومنزلة رفيعة تقتضي التمحيص والتدقيق." وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي, وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت , بما يخرجه فيه مدًّا أو غنَّة أو لينًا أو شدَّة, وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على

مقادير تناسب ما في النفس من أصولها "[1]، كما لا يخفى ما للأصوات من قيمة تعبيرية تأتيها من خلال ظاهرة التشكيل الصوتي على مستوى الحروف, من حيث توظيفها بالشكل الذي من شأنه أن يعطي السياق جمالية تبرز من خلال تآلف الأصوات أو تكرارها , أو غير ذلك من الظواهر الصوتية التي تمنح الإيقاع جمالاً دلاليًّا ونصيًّا.

والصوت "هو آلة اللفظ، والجوهرُ الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا, ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا, إلا بظهور الصوت, ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف"[2] . كما أن لصوت الحرف أثرًا سمعيًّا بارزًا من خلال ما يحدثه تكرار بعض الأصوات من تناغم يستدعي لفت الاهتمام, مما يدعم بشكل أو بآخر معنى اللفظة, أو معنى البيت الذي وردت فيه, إذ تعد لغة التكرار في الشعر باعثًا نفسيًّا يهيئه الشاعر بنغمة تأخذ السامعين بموسيقاها[3] , كما أن لتكرار الحروف دور كبير في الموسيقى اللفظية, إذ تشترك الكلمات في حرف واحد أو أكثر, ويكوِّن هذا الاشتراك قيمة نغمية جليلة تؤدي إلى زيادة الأداء بالمضمون[4], وذلك التكثيف الذي نشعر به في أية قصيدة أصيلة إنما هو حصيلة لبناء الأصوات[5].

واتسمت لغة أدب الوفادة على رسول الله ρ بالقدرة على توظيف الأصوات توظيفًا خدم الدلالة, وأعطاها إلى جانب المعنى جرسًا إيقاعيًّا مؤثرًا, ولاسيما ما اتصفت به لغة المصطفى ρ , إذ تمكن بعبقرية فذة أن يحسن توظيف الحروف وإيحاءاتها بما يناسب السياق والمقام والحالة النفسية للمتلقي , فتراه على سبيل المثال يستخدم حروف الهمس في دعوته لهرقل قائلاً: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن توليت

---

1 إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, 215.
2 البيان والتبيين, 1/ 79.
3 جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ,24.
4 أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي, 501.
5 الشعر والتجربة ,23.

فإن عليك إثم الأريسين "[1] ، إذ يزاوج ρ بين الحروف الحلقية الحاء والهاء والعين, مما أعطى مساحة أكبر للتفكر فيما سيأتي, ثم يعلو الإيقاع الصوتي بالصفير من خلال تكرار حرف السين[2] الذي أعطى نغمًا تنبيهيًّا أوحى بالقيمة الدلالية للنص, مع بروز الكاف وهو من الحروف الشديدة القوية, إذ جاء منسجمًا مع قوة ومكانة المرسل إليه, فيما أوحى أيضًا بقوة مضمون الرسالة أمام أهمية متلقيها, وهذا مما يميز النص النبوي الشريف, وهو القدرة على التدرج في المعنى ضمن إطار صوتي واحد وتناغم موسيقي أصيل، وذلك واضح في صعود المعنى من الهدوء إلى القوة ومن السكون إلى الحركة. وفي سياق آخر يستخدم ρ السين ناهيًا عن المسكر بقوله: " من السائل عن المسكر؟ تسألني عن المسكر! لا تشربه, ولا تسقه أخاك, فوالذي نفس محمد بيده ما شربه رجل قط ابتغاء لذة سكره فيسقيه الخمر يوم القيامة" [3]، فتكرار الهمس أعطى للمعنى قيمة تعبيرية خاصة ولونًا اصطبغت به الدلالة بفعل تردد السين, وهو حرف صفيري أعطى صفة التنبيه والتحذير, مع مزاوجته بالكاف والقاف وهي من حروف أقصى اللسان[4] " وهما "متفقتان في الشدة"[5] ، فصوتا القاف والكاف بشدتهما واستعلائهما أوحيا بقيمة الحكم وأهميته, كما كان في التفشي المنبعث من تكرار الشين دلالة على شيوع الحكم وتفشّيه وعدم اختصاصه, عزز ذلك بتكرار الراء التي أوحت باستمرارية الحكم والقطع, فيه فضلاً عما أحدثه الإيقاع السريع من إحساس نغمي أوحى بمعنى الحديث ومضمونه.

وفي مقام مختلف تمامًا يوظف -عليه الصلاة والسلام- حروف الهمس مادحًا قبيلة همدان بقوله: "نعم الحي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد"[6]. حيث تتعاقب

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 348.
2 السين والصاد من حروف الصفير. الكتاب , 464/4.
3 الطبقات الكبرى ,562/5.
4 موسيقى الشعر, 35.
5 الكتاب, 452/4.
6 الطبقات الكبرى ,341/1.

الأصوات محدثة تـأثيرًا جميلاً استمدته من تعاقب حروف الهمس السين والصـاد, وسيطرت حرف الهاء من حروف الهمس, وهو صوت رخو مستفل منفتح مصمت خفي[1], وحروف الحلق الحاء والعين, وقد أنتجت هذه المزاوجة إحساسًا بالرضى والإعجاب المتمثل في التنبيه المنبعث من حروف الصفير, مع الامتداد الظاهر في تكرار الهاء بما يحمله من همس أسهم في تأكيد الصفة, فضلاً عن حروف الحلق التي ألحقت بالمد مما أكسبها إيقاعًا خاصًّا.

ويتمثل الإعجاز البياني النبوي في قدرته ρ على استخدام الصوت الواحد في سياقات مختلفة ولدلالات متباينة مع تأثيره الإيقاعي في الخطاب نصًّا ومعنى، "وتكرار حرف بعينه أو حرفين أو ثلاثة ... إما أن يكون لشد الانتباه إلى كلمة أو كلمات بعينها عن طريق تآلف الأصوات بينها, وإما أن يكون لتأكيد أمر اقتضاه القصد فتساوت الحروف المكررة في نطقها له مع الدلالة في التعبير عنه"[2] ,كما أن التكرار المتعمد لبعض الحروف يحدث بالإضافة إلى التشكيل الصوتي للصورة السمعية أثرًا في نفس المتلقي.

ومع بروز الهمس في خطاباته ρ ، إلا أن حروف الجهر كانت تلقي بظلالها بين الكلمات, كالباء والجيم و والذال والراء والقاف وغيرها[3].

والصوت إما أن يكون مجهورًا أو مهموسًا, والصوت المجهور هو: صوت لغوي يصاحبه اهتزاز الحبال الصوتية, أما المهموس فلا تهتز معه الحبال الصوتية إذ تنفرج هذه الحبال جانبًا وتنزوي جهة المزمار, فلا تعترض سبيل النفس الخارج من الرئتين والمار في المزمار[4].

1 علم التجويد في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ,156 .
2 الأسلوبية وتحليل الخطاب ,78 .
3 ألفاظ المد والإمداد في القرآن الكريم, 5.
4 دراسات لغوية ,41.

وبرزت حروف الهمس في خطاب الوفود, كما في قول هوازن:": يا رسول الله! إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك" [1]، فمزاوجة المتكلم بين حروف الهمس الصاد والشين, التي أشاع استخدامها لونًا من الإيقاع الهامس في جرسه والشديد في وقعه وأثره, و حروف المد التي بثها بين الكلمات, أعطت المعنى مساحة أوسع للتفكر, فضلاً عما أنتجته هذه المزاوجة من إحساس بالألم لاءم مقام الاسترحام والاستعطاف بين يدي رسول الله ρ.

وفي سياق المدح والإعجاب أبدع ρ في توظيف ما أوحى بدقة الدلالة من الحروف والأصوات عندما استقبل وفد عنزة بقوله: " بخ بخ نعم الحي عنزة مبغيٌّ عليهم منصورون"[2]، فاسم الفعل مع ما يحمله من التقاء صوتين الأول شفوي هو الباء وهو حرف انفجاري شديد[3], والثاني حلقي هو الخاء وهو صوت احتكاكي رخو[4] أحدث أثرًا دالاً على التفخيم والهيبة, تعانق مع الدلالة الحقيقية للكلمة[5] فضلا عن تواتر الحروف الحلقية معطيًا ذلك التأثير العظيم في السامع.

ويورد -عليه الصلاة والسلام- اسم فعل آخر يحمل دلالة وإيحاءً مناقضًا لسابقه, حينما ينهى عن المبالغة في مدحه والإفراط فيه, محذرًا وفد بني عامر عندما بالغوا في صفته -عليه الصلاة والسلام- بقوله: مه مهْ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلا يَسْتَجْرِئَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ"[6] فاستخدامه ρ لاسم الفعل(مه) جاء مختلفًا عن استخدامه لاسم الفعل (بخ) صوتًا ودلالة, فعلى المستوى الصوتي تعانق الحرف الشفهي الميم وهو من الحروف التي تتوسط بين الشدة واللين[7], والحرف الحلقي الهاء, وهو حرف يحتاج إلى بعض الجهد في نطقه، مما أوحى بالتأوه وعدم الرضى,

1 مسند الإمام أحمد 2-438.
2 الإصابة في تمييز الصحابة 3 -124.
3 ألفاظ المد والإمداد في القرآن الكريم 8.
4 المرجع السابق نفسه.
5 هي كلمة تقال عند تعظيم الإنسان، وعند التعجب من الشيء، وعند المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة فيقال بَخْ بَخْ." اللسان ,(بخخ) .
6 البيان والتعريف ,3 /243.
7 ألفاظ المد والإمداد في القرآن الكريم ,9 .

أما على المستوى الدلالي، فإذ تفيد كلمة (بخ)معنى الإعجاب فإن (مه) تفيد الرفض والزجر [1].

إن من أبرز حالات التميز في لغته ρ هو قدرته على منح المتلقي الإحساس بالسياق دون أن يكون من الضرورة معرفة معاني كل الكلمات الموجودة في العبارة, فضلاً عن التأثير النفسي لما تحدثه أصوات الكلمات من جرس وإيقاع.

وأجاد -عليه الصلاة والسلام- انتقاء الأصوات التي جاءت متسقة مع المعاني، فهاهو ذا يوظف حروف الإطباق في نهيه عن ضرب الزوجة قائلاً: " وَلاَ تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضَرْبِكَ أُمَيَّتَكَ"[2]، مستخدمًا الضاد والظاء وهي من حروف الإطباق[3] التي تحتاج إلى جهد عضلي[4] انسجم مع دلالة الضرب فضلاً عن توكيد قوة الإيقاع باستخدام التضعيف في الكلمة الأخيرة.

ولم تقف إيحاءات الأصوات في أدب الوفادة على رسول الله عند استخدام حروف الهمس أو الجهر وتكرارها, بل برزت كذلك من خلال توظيف ظاهرة المد مع ما ترمز إليه حروف المد من هدوء, واتساع,وقدرة على التنفيس والتعبير عن مكنونات النفس وتساؤلاتها, إذ في مقدور صوت المد أن يستمر أية مدة ممكنة لكونه يحدث من اتخاذ اللسان والشفتين وضعًا خاصًّا[5], كما أن عدم الاحتكاك الذي يعد عنصرًا جوهريًّا فيه [6] مكن له حمل طاقة أعلى مما تحمله الصوامت التي تفقد كثيرًا من طاقاتها في الاحتكاك[7], يتجلى ذلك في قول ضمام بن ثعلبة " أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا

---

1 مَهْ: زجرٌ ونهيٌ. ومَهْ: كلمة بُنِيت على السكون، وهو اسم سُمِّي به الفعل، معناه اكْفُفْ لأَنه زجرٌ، فإِن وصَلْتَ نوَّنت قلت مَهٍ مَهْ" .اللسان ,(مهن) و قال العلماء: هو اسم مبني على السكون معناه اسكت، قال صاحب المطالع: هي كلمة زجر، قيل أصلها ما هذا ثم حذف تخفيفًا، قال وتقال مكررة مه مه، وتقال فردة مه. شرح النووي على صحيح مسلم, 155.

2 مسند الإمام أحمد ,211/4.

3 ألفاظ المد والإمداد في القرآن الكريم, 11.

4 موسيقى الشعر, 35.

5 في الأصوات العربية دراسة لغوية في أصوات المد العربي, 37.

6 مناهج البحث في اللغة, 117.

7 الصوت, 67.

رسولاً؟!"[1]، ومع كل هذا الجهد الذي تطلبه نطق المدود المتتالية مما يشعر بانقطاع النفس إذ تتابع الهمز مع الهاء وهما حرفان يتطلبان جهدًا في النطق بهما[2] , فيما يتلاشى ذلك الشعور مع ظهور المد واضحًا جليًّا دون جهد أو انقطاع للنفس في خطاب رسول الله ρ لملكي عمان " وإنكما إن أقررتُما بالإسلام ولَّيتكما وإن أبيتما أن تُقرَّا بالإسلام فإن مُلْكَكُما زائل عنكما وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوتي في مُلْكِكُما"[3]، فهذه المدود المتتابعة وحسن استخدام ألف الاثنين أوحت بمساحة زمنية هيأت للمتلقي فرصة التفكير بروية وتمعن, معززًا ذلك بحسن توظيف الحروف وتكرارها, مراوحًا بين تكرار الميم والنون وهي من الحروف التي لا تتطلب جهدًا عضليًّا[4] مع الكاف وهو من الحروف التي تحتاج إلى جهد عضلي[5] ، مما وازن الإيقاع وأعطى الخطاب جرسًا منسجمًا مؤثرًا.

ويتجلى الإعجاز النبوي في قدرته ρ على المراوحة بين المد والتضعيف في قوله: " أما بعدُ فإنَّ إخوانكم جاؤونا تائبين، وإني رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فمَن أحبَّ مِنكُم أن يُطَيِّبَ ذلكَ فلْيَفْعَلْ، ومَن أحبَّ أن يكونَ على حظِّهِ حتّى نُعطِيَهُ إيّاهُ مِن أوَّلِ ما يُفيءُ اللهُ علينا"[6], إذ منح المد الخطاب انسيابية مؤثرة بما تمتاز به أصوات المد من قدرة عالية على الإسماع مع سعة إمكاناته الصوتية ومرونتها"[7], فيما أعطى التضعيف صفة التوكيد والأهمية, فالاختلاف في الكمية وفي مقدار قوة الحرف وشدته يعطي اختلافًا كميًّا في المعنى كذلك. فيما يرتفع إيقاع التضعيف فيعطي شعورًا بالغلظة والقوة والجفاء في قول الوافد:" يا ابن عبد المطلب إني

---

1 تاريخ الأمم والملوك ,192/2-193.

2 الهمزة حرف شديد يحبس مجرى الهواء عند النطق به حبسا تاما في موضع من المواضع, وينتج عن هذا الحبس أن يضغط الهواء ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة فيندفع الهواء محدثًا صوتًا انفجاريًّا,أما الهاء فهو صوت احتكاكي يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من مواضع النطق به؛ ليحدث الهواء عند النطق به احتكاكًا مسموعًا. ألفاظ المد والإمداد في القران الكريم ,7-8.

3 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير,340/2.

4 موسيقى الشعر, 28.

5 المصدر السابق, 35.

6 صحيح البخاري ,913/2.

7 فقه اللغة وخصائص العربية, 256.

سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك" [1]، فاستخدامه للتشديد يتناسب والحالة الشعورية التي كان عليها, والملفوظ كيفما كان حاو لمعنى وكلما اتسع إناء المفردة اتسع معناها.

ب- الألفاظ :

تبدأ الصياغة الفنية من الكلمة واللفظة, وتظهر في القدرة على اختيار اللفظة المؤثرة بجرسها وظلالها ومعناها حين تأتي في مكانها العادل من التعبير لترتبط مع لفظة أخرى[2], وإذا أحكم المتكلم اختيار لفظه وجاء موافقًا لعاطفته فقد بلغ الغاية, لأن الألفاظ رسل الضمير وسحائب الوجدان, وطبيعة الفن تقتضي أن تصطبغ ألفاظه بلون عاطفته.[3] ونبوغ الأديب أو تفوقه يرتبط بطريقته في استخدام اللغة، والتعامل معها، و"معنى ذلك أن الموضوع الأول للنقد هو اللغة، لأن اللغة هي الحقيقة الأولى في الفنّ الأدبي وأن كثيرًا من موضوعات النقد وقضاياه يمكن أن تعالج من خلال اللغة، أو تكون اللغة الأساس الذي ينطلق منه الناقد في معالجة تلك الموضوعات"[4]. وقد أنتج أدب الوفادة في عصر النبوة معجمًا لغويًّا حافلاً بألفاظه, وجمله, وتعابيره على كل المستويات, فيما لا يمكن معه تقصي كل ما صدر عن لغة ذلك الأدب من دلالات لفظية , بيد أن الدراسة هنا تحاول تسليط الضوء على أبرز ما حواه معجمهم اللفظي بين دفتيه من ظواهر, مع تلمس أهم الروافد التي غذت ذلك المعجم .

وتتراءى للناظر في ألفاظ أدب الوفادة على رسول الله ρ بداية ملامح التكوين الديني, ولاغرو في ذلك إذ ميدان هذا الأدب متصل بدعوة المصطفى ρ اتصالاً مباشرًا , فطغى الخطاب الديني على بيانه -عليه الصلاة والسلام-, فيما توشح خطاب الوفود على اختلاف

---

1 تاريخ الأمم والملوك, 192/2-193.
2 الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، 50 .
3 العاطفة والإبداع الشعري,207 .
4 النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، 5.

أغراضهم بالجانب الديني غالبا, فاستخدمت الألفاظ الدالة على ركائز الدين الجديد وأركانه كشهادة أنْ لا إلهَ إلاّ اللهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ. وإقام الصلاةِ، وإيتاء الزكاةِ، وصوم رَمضانَ[1] وألفاظ أخرى كالوضوء [2] وصفة تلاوة القرآن وتحزيبه [3] وغيرها من الألفاظ التي دل استخدامها على غلبة الإسلام وانتشار مصطلحاته التي لم تستغلق على العرب معانيها, بل راحت الوفود تتحدث بها وتتساءل عن صفاتها , فيما ظهرت اللحمة القوية بين النص القرآني الكريم والنص النبوي الشريف من خلال ما كان يرد من استشهادات واقتباسات في أحاديثه ومخاطباته ρ للناس كافة, وفيما برزت ألفاظ الدين الإسلامي ظهرت بعض الألفاظ المعبرة عن الديانات الأخرى, كقوله ρ لعدي بن حاتم:" إيه يا عدي بن حاتم! ألم تك ركوسيًّا"[4]، وكذكر اليهود[5] وما جاء في جداله معهم ومع النصارى، مما أفصح عن معتقداتهم الدينية التي حاجوا النبي فيها, فضلاً عن إيراد أسماء بعض آلهة العرب, كسؤاله ρ لوفد خولان عن صنمهم باسمه في قوله: ما فعل عم أنس؟ [6]، وسؤال وفد بجيلة عن صنمهم بقوله:" فما فعل ذو الخلصة؟[7]

وكما أفصحت ألفاظهم عن تكوينهم الديني, فقد أفصحت عن محيطهم البيئي فجاءت مستقاة من البيئة وظهر أثرها في معانيهم , من خلال ذكر الأماكن والمواضع كقوله ρ على سبيل المثال:" من محمد رسول الله لبادية الأسياف ونازلة الأجواف مما حازت صحار"[8]، وذكره لعمان والبحرين في كتابه لملوكها[9] وصمد وجازان في خطابه لهمدان[10], فيما وردت أسماء القبائل بكثافة في معجمهم اللغوي بل قد يأتي الخطاب الواحد متضمنًا أسماء عدة بما

---

1 صحيح البخاري ,45/1.
2 سنن أبي داوود,236/1 .
3 مسند الإمام أحمد,454/5 .
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ,287/2 - 288.
5 مسند الإمام أحمد ,459/1.
6 الطبقات الكبرى, 1/ 324.
7 المصدر السابق,1 /347 .
8 الطبقات الكبرى,1/ 286.
9 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 451-452.
10 الطبقات الكبرى ,295/1-296 .

يخدم النص, كقوله ρ: "لأهل اليمن وأحمورها, قدم, وآل ذي مران وآل ذي لعوة, وأذواء همدان, وغربها أرحب, ونهم, وشاكر, ووادعة, ويام ورمهبة, ودالان, وخارف, وعذر, وحجور" [1]. وكما ورد في خطاب بني عذرة معرفين بأنفسهم لرسول الله ذاكرين قصي وخزاعة وبني بكر[2] وغيرها من أسماء القبائل العربية، وهذا ينم –أيضًا- على سعة علمه بالأنساب ومعرفته بمعتقدات الجاهليين ومآثرهم.

وحفل معجمهم اللغوي كذلك بأسماء الأعلام وكان للتلوين اللفظي بالتعريف دور بارز في إثراء الدلالة وخدمة السياق, فعمد ρ إلى ذكر الأعلام في خطاباته,فالتعريف وسيلة من وسائل البيان والتدليل التي يوظفها المتكلم في خطبه ويطلبها السامع والمتلقي, ومن ذلك قوله ρ : "من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد"[3]، وقوله:" من محمد رسول الله لنهشل بن مالك الوائلي"[4], ومنه كذلك "هذا ما أعطى محمد رسول الله ربيعًا ومطرفًا وأنسًا "[5] ,وفي المقابل كذلك زخرت ألفاظ الوفود بذكر الأعلام, فقد يأتي الوافد معرفًا بنفسه, كما فعل وافد بني سعد بقوله: " وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر"[6]، أو يسأله ρ فيجيب ,كسؤاله زيد الخير عن اسمه[7], وقد يأتي العلم مفردًا أو مصحوبًا باللقب, إذ اللقب رمز له إيحاءات يستحضر السامع من ترديدها معاني عظيمة, فضلاً عن أن التعريف بالاسم واللقب معا يزيد من التوكيد ومراعاة حال المخاطب ومكانته الاجتماعية, ويمس الجوانب العاطفية عنده ويشي بالرقي في الخطاب, وعليه فقد خاطب ρ الملوك بألقابها مع أسمائها كقوله:" من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم[8]، و "من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس"[1]، كما تلقى -عليه

1 المصدر السابق,340/1- 341.
2 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير, 320/2-321.
3 تاريخ الأمم والملوك, 200/2.
4 الطبقات الكبرى, 1/ 284.
5 المصدر السابق, 300/1-301 .
6 صحيح البخاري, 35/1.
7 معجم الصحابة 1/ 227.
8 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,348.

الصلاة والسلام- خطابات تضمنت لقبه ولقب المرسل, كالذي بعث به ملك الحبشة "إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة "[2].

وعلى المستوى النفسي تمكنت ألفاظ أدب الوفادة من الإيحاء بمكنوناتها وأبعادها الوجدانية,وجاءت مشحونة بالحالات النفسية,معبرة بصدق عن دلالاتها,لقد أسر حب النبي ρ كثيرًا من الوفود التي أعلنت إسلامها,بل إنهم فادوه بآبائهم وأنفسهم وعبروا عن ذلك الحب بألفاظهم, فترددت عبارة"بأبي أنت وأمي"[3]تعبيرًا صادقًا منهم عن مكانته ρ في نفوسهم.

فيما أحدثت ألفاظه ρ أثرًا عظيمًا في نفوس وافديه من خلال توظيفة لعبارات الترحيب, مما كان من شأنه أن بعث في نفوسهم الألفة والطمأنينة للوقوف بين يديه عليه الصلاة والسلام , فقال مُرحِّبا بوفد عبد القيس "مَرْحَبًا بالقوم -أو بالوَفدِ- غيرَ خَزايا ولا نَدامى"[4]، وقال لبني عامر بن صعصعة"مرحبًا بكم أنتم مني وأنا منكم" [5]، واستقبل وفد عذرة بقوله" مرحبا بكم وأهلا ما أعرفني بكم"[6] ، ورحب بوافد همدان قيس بن مالك بن سعد بن لأي الأرحبي قائلاً: " مرحبا بك "[7].

واتسمت لغة الوفود من الوجهة التعبيرية بالجماعية والبعد عن الفردية, مما يدل على ذلك أن أول ما يلاحظ في ألفاظهم قلة ورود ضمير المتكلم المفرد في الصيغ التعبيرية غالبًا, فالوافد يتحدث بضمير الجمع ونادرًا ما يخاطب بالمفرد؛ لأنه لسان الوفد والمتحدث عنهم, فكان للمفردة عندهم وضع خاص من حيث ورودها على صورة الإفراد أو التثنية أو الجمع بما يعمِّق من دلالة الأداء، ويُثرِي سياقات المعنى الجمالية, والأمثلة على استخدام ضمير الجمع في أدبهم

---

1 المصدر السابق, 369.
2 المصدر السابق, 314.
3 قالها وافد هوازن(الطبقات الكبرى,114/1-115), ووافد همدان(الطبقات الكبرى, 340/1-341)وأشج عبد القيس (مسند الإمام أحمد, 451/4).
4 صحيح البخاري, 45/1 .
5 الطبقات الكبرى ,311/1.
6 الطبقات الكبرى, 1 /331-332 .
7 المصدر السابق ,340/1- 341.

كثيرة لا سبيل لإيرادها جميعًا, بيد أن من نماذج ذلك اللون قول وفد بني عبد عدي "يا محمد! نحن أهل الحرم وساكنه, وأعز مَنْ به, ونحن لا نريد قتالك, ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك, ولكنا لا نقاتل قريشًا وإنا لنحبك ومَنْ أنت منه ,فإن أصبت منا أحدًا خطأ فعليك ديته, وإن أصبنا أحدًا من أصحابك فعلينا ديته، فقال: نعم فأسلموا"[1].

ومن ذلك قول وفد غافق : " يا رسول الله نحن الكواهل من قومنا وقد أسلمنا وصدقاتنا محبوسة, بأفنيتنا فقال لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم, فقال عوز بن سرير الغافقي: آمنا بالله واتبعنا الرسول" [2].

وكذلك يغلب ضمير الجمع على خطاب بني عبس، إذ قدموا على رسول الله ، فقالوا: "إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ولنا أموال ومواش هي معاشنا فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا"[3]، فسيطرت ضمائر الجمع بنوعيها المتصلة والمنفصلة، مما أوحى بالانتماء الجمعي وغياب الذاتية الفردية، وهذا ينم على غلبة الجانب القبلي في ذلك الحين, ووقوف الجماعة موقفًا موحدًا من الدعوة الجديدة إن إيجابًا وإن سلبًا.

ويظهر الإبداع في توظيف الضمائر في سياق النص النبوي الشريف عندما يتحدث ρ عن نفسه بصيغة الجمع, مراعيًا آداب الخطاب السائدة من جانب, ومعبرًا عما بلغته الدعوة من انتشار وقوة من جانب آخر, يتجلى ذلك في كتابه لملوك حمير قائلاً:" أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم, فبلغ ما أرسلتم وخبر عما قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين وأن قد هداكم بهداه"[4]، فيما تجده ρ يعبر عن نفسه بصيغة المفرد تحببًا ورضًا, في جوابه لخالد بن الوليد " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن

---

1 المصدر السابق, 1 /306.
2 المصدر السابق,352/1 .
3 المصدر السابق,295/1-296.
4 الطبقات الكبرى,356/1 .

الوليد سلام عليك, فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإن كتابك جاءني مع رسلك بخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا, وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام"[1].

وبرز الجانب الذاتي في ألفاظ بعض الوفود من خلال استخدام ضمير المفرد ولاسيما فيمن جاء يساوم رسول الله ρ على أمر معين أو مصلحة شخصية دينية كانت أو دنيوية, ومن ذلك حوار الجارود بن عمرو من بني عبد القيس لرسول الله ρ حينما قال له:"يا محمد! إني قد كنت على دين وإني تارك ديني لدينك فتضمن لي ديني" [2]، فجاء الرد منه ρ بالصيغة ذاتها" نعم أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه "[3]، مستخدمًا ضمير المفرد المنفصل "أنا" ملائمًا وضع المخاطب وذاتيته, ومهدئًا من روعه, وزارعًا الثقة والطمأنينة في نفسه.

وتتضح الذاتية بثوب يتسم بالجفوة والغلظة في مساومة مسيلمة الكذاب على مقاسمته النبوة وحكم المسلمين, وبعث لرسول الله ρ بخطاب تسيطر عليه الـ(أنا) قائلاً: " من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك أما بعد! فإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشًا قوم لا يعتدون"[4], أما عامر بن الطفيل فكان خطابه أكثر ذاتية وكبرًا, وسيطر ضمير المفرد المتكلم على لغته وبدا أكثر تحديًا ومقاومة بقوله :"يا محمد! ما تجعل لي إن أسلمت؟ فقال رسول الله : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم. قال عامر: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ فقال رسول الله :ليس ذلك لك ولا لقومك, ولكن لك أعنة الخيل, قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله: لا! فلما قفا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً, فقال رسول الله: يمنعك الله "[5].

1 تاريخ الأمم والملوك ,194/2.
2 المصدر السابق,199/2.
3 المصدر السابق نفسه.
4 البداية والنهاية, 51/5 .
5المصدر السابق, 59/5-60.

هذا فيما يخص دلالات ألفاظ الوفود على المستوى الديني والبيئي والنفسي, أما فيما يتعلق بمفرداتهم من حيث البساطة والإغراب, فكانت ألفاظهم بشكل عام سهلة قريبة الفهم والمأخذ, بيد أن أدب الوفادة في عصر النبوة لم يخل من بعض الألفاظ الغريبة أو نادرة الاستعمال التي انفردت بها قبيلة دون غيرها, ولعل غرابة الألفاظ عندهم يعود في الأصل إلى تأثرهم ببيئتهم, فالبيئة لها دور في تحديد اللفظ من حيث الصعوبة والألفة, فضلاً عن أن تقاليد القبيلة وما تحمله من اعتزاز وتمسك بتراثها أسهم في إثراء تلك الألفاظ في أدب الوفادة, ولولا معرفة الوفود بقدرته ρ على استيعاب لغاتهم والرد عليهم لخاطبوه بلغة قريش التي لم تكن تصعب على قبائل العرب؛ بسبب الاحتكاك الدائم بمكة والقرشيين,ونشاط التجارة والتبادل المستمر بين القبائل العربية وقريش , فضلاً عن سيادة لهجة قريش في المنتديات الأدبية كسوق عكاظ .

وكانت لهجة النبي ρ التي يتكلم بها على الدوام ويخاطب بها الخاص والعام هي لهجة قريش وحاضرة الحجاز, بيد أنه ρ أوتي جوامع الكلم وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البادية, فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم[1].

"وكان ρ في غنى عن أن يستعمل الغريب الوحشي, فهو إنسان يرفض الإيحاش, ويتودد الإيناس,ويكره الأذى, ولا يحب أن يشق ,وفي الغريب الوحشي إيحاش وأذى ومشقة, وإنما يحتاج إليه أحمق قد حاد عن القصد, أو جاهل لم يجد ما يستعمله من اللفظ العذب, أو جاف جلف لا يبالي أن يقسو في قوله كما يقسو في فعله, وقد نزه ρ من كل ذلك وسخر له لغة العرب يتخير منها ويتصرف ويبدل سيئاتها حسنات كما فعل في ذلك في كل الاتجاهات, فلا غرو أن يصفه الجاحظ بأنه شدد بالتأييد ,ويسر بالتوفيق, وبأن الله قد ألقى على كلامه المحبة, وجمع له بين القبول والمهابة, لأنه سهل في إدراكه وفهمه, صعب على طالب لحاقه ودركه ,على أنه ρ كان يحمي تلك العذوبة عن كل ما ينزل بمستواها إلى حد التبذل, وإنما هو في الحد

---
1 تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي, 36-37 .

الوسط ...وإن عثرت في كلامه على شيء من الغريب النسبي والوحشي الإضافي فلأنه ρ كان يخاطب غير القرشيين بلغتهم توفيقًا من الله, وتعليمًا واستكمالاً لأدوات البلاغ في البلاغة التي هي إيصال المعنى إلى السامع من أقرب طريق وأوضحه, وتلك ميزة خاصة أيضًا له، وهي مما كان مثال العجب بين أصحابه"[1]، إذ كان يخاطب وفود العرب بما كان لهم من اللغات والأوضاع الغريبة التي لا تعرفها قريش من لغتها, ولا تهتدي إلى معانيها, ولا يعرفها بعض العرب عن بعض على اختلاف شعوبهم وقبائلهم, حتى قال له علي τ وقد سمعه يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله ! نحن بنو أب واحد ونراك تكلم، وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال: أدبنى ربي فأحسن تأديبي"[2]. فلما قدم عليه ρ وفد بني نهد قام طفهة بن أبى زهير النهدي فقال: "أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس, ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير, ونستخلب الخبير, ونستعضد البرير, ونستخيل الرهام, ونستحيل أو نستجيل الجهام, من أرض عائلة النطاء, غليظة الوطاء, قد نشف المدهن, وييبس الجعثن, وسقط الأملوج, ومات العسلوج, وهلك الهدى, ومات الودى, برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن وما يحدث الزمن, لنا دعوة السلام ,وشريعة الإسلام ,ما طما البحر ,وقام تعار, ولنا نعم همل أغفال ما تبض ببلال, ووقير كثير الرسل,قليل الرسل, أصابتها سنة حمراء مؤزلة ليس لها علل ولا نهل. فقال رسول الله ρ: اللهم بارك لهم في محضها ومخضها ومذقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر وافجر له الثمد وبارك له في المال والولد من أقام الصلاة كان مسلما, ومن آتى الزكاة كان محسنًا, ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا, لكم يا بني نهد ودائع الشرك, ووضائع الملك, لا تلطط في الزكاة ,ولا تلحد في الحياة, ولا تتثاقل عن الصلاة "[3].

يقول مصطفى صادق الرافعي معلقًا على بلاغته ρ واقتداره على خطاب العرب بلهجاتهم ولغاتهم: "ومن ذلك كتبه الغريبة التي كان يمليها ويبعث بها إلى قبائل العرب يخاطبهم

---

1 من البلاغة النبوية, 17.

2 كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون , 1203/2.

3 الفائق في غريب الحديث,2/ 277.

فيها بلحونهم ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه إليهم, وهي ألفاظ خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم و لاتجوز في غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القرشية , ما ندري أي ذلك أعجب أن ينفرد النبي ρ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك في لسانهم عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية, أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا في الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها, وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم في أرضهم وحين يتوافدون إليهم في موسم الحج, وهم مع ذلك لا يعلمون من هذا الغريب بعض ما يعلمه ولا يديرونه في ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشأون عليه من السماع والمحاكاة, حتى كان هذا الباب فيه ρ بابًا على حدة"[1].

ومن كتبه ρ في هذا الباب كتابه " لوائل بن حجر لما أراد الشخوص إلى بلاده قال: يا رسول الله !اكتب لي إلى قومي كتابًا فقال رسول الله : اكتب له يا معاوية إلى الأقيال العباهلة ليقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة والصدقة على التيعة السائمة لصاحبها التيمة لا خلاط ولا وراط ولا شغار ولا جلب ولا جنب ولا شناق وعليهم العون لسرايا المسلمين وعلى كل عشرة ما تحمل العراب من أجبأ فقد أربى"[2].

1 إعجاز القران والبلاغة النبوية,318 .

2 الطبقات الكبرى, 287/1. والأَقْيال ملوك باليمن دون الملك الأَعظم، واحدُهم قَيْل يكون ملكًا على قومه ومِخْلافِه ومَحْجَره، وقال غيره: سمي الملك قَيْلاً لأَنه إِذا قال قولاً نفَذ. العباهلة:عَبَاهِلَةُ اليَمَن ملوكُهم الذين أُقِرُّوا على مُلْكهم، والتِّيعةُ: بالكسر: الأَربعون من غَنَم الصدَقة، وقيل: التيعة الأَربعون من الغنم من غير أَن يُخص بصدقة ولا غيرها. والتِّيمةُ، بالكسر: الشاة تُذْبَح في المَجاعة، وقيل: التِّيَمةُ الشاة الزائدة على الأَربعين حتى تبلُغ الفَرِيضة الأُخرى، وقيل: هي الشاة تكون لصاحبها في منزله يَحْتَلِبُها، وليست بسائمةٍ. والخلاط، المراد أَن يَخْلِطَ رجل إِبله بإِبل غيره أَو بقره أَو غنمه ليمنع حق الله تعالى منها ويَبْخَسَ المُصَدِّقَ فيما يجب له. والوِراطُ: الخَدِيعةُ في الغنم وهو أَن يُجْمَعَ بين متفرّقين أَو يفرَّق بين مجتمعين.والوَرْطُ: أَن يُورِطَ إِبله في إِبل أُخرى أَو في مكان لا تُرى فيه فيُغَيِّبها فيه. والشِّغارُ أَن يَعْدُو الرجلان على الرجل,الشِّغارُ العَداوَةُ. الجلب: أَن يَقْدَمَ المُصَدِّقُ على أَهْلِ الزَّكاةِ فَيَنْزِلَ موضعاً ثم يُرْسِلَ إِليهم من يَجْلُب إِليه الأَموال من أَماكِنها لِيأْخُذَ صَدَقاتِها، فنُهِيَ عن ذلك وأُمِرَ أَن يأْخُذَ صَدَقاتِهم مِن أَماكِنِهم، وعلى مِياهِهِم وبِأَفْنِيَتِهِمْ. وقيل: قوله ولا جَلَبَ أَي لا تُجْلَبُ إِلى المِياه ولا إِلى الأَمْصار، ولكن يُتَصَدَّقُ بها في مَراعِيها. والجَنَبُ في الزكاة: أَن يَنزِل العامِلُ بأَقْصَى مواضع أَصحاب الصدقة ثم يأْمُرَ بالأَموال أَن تُجْنَبَ إِليه أَي تُحْضَرَ فَنُهُوا عن ذلك.وقيل: هو أَن يُجْنِبَ رَبُّ المالِ بمالِه أَي يُبْعِدَه عن موضِعه، حتى يَحْتاجَ العامِلُ إِلى الإِبْعاد في اتِّباعِه وطَلَبِه. والشّناق والأَشْناقُ: ما بين الفريضتين من الإبل والغنم فما زاد على العَشْر لا يؤخذ منه شيء حتى تتم الفريضة الثانية. والإجباءُ بيعُ الزَّرْع قبل أَن يَبْدُوَ صَلاَحُه، أَو يُدْرِك. اللسان ,(قيل-تيع-تيم-خلط-ورط-شغر-جلب-جنب-شنق-جبأ).

وكذلك كتابه لبني نهد الذي جاء فيه "لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة, ولكم العارض والفريش, وذو العنان الركوب, والفلو الضبيس, لا يمنع سرحكم,ولا يعضد طلحكم, ولا يحبس دركم, ما لم تضمروا الإماق, وتأكلوا الرباق , من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة"[1].

وكتب للداريين "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته جرون والمرطوم وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن نطية بتة بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم فمن إذاهم إذاه الله ,فمن إذاهم لعنه الله ,شهد عتيق بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان ين عفان، وكتب علي بن إلي طالب، وشهد"[2], ففضلاً عن استخدامه الفعل أنطى عوضًا عن أعطى , تراه يستخدم الهمزة المكسورة في قوله إذاهم, ويكرر ذلك, متوافقًا مع لغة من كتب لهم هذا الكتاب.

كما كتب لمالك بن نمط :"بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من رسول الله لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وخقاف الرمل مع وافدها ذي المشعار مالك بن نمط ومن أسلم من قومه على أن لهم فراعها ووهاطها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عافيها، لهم بذلك عهد الله وذمام رسوله وشاهدهم المهاجرون والأنصار"[3]، وبمثل تلك اللغة كتب لوفد مهرة :"هذا كتاب من محمد رسول الله لمهري بن الأبيض على من آمن به من مهرة ألا يؤكلوا ولا يعركوا وعليهم إقامة شرائع الإسلام فمن بدل فقد حارب ومن آمن به فله ذمة الله وذمة رسوله اللقطة مؤداة والسارحة منداة والتفث السيئة, والرفث الفسوق[4].

---

1 الفائق في غريب الحديث, 278/2.

2 نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية, 1-147-148 والإِنْطاء: لغة في الإِعْطاءِ، وقيل: الإِنطاءُ الإِعطاءُ، بلغة أَهل اليمن.وفي حديث الدعاء: لا مانِعَ لِمَا أَنْطَيْتَ ولا مُنْطِيَ لَمَا مَنَعْتَ، قال: هو لغة أَهل اليمن في أَعْطَى. اللسان (نطا).

3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,474.

4 الطبقات الكبرى, 35/1 . (اللقطة مؤداة) يقول ابن فارس:اللقطة ما التقطه الإنسان من مال ضائع. المجمل,812/3 , السارحة:الماشية التي تسرح بالغداة إلى مراعيها,والسارحة :الدابة الواحدة , وهي أيضا الجماعة. اللسان ,(سرح). (منداة) ؛ ندوة الإبل: أن تندو من المشرب إلى مرعى قريب, ثم تعود إلى الماء من

ج- الجمل:

أحدثت فنية التشكيل في السياق اللغوي لأدب الوفادة في عصر النبوة دورًا كبيرًا في إثراء هيكل الدلالة, من حيث الاتكاء على توظيف الألفاظ والمفردات بما يخدم النص جماليًّا ودلاليًّا, ويوحي بأبعاده الدينية والنفسية والبيئية, ولم تقف فنية التشكيل عند هذا الحد بل كان لها دور في توظيف الجمل وحسن انتقائها بين فعلية واسمية في إطار التشكيل اللغوي.

وبرز التلوين اللغوي بتوظيف التركيب الاسمي والفعلي في إطار الجملة، حيث يفيد التعبير بالمركب الاسمي الدلالة على ثبات المعنى واستقراره، في حين يفيد التعبير بالمركب الفعلي الدلالة على تجدد الحدث والاستمرارية في سياق حدوثه, وإذ تنوع استخدام الجمل في أدبهم فقد سيطرت البنى الاسمية في بعض المواضع ,كما سيطرت الفعلية في مواضع أخرى, فضلاً عن التزاوج بين البنيتين والذي احتل في تشكيل جملهم النصيب الأكبر فلا تكاد تجد خطبة أو حوارًا أو رسالة إلا وقد اشتملت على اللونين من تركيب الجملة .

وتبرز الجمل الاسمية بكثافة في الخطابة, مما يوحى بدوام الصفات التي كان الخطيب يخلعها على قومه وثباتها, من ذلك خطاب وفد عذرة" نحن إخوة قصي لأمه ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة ولنا قرابات وأرحام "[1].

وكذلك تتابعت الجمل الاسمية في خطبة وفد خولان في قولهم: "يا رسول الله !نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله ونحن على من وراءنا من قومنا وقد ضربنا إليك آباط الإبل"[2].

كما يبرز استخدام البنية الاسمية في مقام المدح والثناء دلالة على ملازمة الصفات للممدوح وثبوتها له, وقد امتدح عليه الصلاة والسلام الأزد فتوالت الصفات من خلال التركيب الاسمي في قوله : " أحسن الناس وجوها ,وأشجعهم لقاء, وأطيبهم أفواها, وأعظمهم أمانة, أنتم

يومها أو الغد , المجمل, 862/3 . ولعل المراد أنه أعطى مهرة العهد على أن تحفظ حقوقهم وترعى مواشيهم الكلأ وترد الماء.

1 الطبقات الكبرى ,1 /331-332.

2 المصدر السابق, 324/1 .

مني وأنا منكم " [1]، فيما أثنى بنو عامر على رسول الله ρ فقالوا بين يديه :"أنت ولينا, وأنت سيدنا, وأنت أطول علينا, قال يونس: وأنت أطول علينا طولاً، وأنت أفضل علينا فضلاً"[2]، فجاء توالي البنية الاسمية في سياق الخطاب دالاً على الثبوت ودوام الصفة.

وغلبت الجملة الفعلية في مواضع أخرى، مما أعطى الدلالة صفة التجدد والتغير, ومن ذلك خطاب بني الحارث بن كعب لرسول الله ρ : "يا رسول الله! إن أمنا مليكة بنت الحلو كانت تفك العاني ,وتطعم البائس, وترحم المسكين, وإنها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة, فما حالها ؟ قال: الوائدة والموؤودة في النار"[3]. "إن توالي الأفعال المضارعة وهي من أقدر الأفعال على تصوير الأحداث وإبرازها للسامع"[4] فيما تعطي صورة متحركة ومتجددة أوحى باستمراية الصفة حتى بعد وفاة الموصوفة, بينما في خطاب آخر تتوالى الأفعال لكنها أفعال ماضية تمثلت في قول عطارد بن حاجب:" الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله ,الذي جعلنا ملوكًا ,ووهب لنا أموالاً عظامًا نفعل فيها المعروف, وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة, فمن مثلنا في الناس ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم, فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عددنا وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا وإنا نعرف, أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا"[5]. فالماضي المتكرر أعطى للأحداث طابع "الحكاية المروية التي تشعر السامع بنهاية الأحداث وحسمها"[6]، حيث أصبحت أساسًا ثابتًا, وواقعًا حاصلاً لا يمكن نفيه , فيما كان لدخول الفعل المضارع بين الفينة والأخرى أثرٌ دلاليٌ أثمر في تأكيد الأفكار والصفات.

---

1 الآحاد والمثاني ,269/4 .

2 مسند الإمام أحمد,603/4.

3 الطبقات الكبرى ,1/ 325- 326.

4 خصائص التراكيب,264.

5 تاريخ الأمم والملوك ,188/2- 189 .

6 دلالات التراكيب,268 .

وفيما غلبت بنية على أخرى في بعض الخطابات, إلا أن التزاوج بين البنيتين والتبادل بينهما في مواضع متعددة قد أثرى النص شكلاً ودلالة, فالمزاوجة بين الأفعال والأسماء تحجب عن النصوص الثقل وتمنحها مزيدًا من المرونة والمطاوعة, إلى جانب التنويع في الإيقاع الذي يبقى أثره في نفس المستمع, ويثير الانتباه لما يقال حال تغيير الصيغة, فانتقال المتكلم من الفعلية إلى الاسمية إشارة إلى تصاعد العاطفة وتغير في نبرة الصوت تجدد انتباه السامع[1].

ومن الظواهر البارزة في التشكيل اللغوي لجملهم تقديم الخطاب بالجملة الاسمية ثم الانتقال منه إلى الفعلية الطلبية, وكأن المتحدث يسعى لتهيئة المخاطب قبل التوجه بالطلب, كقول الغلام لرسول الله ρ "إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفًا، فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي، قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي"[2]، وكذلك كان خطاب وافد دوس بقوله: "يا رسول الله ! إن لي في قومي سِطةً ومكانًا فاجعلني عليهم" [3].

وخطاب الأعرابي لرسول الله ρ" : إنا معشر أهل البادية قوم منا الجفاء، فعلمني كلامًا ينفعني الله به"[4].

وقد ورد هذا التركيب في البيان النبوي للمصطفى ρ,إذ خاطب خزاعة قائلاً:" أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم"[5]، فعمد -عليه الصلاة والسلام- إلى إقناعهم من خلال إثبات صفة الهجرة لهم, بدلالة الجملة الاسمية أولا ثم التعقيب بالطلب، مما هيأ الوفد لتقبل ذلك الأمر.

ومثلما كان العدول من الاسمية إلى الفعلية الطلبية, كان العدول بالفعلية الماضية إلى الفعلية الطلبية, فالفعل الماضي يدل على تحقق الوقوع كما أن الجملة الاسمية تدل على الثبات

1 فن المنافرة والمفاخرة النثرية من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر الأموي, 310.
2 الطبقات الكبرى , 323/1 .
3 المصدر السابق , 1 /353 .
4 المعجم الكبير, 63/7.
5 البداية والنهاية , 926/1.

، كقول فزارة عندما سألهم ρ عن بلادهم فأجابوا: "يا رسول الله! أسنتت بلادنا, وهلكت مواشينا, وأجدب جنابنا, وغرث عيالنا, فادع لنا ربك"[1].

وكذلك خطاب أسلم لرسول الله ρ: "قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء"[2]، فقد استوثقوا رضا رسول الله ρ عليهم وأكدوا اتباعه والإيمان بمنهاجه، مما هيأ لهم الطلب, فضلاً عن حسن استخدامهم لضمير المخاطب.

وكان للتشكيل اللغوي بالعدول جميل الأثر في إثراء السياق الدلالي لأدب الوفادة في عصر النبوة؛ لأن في فنية العدول محاولة لاستثمار ذهن المتلقي وتنبيهه وكسر الرتابة التي قد توحي بالملل, ومن ثم الإعراض عن التواصل مع الخطاب, وكما برزت ظاهرة العدول من الاسمية إلى الفعلية والعكس, والعدول بين الصيغ الفعلية (ماض ومضارع وأمر), فقد برزت ظاهرة العدول الضمائري في تشكيلهم اللغوي كذلك, ولعل أبرز ما يكشف عن جمالية هذه الظاهرة ما تمثل منها في البيان النبوي الشريف ولاسيما في خطاباته ρ للملوك بقصد الدعوة إذ يبدأ خطابه بضمير الغائب كما في قوله لكسرى :" سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله"[3]، وقوله للحارث بن أبي شمر:" سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق" [4]، ليعدل عنه إلى المخاطب في قوله لكسرى:" أدعوك بداعية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس)[5]، وللحارث: "وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك"[6]، فهو صلى الله عليه وسلم إذ يلقي السلام

---

1 الطبقات الكبرى ,297/1.
2 المصدر السابق ,354/1.
3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ,309/2.
4 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,453.
5 تاريخ الأمم والملوك ,90/2.
6 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 453. وهكذا كان شأنه ρ في أغلب رسائل الدعوة .

والتحية فإنه يشترطها لمن اتبع الهدى وآمن لعلمه أن خطابه موجه لغير المسلمين ولا يكون السلام إلا لمسلم, فيما يوجه الدعوة إلى الله للمخاطب مباشرة دل على ذلك الاختصاص توظيف ضمير الخطاب(الكاف) ولا يخفى ما لضمير الخطاب من قوة إذا ما قيس بضمير الغيبة ، وشتان بين حضور وغيبة.

ومن جانب آخر يظهر العكس إذ يبدأ كتابه بضمير المخاطب كما في خطابه لخثعم: " كل دم أصبتموه في الجاهلية فهو عنكم موضوع ومن أسلم منكم طوعًا أو كرهًا في يده حرث من خبار أو عزاز تسقيه السماء أو يرويه اللثى فزكا عمارة في غير أزمة ولا حطمة فله نشره وأكله"[1]؛ لينتقل بالضمير مباشرة إلى الغائب قائلاً : " وعليهم في كل سيح العشر وفي كل غرب نصف العشر"لقد كان من بلاغته ρ أن وظف ضمير الخطاب في حديثه عما منحهم من عفو وما يحق لهم من أموالهم توددًا وتقربًا وأكثر توكيدًا في الاختصاص, فيما عدل عن المخاطب إلى الغائب عندما انتقل بالحديث إلى ما يجب عليهم من زكاة الأموال رحمة منه ρ وتأدبًا في الأمر.

ومن مظاهر التنوع في بنية الجملة الفعلية كذلك تغاير الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد, كالعدول عن استخدام الفعل المبني للمعلوم إلى الفعل المبني للمجهول **أو العكس,** إذ كان للفعل الذي لم يسم فاعله دلالة معينة في كل سياق حسب اقتضاء المعنى الذي ما كان ليبرز جليًّا إذا جاء الفعل مبنيا للمعلوم، كإفادة معنى العموم وإطلاق الحكم وعدم تقييده بفاعل معين مما يمنحه الشمولية, تجلى ذلك في كتابه ρ لأهل دومة الجندل :"لا تجمع سارحتكم ولا تعدل فاردتكم, تقيمون الصلاة لوقتها, وتؤتون الزكاة بحقها, لا يحظر عليكم النبات, ولا يؤخذ منكم عشر البتات, لكم بذلك العهد والميثاق ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين"[2].

---

1 الطبقات الكبرى ,286/1.
2 الطبقات الكبرى ,288/1.

فبني الخطاب النبوي للمجهول في مقام الحديث عما يجب لهم من حقوق ثم عدل عنه لصيغة المعلوم في سياق الحديث عما يجب عليهم وما هم موكلون به من واجبات ليعود مرة أخرى إلى صيغة البناء للمجهول مع عودته للحديث عما يجب لهم من حقوق أخرى في تسلسل بديع, وتغاير بين الصيغ, أضفى إلى جانب خدمة الدلالة -إذ أوحى بعموم النهي - جرسا نغميا جميلا دعمه بعدول آخر بين الضمائر في قوله :"لكم ولنا". ويعزز هذا الأسلوب كتابه ρ لبارق إذ جاء فيه:"هذا كتاب من محمد رسول الله لبارق لا تجز ثمارهم ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسالة من بارق" ثم ينتقل من البناء للمجهول الذي جاء في سياق الحديث عما يحق لهم في ثمارهم وبلادهم إلى البناء للمعلوم في قوله:" وإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط "[1]، وإذ انتقل بالصيغة إلى المعلوم فقد انتقل بالدلالة إلى ما يجب عليهم في ثمارهم , وقد أفاد البناء للمجهول معنى الشمولية المطلقة إذ لم يختص النهي بشخص دون شخص, وإنما جاء نهيا مطلقا وجب فيه الإذعان.

وتكرر بناء الفعل للمجهول في سياق المدح ,حيث وصف النبي ρ زيد الخير بقوله: " ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي, إلا ما كان من زيد فإنه لم يبلغ كل ما فيه" [2]، فدل البناء للمجهول على أمرين الأول شمول من ذكر للنبي ρ دون تحديد, والثاني تخصيص زيد الخير فقط فيمن ذكر له ρ بتصديق ما قيل فيه وأكثر مما وصف به, فأعطى البناء للمجهول إفادة التخصيص مؤكدًا ذلك بما سبقه من تعميم.

ويظهر مثل هذا البناء للجملة الفعلية كذلك في خطاب بعض الوفود كالذي ورد في خطاب وافد عنس حينما سأله ρ عن سبب إسلامه فرد قائلاً : " ولكني خوفت فخفت"[3]، حيث أكد موقفه الديني من خلال التغاير بين الصيغة الفعلية المشتقة من أصل واحد, دالاً على ترتب حدوث ما بني للمعلوم على ما سبقه من فعل مبني للمجهول, إذ خوفه ومن ثم إسلامه لم يحدث

1 المصدر السابق ,352/1.
2 المصدر السابق,321/1 .
3 الطبقات الكبرى, 1/ 342-343.

لولا حدوث فعل التخويف الذي لم يسم فاعله, وتركه مطلقًا لشمولية الاعتبارات التي قد تفهم من تعدد الفاعلين, وتعدد ما خوّف به من معاني.

ومن جهة أخرى يبرز محور آخر في إطار التشكيل للجملة بنوعيها اسمية أو فعلية, وهو حجمها من حيث الطول والقصر " وبحث الجملة من هذه الناحية يفتح لنا الباب لدراسة بناء الجملة عند كثير من الشعراء والكتاب الشامخين الذين نعدهم معالم بارزة أو منعطفات واضحة في الحياة الفكرية والأدبية, كما تبرز الملامح المميزة لبناء الجملة في كل عصر من عصور الفكر والأدب "[1].

وراوح الوفود في جملهم بين القصيرة والمتوسطة, ونادرًا ما تظهر جملة طويلة مستغرقة في الطول, وهو أمر طبعي إذا علم أن إطالة الجملة سبب رئيس في غموض معناها[2] ؛ لذا كان الغالب على الجمل هو قصرها فالجملة القصيرة أوقع في النفوس ,وأشد أسرا للقلوب والعواطف ,ولاسيما أنها تأتي -غالبًا- مسجوعة موزونة, وأما الجمل المتوسطة, والطويلة فهي تصلح للمحاجة والجدل لاستيعابها للأفكار واتساعها للمعاني[3]؛ لذلك غلب على الجدل طول الجمل وتعدد دلالاتها, كقول عتبة بن ربيعة مجادلاً رسول الله ρ "والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى, أيها الرجل! إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً, وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا"[4].

فأهمية الموضوع الذي تكلم فيه عتبة دعته إلى إطالة العبارة إذ احتاج إلى مزيد من تفصيل وبيان, كما أن إيراد الدعاوى والتهم يتطلب تفصيلاً أكثر , ومثل ذلك ما ورد في جدال اليهود لرسول الله ρ إذ قالوا له:"أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أي الطعام حرم

---

1 دلالات التراكيب ,292 .

2 الخطابة العربية في عصرها الذهبي, 195 .

3 أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان, 280.

4 البداية والنهاية, 493/1.

إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، كيف يكون الذكر منه ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليّه من الملائكة؟"[1]، فسياق التحدي الذي وردت الجمل في إطاره اقتضى إطالتها, وتتابعها بنفس واحد دون توقف, فيما ساعد توالي أدوات الاستفهام على استمرار امتداد الخطاب زيادة في التحدي.

وبرزت الجمل الطويلة في خطاب الاسترحام والاستعطاف, إذ توجه وافد هوازن لرسول الله ρ محاولاً التأثير عليه بما أوحى به امتداد الجمل قائلاً: "يا رسول الله! إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك وقد حضناك في حجورنا وأرضعناك بثدينا" [2].

وسيطرت الجمل الطويلة المتصلة غالبا في الخطاب الكتابي ولاسيما مكاتباته ρ في العطاء وكتب العهد والأمان, إذ بنيت الجمل في الأغلب على الشرط فتطلبت التفصيل والإيضاح, فيما غلبت الجمل القصيرة على الخطاب الحواري والخطابي ، ففي تعاقب الجمل القصيرة أثر في تصعيد الإيقاع ,فضلاً عما تحدثه من تأثير وشد انتباه, كما أن طول الجملة وكثرة متعلقاتها يؤدي إلى الخلط وعدم الفهم, أما الأدب المكتوب فإن العين تستوعب فيه ما لا تستوعبه الأذن.[3]

وتراوحت جمله ρ بين قصيرة مختصرة كما ورد في كثير من رسائله "أسلم, تسلم"[4]، وأخرى متوسطة أو طويلة كقوله" إن الهدية يطلب بها وجه الرسول وقضاء الحاجة وإن الصدقة يبتغى بها وجه الله "[5]، فهو إذ يوجز عبارته الأولى لأنه لا خيار مع الإسلام ولا حاجة للإطالة في هذه المسألة, بينما في عبارته الثانية كان لابد أن يفصل ρ في صفة الهدية وصفة الصدقة, إذ بين المعنيين التباس على السامع وجب إيضاحه.

---

1 مسند الإمام أحمد , 459/1.

2 الطبقات الكبرى ,114/1-115.

3 لغة النص الأدبي,56.

4 الآحاد والمثاني ,238/3.

5 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,485.

وبعد؛ فيمكن إجمال ما وقفت عليه الدراسة في التشكيل اللغوي على النحو التالي:

1- تبين من خلال تأمل فنية التشكيل اللغوي في أدب الوفادة في عصر النبوة ما تركه من تأثيرات جمالية أسهمت في البناء الدلالي والنصي على حد سواء, على المستوى الصوتي من خلال الحروف, ثم المستوى الإفرادي من خلال الألفاظ ,ثم المستوى التركيبي من خلال انتقاء الجمل بين اسمية وفعلية.

2- أدى التشكيل على المستوى الصوتي إلى استثمار دلالات الأصوات وإيحاءاتها بما يخدم النص والسياق وأسهمت التلوينات الصوتية بشكل واضح ومميز في عملية انتقاء المفردة, وذلك من حيث إبراز القيمة الصوتية لها في ائتلاف أصواتها، وأداء دلالاتها, وتعاضدها بشكل دقيق مع نظائرها السابقة واللاحقة في إطار السياق الموظَّفَة فيه .

3- تفوق الإبداع الصوتي في النص النبوي الشريف, إذ تجلت المظاهر الصوتية المختلفة من همس وجهر ومد وتضعيف بما خدم السياق مع عدم تكلف ذلك واصطناعه, بل جاء عفوًا دلت عليه القدرة العجيبة في استخدام الصوت الواحد لسياقات مختلفة موظفًا الصوت مع نظائره في الكلمة لخدمة الدلالة باختلاف المعاني وتعددها.

4- لم يقف التشكيل اللغوي عند حد معالجة الجانب الصوتي وإنما انطلق إلى أوسع من ذلك متخذًا من اللفظة ثم الجملة ميدانًا أثرى من خلاله الجانب الدلالي والنصي معًا،إذ جاءت ألفاظه معبرة عن الواقع بمجالاته المختلفة دينية واجتماعية وبيئية ونفسية وإن كان الحديث عن دلالات الألفاظ قد تطرق إلى شيء من هذه الدلالات إلا أنه لا يزال في جعبة هذا الأدب ما هو أكثر مما لم يتح للدراسة الوقوف عليه كاملا كذكر الأعداد والمكاييل والثمار وكثير من الأحكام التي تعلقت بالجانب الديني أو الدنيوي وغيرها كثير.

5- برزت بعض الدلالات في بعض الخطابات أكثر من غيرها, ومن ذلك على سبيل المثال ذكر المواضع وأسماء القبائل, فقد وردت بشكل مكثف في كتب العطاء والأمان التي وجهها ρ للقبائل والوفود.

6- فيما بدت ألفاظ الوفود متأثرة بالبيئة, فإنها على الأغلب كانت واضحة سهلة قريبة المأخذ, ماعدا بعض الخطابات التي تلقاها -عليه الصلاة والسلام- من بعض القبائل التي اعتمدت لغتها وسيلة للتخاطب معه ρ ، فما كان منه -عليه أفضل الصلاة والسلام- إلا أنه تجاوب معهم بلغاتهم بقدرة عجيبة, أذهلت أصحابه من قريش أهل الفصاحة واللسن, وأشكلت عليهم بعض المعاني التي وردت عنه ρ أو أجاب عليها , فجاء بيانه مؤتلفًا مع كافة اللغات على اختلافها.

7- تعاضدت معطيات التشكيل اللغوي لأدب الوفادة في بنيتها من الصوت أو الحرف إلى اللفظة فالجملة, لتظهر بوضوح جمالية الإطار الأدائي الذي حوى ذلك الأدب , وما تميز به من تشكيل لغوي أسهم في إثرائه نصًّا ودلالة.

8- برز التشكيل اللغوي في انتقاء الجملة بين فعلية -على اختلاف أزمنة الفعل-واسمية بما يتناسب مع سياق الحديث وأبعاده الدلالية, فاستخدمت الاسمية لدلالة الثبوت, والفعلية بما توافق مع زمن الفعل, وكل ذلك لم يخرج عن هدف خدمة المعنى والسياق.

9- كان للتغاير في تشكيل الجملة أثر بارز في إثراء الدلالة, فبرزت ظاهرة العدول من الاسمية إلى الفعلية والعكس, ومن الفعلية على اختلاف زمن الفعل بين ماض ومضارع وأمر , كما برز العدول بين الضمائر في الصيغ الفعلية ذات الأصل الاشتقاقي الواحد.

10- تنوعت الجملة بين الطول والتوسط والقصر بحسب المقام والسياق, فغلبت الجمل الطويلة والمتوسطة في مقام الجدل والاسترحام وفي كتب العطاء والعهود التي وجهها ρ على القبائل , فيما غلبت الجمل القصيرة في مقامات أخرى ككتب الدعوة إلى الملوك وحكام القبائل والحوار والخطابة بشكل عام, وبقياس نسبة استخدام الجمل اتضح غلبة القصيرة على مجمل أدب الوفادة في عصر النبوة.

الفصل الثاني

التشكيل التركيبي

الفصل الثاني

التشكيل التركيبي

التراكيب تعني الجمل التي تتكون من ألفاظ متجاورة , وتكون عبارات أدبية لها دلالاتها المنبعثة من السياق , والأديب لا يمتلك اللفظة إلا بعد أن يوظفها في أسلوبه؛ لأنها تحمل شعوره وفكره ومضامينه, وقد أدرك النقاد العرب وظيفة التراكيب وأهميتها وأفاضوا في الحديث عن أسرارها. [1]

وتكون التراكيب اللغوية بالغة التعقيد حين تفيض بها النفوس الحية؛ لأن كل ما في النفس من قلق ونبض, وكل ما تحسه الروح ويغور به القلب لا يجد له مسربًا إلا هذه الكلمات وهذه التراكيب.[2] وليست الألفاظ في بساطتها أو جلالها هي المحك ولكن الطاقة أو العاطفة أو الحركة التي يسبغها الأديب هي التي تحدد قيمتها.[3]

1 الشعر الوجداني في المملكة, 335 .
2 دلالات التراكيب, 21.
3 الشعر كيف نفهمه ونتذوقه, 89 .

والواقع أن اللغة في الأدب ليست ألفاظا لها دلالة ثابتة جامدة, ولكنها لغة انفعال مرنة, بل أبرز ما فيها هو هذه المرونة التي تجعلها متجددة دائمًا بتجدد الانفعالات.[1] فالخبر وجميع الكلام ما هو إلا معان ينشئها المرء في نفسه ويصرفها في فكره, ويراجع بها عقله, ويناجي بها قلبه, وتوصف بأنها مقاصد وأغراض.[2] وتختلف صورة المقال من مقام إلى آخر, ولكل مقام أسلوبه الخاص وتراكيبه القائمة على ارتباط المعاني والنحو في شكل متكامل تام, والمقام هو الموقف الذي يتطلب نوعًا من الألفاظ تجاورت بطريقة معينة كي تفي بالمراد.[3]

وسيتناول هذا الفصل بالدراسة التشكيل التركيبي في أدب الوفادة في عصر النبوة من خلال ستة محاور تأتي على النحو الآتي :

1- الخبر والإنشاء .
2- الشرط.
3- التأكيد .
4- التكرار.
5- التقديم والتأخير.
6- الوصل والفصل.

1- الخبر والإنشاء:

تنوع استخدام الجمل بين خبرية وإنشائية, ولعل ورود الجمل الخبرية في عموم أدب الوفادة باختلاف فنونه قد برز بشكل مكثف في بعض أنواع الرسائل التي بعث بها -عليه الصلاة والسلام- لبعض القبائل, ولاسيما رسائل العهد والأمان ورسائل العطاء إذ انزاح الخبر في تلك الرسائل عن معناه الأصلي في إفادة الخبر إلى أغراض أخرى, كإفادة الأمان ومنح

1 الأسس الجمالية في النقد الأدبي, 286.
2 دلائل الإعجاز, 356 .
3 العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي دراسة تطبيقية, 18 .

الحرية والعتق من العبودية الجاهلية في كتابه -عليه أفضل الصلاة والسلام- لبعض اللصوص والعبيد " هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العتقاء أنهم إن آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حر, ومولاهم محمد, ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها, وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم, وما كان لهم من دين في الناس رد إليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان وإن لهم على ذلك ذمة الله وذمة محمد والسلام عليكم"[1]، كما انزاح المعنى الخبري عن أصليته إلى الترغيب من خلال إعطاء الأمان والميثاق , تمثل ذلك في كتابه ρ إلى رفاعة بن زيد بقوله: " إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله, فمن أقبل فمن حزب الله وحزب رسوله, ومن أدبر فله أمان شهرين" [2]، وأفاد الخبر في رسالته إلى أساقفة نجران الترغيب والترهيب معًا , إلى جانب المعنى الأساسي وهو الدعوة إلى الله, وذلك في قوله ρ : " أما بعد! ذلكم فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية وإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام" [3].

وبرز التركيب الخبري كذلك في رسائل أخرى خرج فيها ρ بالخبر من فائدته إلى معاني المنح والعطاء, ككتابه إلى بني نهد "السلام على من آمن بالله ورسوله , لكم يا بنى نهد في الوظيفة الفريضة ,ولكم العارض والفريش وذو العنان الركوب والفلو الضبيس ..."[4]، ومنه كتابه إلى الأجئيين: "هذا كتاب من محمد رسول الله لحبيب بن عمرو أخي بني أجإ , ولمن أسلم من قومه وأقام الصلاة, وآتى الزكاة, أن له ماله وماؤه ما عليه حاضره وباديه على

1 الطبقات الكبرى ,278/1.
2 تاريخ الأمم والملوك, 200/2.
3 تاريخ اليعقوبي, 2/ 81.
4 الفائق في غريب الحديث,2/ 278.

ذلك عهد الله وذمة رسوله "[1]، ومن ذلك -أيضًا- كتابه إلى نجران وحاشيتها [2], وكتابه إلى أهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن.[3]

وفيما برز الخبر بكثافة في الرسائل, فقد برز في الخطابة كذلك, فحرصت بعض الوفود على معاهدة رسول الله ρ والتقرب إليه بعد إظهار الولاء والطاعة. فأحوجتهم هذه المعاني وغيرها إلى الخبر أكثر من الإنشاء, كقول خطيب همدان: " نصية من همدان, من كل حاضر وباد, أتوك على قلص نواج, من مخلاف خارف ويام وشاكر, عهدهم لا ينقض, ما أقام لعلع, وما جرى اليعفور بصيلع "[4].وانزاح الخبر كذلك إلى معنى المسالمة والمهادنة والموادعة,وقد برز هذا المعنى في أكثر من خطاب,منه على سبيل المثال خطاب أشجع إذ جاء فيه: "لا نعلم أحًدا من قومنا أقرب دارًا منك منا, ولا أقل عددًا,وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك, فجئنا نوادعك"[5]، وخطاب بني عبد بن عدي إذ تضمن تذكيرًا للنبي ρ بمكانتهم ثم إقرارًا بالمسالمة في قولهم: " نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به, ونحن لا نريد قتالك ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك ولكنا لا نقاتل قريشا وإنا لنحبك ومن أنت منه". [6].

وكان للمديح وجود في خطاب بعض الوفود التي وقفت أمامه ρ, فانزاح الخبر في خطابهم من أصليته إلى معنى المدح والثناء, ومن ذلك خطاب بني عامر إذ وقفوا بين يديه قائلين: " أنت ولينا وأنت سيدنا وأنت أطول علينا، قال يونس: وأنت أطول علينا طولاً، وأنت أفضل علينا فضلاً، وأنت الجفنة الغراء"[7]، وخرج الخبر إلى معنى الفخر والامتنان في

---

1 الطبقات الكبرى, 1 /280 .
2 تاريخ اليعقوبي, 83/2 .
3 الطبقات الكبرى, 1/ 334.
4 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع,849/3 .
5 الطبقات الكبرى, 1/ 306 .
6 المصدر السابق نفسه.
7 مسند الإمام أحمد,4/ 603.

خطاب بني أسد بقولهم لرسول الله ρ : "أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثًا".[1]

وكما برز التركيب الخبري في خطاب الوفود وانزاح إلى أغراض اتفقت ومراميهم , فقد برز التركيب الخبري في البيان النبوي كذلك, وإن كان قد ورد على أصليته في إفادة الخبر, فقد خرج في الوقت ذاته إلى دلالات أعمق, مما هيأ للخبر في بيانه ρ الجمع بين الأصل والفرع, ومن ذلك قوله لبعض الوفود مخبرًا عن حال الإسلام والذل والضعف الذي لاقاه وصحبه في مكة, ثم ما آل إليه في حروب المدينة, مما يشير إلى الصبر الذي تحلى به المسلمون في طليعة الدعوة الإسلامية, ثم الإلماح إلى تحسن الحال ,حتى بلغت الدولة الإسلامية شأوًا عظيمًا, يقول -عليه أفضل الصلاة والسلام- واصفًا كل ذلك: "لا سواء، كنا بمكة مستذلين ومستضعفين، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا ولنا".[2]

ومع بروز الخبر في الخطابة والرسائل, فإن الإنشاء يلقي بظلاله في تراكيب الوفود كذلك ولاسيما في حواراتهم مع رسول الله ρ, إذ غلب عليها الأسلوب الإنشائي , كما تناسلت الجمل الإنشائية من الخبرية في بعض الخطب والرسائل ولاسيما رسائل الدعوة التي بعث بها -عليه الصلاة والسلام- إلى الملوك والحكام والقبائل, فاستوجبت وجود الأمر والنهي, وإذا كانت الجملة الخبرية يقصد بها "الإفادة وهي في ذلك تتفاوت في التقدير والتوكيد ,وهي في اللغة الأدبية لا تثير الانفعال ولا تحرك النفس, فإن الجملة الإنشائية بما فيها من أمر ونهي واستفهام وتعجب وعرض وحض تثير الانفعالات ,واللغة إنما تكون أدب من غيرها إذا اشتملت على الإنشاء" [3]. والتركيب الإنشائي " أكثر إثارة للذهن لأنه أكثر حركة واندفاعًا, وهذا ما يجعل الصورة الأدبية تهز الذهن لتشخيصها وحركتها؛ لأن الإنشاء طلب, والطلب

1الطبقات الكبرى ,1 / 292.
2 مسند الأمام أحمد,578/4 .
3 المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم, 140-141.

يقتحم ذهن المتلقي والسامع" [1]، وقد تبدى الأسلوب الإنشائي –غالبًا- في مفتتح الخطب والرسائل بالنداء الذي تردد كثيرًا في هذا الأدب وتعددت صوره ودلالاته, وقد غلب على الوفود نداء رسول الله ρ عند الوقوف بين يديه, كما تنوعت طرق ذلك النداء فنادته بعض القبائل التي لم تكن قد آمنت بعد بـ" يا محمد" كأشجع[2]، وتميم[3]، ووفد الجن[4] وبني عذرة[5]، ونصارى غسان .[6] وكذلك بعض الأفراد الذين جاءوا لإعلان إسلامهم بين يديه ρ كالجارود بن عمرو[7], أو من جاء متحديًا ومعارضًا كعامر بن الطفيل[8]. فيما غلب نداء الوفود للنبي ρ بـ "يا رسول الله" إقرارًا منهم بنبوته وتصديقًا برسالته كوفد غافق[9] ، وعبد القيس[10] ، ووفد تجيب[11]، وبني ثعلبة[12]، وبني سعد هذيم[13]، وبني فزارة[14]، وبني أسد[15] . كما ورد نداء النبي ρ بهذه الصيغة في بعض رسائل الحكام والملوك التي تلقاها منهم -عليه الصلاة والسلام كرسالة النجاشي [16] , ورسالة المنذر بن ساوى[17] .

وإذا كان النداء قد برز في خطاب الوفود على اختلاف صيغه, فقد جاء في البيان النبوي بدلالات أعمق, فانزاح عن حقيقته إلى معان ومقاصد أخرى,فالنبي ρ ينادي عدي بن حاتم وهو عدو الله وعدوه تقربًا وتطمينًا له ؛ حتى يشعره بالأمان، ويحثه على الاستماع قائلاً:

---

1 فن المنافرة والمفاخرة النثرية من العصر الجاهلي إلى نهاية الأموي, 316 /317عن لغة النص الأدبي للدكتور عبد الله الحامد .
2 الطبقات الكبرى, 306/1 .
3 المنتظم في تاريخ الملوك والأمم, 353/2.
4 سنن أبي داود,61/1 .
5 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/ 277 .
6 المصدر السابق,291/2 .
7 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,, 282/2.
8 المصدر السابق,2/ 268.
9 الطبقات الكبرى, 352/1.
10 المصدر السابق,562/5.
11 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,2 /269.
12 المصدر السابق, 273/2.
13 المصدر السابق, 273/2-274.
14 المصدر السابق,275/2-274.
15 المصدر السابق 2/ 276 .
16 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، 314.
17 المصدر السابق471.

"إيه يا عدي بن حاتم "[1]، فأوحى نداؤه لعدي بالأمان، مما دفعه للحديث دونما رهبة أو خوف.وكان من إكرامه للوفود ρ أن ينادي الوافد باسمه تحببًا وتوددًا له, كما فعل مع وافد عبد القيس موسعًا له في المجلس بعد أن استوى ρ قاعدًا وقبض رجليه قائلاً: "ههنا يا أشج"[2]. وكان ρ يشيد بالوفود وبنسبتها لقبائلهم بذكر القبيلة، فيناديهم بما هو محبوب إليهم ويرفع من مكانة القبيلة بذكر اسمها، بل إن رسول الله ρ كان أشد حرصًا على منح الوفود الشعور بالمحبة والاهتمام منه عليه أفضل الصلاة والسلام, فعمد إلى نداء بعضهم بنسبتهم إلى قبائلهم مما يشعر بقيمة ومكانة تلك القبائل عنده, كما في قوله لوافد صداء : "يا أخا صداء" [3] ، ووافد سلامان:"يا أخا سلامان "[4]، ولأبيض بن حمال وافد سبأ" يا أخا سبأ "[5] . وخرج كذلك ρ بالنداء إلى معنى الملاطفة كحديثه مع فروة بن مسيك عن أيام قومه في الجاهلية قائلاً: "يا فروة هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم "[6]، وإلى التبشير بالخير كقوله لبني تميم:" أبشروا يا بني تميم! "[7]، منتقلاً ρ بالنداء من التبشير إلى الترغيب والتنبيه في خطابه لوفد بني تميم مؤكدًا عليهم قبول البشرى قائلاً: "اقبلوا البشرى يا بني تميم، قالوا: يا رسول الله قد بشرتنا فأعطنا, فرئي ذلك في وجهه, فجاء نفر من اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم ’قالوا: قد قبلنا يا رسول الله "[8]، كما تكرر النداء بغرض الترغيب في قوله ρ :" يا صخر! إن القوم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم ودماءهم فادفع إلى القوم ماءهم"[9].

وتتكثف الأساليب الإنشائية في أدب الوفادة على رسول الله ρ ولاسيما في الحوار, إذ قام في جله على الاستفهام, فوقفت الوفود سائلة مستفهمة عن تعاليم دينها ودنياها, وكان -عليه

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء287/2-288.
2 مسند الإمام أحمد 206/4.
3الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,288/2-289.
4 المصدر السابق, 292/2.
5 سنن أبي داود ,179/2 .
6 تاريخ الأمم والملوك ,197/2- 199 .
7 المصنف في الأحاديث والآثار, 69/1 .
8 البداية والنهاية, 926/1.
9 سنن أبي داود, 191/2.

الصلاة والسلام- يجيب ويسأل كذلك, وجاء الاستفهام في خطابات الوفود على أصله غالبًا, وهو طلب العلم بشيء مجهول بواسطة إحدى أدواته, كسؤال أبي الضبيب شيخ الوفد: " يا رسول الله! إن لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر؟ قال: نعم! وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة. قال :يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال :ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك. قال :يا رسول الله ! أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض؟ قال: لك ولأخيك أو للذئب، قال: فالبعير؟ قال: مالك وله! دعه حتى يجده صاحبه "[1]، فتوالت الأسئلة من الوافد على رسول الله ρ بقصد المعرفة, وكذلك سؤال عبد القيس في الأشربة بقولهم: " مَاذَا يَصْلُحُ لَنَا مِنَ الأَشْرِبَةِ؟ فَقَالَ «لاَ تَشْرَبُوا فِي النَّقِير ».[2] وغيرها من الأسئلة التي جاءت على حقيقتها , كصنيع ثقيف إذ سألوا النبي، فقالوا: " إن أرضنا أرض باردة فكيف نفعل بالغسل؟ قال: أما أنا فأفرغ على رأسي ثلاثًا"[3].

كما قد يأتي السؤال بغرض التأكد من صحة معلومة أو خبر, كما فعل ضمام بن ثعلبة بتوالي أسئلته على رسول الله ρ [4].

وكان ρ يسأل كذلك بقصد العلم بما ليس معلومًا لديه, كسؤاله عن بعض الوفود قائلا:" «مَنِ الْقَوْمُ -أَوْ مَنِ الْوَفْدُ؟ »[5]. أو سؤاله عن سيد القوم كما فعل مع عبد القيس بقوله:" من سيدكم وزعيمكم "[6] ,وسؤاله الأشعث بن قيس وافد كندة: "هل لك من ولد؟" [7] فهذه الأسئلة كلها لم تخرج عن أصلها وحقيقتها في طلب العلم بشيء مجهول, ومع مجيء الاستفهام على حقيقته، فقد تحولت وظيفته الحقيقية التي تبحث عن إجابة إلى وظائف بلاغية يمكن استعمالها على غير الوجه الذي وُضع من أجله, لمنح السياق هوية استثنائية تنأى به عن الجمود

---

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير, 3/2 .
2 صحيح مسلم, 167/1.
3 تاريخ جرجان,237/1.
4 البداية والنهاية ,60/5-61 .
5 صحيح البخاري, 1/ 29 .
6 مسند الإمام أحمد,5/ 235.
7 المصدر السابق,276/6.

والنمطية, وقد لعب الاستفهام في البيان النبوي دورًا كبيرًا في إثارة المتلقي، فبادر -عليه الصلاة والسلام- بعض الوفود بسؤال تحفيزي مثيرًا انتباههم به, ومهيئًا أذهانهم لسماع ما سيأتي بعده, كقوله لأحد الوفود :" أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله, وإقام الصلاة, وإيتاء الزكاة, وصوم رمضان, وأن تعطوا الخمس من المغنم" [1].

وعمد -عليه الصلاة والسلام- إلى التوثق من إيمان بعض الوفود بتوالي الأسئلة المؤكِدة عليهم, كما فعل مع وافد مذحج إذ:" أقبل عليه النبي، فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال: أراغبًا جئت أم راهبًا؟ "[2]، فتوالي الأسئلة على الوافد دفعه إلى مزيد من التركيز على إيمانه. وهنا تكمن أهمية (الاستفهام) في كونه المثير والمحفّز للمتلقي والمؤثّر فيه. وتعددت الأغراض التي انزاح فيها السؤال عن حقيقته في البيان النبوي الشريف, وكان لأسئلته ρ تأثير عظيم في المتلقي على اختلاف مقاصدها, فسأل عدي بن حاتم سؤالاً تقريريا عن عقيدته قائلاً: "ألم تك ركوسيًّا؟ أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع ؟"[3]، فالنبي ρ استطاع من خلال مبادرة عدي بهذا السؤال التقريري أن يخفف على الرجل وطأة اللقاء, ومواجهة رسول الله ρ والاعتراف أمامه بحقيقة معتقده الذي لم يكن يسير فيه على النهج السوي كذلك. وأبدى ρ كذلك معرفته بأنواع التمر من خلال السؤال عن كل نوع باسمه فيما دار بينه وبين وفد عبد القيس قائلا:"«أَتُّسَمُوَنَ هَذَا التّعُضُوضَ»؟ قالوا: نعم! فأومأ إلى صرة أخرى فقال:«أَتُسَمُوَنَ هَذَا الصّرْفَانَ»؟ قالوا: نعم .ثم أومأ إلى صرة فقال: «أَتسَمُوَن هَذَا البَرنـي»؟ قالوا : نعم. فقال رسول الله ρ : «أَمَا إِنَّـهُ خَيْرُ تَمْرِكُمْ وَأَنْفَعهُ لَكُمْ" [4]، فلم يكن سؤاله ρ عن جهل بتلك الأنواع, وإنما توكيدًا بمعرفته لها.

---

1 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء, 198/9.
2 الطبقات الكبرى ,1 /342-343.
3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,287/2-288 .
4 مسند الإمام أحمد, 451/4.

وكان من منهجه كذلك في الرد على بعض استفسارات وأسئلة الوفود حول الإباحة والتحريم أن يعمد إلى إلقاء السؤال قبل الإجابة، حتى يمهد للسائل، فيتقبل إجابته ويتبع الحكم برضا ويقين, لذلك سأل وفد جيشان عندما استفتوه في أشربة اليمن أو ما يسمى البتع قائلاً: " هل تسكرون منها؟ قالوا: إن أكثرنا سكرنا، قال: فحرام قليل ما أسكر كثيره "[1]، فجاء سؤاله ρ سابقًا لجوابه؛ ليكون الحكم أكثر تأثيرًا ومنطقية لدى السائل.

وانزاح -عليه الصلاة والسلام- بالاستفهام إلى معنى الإرشاد والتوجيه والتعليم, ولاسيما عند حدوث ما لا يعجبه من بعض الوفود, ومن ذلك سؤاله وفد الصدف إذ "صادفوا رسول الله فيما بين بيته وبين المنبر، فجلسوا ولم يسلموا فقال: مسلمون أنتم؟ قالوا: نعم. قال فهلا سلمتم؟ فقاموا قيامًا فقالوا:السلام عليك أيها النبي ورحمة الله، قال: وعليكم السلام اجلسوا فجلسوا, وسألوا رسول الله عن أوقات الصلاة فأخبرهم بها "[2]، كما استنكر على بني سعد هذيم عدم صلاتهم على الجنازة مع المسلمين,إذ قدموا عليهρ وهو يصلي على جنازة في المسجد يقول الراوي:"فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم، وقلنا حتى نلقى رسول الله ρ ونبايعه، ثم انصرف رسول الله ρ فنظر إلينا فدعا بنا فقال: من أنتم؟ فقلنا: من بني سعد هذيم! فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا: نعم، قال: فهلا صليتم على أخيكم! قلنا: يا رسول الله! ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله ρ أينما أسلمتم فأنتم مسلمون"[3]، وما كان سؤاله ρ إلا إنكارًا لتصرفهم وتوجيهًا لهم, لذلك بادر بالسؤال ثم أعقبه بالتحضيض توكيدًا لهم.

كما خرج الاستفهام في بيانه ρ إلى العتاب والتذكير بالماضي مثلما فعل مع بني الحارث بن كعب في قوله لهم:"أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟ فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد, ثم أعادها رسول الله الثانية فلم يراجعه منهم أحد, ثم أعادها رسول الله الثالثة فلم يراجعه منهم

---

1 الطبقات الكبرى, 1/ 359.

2 المصدر السابق, 1/ 329.

3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,2/273-274.

أحد، ثم أعادها رسول الله الرابعة, فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله! نحن الذي إذا زجروا استقدمنا, فقالها أربع مرات فقال رسول الله: لو أن خالد بن الوليد لم يكتب إلي فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله يا رسول الله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا. فقال رسول الله: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله الذي هدانا بك يا رسول الله, قال :صدقتم، ثم قال رسول الله: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدًا, فقال رسول الله: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم, قالوا: يا رسول الله! كنا نغلب من قاتلنا أنا كنا بني عبيد، وكنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم"[1]، فاتضح من سؤاله ρ سابق معرفته بأفعالهم في الجاهلية, أكد ذلك سؤاله الثاني لهم إذ أنكروه، لكنه ρ أكده بقوله:" بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم ". كما ورد السؤال عنه ρ لوفد هوازن بغرض التخيير قائلاً: "أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا، بل ترد علينا نساؤنا وأبناؤنا فهو أحب إلينا"[2].

وقد يأتي -عليه الصلاة والسلام- بعبارة تثير الوفد وتدفعه إلى السؤال عن معناها, كما حصل مع وفد عبد القيس إذ سمعوا رسول الله ρ يقول: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنْ عِبَادِكَ المُنْتَخَبينَ الغُرِّ المُحَجِّلينَ الوَفْدِ المُتَقَبِّلِينَ» قال: فقالوا: يا رسول الله، ما عباد الله المنتخبون؟ قال: «عِبادُ الله الصّالِحُونَ» قالوا: فما الغر المحجلون؟ قال: «الَّذِينَ يبيِّضُ منهم مواضع الطّهُورِ» قالوا: فما الوفد المتقبلون؟ قال: «وَفْدٌ يَفِدُونَ مِنْ هذِهِ أُلامَّةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ إِلَى رَبِّهِمْ تبارك وتعالى».[3]

والأمر من الأساليب الإنشائية التي وردت بكثرة في أدب الوفادة, ولاسيما في رسائل الدعوة منه ρ إلى الملوك والحكام, ويمكن القول بأن الأمر في تلك الرسائل قد هدف إلى غرض رئيس وهو الدعوة وتبليغ الرسالة, فالنبي ρ يكرر في كتبه قوله: " أسلم" كما في

1 تاريخ الأمم والملوك, 2 /195 -196 .
2 مسند الإمام أحمد , 438/2.
3 المصدر السابق, 450/4.

دعوته لهرقل[1]، وكسرى[2]، وهوذة بن علي صاحب اليمامة[3] وغيرهم, فجاء الأمر صريحًا مباشرًا.

ومما لاشك فيه أن ورود الأمر من رسول الله ρ شيء لابد منه ,إذ الأمر هو طلب الفعل على جهة الاستعلاء[4]، وما كانت دعوته ρ إلا طلبًا لتوحيد الله -سبحانه وتعالى- وإقامة أوامره واجتناب نواهيه, وبالرغم من أن فعل الأمر تقتضي حقيقته نوعًا من القوة والسلطة تمكن الآمر من أن يأمر فيجاب, إلا أنه في أدب الوفود مع رسول الله ρ قد خرج عن تلك الصفة, فوقفت الوفود بين يديه موجهة له الطلبات والأوامر بيد أنها أوامر لم تأت على سبيل السلطة والاستعلاء, بل جاءت لمعاني أخرى تفهم من سياق حديث الوفد, كطلب العلم والتفقه فيه الذي جاء في خطاب وفد عبد القيس عندما قالوا للنبي ρ: "فمُرْنا بأمْرٍ فَصْلٍ، نخْبرُ به مَنْ وَراءَنا، وَنَدخُلُ به الجنَّة".[5] كما خرج الأمر عن حقيقته في استعطاف النبي ρ واسترحامه في خطاب هوازن ,إذ وقفوا بين يديه طالبين المن والصفح عن أسراهم بقولهم:" فامنن علينا منّ الله عليك"[6]. وانزاح -أيضًا- في خطاب بعض الوفود إلى طلب التضرع بالدعاء من رسول الله ρ, كما فعل غلام وفد تجيب إذ طلب من رسول الله ρ قضاء حاجته قائلاً: "إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفًا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي. قال: وما حاجتك؟ قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي" [7].

وطلبت بعض الوفود من رسول الله ρ الدعاء لها بالسقيا بعد أن أسنتت بلادهم, كوفد فزارة إذ قال متكلمهم: " يا رسول الله! أسنتت بلادنا وهلكت مواشينا, وأجدب جنابنا, وغرث

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,348.
2 المصدر السابق,369.
3 المصدر السابق,485.
4 المعاني في ضوء أساليب القرآن, 121.
5 صحيح البخاري ,1/ 29.
6 مسند الإمام أحمد, 438/2.
7 الطبقات الكبرى, 1/ 323.

عيالنا, فادع لنا ربك يغثنا واشفع لنا إلى ربك"[1]. فبدأ بالجمل الخبرية المتوالية ,ثم أعقبها بالأمر مما يؤكد سوء الحال التي كانوا عليها , وكذلك فعل وفد بني مرة بعد أن وصفوا له ρ حالهم وأردفوا قائلين:" فادع الله لنا" [2]، كما ورد طلب الدعاء منه ρ بالشفاء تمثل ذلك في خطاب وافد عبد القيس بقوله: "يا رسول الله إن معي خالاً لي مصابًا فادع الله له "[3].

أما الأمر في الخطاب النبوي فمع مجيئه على حقيقته وهو طلب فعل الشيء, فإنه أفاد مع ذلك دلالات أخرى ينبئ بها السياق, كقوله -عليه الصلاة والسلام- للأنصار مرغبًا لهم ومشيرًا إلى وفد عبد القيس: «يَا مَعْشَرَ ألانْصَارِ أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ. أَشبَهُ شَيْئاً بِكُمْ أَشْعاراً وَأَبْشارًا أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ وَلاَ مَوْتُورِينَ إِذْ أَبى قَوْمٌ أَنْ يُسْلِمُوا حَتَّى قُتِلُوا»[4]، فقد ألقى -عليه الصلاة والسلام- الأمر, ثم علل له بمكانة عبد القيس, مما منح الأمر صفة الإقناع التي لقيت القبول المطلق من الصحابة -رضوان الله عليهم.

وإن كان الأمر هو طلب الحدوث أو القيام بفعل, فإن نقيضه النهي وهو طلب القيام بضده أو الترك, وقد ورد كثيرًا في البيان النبوي, فيما لم يرد في خطابات الوفود ولم يكن له الحضور الذي كان للصيغة الأمرية مع انزياحاتها عن دلالتها الأساسية, ولا غرو في ذلك فالوفود جاءت معلنة إسلامها طالبة أمورًا من نبيها ρ ولم تأت ناهية.

وبالرغم من تعدد وجود النهي في الخطاب الشريف, فإنَّه -وإنْ مارس إنتاج دلالات أخرى- قد بقي محتفظًا بمعناه الأصلي الموضوع له في اللغة وهو (طلب الكفّ عن الفعل) كقوله ρ للأشعث بن قيس في وفد كندة عندما تذمَّر من ولده بقوله :" ولوددت أن مكانه شبع القوم، فقال: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين، وأجرًا إذا قبضوا "[5].

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة, 274-275/2.
2 المصدر السابق, 282/2-283 .
3 البداية والنهاية, 47/5-48 .
4 مسند الإمام أحمد, 451/4.
5 المصدر السابق, 276/6.

ويترادف (الأمر) و (النهي) في نصِّ الخطاب النبوي -غالبًا- وبالرغم من أنهما متعاكسان في الجهة ومتضادان في المعنى, إلا أن النبي ρ قد زاوج بينهما في كثير من خطاباته الشريفة مع الوفود, مما خلق طرافة وجدّة في التعبير زادت من قوته وتأثيره في المخاطب, ففي سؤال الوفود عن الآنية كان في جوابه ρ آمرًا وناهيًا بقوله:«انْتَبِذُوا فِيمَا بَدَا لَكُمْ، وَلا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا، فَمَنْ شَاءَ أَوْكَأَ سِقَاءَهُ عَلى إِثْمٍ»[1], فهو بأمره -عليه الصلاة والسلام- أعطاهم الحرية في اتخاذ ما يشاؤون من الآنية, بيد أنه سارع بالنهي عن المسكر, مما أعطى النهي صفة الاستثناء في الحكم. ولعل الأساس في هذا الخطاب هو الأمر, وجاء النهي فرعًا عنه؛ لأن سؤال الوفد كان عن الآنية, فخرج به ρ إلى النهي عن المسكر, فيما يظهر العكس في موضع أخرى, إذ بدا الأصل فيه النهي, وجاء الأمر فرعًا منه كما في نهيه ρ أحد الوفود عن المبالغة في مدحه قائلاً: " قولوا قولكم ولا يستجرنكم الشيطان، قال: وربما قال: ولا يستهوينَّكم».[2]

ويتكثف الإنشاء بتوالي أنواعه في الخطاب النبوي الشريف, مما يعزز الأثر في السامع فيما ورد عن جري بن جابر قال:"ركبت قعودًا لي فأتيت مكة في طلبه، فإذا هو جالس ρ ، فقلت: السلام عليك يا رسول، فقال: وعليك، قلت: إنا معشر أهل البادية قوم منا الجفاء، فعلمني كلامًا ينفعني الله به، قال : اتق الله! ولا تحقرن من المعروف أو الخير شيئًا, وإياك وإسبال الإزار فإنه من المخيلة وإن الله -عز و جل- لا يحب المختال"[3]، إذ بدأ -عليه الصلاة والسلام- نصيحته بالأمر ثم أتبعها بالنهي مردوفًا بالتحذير, منزاحًا من أسلوب إنشائي إلى آخر, حتى يختم بيانه الشريف بانزياح أكبر من الإنشاء عمومًا إلى الخبر المؤكد بإن المكررة إمعانًا في التوكيد.

---

1 مسند الإمام أحمد, 530/4.
2 المصدر السابق, 603/4.
3 المعجم الكبير , 63/7.

ولم يقف الطلب عند النداء والاستفهام والنهي والأمر, بل انزاح الأمرفي أدب الوفادة إلى الدعاء, وكان للدعاء أثره النفسي العميق في الوفود فضلاً عن آثاره الفنية وجمالية استخدامه في أثناء الخطاب ولاسيما الخطاب النبوي الشريف, إذ أبدى ρ إعجابه ببعض الوفود من خلال دعائه لهم بالبركة عامة كدعائه للنخع قائلاً: " اللهم بارك في النخع"[1]، ولبجيلة: "اللهم بارك فيهم" [2],أو بالبركة في الخيل والرجال كقوله لأحمس:" اللهم بارك لأحمس في خيلها ورجالها "[3]، كما دعا لناقة نقادة الأسدي عندما شرب من لبنها بقوله:" اللهم بارك فيها من ناقة وفيمن منحها, قال: نقادة، قلت: وفيمن جاء بها يا نبي الله ؟ قال: وفيمن جاء بها"[4]، كما دعا ρ لعبد القيس بالغفران معللاً استحقاقهم له بقوله:" اللهم اغفر لعبد القيس إذ أسلموا طائعين" [5]. وكان من بديع دعائه ρ أن يدعو للشخص من جنس ما فعل كقوله لوافد قيس- حين التزم لرسول الله ρ بدعوة قومه والمجيء بهم ووفائه بوعده مادحًا إياه :" وفيت وفى الله"[6]، وجميل دعائه لأسلم وغفار قائلاً:" أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها"[7] ، وكما كان دعاؤه ρ منطلقًا من إعجابه وثنائه، فقد جاء كذلك بطلب من كثير من الوفود التي وقفت بين يديه تلتمس أن يتضرع لها عند الله لفك كربة, أو سقيا بلاد, فجاءت دعواته المباركة لوفد فزارة :"اللهم اسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت, اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا, مريعًا طيبًا واسعًا, عاجلاً غير آجل نافعًا غير ضار، اللهم اسقنا رحمة ولا تسقنا عذابًا ولا هدمًا ولا غرقًا ولا محقًا، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء" [8]، كما دعا لسلامان

---

1 الطبقات الكبرى , 346/1 .
2 فضائل الصحابة, 2/ 892 .
3 سنن أبي داود, 191/2.
4 الطبقات الكبرى, 293/1 .
5 مسند الإمام أحمد, 206/4.
6 الطبقات الكبرى, 340/1-341 .
7 المصدر السابق, 354/1.
8 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,275/2.

بالسقيا بعد أن شكوا لـه سوء الحـال[1] ,ودعـا للغلام الذي سـأله لـدعاء قـائلاً: "اللهم اغفر لـه وارحمه واجعل غناه في قلبه"[2].

وتعانق الخبر والإنشاء في مواضع كثيرة, وقد أعطت هذه الظاهرة لأدب الوفادة على رسول الله تميزًا إذ إنها "تجدد من حيوية النص, ونشاط السامع, وتدعو للإثارة والانتباه وتضفي نغمًا صوتيًا يكشف عن مبلغ العاطفة وتأزمها"[3] .وللانتقال من صيغة إلى أخرى ومن أسلوب إلى آخر أثره العميق، فقد أشار د. الجندي إلى ذلك بقوله: " ويجب أن تعرف أن تغيير الصيغة في الأسلوب من الخبر إلى الاستفهام إلى الأمر إلى النهي إلى غير ذلك من أساليب الإنشاء، مما يجدد نشاط السامع, ويثير شعوره, ويحرك انتباهه, ومن أجل ذلك حسنت مغايرة العبارات في الأسلوب الخطابي الذي ينزع إلى الإثارة وتحريك الشعور"[4]، ووقف وفد هوازن بين يدي النبي ρ منتقلين بخطابهم من الخبر إلى الإنشاء في محاولة لاستمالة النبي ρ وبلوغ عفوه فقالوا:"يا رسول الله! إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنن علينا منّ الله عليك"[5]، فجاء الرد البياني الشريف بالصيغة ذاتها منتقلاً من الخبر إلى الأمر قائلاً: "أما بعدُ فإنّ إخوَانكم هؤلاءِ قد جاؤُونا تائبينَ، وإني رأيت أن أردّ إليهم سَبيَهم، فمن أحبّ منكم أن يُطيّبَ بذلكَ فلْيفعَلْ، ومَن أحبّ منكم أن يَكونَ على حَظّهِ حتى نُعطيَهُ إياهُ مِن أوّل ما يُفِيءُ اللهُ علينا فلْيفعَلْ"[6].

وعلى الجانب الآخر يتصدر الإنشاء الخطاب منسابًا بين النداء والأمر؛ ليلحق به الخبر في قوله ρ:"«يَا مَعْشَرَ ألانْصَارِ أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ. أَشبَهُ شَيْئاً بِكُمْ أَشْعاراً وَأَبْشارًا أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ وَلاَ مَوْتُورِينَ إِذْ أَبى قَوْمٌ أَنْ يُسْلِمُوا حَتَّى قُتِلُوا»

1 المصدر السابق, 292/2.
2 المصدر السابق, 269/2.
3 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 318.
4 علم المعاني, 67.
5 مسند الإمام أحمد ,438/2.
6 صحيح البخاري810/2.

[1]. وفي صيغة ثالثة يتداخل الخبر بالإنشاء في مزاوجة بديعة تمثلت في خطاب أسلم بقولهم: " قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منهاجك، فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها، فإنا إخوة الأنصار ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء"[2], وقد يتقدم الوفد بخطاب خبري فيأتي الرد من المصطفى ρ بصيغة إنشائية منزاحا عن الصيغة التي جاء فيها خطاب الوفد, مما يكسر الرتابة في النص, ويجدد التركيز ويثير الانتباه ,كما حدث مع وفد بني نهد إذ توالت الأخبار في خطاب طهفة بن أبي زهير, ليأتي الرد منه ρ بالدعاء منزاحًا من الخبر إلى الإنشاء[3].

2- الشرط:

كما برزت الجملة الخبرية والإنشائية-الطلبية- فقد كان للجملة الشرطية حضور قوي في تراكيب أدب الوفادة, ولاسيما في رسائله ρ ومكاتباته الدعوية والتشريعية على حد سواء, فلا تكاد تجد كتابًا إلا وقد اشتمل على الشرط, مما يدل على حرصه ρ على الإقناع العقلي والمنطقي فضلاً عن الإقناع العاطفي, إذ الجملة الشرطية تقوم على بناء منطقي عقلي من خلال ارتباط الجملتين, وترتب حصول إحداهما على حصول الأخرى, فالشرط هو: "تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد الأول وجد الثاني"[4], ومما تجدر الإشارة إليه – فضلاً عن تكثيف الأسلوب الشرطي في رسائله ρ- تنوع التشكيل الشرطي, وصياغته بأنماط متعددة , دلت على قدرته ρ, وبراعته في استخدام هذا الأسلوب الشرطي بصور شتى, يمكن تقسيمها بناء على ما وجد منها في رسائله ومكاتباته على النحو الآتي:

أ- الجملة الشرطية باستخدام الأداة.

1 مسند الإمام أحمد 451/4.

2 الطبقات الكبرى 354/1.

3 الفائق في غريب الحديث 277/2 -278.

4 التعريفات, 165.

ب- الجملة الشرطية بغير الأداة وفعل الشرط.

أ- الجملة الشرطية باستخدام الأداة:

برزت الجملة الشرطية كاملة الأطراف بوجود أداة الشرط وفعل الشرط وجوابه, وتنوع استخدام أدوات الشرط, بل وتنوع بناء هذه الجمل الشرطية, ويمكن تصنيفها في أقسام على النحو التالي:

1- فعل الشرط مضارع + جواب الشرط مضارع:

وهذا الضرب هو الأصل في الشرط يقول المبرد: "فأصل الشرط أن تكون أفعاله مضارعة؛ لأنه يعربها ولا يعرب إلا المضارع"[1]، وبالرغم من أصالة هذا الضرب في الأساليب الشرطية, فقد ورد في الخطاب النبوي أقل من غيره, وفي ذلك ما يدل على تنوع استخدامه ρ للغة بشتى صورها الشائعة والنادرة, وقد تمثل هذا الضرب في قوله ρ لأسيحت صاحب هجر:" فإن تجئنا أكرمك وإن تقعد أكرمك"[2].

2- فعل الشرط مضارع+جواب الشرط مضارع مقترن بالفاء:

ومنه قوله ρ :" من ينصح فإنما ينصح لنفسه"[3].

3- فعل الشرط مضارع+جواب الشرط ماض مقترن بالفاء:

كقوله ρ : "وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني"[4].

4- فعل الشرط مضارع+جواب الشرط مضارع منفي:

ومنه قوله ρ : " وإن من يجمل منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء"[5].

5- فعل الشرط ماض+جواب الشرط ماض:

1 المقتضب 49/2.
2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 423.
3 المصدر السابق,471.
4 المصدر السابق نفسه.
5 تاريخ اليعقوبي ,82/2.

الأصل في فعل الشرط وجوابه أن يكونا فعلين مضارعين؛ لأن الشرط تعليق شيء بشيء, والتعليق لا يكون إلا في الأمور المستقبلية, وهذا لا يتأتى إلا مع فعل لم يقع, لذا يؤول النحاة ما جاء مع فعل الشرط وجوابه بصيغة الماضي على أنها بنية المستقبل, يقول المبرد: "وقد يجوز أن تقع الأفعال الماضية في الجزاء على معنى المستقبلة؛ لأن الشرط لا يقع إلا على فعل لم يقع, فتكون مواضعها مجزومة وإن لم يتبين فيها الإعراب"[1]. ويقول ابن السرَّاج في حديثه عن "إن" :"وحق إن في الجزاء أن يليها المستقبل من الفعل؛ لأنك إنما تشترط فيما يأتي أن يقع شيء لوقوع غيره, وإن وليها فعل ماض أحالت معناه إلى الاستقبال"[2].

وقد تعدد ورود هذا النمط في رسائله ρ, وجاء بعدة أشكال, منها ما هو على صورة الماضي في فعل الشرط وجوابه, كقوله ρ في كتابه إلى تميم الداري:" فمن إذاهم إذاه الله فمن إذاهم لعنه الله "[3]، ومنه قوله لأهالي هجر:" وإني لو جهدت حقي كله فيكم أخرجتكم من هجر "[4]، والملاحظ في التركيب الشرطي عدم اتصال الجواب باللام مع كونه ماض مثبت, والأكثر فيه أن يقترن باللام، وقد أشار المرادي إلى ذلك بقوله:" والأكثر في الماضي المثبت اقترانه باللام"[5].

6- فعل الشرط ماض +جواب الشرط ماض ناسخ :

كقوله ρ لبني نهد:" من أقام الصلاة كان مؤمنًا, ومن آتى الزكاة كان مسلمًا"[6]، ويلاحظ هنا دقته ρ في اختيار الألفاظ, مع تكرار الأسلوب الشرطي, إذ يشترط لحصول الإيمان إقام الصلاة, فيما يشترط لحصول الإسلام إيتاء الزكاة, ذلك أن إقامة الصلاة تتأتى برغبة محضة من الشخص, وإيمان وقر في القلب فصدقه العمل, وهو عمل فردي ذاتي؛ لذلك

---

1 المقتضب, 50/2.
2 الأصول في النحو, 158/2.
3 نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية,147/1-148.
4 تاريخ اليعقوبي ,82/2 .
5 الجنى الداني في حروف المعاني,283.
6 الطبقات الكبرى209/1.

كان إقام الصلاة دليلاً على الإيمان, وهو درجة أعلى من الإسلام, فيما إيتاء الزكاة قد يحصل بغير قناعة المؤتي لها, وقد يؤديها لاعتبارات أخرى تتعلق بالمجتمع وولي الأمر؛ لذلك فإن إيتاءها قد يكون من قبيل الإسلام فقط, وقد دلت الآية الكريمة على أن هناك فرق بين الإيمان والإسلام في قوله تعالى:

☎ 👓□✡♦👌✂◆↗ ➲☢✂🏵❹⇳↖☞🏵👓✂ 🙵💣⬩🙴📼👓⬩🔔 }
♊⮪▤🕔⬩🙴📼◆❒ ☎✂❑↖☪🙵👌⬃⬩➔✍ ⬀☠⅄🙴📼 ✍➔🔔
👓⭘☺⬩🙴📼◆❒ 👓□✡⇳☺■💾⬄🙰❒🕮 ☎✂☑❑↗🙴📼❑➔🔔
☎ ⬀☠↗▤🙶📪❑➔💾➔🔔 ❼🙶✗ 🡐♊🕔⮹☺③💣“👓✂ ⮵✍↗⌘⇳⑨♦③
⬥⬥ 🕛↖🕮⬩✎❑🡐🙰◆❻◆❒ ⅄✎👓✂ ☎✂❑↖➔⓿🙵➲➔✍ ♌🙶✆◆❒
🗐 👓🕓★⬂⓿☒⅄ ⬀☠↗▤🙶💾🕓⮹☺⇳↖❒🕮 ⇳♊🙵♓👌 ☠↗▤⬃☝🙶💾♦③
.[1] { ➘☹➚🙵❍▪❻ ⌧❻❑→⊞☒➘ ⅄✎👓✂ □♌🙶✆

كما فرق ابن منظور بين الإيمان والإسلام بقوله:" فالإسْلامُ إِظهار الـخُضُوعِ والقَبُول لما أَتـى به سيدنا رسول الله وبه يُحْقَنُ الدمُ ,فإِن كان مع ذلك الإِظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإِيمان الذي هذه صفته "[2].

7- فعل الشرط ماض+جواب الشرط ماض مؤكد:

ومن ذلك قوله ρ لمنذر بن ساوى مشيرًا إلى مبعوثيه: "من نصح لهم فقد نصح لي"[3]، وقوله لأهل نجران:" فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب"[4]، وقوله لوائل بن حجر:"من أجبى فقد أربى"[5]، ولوحظ في هذا التركيب أن التوكيد تكرر بقد التحقيقية.

8- فعل الشرط ماض+جواب الشرط مضارع:

ومثال ذلك قوله ρ لأسيحت صاحب هجر:" فإني لاأستهدي أحدا وإن يهد لي أقبل هديته"[6].

---

1 الحجرات, 14.
2 لسان العرب, (سلم).
3المصباح المضيّ في كتّاب النبي ,471.
4 المصدر السابق, 401.
5 الطبقات الكبرى,287/1.
6 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 423.

9- فعل الشرط ماض+جواب الشرط أمر:

وقد تكرر هذا النمط في رسائله ρ ,ومنه قوله لأهل هجر: "فإذا جاءكم أمراؤكم فأطيعوهم"[1], وقوله للنجاشي: "وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين, فإذا جاءك فأقرهم"[2]، وكتابه إلى يحنة بن روبة: " فإن أردتم أن يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله"[3]. وقد لوّن ρ هنا بين الشرط والجواب جمعًا وإفرادًا، مما منح النص جمالية من خلال العدول الداخلي في الجملة الشرطية.

10- فعل الشرط ماض+جواب الشرط جملة اسمية:

ويعد هذا النمط البنائي للجملة الشرطية -من خلال استقراء الشرط في أدب الوفادة ولاسيما في رسائل النبي ρ- أكثر الأنماط ورودًا, فكثر أن يأتي فعل الشرط ماضًيا, ليتبعه جواب الشرط جملة اسمية مقترنة بالفاء وجوبًا, كحال جواب الشرط الطلبي, وقد أشار ابن يعيش إلى ذلك بقوله:" وأما إذا كان الجزاء بشيء يصلح الابتداء به كاللام والنهي والابتداء والخبر فكأنه لا يرتبط بما قبله, وربما أذن بأنه كلام مستأنف غير جزاء لما قبله, فإنه حينئذ يفتقر إلى ما يربطه بما قبله فأتوا بالفاء لأنها تفيد الإتباع ,وتؤذن بأن ما بعدها مسبب عما قبلها, إذ ليس في حروف العطف حرف يوجد فيه هذا المعنى سوى الفاء ؛ لذا خصوها من بين حروف العطف"[4]. ونماذج هذا النمط متعددة, منها قوله ρ لأهل نجران:" فإن أبيتم فالجزية"[5] على تقدير الجملة الاسمية فالجزية عليكم, وقوله لبارق:" فإذا أينعت ثمارهم فلابن السبيل اللقاط"[6]، وقوله في كتابه إلى مطرف بن الكامن:" من أحيا أرضًا مواتًا بيضًا منها

1 تاريخ اليعقوبي, 82/2.
2 البداية والنهاية,778/1.
3 الطبقات الكبرى,277/1-278 .
4 شرح المفصل, 2/9.
5 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 401.
6 الطبقات الكبرى,286/1.

مناخ الأنعام ومراح فهي له"[1]، وكتابه إلى المنذر بن ساوى:" ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية "[2]، وكذلك قوله ρ لرفاعة بن زيد:" فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب رسوله, ومن أدبر فله أمان شهرين"[3].

وفي مواضع أخرى وردت الجملة الاسمية مؤكدة ,كقوله لملكي عمان:" وإن أبيتما تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما"[4]، وقوله لعظيم الرو م:" وإن توليت فإن عليك إثم الأريسين" [5]، وقوله لعظيم فارس:" فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك"[6]، ومن ذلك –أيضًا- كتابه إلى يحنة بن روبة وسروات أهل أيلة: "وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد"[7]، وكتابه إلى نهشل بن مالك:" فمن أسلم وأقام الصلاة وآتى الزكاة وأطاع الله ورسوله, وأعطى من المغنم خمس الله وسهم النبي ρ, وأشهد على إسلامه, وفارق المشركين, فإنه آمن بأمان الله "[8]، ومثل ذلك كتب إلى ملوك عمان ومن بالبحرين: "إن آمنوا, وأقاموا الصلاة, وآتوا الزكاة ,وأطاعوا الله ورسوله وأعطوا حق النبي ρ,ونسكوا نسك المسلمين فإنهم آمنون"[9].

كما وردت الجملة الاسمية منفية, في كتابه ρ إلى سعيد بن سفيان الرعلي :" ومن حاقه فلا حق له"[10].

فيما وردت الجملة الاسمية مؤكدة ومنفية, في قوله صلى الله عليه وسلم لعتبة بن فرقد:" ومن حاقة فإنه لا حق له"[11].

---

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 473.
2 المصدر السابق, 472/471.
3 المصدر السابق , 460.
4 المصدر السابق, 449.
5 المصدر السابق,348.
6 المصدر السابق,369.
7 المصدر السابق,500.
8 المصدر السابق,481.
9 المصدر السابق,452.
10 الطبقات الكبرى,285/1.
11 المصدر السابق ، 285/1.

ب- الجملة الشرطية بدون الأداة وفعل الشرط:

وردت الجملة الشرطية بحذف الأداة وفعل الشرط في أدب الوفادة ولاسيما في كتبه ρ الدعوية, واتخذت نمطًا واحدًا يأتي فيه فعل الأمر ثم يتبعه جواب الشرط المحذوف ويكون الجواب مضارعًا, كقوله ρ لعظيم الروم:"أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين "[1]، على تقدير أسلم فإن تسلِم تسلَم, وإن تسلِم يؤتك الله أجرك مرتين.

وتكرر قوله ρ : "أسلِم تسلَم " لمعظم الملوك الذين أرسل لهم.

وتجدر الإشارة إلى كثافة الأسلوب الشرطي في رسائلهρ, بحيث تشتمل الرسالة الواحدة على أكثر من جملة شرطية, بل إن بعض الرسائل بنيت من مطلعها إلى نهايتها على الشرط, كرسالتهρ إلى هرقل عظيم الروم[2]،وكتابه إلى يحنة بن روبة وسروات أهل أيلة[3].

3- التأكيد:

هو لفظ يراد به تثبيت المعنى في النفس وإزالة اللبس عن الحديث أو المحدث عنه"[4]، أي "إنه يمكن المعنى في نفس المخاطب, ويزيل الغلط في التأويل[5], ولا يؤتى به إلا لحاجة فإن كان المخاطب خالي الذهن ألقي إليه الكلام بدون تأكيد, وإن كان مترددًا فيه حسن تقويته بمؤكد, وإن كان منكرًا وجب توكيده[6].

وقد ورد التأكيد بكثرة في أدب الوفادة على رسول الله ρ وتعددت صوره, وسيتناول البحث أبرز أساليب التأكيد في هذا الأدب وهي:

- التأكيد بالحروف المؤكدة والقسم-بالقصر.
- التكرار.

---

1 الطبقات الكبرى، 285/1.
2 المصدر السابق نفسه.
3 المصدر السابق, 499/1- 500.
4 شرح جمل الزجاجي, 1/ 262 .
5 شرح المفصل, 40/3.
6 أساليب التوكيد في القران الكريم, 13/1.

التأكيد بالحروف المؤكدة والقسم:

يعد التأكيد بالحروف من أكثر مظاهر التأكيد في أدب الوفادة على رسول الله ρ, وقد تنوع استخدام المؤكدات الحرفية كـ إن المشبهة, وقد, ولام, التوكيد, ونونا التوكيد. ولعل لطبيعة هذا الأدب وما كانت تفرضه سياقات الخطاب دورًا بارزًا في ذلك, فقد عمد ρ إلى تلك الحروف؛ لتأكيد بعض أوجه الخطاب, ولاسيما إذا كان المخاطب مترددًا أو منكرًا, كما جاء القسم مقترنًا بحروف التوكيد في مواضع متعددة من أدبهم, ولذلك فسيقتصر البحث على ذكر ما جاء بأكثر من مؤكد في خطاباته.

ومن أمثلته ما يلي:

أ- في الخطاب النبوي:

1- إن + قد:

التأكيد بالحرف المشبه بالفعل (إن) الذي يفيد توكيد النسبة في الجملة الاسمية ونفي الشك عنها والإنكار لها[1]، ومنه قوله ρ للرجل المجذوم«إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَارْجِعْ»[2]، إذ جاء خبر الجملة الاسمية جملة صغرى, وتوزع التوكيد على جزأي الجملة الاسمية,من خلال دخول "إن"على الجزء الأول, ودخول "قد" على الجزء الثاني, فاجتمع المؤكدان ليمنحا النص قيمة جمالية, فضلاً عما منحاه من عمق الدلالة بتركيز التوكيد في الجملة الكبرى, وتكرر هذا البناء التأكيدي في قوله :" أما بعد فإنه قد أتاني ما صنعتم وإن من يجمل منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء"[3]، كما ورد في قوله ρ :"فإني قد أوصيت رسلي بكم "[4]، وجاء التوكيد بـ" إن وقد" في قوله ρ:" فإنّ إخوَانكم هؤلاءِ قد جاؤُونا تائبينَ"[5]، وقوله:"فإن الله قد هداكم بهداه "[6]،

1 أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ,237/1.
2 صحيح مسلم, 188/11.
3 تاريخ اليعقوبي ,82/2.
4 الطبقات الكبرى, 277/1-278.
5 صحيح البخاري, 810/2.
6 تاريخ اليعقوبي , 81/2.

ولتكرار دخول المؤكدات على جزأي الجملة في خطاباته ρ أثره الدلالي والنصي على حد سواء.

2- إنّ + لام التوكيد :

ورد التوكيد بإنّ ولام التوكيد في قوله ρ : "إنهم لمجبنة محزنة"[1]، إذ توزع المؤكدان "إن و لام التوكيد" على جزأي الجملة، مما منحها زيادة التوكيد.

3-القسم+ اللام+ نون التوكيد +التكرار:

جاء التوكيد بكثافة في بعض خطاباته ρ , فاستخدم أساليب عدة جمعها لتعطي دلالة أكبر, وتأكيدًا أكثر, فاستخدم القصر بإنما والقسم ولام التوكيد ونون التوكيد والتكرار, في قوله لعدي بن حاتم: "لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم"[2] ,ولعل لطبيعة موقف عدي بن حاتم وهو الفار من الله ورسوله, والمنكر لصدق الرسالة والبعثة النبوية, ما دعا النبي ρ إلى تكثيف المؤكدات لإثبات الحق ودحض حجة الخصم, لذلك لجأ ρ إلى القسم وكرره بجانب المؤكدات الأخرى، فحينما "تقع النفس في وجدان شعورها بشيء من استهانة المخاطب بأمر تهتم به تلجأ إلى التأكيد تقرر به الأمر , وتدفع عنه الريب, والقسم من وسائل التأكيد في ذاته, وكأنه قد يكرر من القسم بقدر ما يرى أنه استطاع الإقناع أو أربى"[3]

ب - في خطاب الوفود:

1 مسند الإمام أحمد, 276/6.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,287/2- 288.
3 التكرير بين المثير والتأثير, 11.

1- إنّ + لام التوكيد:

جاء التوكيد بـ إن ولام التوكيد في قول الوفد لرسول الله ρ :" إنا لنحبك، ومن أنت منه "[1]، ووردت كذلك في قول الوافد :" يا محمد! إن ربك لكريم "[2]، وقد جاء التركيب التأكيدي في هذه الخطابات كالتركيب في خطابات رسول الله ρ إذ دخلت المؤكدات على جزأي الجملة مما منح النص قيمته التأكيدية .

2- القسم + لام التوكيد+ نون التوكيد :

جاء القسم مع المؤكدات الأخرى كذلك في كثير من خطابات الوفود,وفي القسم "تتجلى قمة انفعال المتكلم وأعلى درجات التوتر"[3]،فيلجأ إلى القسم لإثبات قدرته في التهديد والوعيد, كما جاء في حوار عامر بن الطفيل مع رسول الله ρ بقوله: "أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً"[4].

3- القسم+إن +لام التوكيد:

وورد القسم مع إن ولام التوكيد كذلك لبث الشكوى وسوء الحال في قول بني مرة : "والله إنا لمسنتون "[5].

ولإثبات حقيقة ودحض شبهة في قول الوافد لرسول الله ρ :" فوالله إنني لببلد ما تبلغه جيوشك"[6].

التوكيد بالقصر:

---

1 الطبقات الكبرى, 1 /306.

2 المصدر السابق , 1/ 311.

3 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 276 .

4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,268/2.

5 المصدر السابق,282/2-283

6الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,1/ 342-343 .

القصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص, وهذا التخصيص يفيد تأكيد الكلام وتقريره في الذهن"[1]، وقد ورد القصر في أدب الوفود بصيغتين:

1- إنما :

لـ "إنما" دلالاتها الموحية التي تتضح من خلال اتساقها في النص ,وقد تعددت هذه الدلالات بجانب التوكيد في الخطاب النبوي الشريف , فجاءت لتوكيد التحذير في قوله ρ محذرًا من ضوال الدواب قائلاً للسائل: " إياكم وإياها! فإنما ذلك حرق النار"[2], كما أفاد القصر بإنما بيان حقيقة الصدقة وإزالة اللبس حولها في قوله ρ : "وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهله، وإنما هي زكاة يتزكى بها على فقراء المؤمنين وأبناء السبيل"[3], فيما أفاد توكيد النفي في قوله ρ مؤكدًا حقيقة نسبه لبني النضر ونافيًا نسبته لكندة" إنما ذلك شيء كان يقوله العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب ليأمنا باليمن معاذ الله أن نزنّي أمنا أو نقفوا أبانا نحن بنو النضر بن كنانة، من قال غير ذلك فقد كذب" [4].

واستعان ρ بالقصر بإنما للإقناع وتعليل الحكم, في قوله للرجل الذي طلبه الصدقة: " إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى جزأها على ثمانية أجزاء, فإن كنت جزءًا منها أعطيتك, وإن كنت عنها غنًّيا فإنما هو صداع في الرأس وداء في البطن"[5].

وورد القصر بإنما في أساليب الوفود, فجاء لدلالة التنبيه على أمر مجهول تنزيلا لا أصالة ,كقول الوافد منبها رسول الله ρ على عدم أحقية الإقطاع الذي وهبه للسائل قائلاً: "أتدري يا رسول الله! ما أقطعته إنما أقطعته الماء العد، فرجعه رسول الله ρ"[6],كما وردت

1 الإتقان في علوم القران, 49/2.
2 تاريخ الأمم والملوك, 2 /199.
3 المصدر السابق, 191/2 .
4 الطبقات الكبرى, 23/1.
5 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,289/2.

6 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع, 1171/4.

إنما لتأكيد وتخصيص صفات الرجولة بقول أشج عبد القيس :" إنه لا يستسقى في مسوك الرجال، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه؛ لسانه وقلبه"[1].

2- القصر بالنفي والاستثناء:

تكرر ورود القصر بالنفي والاستثناء في الخطاب النبوي الشريف, ولاسيما في مكاتباته في العهود والأعطيات وفي بعض حواراته, ويجيء القصر بالنفي والإثبات في أمر ينكره المخاطب ويشك فيه, أي إنه لا يأتي إلا في المعنى الذي يحتاج إلى توكيد وتقرير, وفي الحقائق الغريبة, والمعاني ذات النبرة العالية والنغمة الحاسمة, والتعبير الشديد[2]. وجاء القصر بالنفي والاستثناء بعدة صور على النحو الآتي:

أ- لم+المقصور+ إلا+ المقصور عليه :

استخدم ρ القصر بلم والاستثناء في حواره مع فروة بن مسيك المرادي وحديثهما عن يوم الرزم بقوله ρ :" لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا"[3], وكان لهذا القصر بالنفي والإثبات دلالة عميقة في نفس المتلقي, إذ خرج به ρ من واقع هزيمة قومه في ذلك اليوم المذكور إلى حقيقة مناقضة تمامًا لمعنى الهزيمة وهي الخير الذي وجدوه منها في الإسلام , بل إن القصر أعطى توكيدًا لمعنى الخير الحاصل دون غيره من المترتبات على الهزيمة, وبذلك تمكن -عليه الصلاة والسلام- من توجيه الشعور بالألم والبؤس إلى الشعور بالرضا والفخر.

ب- ليس+المقصور+إلا+المقصور عليه :

---

1 الطبقات الكبرى, 314/1-315.

2 دلالات التراكيب, 100/99.

3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,271/2.

وردت هذه الصيغة في كتابه ρ لمطرف الباهلي فيما تجب عليهم من زكاة قائلاً: " وفي كل خمسين من الإبل ثاغية مسنة وليس للمصدق أن يصدقها إلا في مراعيها"[1].

ج - لا النافية + المقصور+ إلا +المقصور عليه:

وردت هذه الصيغة في قوله ρ لأهل دومة الجندل:" ولا يؤخذ منكم إلا عشر الثبات"[2]، وفي قوله لبارق:" لا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسالة من بارق"[3]، واستخدمت صيغة النفي بلا في مقام ذكر الواجب في الزكاة في المثال الأول, فدل الاستثناء على عدم تعميم إعفاء أهل دومة الجندل من الزكاة مطلقًا, لكنها حددت بالعشر من الثبات, وفي المثال الثاني حددت ما يحق لبارق في مراعيها, ولعل المثالين اشتركا في الدلالة على الزكاة وما يجب للقبائل وما يجب عليها.

د- لا النافية+ المقصور+ إلا+ المقصور عليه:

ورد القصر بهذه الصيغة في قول الوفد سائلين عن الشراب "إنا بأرض وخمة لا يصلحنا فيها إلا الشراب"[4]، ويظهر من خلال القصر محاولة الوفد التأثير في رسول الله ρ لانتزاع الإباحة منه إذ نفوا صلاحية كل الأشربة لهم ماعدا الشراب الذي ذكروه.

4-التكرار:

التكرار في حقيقته إلحاح على جهة هامة في العبارة, يعنى بها أكثر من العناية بسواها, ويسلط الضوء على نقطة حساسة, ويكشف عن اهتمام المتكلم بها.[5]

ويرتبط التكرار أو" الترداد بالمثير النفسي والغاية النفسية أيضًا, فإن التكرار في أعلى صوره انبعاث وجداني, يفيض على السامع حرارة يتحرك لها قلبه, وإلا كان صورة باردة تفقد

1الطبقات الكبرى, 284/1.
2 المصدر السابق,288/1 .
3 المصدر السابق,286/1-287.
4 الآحاد والمثاني, 276/3-277.
5 قضايا الشعر المعاصر, 276

نبض الحياة "[1]، فضلاً عن أن التكرار"مثير للانتباه وداع للاهتمام بالشيء المكرر, ومن ثم يأتي التفاعل الشعوري والعاطفي والنفسي من قبل السامع مع المتحدث المكرر"[2].

وقد ربط النقاد بين ظاهرة الإعادة وبين "الحالة النفسية للشاعر ومقاصده في التعبير, وقد عرض الجاحظ هذه الظاهرة في الكلام الأدبي عامة, ولاحظ أن استجادة التكرار أو استقباحه يرجع قبل كل شيء إلى ما يتطلبه المقام من جهة المتلقي وليس من جهة المنشئ , فإذا استدعى الإفهام والإبلاغ أن يكرر شيء من الكلام كان ذلك حسنًا مرضيًا, لأن مدار البلاغة حسن الإفهام "[3]، فتكرار لفظة ما أو عبارة ما يوحي بشكل أولي بسيطرة هذا العنصر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره, ومن ثم فهو لا يفتأ ينبثق في أفق رؤياه من لحظة إلى أخرى, ..وتتراوح أشكال التكرار ما بين البسيط الذي لا يتجاوز تكرار لفظة معينة أو عبارة معينة بدون تغيير, وبين أشكال أكثر تركيبًا وتعقيدًا, يتصرف فيها الشاعر في العنصر المكرر بحيث تغدو أقوى إيحاء.[4]

"وللتكرار جانبان من الأهمية, فهو أولا يركز المعنى ويؤكده, وهو ثانيًا يمنح النص نوعًا من الموسيقا العذبة المنسجمة مع انفعالات الشاعر في هدوئه أو غضبه أو فرحه أو حزنه " [5].

وقد برز التكرار كملمح تركيبي بارز في إطار التوظيف الدلالي لأدب الوفادة, وكان لحضور هذه الفنية بمظاهرها المتنوعة أكبر الأثر في إثراء السياقات. وقد تمثلت فنية التكرار في ثلاثة أنواع رئيسة وهي:

1- تكرار حرف.
2- تكرار كلمة.

---

1 التكرير بين المثير والتأثير, 89-90 .
2 التكرار في شعر الخنساء, 27 .
3 العاطفة والإبداع الشعري 203.
4 عن بناء القصيدة العربية الحديثة, 58-59 .
5 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 264.

3- تكرار جملة.

وقد انبثقت من هذه الأنواع تلوينات متعددة للتكرار, كان لها دور في إبراز الأثر الجمالي والدلالي في هذا الأدب, والحق أن مسألة تصنيف أنواع التكرار في أدب الوفادة مسألة شائكة, إذ التكرار في أدبهم جاء بصور مترابطة, فيبدأ التكرار في النص بتكرار الحرف ثم الكلمة, ويتنامى تصاعديًا ليصل إلى تكرار الجملة والتكرار البنائي عامة على المستوى النحوي والتركيبي, وهذه ظاهرة جميلة خدمت نصوصهم على المستوى النغمي والمعنوي, بيد أني سأحاول التركيز في التصنيف على الشواهد التي تفردت بنوع واحد من التكرار مع الإشارة إلى ما تنوعت أساليب التكرار فيه في موضعه, ثم أتبع ذلك بالنصوص التي مثلت تداخل التكرار وتكثيفه في هذا الأدب.

1-تكرار الحروف:

تقدم الحديث عن تكرار الحروف في فصل التشكيل اللغوي ,من خلال الحديث عن الأصوات وتوظيفها في أدب الوفادة, وتبين ما تضمنه تكرار حروف معينة من إثارة جمالية منحت النصوص نوعًا من الإيقاع الفاعل على المستوى الدلالي والشكلي, وسيقتصر الحديث هنا على تكرار حروف المعاني التي ورد ذكرها مكررة في الخطاب الواحد كحرف الاستفهام (ما) في قوله ρ للوافد " ما أنت وما جاء بك وما حاجتك؟ "[1]، فالتكرار الاستفهامي على اختلاف مضامين الأسئلة أعطى الاستفهام لحمة وترابطًا , فضلاً عن تكرار العطف بالواو الذي أوحى بسرعة تتابع الأسئلة مع توحيد أهميتها. ومن صور تكرار حروف المعاني في البيان النبوي الشريف قوله ρ واصفًا زيد الخير:" ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأيته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد فإنه لم يبلغ كل ما فيه" [2] ، فكرر -عليه الصلاة والسلام- (إلا) الاستثنائية, منتقلاً بالاستثناء من العام إلى الخاص, بل كان من جميل تكراره أن كرر الحرف

---

1 الطبقات الكبرى, 1/ 305 .
2 الطبقات الكبرى, 1/ 321 .

(ما) مؤتلفًا لفظًا مختلفًا معنى, إذ استخدمه نافيًا في مطلع الخطاب, ثم انزاح هذا المعنى إلى الموصولية, مما أعطى النص نغمًا عاليًا موحدًا تنوعت فيه الدلالات. ويعضد تكرار الحروف في هذا النص ما سرى فيه من تكرار للكلمات ومن ثم تكرار الجمل مما أضفى توازنًا و تألقًا جماليًّا للنص.

وورد تكرار الحروف في خطابات الوفود كذلك فتكررت (لا) النافية في قول بني عبس: "إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش هي معاشنا فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا "[1]. فتكرار (لا) النافية أوحى بأهمية المنفي, والرغبة العميقة في التأكد من حقيقة هذا النفي إما بإقراره أو إثبات عكسه, وبرغم ورود التكرار بصورته البسيطة من خلال تكرار لا النافية، فقد انطلق التكرار في خطاب بني عبس من صورته البسيطة إلى صورة أكبر وأوسع بتكرار الجملة, مما يشير إلى "الباعث النفسي المتمثل في إعادة ما وقع في القلب, ولصق بالنفس, فاتجهت إليه همة المتكلم وعنايته" [2]، إذ غلب الجانب الديني على تفكير الوفد فركزوا على القضية التي أرادوا السؤال عنها, وجاء التكرار توكيدًا لأهمية هذه القضية.

2- تكرار الكلمات:

يقول غريماس: "ثمة ما يبرر للتكرار وجوده, أنه يسهل استقبال الرسالة " غير أن وظيفة التكرار لا تقف عند هذا الحد ذلك، لأنها تخدم النظام الداخلي للنص وتشارك فيه وهذه قضية هامة؛ لأن الشاعر يستطيع بتكرار بعض الكلمات أن يعيد صياغة بعض الصور من جهة, كما يستطيع أن يكثف الدلالة الإيحائية للنص من جهة أخرى "[3].

---

1 المصدر السابق، 295/1-296 .
2 التكرار في شعر الخنساء, 26 .
3 الأسلوبية وتحليل الخطاب, 79-80.

وقد كان لتكرار بعض الكلمات في خطابات الوفود أثره الدلالي العميق الموحي بسيطرة المكرر على ذهن المتكلم, ومن ثم محاولة التأثير به في المتلقي, من ذلك ما ورد في خطاب بني عبد عدي لرسول الله ρ إذ جاء فيه:" يا محمد! نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به , ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك, ولكنا لا نقاتل قريشًا وإنا لنحبك ومن أنت منه, فإن أصبت منا أحدًا خطأ فعليك ديته وإن أصبنا أحدًا من أصحابك فعلينا ديته، فقال: نعم! فأسلموا"[1]، إذ شكلت مادة قتل المحور في النص, فتكررت على المستوى الظاهر أربع مرات, وعلى مستوى الإضمار مرتين في قولهم "أصبت" وفي مفهوم "الدية" التي جاءت مكررة كذلك, وعليه كانت مادة القتل هي الكلمة "المفتاح" في النص[2], وكان لتكرارها ما أوحى بأهميتها وسيطرتها على نفوس الوفد, فالغالب أنّ المتحدث عندما يكرِّرُ أمرًا فهو يريدُ بهذا التكرار الإشارةَ إلى أهميّته والتنبيه عليه، أو تأكيده, بل لقد كان في تكرار الضمائر ما أكد مفهوم النص المتمثل في إبداء المسالمة التي انبثق معناها من خلال دوران مادة القتل, فورد ضمير المتكلم الجمعي المنفصل (نحن) مكررًا لتوكيد المبادرة بالمسالمة من الوفد ,كما تكرر كاف المخاطب لتخصيص الحديث مع الرسول ρ ومباشرته بالحوار. وكذلك كان خطاب وفد أشجع بقولهم: " وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك"[3]، فكانت الحرب هي مفتاح خطابهم ومحوره لذلك تكرر ورودها لتوكيد فكرة المسالمة.

وبرزت ظاهرة التكرار في البيان النبوي الشريف على اختلاف أنواعها, وكان لها بالغ الأثر الدلالي والنصي, ومن تكرار الكلمات في الخطاب النبوي ما جاء في كتابه ρ لبارق: " لبارق لا تجز ثمارهم ولا ترعى بلادهم في مربع ولا مصيف إلا بمسالة من بارق"[4]، فبدأ

---

1 الطبقات الكبرى, 1 / 306.
2 يقصد بالكلمات المفاتيح الكلمات التي يكون لها ثقل تكراري وتوزيعي في النص بشكل يفتح مغاليقه ويبدد غموضه"الأسلوبية الرؤية والتطبيق ,198 .
3 الطبقات الكبرى, 1 / 306 .
4 المصدر السابق 352/1.

الخطاب بذكر بارق, وأنهاه بذكرهم كذلك, مما أكد استحقاقهم بالحكم واختصاصهم بما ورد بين الكلمتين من نهي.

وتكثف تكرار الكلمات في الخطاب النبوي, ولاسيما في كتبه التي أعطى فيها الأمان أو العهود والمواثيق أو الهبات المادية, يشهد على ذلك قوله ρ:" وما كتب على المؤمنين من الصدقة من العقار عشر ما سقت العين,وما سقت السماء,وكل ما سقي بالغرب نصف العشر, وفي الإبل في الأربعين ابنة لبون, وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر وفي كل خمس من الإبل شاة, وفي كل عشر من الإبل شاتان, وفي كل أربعين من البقر بقرة وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة, وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة وإنها فريضة الله التي فرض على المؤمنين في الصدقة, فمن زاد خيرًا فهو خير له, ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فإنه من المؤمنين, له مالهم وعليه ما عليهم , وله ذمة الله وذمة رسوله, وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني فإن له مثل ما لهم, وعليه مثل ما عليهم ,ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها, وعليه الجزية على كل حالم ذكر أو أنثى حر أو عبد دينار واف أو قيمته من المعافر أو عرضه ثيابًا, فمن أدى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمة الله وذمة رسوله, ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله, أما بعد فإن رسول الله محمدًا النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن أن إذا أتتكم رسلي فأوصيكم بهم خيرًا , معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وأصحابهم وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفيكم وبلغوها"[1], فهذا النص قام في جملته على التكرار إذ اعتمد ρ التقسيم بتكرار الأعداد والموازين وما تجب فيه الصدقات من البهائم؛ لينتقل من ذلك إلى عقد معاهدة مع المؤمنين وغيرهم ممن التزم بما جاء في الكتاب مكررًا كلمة "ذمة" مضافة مرة إلى نفسه, ومرة إلى الله -عز وجل-, مما يؤكد هذا الميثاق, فضلاً عن تكرار لفظ الجلالة الذي أعطى النص هيبته وتأثيره, ولفظ الرسول ρ مما منح النص قيمته وتأكيده .

1 تاريخ الأمم والملوك, 191/2 .

وكان للتكرار حضوره البارز في مقام الدعاء والابتهال لله -عز وجل-, وتكرر النداء المتضرع لله في قوله ρ: "اللهم اكفنيهما, اللهم واهد بني عامر, وأغن الإسلام عن عامر" [1].

وألح -عليه الصلاة والسلام- في طلب السقيا من الله -عز وجل- بقوله: " اللهم أسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مريئًا مريعًا مطبقًا واسعًا عاجلاً غير آجل نافعًا غير ضار، اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء"[2]، فسيطر لفظ السقيا في دعائه وجاء مكررًا باختلاف استعماله بين الفعل الأمر (اسقنا) والمصدر (سقيا)، ومثلت هذه الكلمة مفتاح الدعاء ومحوره فيما أوحى تكرارها بالإصرار وعمق الابتهال للخالق -عز وجل .

وكان لهيمنة بعض المعاني على الخطاب النبوي تأثير في تكرار ما يتعلق بها لتكون هي محور النص, تمثل ذلك جليًا في كتابه ρ إلى أحد الملوك مؤكدا احترام مبعوثيه وإكرامهم ,لذلك تكررت الكلمات الدالة على ذلك في قوله: "فأسلم أو أعط الجزية وأطع الله ورسوله ورسل رسوله, وأكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة العزاء, واكس زيدًا كسوة حسنة, ومهما رضيت رسلي فإني قد رضيت, وقد علم الجزية, فإن أردتم أن يؤمن البحر والبر فأطع الله ورسوله, ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله ورسوله ,وإنك إن رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منك شيئا حتى أقاتلكم فأسبي الصغير وأقتل الكبير, فإني رسول الله بالحق أومن بالله وكتبه ورسوله والمسيح بن مريم أنه كلمة الله, وإني أومن به أنه رسول الله, وآمِن قبل أن يمسكم الشر, فإني قد أوصيت رسلي بكم, وأعط حرملة ثلاثة أوسق شعير, وإن حرملة شفع لكم وإني لولا الله وذلك لم أراسلكم شيئًا حتى ترى الجيش, وإنكم إن أطعتم رسلي فإن الله لكم جار ومحمد ومن كان معه"[3]. فالتكرار هنا جاء منطلقًا من هيمنة المعنى والرغبة في توكيده, فكرر عليه الصلاة والسلام مادة (رسل) وكانت هي مفتاح النص, ثم تلاها تكرار كل ما يتعلق

---

1 الطبقات الكبرى, 1/310-311 .

2 المصدر السابق, 1/297.

3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 499.

بهؤلاء الرسل من كسوة جاءت مؤكدة بالتكرار منتقلاً بها -عليه الصلاة والسلام- من الاسمية إلى الفعلية مما منح النص تجددًا وإثارة منعت من الرتابة, كما أعطى النص قيمته وهيبته بتكرار لفظ الجلالة (الله) لينهي خطابه بالتأكيد على حق مبعوثيه بتكرار قوله(رسلي) مضيفًا إياهم لنفسه ρ, وكان لهذه الإضافة دور بجانب التكرار في توكيد مكانة هؤلاء الرسل وأهميتهم.

وكما كان للأسماء حضور في ظاهرة تكرار الكلمات, فقد تكررت الضمائر كذلك في خطابات الوفود, وتنوعت بين ضمائر متصلة ,ومنفصلة, وضمائر خطاب وتكلم وغيبة, وكان لضمير الجماعة (نحن) حضور متكرر في خطابات بعض الوفود ,رغبة منهم في توكيد معاني الفخر والدلالة على التفخيم والتعظيم, كما في خطاب عذرة"نحن إخوة قصي لأمه ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة"[1]، كما تكرر الضمير" نحن "في خطاب بني عبد عدي [2] رغبة في توكيد اختصاصهم بمسالمة النبي والانقياد له, وتكرر ضمير الغائب كذلك للتركيز على الاختصاص كقول الوفد: "إن الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته وإنه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله, وإنه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردها على فقرائنا " [3]، فتكرر الهاء الضمير المتصل بـ (إنّ) أسهم في تقوية خصوصية الضحاك بذلك الحكم. أما بنو عامر فقد سيطر ضمير الخاطب المنفصل (أنت) على خطابهم[4]، وتردد خمس مرات موجها إلى رسول الله ρ مما دل على اهتمامهم بالمخاطب وهيمنة حضوره على المستوى الذهني ثم الخطابي.

3- تكرار الجمل:

---

1 الطبقات الكبرى, 1 /331-332 .
2 الطبقات الكبرى, 306/1 .
3 المصدر السابق,300/1 .
4 مسند الإمام أحمد,4/ 603.

"إن تكرار الجملة هو الملمح الأسلوبي الأكثر بروزًا لتلاحم النص, فهو يدخل في نسيجه لحمة وسدى, ويشد أطرافه بعضها إلى بعض, ويعطي شكله نوعًا من الحركة يدور فيها الكلام على نفسه ويتكرر دون أن يعيد معناه.. فإن هذا يكون أول دلالة على تحقق أسلوب تكرار الجملة في تأدية المقصود منه, أي في شد الانتباه, وتمييز النص إزاء نصوص أخرى, وإعادة خلق الواقع لا على أساس الموجود في أعيننا فقط, ولكن –أيضًا- على أساس الموعود في النص قولاً " [1].

وقد كان لتكرار بعض الجمل في الخطاب النبوي الشريف دلالات وإيحاءات عميقة ساهمت في إعادة خلق الواقع وتغيير المفاهيم لدى المتلقي, ونقله من حالة إلى أخرى, ومن قناعة إلى أخرى, وقد ساهم التكرار الموجود في تثبيت المعنى الموعود في صياغته ρ عندما سأله رجل من مذحج قائلاً : "يا رسول الله! أرأيت من رآك وآمن بك واتبعك وصدقك ماذا له؟ قال: "طوبى له". قال: فمسح على يده وانصرف، ثم أتاه الآخر حتى أخذ بيده ليبايعه فقال: يا رسول اللهَ! أرأيت مَن آمن بك واتَّبعك وصدَّقك ماذا له ؟ قال: "طوبى له ، ثم طوبى له".[2]

كما كان للتكرار أثر تحذيري أسهم في تهدئة الأشعث بن قيس واستثارة مشاعره والعدول بها من الرفض إلى القبول والرغبة, من خلال حديثه مع رسول الله ρ إذ قال له: " هل لك من ولد؟ قلت: غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة جد، ولوددت أن مكانه شبع القوم. قال: «لا تقولن ذلك فإن فيهم قرة عين، وأجرًا إذا قبضوا ثم ولئن قلت ذاك إنهم لمجبنة محزنة، إنهم لمجبنة محزنة»[3]. فجاء توكيد قيمة الذرية بالتكرار وبالمؤكدات المتتابعة, مما منح النص الشريف أهمية بالغة أعطت المعنى قيمة دلالية عظيمة, ومؤثرة تأثيرًا ممتدًا, فضلاً عن اتصال التكرار مما أسهم في تثبيت المعنى المراد في الذهن.

---

1 الأسلوبية وتحليل الخطاب, 84-85.
2 مجمع الزوائد ومنبع الفوائد, 3/ 266.
3 مسند الإمام أحمد,6/ 276.

وجاء تكرار الجملة في مواضع أخرى من خطابات الوفود تكرارًا منفصلاً من خلال إعادة التركيب الإنشائي المكثف بالنداء والدعاء والاستفهام بغرض التودد والتقرب من المتلقي وهو رسول الله ρ في قول وفد عبد القيس لما أتوا نبي الله ρ فقالوا :"يا نبي الله! جعلنا الله فداءك ماذا يصلح لنا من الأشربة ؟ فقال: لا تشربوا في النقير. قالوا: يا نبي الله! جعلنا الله فداءك أو تدري ما النقير؟ قال: نعم ! الجذع ينقر وسطه, ولا في الدباء ولا في الحنتمة، وعليكم بالموكى"[1].

وانبثق عن تكرار الجمل في أدب الوفادة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تقنيات أسلوبية متعددة للتكرار, ساهمت في إعلاء الإيقاع اللغوي للنصوص بتوليد موسيقية عالية, فضلاً عما ولّدته من دلالات أسهمت في تكثيف المعاني, وكان من أبرز صور التكرار الذي يعد ظاهرة في أدب الوفادة على رسول الله ρ تكرار الصيغة أو التكرار البنائي النحوي, كتكرار الشرط في قوله ρ: " أما ما ذكرتم من مسيركم إلي فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة, وأما قولكم زائرين لك فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة"[2] , وكذلك التكرار في قوله -عليه الصلاة والسلام- لنجران :" فإن أبيتم فالجزية وإن أبيتم آذنتكم بحرب "[3]، فتكرار صيغة الشرط أعطت عنصر المفاجأة وأكدت المعاني المطروحة من خلال العطف الذي أوحى باشتراك الجملتين في الأهمية والتوكيد.

وبرز تكرار البناء الشرطي كذلك في بعض خطابات الوفود كذلك[4].

ويتداخل التكرار في الخطاب النبوي العظيم منطلقًا من تكرار الحروف على المستوى الأصغر, مرورًا بتكرار الكلمات فالجمل حتى الوصول إلى المستوى الأكبر وهو تكرار البناء النمطي أو النحوي, فكأن النص كل متكامل لا تنفك لحمته, وكل سابق يشير إلى اللاحق في

---

1 صحيح مسلم, 48/1 .
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,283/2 .
3 تاريخ اليعقوبي ,2/ 81 .
4 الطبقات الكبرى, 1/ 342-343.

قوله ρ لنجران:" أما بعد! ذلكم فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد " فعلى المستوى الحرفي تكررت الكاف والعين , وعلى مستوى الكلمات تكررت العبادة ولفظ الجلالة والولاية, وعلى مستوى الجمل تكرر الفعل أدعوكم, أما على المستوى التركيبي فقد تكررت الصيغة كاملة، مما أعطى النص أهمية وتأكيدًا لما تضمنه.

وبرز هذا النوع من التكرار المتداخل كذلك في خطاب وافد هوازن, بقوله لرسول الله ρ:" ولقد رأيتك مرضعًا فما رأيت مرضعًا خيرًا منك ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك, ثم رأيتك شابًّا فما رأيت شابًّا خيرًا منك"[1]، فهذا التكرار المنبعث من أصغر وحدة وهي الحرف إلى أكبر وحدة متمثلة في التركيب, عزز شعور الاسترحام والاستعطاف الذي انطلق منه خطاب الوافد, فضلاً عما ألقى به من ظلال أوحت بالمهادنة والانقياد والتماس العفو من الرسول ρ من خلال وصفه بالخير في تسلسل الزمني انطلق من الطفولة حتى الشباب, مما يؤكد ترسيخ صفات الخير والكمال للنبي ρ وتدعيمها بما يضمن للمتكلم بلوغ عفوه وصفحه.

وتنوع التكرار التركيبي أو النمطي في الخطاب النبوي الشريف, وكان من جميل ذلك التنوع أن يكرر الصيغة مع اختلاف اللفظ والمعنى في كل مرة, كقوله في كتابه إلى لصوص وعبيد تهامة: "ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها, وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم, وما كان لهم من دين في الناس رد إليهم "[2].

فتكررت "كان " وشبه الجملة التي بعدها مع اتفاقها في الصيغة، بيد أنه قد تعددت الدلالات فـ(منهم) دلت على النسبة، و(فيهم) دلت على الاختصاص، أما (لهم) فدلت على الملكية, ومع ثراء الدلالات وتعددها إلا أنها كلها جاءت مؤكدة الحكم للجماعة الذين كتب لهم ρ الخطاب.

---

1 الطبقات الكبرى, 114/1-115.
2 الطبقات الكبرى, 278/1.

وظهر هذا النوع من التكرار في خطاب ضمام بن ثعلبة بتكرار عبارة واحدة بنى عليها كل أسئلته, وانطلقت منها معانيه بقوله :" أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله" [1]، لينطلق من هذا التركيب إلى السؤال عن قضايا متعددة يأخذ بعضها برقاب بعض, في لحمة متماسكة أدى إليها التكرار الذي دل على اشتراكها في القيمة والأهمية, فالتكرار الاستفهامي في هذا التشكيل الدلالي يوحي بأهمية كل ما استفهم عنه, إذ تكرر النمط الاستفهامي؛ ليشكل تفرعًا دلاليا في كل مرة، ليلتقي في الدلالة الأكبر وهي حقيقة دعوة محمد ρ.

5-التقديم والتأخير:

يعد ترتيب الكلام من أبرز عناصر التحويل وأكثرها وضوحًا, وما يحدث من تقديم أو تأخير يكون بناء على ترتيب المعاني في النفس.[2]

وقد اهتم النحويون والبلاغيون بظاهرة التقديم والتأخير على حد سواء, واختلفت النظرة إليها وفق منطق كل منهما, فالنحاة يدرسون التقديم والتأخير للكشف عن الرتب المحفوظة الثابتة والرتب المتغيرة في الجملة, أما البلاغيون والأسلوبيون فغايتهم من دراسة التقديم والتأخير الكشف عن قيمته الدلالية والنفسية في العمل الأدبي.[3] وأشار سيبويه إلى أهمية التقديم والتأخير وأثره في المعنى, وكيف أن العرب تقدم ما هو أهم وما هم أعنى

1 تاريخ الأمم والملوك, 192/2-193 .
2 في نحو اللغة وتراكيبها "منهج وتطبيق", 88 .
3 الأسلوبية الرؤية والتطبيق, 190- 191 .

ببيانه[1]. أما الجرجاني فأشار إلى أن الألفاظ تقتفي في نظمها أثار المعاني, ويأتي ترتيبها بحسب ترتيب المعاني في النفس[2].

وللتقديم والتأخير أهمية بارزة في مجال النثر تفوق أهميته في الشعر إذ أن" تراكيب الشعر أكثر حرية في تأليف كلماتها من حيث التقديم والتأخير, وذلك ناشئ عن قصد التوفيق بين وزن الشعر وحركات العبارة, فتبدو الجمل في نظام غير طبيعي ,على أن شيئًا من ذلك قد يكون لغرض معنوي أو فني كالقصر أو التفاؤل, أما النثر فلا يخرج نظم الكلام فيه عن الأصل إلا لباعث معنوي"[3]، وقد أسهم التقديم والتأخير بالانزياح بنظام الجملة عن ترتيبها المألوف في أدب الوفادة على رسول الله ρ إلى مستويات وتراكيب أخرى في توليد دلالات متعددة, وتجديد نشاط المتلقي, من خلال العدول باللغة عن مسار الجمود والاعتياد المألوف إلى المغايرة, مما أسهم في خلق بنى جمالية ودلالية لم تكن لتتحقق بالنمط المألوف.

والمتتبع لصور التقديم والتأخير في أدب الوفادة على رسول الله ρ يجد أنه ورد بظواهر متعددة كتقديم المسند على المسند إليه, وتقديم خبر إن على اسمها, وتقديم متعلقات الفعل الأخرى كتقديم الجار والمجرور, والظرف, والحال على صاحبها, وغيرها مما لا سبيل إلى حصرها في هذه الدراسة التي ستكتفي بالوقوف على أبرز المعاني البلاغية و اللفتات الجمالية التي أفادها التقديم والتأخير .

وكان من أبرز مظاهر التقديم في أدب الوفادة على رسول الله ρ تقديم الخبر على المبتدأ –المسند على المسند إليه-، ومما لاشك فيه أن التقديم والتأخير يعبران عن حالة بلاغية تؤثر في شكل البنية الإسنادية, ولا يقدم أو يؤخر عنصر من عناصرها إلا عندما يكون ذلك

---

1 الكتاب, 34/1 .
2 دلائل الإعجاز, 40 .
3 الأسلوب, 69.

التقديم محكومًا بشروط شكلية أو دلالية تمنح النص معاني أعمق وأبعد, وإلا كان التقديم عيبًا، إذ كل ما يخرق عرف الجملة العربية ويعيد ترتيبها لابد أن يكون جديرًا بتوليد الدلالات وإثارة الانتباه والإتيان بما هو جديد على أحد المستويين الشكلي أو الدلالي أو كليهما معًا, فتقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ في قوله ρ للجارود:" فيك خصلتان يحبهما الله"[1] أعطى الجارود ميزة الاختصاص بهاتين الصفتين, فضلاً عن تأكيد تلك الأحقية التي كان للتقديم فيها دور لتفرده بها, إذ لو قال ρ :" خصلتان فيك" لسمح التعبير بالعطف والاشتراك مع غيره, بيد أنه ρ أكد تلك الاستقلالية التي أعطت المعنى بعدًا دلاليًا عميقًا, فضلاً عن تلك المكانة العظيمة التي أشار إليها ρ. وفي مقام آخر يأتي كذلك تقديم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ, بيد أنه هذه المرة جاء في أحد كتبه ρ في العطاء قائلاً:" " لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل على الجارية العشر وعلى الغائرة نصف العشر"[2].

فتوالي الانزياح بالبناء النحوي في هذا النص لأربع مرات متتاليات كان له دور بارز في إثراء المعاني, والدقة في الوصول إلى أعمق الدلالات, إذ في تقديم الجار والمجرور في قوله ρ : "لنا" و"لكم" ما دل على اختصاص الفئتين بما سيحدده الإسناد دون مشاركة طرف آخر في ذلك الاختصاص, وقد جاء تأكيد ذلك من خلال تقديم ما هو أهم في البناء الدلالي من خلال الانزياح عن قاعدة البناء النحوي للجملة, وينتقل ρ من أهمية المتحدث – لنا- والمخاطب- لكم- إلى أهمية مترتبة على ما سبق وهي الزكاة , فيأتي ρ بتحديد ما تجب فيه الزكاة مقدما على النصاب, وفي هذا استدراج لذهن السامع إذ في تقديم ما تجب فيه الزكاة تمهيد لما سيأتي من حكم بعدها.

---

1 الطبقات الكبرى, 1/ 314- 315 .
2 الطبقات الكبرى, 335/1.

كما عني ρ بتقديم ما هو أشد أثرا في المتلقي؛ لذلك جاء في خطابه لكسرى بعد أن دعاه إلى الإسلام:" فإن أبيت فعليك إثم المجوس"[1] مؤكدًا اختصاصه - ليس بإثمه فحسب بل- بإثم المجوس كافة, مما أعطى الكتاب أهميته الدلالية فضلاً عن التركيبية ,وورد هذا الاختصاص في تركيب بنائي آخر من خلال تقديم خبر إن على اسمها مع الاحتفاظ بالدلالة ذاتها في قوله ρ لهرقل: "فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين"[2]، فقد آثر ρ أن يقدم شبه الجملة التي تحوي الضمير الذي يعود على الحاكم ؛ لأن المعنى المحوري الذي يصوب سهمه نحوه هو هذا الحاكم الذي سيؤدي إسلامه وامتثاله بما في كتابه ρ إلى إسلام رعيته وامتثالها، فجاء تقديم خبر إن(شبه الجملة) على اسمها .

وكان للتقديم سر بلاغي فضلاً عن التأثير الصوتي الذي منح النص قوة وجمالاً.

ولأن الجملة الشرطية جاءت اسمية ففي ذلك زيادة للتأكيد؛ لأن الجملة الاسمية تدل على الثبات والاستمرار الذي سيلازم المخاطب وهو الحاكم, وسيضيف إليه آثام كل من سيتبعه من أمته.

ولمقام الاسترحام وطلب العفو أثره في التركيب البنائي للجملة كذلك, إذ عمد وافد هوازن إلى تقديم الخبر على مبتدئه في قوله: "يا رسول الله ! إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك" [3]. إن مشهد الحظائر بما يوحي به من معاني الأسر والهوان, وما يرتبط به من مخاوف, وما ينتابه من نهايات مجهولة المعالم, قد سيطر على الحالة النفسية والشعورية لدى المتكلم، مما جعل (الحظائر) محور النص ومنطلقه, وباعثًا للعدول بنظام الجملة الذي لم يكن سوى وسيلة للعدول بالواقع الذي تعيشه تلك النسوة من الأسر إلى الحرية. ولاسيما أنه عطف على المسند إليه مما يؤكد صعوبة حاله, فتأخير المسند إليه (عماتك..) أكد كذلك صعوبة حالهم وبؤسهم ففائدة التأخير هنا لم تقل أهمية عن فائدة التقديم.

---

1 المصدر السابق,2/ 309.
2 المصدر السابق, 305/2.
3 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,173/2.

ولعل الجار والمجرور من أبرز ما لوحظ تقديمه في الخطاب النبوي أو خطابات الوفود على حد سواء, وورد تقديمه -فضلاً عن كونه مسندًا- في مواضع عدة من أبرزها الفصل بين الفاعل والفعل في قوله ρ:" فإنه لا يأتيكم في عامكم هذا شيء تكرهونه" [1]، فتخصيص هذا العام بالحكم فرض تقديمه للأهمية والتأكيد, كما فصل بين الفاعل وعامله بالجار والمجرور، وكذلك تقديم الجار والمجرور على المفعول به, إذ فصل بين المفعول به والعامل فيه, في قول عامر بن الطفيل مهددا المصطفىρ: "لأملأنها عليك خيلاً ورجالا"[2]، فاهتم بتوكيد وقوع الوعيد على شخص النبي ρ ، لذلك قدم ضمير المخاطب المجرور على المفعول به, يقول عبد القاهر الجرجاني:" وذلك أن شان من تعده وتضمن له أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به , فهو أحوج شيء إلى التوكيد"[3].

ويأتي تقديم أشباه الجمل بعضها على بعضها للأهمية, كما في قول الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري لرسول الله ρ " نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا " [4]، إذ فصل بين شبه الجملة (لنا)، و"مجلسًا" ، وقدم الجار والمجرور "منك"على المفعول به مجلسًا؛ لتأكيد أهمية حصول هذا الفعل من الرسول ρ بنفسه, لأن تقديمهم أدعى في إعلاء منزلتهم, وإبراز شأنهم ,كما كان من الممكن الاستغناء عن الجار والمجرور (لنا) الثانية, ويكون التقدير تعرف العرب به فضلنا, إلا أن الاهتمام بتثبيت أهميتهم في نفس المخاطب وهو رسول الله ρ دعاهم إلى تأكيد شبه الجملة وتقديمه ثانية.

كما تقدم الجار والمجرور على متعلقه في قوله ρ :"ومن أكل ربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة"[5]، والأصل فذمتي بريئة منه, بيد أنه قدم الجار والمجرور على الخبر لتخصيص آكل الربا دون غيره ببراءة الرسول ρ منه, وتأكيد خطورة ذلك الفعل وجزاء فاعله. ومثله ما

1 الطبقات الكبرى, 308/1.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,268/2.
3 دلائل الإعجاز, 83 .
4 المصنف في الأحاديث والآثار, 75.
5 الطبقات الكبرى, 287/1-288 .

ورد فـي قولـه ρ لخثعم: "كل دم أصبتموه فـي الجاهليـة فهو عنكم موضـوع"[1]، فقدم الجـار والمجرور على متعلقه لإفادة التوكيد واختصاصهم بالعفو.

وورد تقديم الحال على العامل وعلى صاحبها في قوله ρ لوافد عنس:" أراغبًا جئت أم راهبًا"[2]، فعني النبي ρ بهدف المجيء وحقيقته أكثر من فعل المجيء ذاتـه؛ لذلك قدمـه لدلالـة الأهمية والتأكيد.هذا فضلاً عن دلالة تقديم الرغبة دون الرهبة من جانب, وكون المرغوب فيـه (المال) مقدمًا على الجـائي (وافد عنس ومـا هو عليـه مـن الضـلال والكفر)، فلكل من التقديم والتأخير دلالته هنا.

ولعل المقتضى العام الذي انتظم هذا التقديم في مجمل الأمثلة هو التخصيص والتأكيد, وجعل الطاقة التعبيريـة تتوجـه إلـى هذا القيد قبل أن يذكر مـا بعده لأهميتـه ولتضـخيم الدلالـة وتقوية المعنى بتوجيهه وجهة على غير المعتاد, مما يثير يقظة من نوع جديد ومثير يخرج عن الرتابة في تحميل الجملة للمعنى.[3]

6- الوصل والفصل:

الوصل والفصل باب دقيق المسلك بحث فيه القدماء وعنوا بالكشف عن أسراره حتـى عده بعضهم البلاغة ذاتها، إذ يعرف العسكري البلاغة بأنهـا: "معرفـة الفصـل مـن الوصـل"[4]، والوصـل بـين المتلازمـين أمـر واجـب الحفـاظ عليـه, التزامًـا باتسـاق الخطـاب نحويًّـا إلا أن لـه خطره وأهميته فلابد من إتقان أدواته وإلا كان عيبًا علـى المتحـدث فهو: " فن عظيم الخطـر,

1 الطبقات الكبرى,286/1.
2 المصدر السابق342/1.
3 الأسلوبية الرؤية والتطبيق 277.
4 الصناعتين, 497 .

صعب المسلك, دقيق المأخذ, لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتي في فهم كلام العرب طبعًا سليمًا, ورزق في إدراك أسراره ذوقًا صحيحًا"[1].

ومحاسن الوصل والفصل لا تكاد تختلف عن محاسن الأساليب الأخرى إلا في درجة الخفاء والظهور، فما يكون ظاهرًا في بعض الأساليب قد يكون خفياً في أساليب أخرى، فالغرابة على سبيل المثال تكاد تفارق الأساليب البلاغية وصورها الفنية، ولكن بتفاوت ، وفي الوصل والفصل وبخاصة في الجمل التي لا محل لها من الإعراب، فإن الغموض يزداد حدّة وتأثيرًا؛ لأن التباين يسكن البنية العميقة لتلك الجمل ولاسيما في حالة الوصل، حيث يكون التباين متلاحمًا مع التشاكل في البنية السطحية، لهذا يمكن القول بأن الجمال أحيانًا قد لا يكون كمالاً، وإنما قدرة ثابتة على خلق الحالة الكاملة، وهي اتحاد النشاط مع الراحة[2]، والوصل والفصل وسيلة من وسائل إبراز الجمال مع غيره من الأساليب، وله أدوات، ، وطرق لأداء وظيفته, وفي ذلك كله يراعى -دائمًا- إثارة عقول المخاطبين بمختلف درجات استيعابهم, وإثارة أنفسهم بمختلف نزعاتها وميولها،.هادفًا إلى تحقيق غاية جمالية يسمو إليها، لأنه يحرص على أداء الفكرة في وضوح لا لبس فيه لتصل إلى المخاطب جميلة وجلية .

وتعددت مواضع الوصل والفصل في أدب الوفادة على رسول الله ρ, وكان لحضور كليهما دلالات عميقة ولاسيما في الخطاب النبوي الذي تفرد بلمحاته البلاغية, فأدى الفصل والوصل في مواضعه دورًا دلاليًّا فاعلاً , فضلاً عن الدور النصي الجمالي.

ويمكن الوقوف على بعض أمثلة الفصل والوصل في هذا الأدب على النحو الآتي:

أ- الوصل :

1 بغية الإيضاح, 63/2 .
2 النقد الجمالي وأثره في النقد العربي,33.

برز الوصل في خطابه ρ لأساقفة نجران بعد دعوتهم إلى لإسلام قائلاً: "فإن أبيتم فالجزية وإن أبيتم آذنتكم بحرب والسلام"[1]، فوصل الجملة الشرطية الأولى بالثانية لاشتراكهما في البناء النحوي, فضلاً عن أن الجملتين مشتركتان في الدلالة, فكلتاهما عقوبة مترتبة على عدم الانصياع لأمره ρ.

ومما يزيد الوصل حسنا توافق الجملتين في الاسمية والفعلية, وفي المضي والمضارعة "[2]، وقد اجتمع ذلك في قول بني الحارث بن كعب مفاخرين بأمهم: "إن أمنا مليكة بنت الحلو كانت تفك العاني, وتطعم البائس, وترحم المسكين"[3].

وفي مقام التفاخر يبرز الوصل وسيلة لتعميق الدلالة, فيتكرر ضمير المتكلم المنفصل "نحن" بما يوحي به من تفرد وتميز , ويأتي معطوفًا على ما قبله لتعداد الصفات التي اكتسبت من الواو العاطفة سمة المغايرة والاستقلال, جاء بها المتحدث لتناسب مقام الفخر بما يشعر أن كل صفة من هذه الصفات استقلت بنفسها واكتملت للمتكلم. يقول بنو عذرة: " نحن إخوة قصي لأمه ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة"[4] .ومثلهم وفد بني عبد بن عدي: " نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به ونحن لا نريد قتالك "[5]، كما تمثل ذلك الوصل في خطاب خولان فأكدوا تمام صفات الالتزام بما جاء به -عليه الصلاة والسلام بقولهم-: " نحن على من وراءنا من قومنا, ونحن مؤمنون بالله -عز وجل- مصدقون برسوله"[6].

ب- الفصل :

ورد الفصل قرينا للوصل في خطابات الوفادة, ومما تجدر الإشارة إليه أنه قلّ أو ندر أن يأتي خطاب كامل بالفصل دون الوصل, وإنما تعانق الأسلوبان ليتولد عنهما دلالات عميقة

1 تاريخ اليعقوبي, 2/ 81 .
2 علم المعاني, 203.
3 الطبقات الكبرى ,1/ 325 .
4 الطبقات الكبرى,1 /331 .
5 المصدر السابق, 1 /306 .
6 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,283/2.

ومتجددة, ساهمت في تجدد النشاط الذهني للمتلقي فضلاً عن تنوع النبر والأثر الصوتي في النص. ومن المواضع التي انفرد بها النص بأسلوب الفصل قوله ρ:" مرحبًا بكم وأهلاً, ما أعرفني بكم, ما منعكم من تحية الإسلام" [1]، فبالرغم من اتفاق الجملتين في الاستفهام الإنشائي إلا أنهما جاءتا منفصلتين لاختلاف المعنى العميق فيهما ,إذ جاء الاستفهام الأول مؤكدًا ومثبتًا معرفته ρ للوفد على سبيل المدح وإعلاء الشأن, فيما جاء الاستفهام الثاني منكرًا بالسؤال عن سبب الإعراض عن إلقاء تحية الإسلام والتمسك بتحية الجاهلية. وفي مثل هذا السياق يأتي فخر عطارد بن حاجب في قوله:" فمن مثلنا في الناس! ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟"[2]، فاتفقت الجملتان استفهاماودلالة,حيث جاءت الثانية مؤكدة للأولى, فجاءتا بعكس ما جاء في النص النبوي الشريف, إذ دلت الأولى على إنكار وجود الند والنظير لهم, أما الثانية فجاءت مثبتة تزعمهم ورئاستهم على الناس أجمعين" وتجميل الأسلوب يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب , وحسب نوع الخطاب مكتوبًا كان أو شفويًّا حواريًّا , يجب أن لا ننسى أن لكل نوع خطابي أسلوبًا خاصًّا يليق به, فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات... ولابد من معرفة كليهما, وأسلوب الكتابة أدق وأسلوب الحديث أشد حركة وتنازعًا "[3].

وقد لوحظ أن الرسائل التي بعث بها ρ كانت أكثر تكثيفًا في التبادل الفصلي والوصلي في بناء الجمل, ومن ذلك كتابه ρ إلى أسيحت صاحب هجر قائلاً: "إنه قد جاءني الأقرع بكتابك وشفاعتك لقومك, وإني قد شفعتك وصدقت رسولك الأقرع في قومك ,فأبشر فيما سألتني وطلبتني فيما تحب, ولكني نظرت أن أعلمه أو تلقاني, فإن تجيئنا أكرمك, وإن تقعد أكرمك .أما بعد! فإني لا أستهدي أحدًا وإن يهد لي أقبل هديته, وقد حمل عمالي مكانك وأوصيك بأحسن الذي أنت عليه من الصلاة والزكاة وقرابة المؤمنين, وإني قد سميت قومك بني عبد الله فمرهم

1 الطبقات الكبرى,1 /331 .
2 تاريخ الأمم والملوك, 188/2 -189.
3 في بلاغة الخطاب الإقناعي, 88.

بالصلاة وبأحسن العمل والبشر,والسلام عليك وعلى قومك المؤمنين"[1]، فبدأ الكتاب بالوصل بين الجملتين الخبريتين "إنه قد جاءني" و"إني قد شفعتك" لاتساقهما نحويًّا, والعطف بينهما بالواو التي تمنح الاشتراك في الحكم, فالواو أوحت بمشاركة مجيء الرسول مع منح الشفاعة منه ρ مشاركة زمنية ,مما يدل على سعة الاستجابة من قبل رسول الله ρ, ويتكثف الوصل من خلال تضمين الجملة المعطوفة على العطف الداخلي في قوله:"شفعتك وصدقت رسولك" لتوافقهما في الفعلية ثم تتعانق الجمل بأدوات الوصل, فينزاح الخطاب من ظاهرة العطف بالواو إلى العطف بالفاء للترتيب الزمني في قوله ρ: "فأبشر" إذ البشرى جاءت بعد تقبل الخطاب وتصديقه, وتحتوي الجملة المعطوفة كذلك على عطف داخلي آخر إذ عطف الجملة الفعلية "تسألني" على "تطلبني" وعطفت بالواو, ولهذه الواو مغزى لطيف لأن الأصل فيها أنها تقتضي المغايرة ومقتضى المغايرة ألا تدخل بين الشيء ونفسه, وإذا حدث ذلك أوهمت أنهما متغايران ,فيما دل الطلب هنا على اتحاد المعنى, ولعل المغايرة بينهما تأتي من قبيل أن السؤال –غالبًا- يأتي في أمر معنوي أما الطلب فيأتي في أمر مادي؛ لذلك جاء العطف بالواو فضلاً عن اتحادهما في الفعلية على المستوى النحوي, ويتتابع الوصل باستدراك في قوله :"ولكني"، ثم التخيير باستخدام "أو", يتبعهما عطف شرطي بالفاء, وفي انزياح الخطاب من أداة عاطفة إلى أخرى تجديد للذهن وإثارة للسامع وتلوين صوتي بديع, ويتوقف الوصل لتفصل تلك الجمل عما بعدها بقوله ρ: " أما بعد!"، وكأنه يتهيأ لخطاب جديد مغاير لما سبق ولمنح ما سيأتي أهميته الدلالية كذلك, وقد رافق هذا الانزياح على المستوى الشكلي انزياح على المستوى الفكري, فهو إذ يربط الجمل السابقة ببعضها كان يخاطب شخص ملك هجر, أما بعد الفصل فقد انتقل إلى خطاب عام نص فيه على منهجه ρ في قبول الهدية عمومًا, لتستمر الجمل بعد ذلك يأخذ بعضها برقاب بعض من خلال الواو العاطفة لتنساب في دلالة النصح والدعوة لله.

---

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 423.

كما اجتمع الوصل والفصل في كتابه ρ إلى أهل هجر قائلاً: " فشفعت شاهدكم ومننت على غائبكم, اذكروا نعمة الله عليكم , أما بعد، فإنه قد أتاني ما صنعتم وإن من يجمل منكم لا يحمل عليه ذنب المسيء, فإذا جاءكم أمراؤكم فأطيعوهم وانصروهم على أمر الله وفي سبيله, فإنه من يعمل منكم صالحًا فلن يضل له عند الله ولا عندي، أما بعد، يا منذر بن ساوى! فقد حمدك لي رسولي، وأنا إن شاء الله مثيبك على عملك"[1]، إذ وصل بين الجملتين الفعليتين بالواو الدالة على المشاركة الزمنية والاستقلال المعنوي, فكان فضله ρ للشاهد والغائب , ثم يلتفت الخطاب من المتكلم إلى المخاطب, ويأتي هذا الالتفات مفصولاً عما سبقه من جمل, مما يدل على أهمية ما سيأتي بعد الانقطاع, إذ ذكر نعمة الله أمر عظيم وله من الأهمية ما يمنحه الاستقلال, فلما تحدث ρ عن عفوه عن أهل هجر أعقب بأمر ذكر أنعم الله, وكأن ما قام به من عفو ما هو إلا من أنعم الله عليهم لذلك كان الفصل آكد في المعنى والاختصاص.

ويتكرر هذا الأسلوب الجمعي بين الوصل والفصل في الكتاب النبوي لبني نهد بقوله: " لكم يا بني نهد فى الوظيفة الفريضة ,ولكم العارض والفريش, وذو العنان الركوب, والفلو الضبيس, لا يمنع سرحكم, ولا يعضد طلحكم, ولا يحبس دركم, ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق, من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة"[2]، فجاءت الجمل موصولة عند حديثه ρ عما يجب لهم مباشرة, ثم ينزاح الخطاب إلى أسلوب الفصل مع انزياحه إلى الحديث عما يجب لهم من الآخرين في قوله: " لا يمنع سرحكم...."، وتتابع الجمل موصولة لتنزاح مرة أخرى من الوصل إلى الفصل انزياحًا اتسق وانزياح المعنى, مما يجب لهم إلى ما يجب عليهم بقوله: " من أقر..." ليعود مرة أخرى إلى العطف بالواو من خلال عطف الجمل الشرطية التي تتابعت للتخيير بين أمرين .

---

1 تاريخ اليعقوبي, 2/ 82 .
2 الفائق في غريب الحديث, 2/ 278.

وورد الدعاء عنه ρ في خطبه موصولاً, مما يمنح النص صفة التتابع والإلحاح وعدم الانقطاع على المستوى الدلالي العام, فيما منح العطف بالواو النص الدلالة على أهمية كل دعوة أهمية خاصة تستقل فيها عن قرينتها في السياق على المستوى الخاص, ومن ذلك قوله ρ لبني نهد حين شكوا إليه جدبهم:" اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها, وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر, وافجر له الثمد, وبارك له في المال والولد, من أقام الصلاة كان مسلمًا, ومن آتى الزكاة كان محسنًا, ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا, لكم يا بني نهد ودائع الشرك, ووضائع الملك, لا تلطط في الزكاة, ولا تلحد في الحياة, ولا تتثاقل عن الصلاة "[1]، ويلاحظ أن انتقال الخطاب من الدعاء الإنشائي إلى الخبرية اقتضى انتقالاً من الوصل إلى الفصل, في قوله ρ : "لكم يا بني نهد...." ثم على المستوى المعنوي كان الانتقال من الخطاب العام بقوله: "من أقام..." إلى الخطاب الخاص الموجه لبني نهد بقوله: " لكم يا بني نهد" مستوجبا انتقالاً من الوصل إلى الفصل كذلك, ثم يستمر الفصل بين الخبرية إلى النهي الإنشائي مما منح النص دلالات متجددة بتجدد الانزياح من معنى لآخر ومن بنية لأخرى.

ويسيطر الفصل في دعائه ρ لبني فزارة: "اللهم اسق بلادك وبهائمك, وانشر رحمتك, وأحي بلدك الميت ,اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مريئًا مريعًا, مطبقًا واسعًا عاجلاً غير آجل, نافعًا غير ضار, اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق, اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء "[2]، فجاء الدعاء هنا في مجموعات منفصلة موصولة وصلاً معنويًّا من خلال التضرع والابتهال، فيما يبرز الوصل في داخل تلك المجموعات ومع عطف الأفعال الأمرية المبتهلة بالدعاء, ترد الصفات مفصولة,مما يلمح إلى أنه يتضرع للخالق -عز وجل- بأن تكون السقيا جامعة لكل تلك الصفات, حيث يجعلها الفصل وكأنها صفة واحدة أو مجتمعة في موصوف واحد.

---

1 الفائق في غريب الحديث ، 278/2.

2 الطبقات الكبرى, 297/1 .

ويبرز عطف الصفات بالواو كذلك مدحًا في قوله ρ مخاطبًا الوفد: "مرحبًا بكم أحسن الناس وجوهًا, وأصدقه لقاء, وأطيبه كلامًا, وأعظمه أمانة " [1]، فالواو المتوسطة بين الصفات جاءت دالة على بلوغهم الكمال في كل صفة منها,كما ورد عطف المفاعيل المتتابعة في قول عطارد بن حاجب: " وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدة" [2]، فالواو أدت إلى تعظيم كل منزلة جعلهم الله فيها بمعزل عن الأخرى, مما منح كل مفعول أهميته ودلالته المستقلة الجديرة بالذكر.

وبعد، يمكن تلمس أبرز ما ورد في التشكيل التركيبي في أدب الوفادة من خلال الخصائص الآتية:

1- جاء التشكيل التركيبي في هذا الأدب غنيا بأساليبه وأدواته التي أسهمت في إثراء النصوص بمنحها أبعادا دلالية دقيقة, فضلاً عما منحته من تأثير شكلي نصي على المستوى البنائي للمفردة فالجملة فالتركيب .

2- تجلت ظاهرة الانزياح في التشكيل التركيبي ومثلت مثيرات أسلوبية ومتغيرات دلالية في مختف أنماط التشكيل, بما أضافته إلى النصوص من معان عميقة وإيقاعات دقيقة ما كانت لتتحقق في سياق التشكيل الأصلي للعبارة.

3- تنوعت الجمل بين خبرية وإنشائية, وتفوقت الخبرية في الخطاب النبوي المكتوب ولاسيما كتب العطاء والعهود والمواثيق, فيما برز الخبر في بعض خطابات الوفود الشفهية، ولاسيما التي أرادوا من خلالها المفاخرة أو إبراز الولاء والطاعة للرسول ρ . ومع وجود الخبر، فقد انزاح في بعض المواضع إلى معان أخرى تفهم بالقرائن والسياق.

---

1 المصدر السابق,1 /337.

2 تاريخ الأمم والملوك, 188/2 .

4- تعددت طرق الإنشاء وأساليبه, وظهر من خلالها انزياحات متعددة تجلت في أربعة أساليب بلاغية، هي: النداء، والاستفهام، والأمر، والنهي، فجاءت في بعض النصوص بغير دلالاتها التي وضعت لها في اللغة، عدا أسلوب (النهي) فإنَّه - وإنْ مارس إنتاج دلالات أخرى- فقد بقي محتفظًا بمعناه الأصلي الموضوع له في اللغة وهو (طلب الكفّ عن الفعل) ، وكان لتلك الانزياحات آثارها الدلالية المتميزة.

5- خرج الأمر عن معناه الحقيقي في خطابات الوفود مع رسول الله ρ غالبًا إلى معان أخرى, ولم يأت على سبيل الاستعلاء , فيما كانت أوامره ρ واضحة صريحة.

6- بقي النداء محتفظًا بدلالته الأصلية في نداء الوفود للنبي ρ مع اختلاف الصيغة, فيما انزاح عن حقيقته إلى معان بلاغية أخرى في البيان النبوي الشريف, كما جاء الاستفهام في خطابات الوفود على حقيقته, وانزاح في البيان النبوي إلى دلالات بلاغية أخرى.

7- لوحظ تكثيف الوسائل الإنشائية في أغلب الخطابات بيد أنها كانت في البيان النبوي أكثر تكثيفًا وتنويعًا, إذ تجد النداء والأمر والنهي والتحضيض والاستفهام منظومة واحدة يأخذ بعضها برقاب بعض في نسق إنشائي بديع.

8- لم يقف الانزياح عند حدود الخبر أو الإنشاء وإنما ظهر على مستوى أكبر من خلال الانزياح من الخبر إلى الإنشاء أو العكس.

9- برز الشرط في النمط البنائي للجملة بجوار الجملة الخبرية والانشائية, وتكثف حضوره في رسائل النبي ρ , وكثر استخدام ما جاء قليلا في القاعدة النحوية مقابل ما كان شائع فيها.

10- ورد التأكيد بصور متعددة, وقد وظفت وسائله بشكل مختلف في أدب الوفادة على رسول الله ρ من جانب الخطاب النبوي وخطاب الوفود على حد سواء, وقد تداخلت

المؤكدات بشكل أثر في كثير من خطابات هذا الأدب مكتوبة أو منطوقة، مما منح النصوص دلالات أعمق ومعاني أدق.

11- أدى التكرار دورًا بارزًا على المستوى التوكيدي, وظهر بكامل أشكاله وصوره التي تداخلت في مواضع عديدة ، مما زاد الخطاب أهمية وتوكيدًا, كما برز التكرار النمطي البنائي الذي ورد غالبًا بالعطف.

12- شكل التقديم والتأخير ظاهرةً شائعة، تعددت أشكالها وتنوعت دلالاتها، حتى جاء نمط التقديم الواحد بدلالات متعددة, ولاسيما تقدم الجار والمجرور الذي ورد بصور عدة, وقد أعطت هذه الظاهرة منحًى أسلوبيًّا مميزًا, شكَّل انزياحًا عن النمط المألوف لتركيب الجملة, وأدى إلى إثراء الدلالات, ومنح نغمًا زاد النصوص قيمة وتأثيرًا.

13- برزت ظاهرتا الوصل و الفصل في هذا الأدب, واتفقت بما يخدم السياق, وكان لكل منهما حضوره المميز والمؤثر، ولاسيما في البيان النبوي الشريف.

14- تعانق الفصل والوصل بشكل مكثف في الخطاب النبوي المكتوب أكثر من المنطوق .

15- لوحظ في الفصل أن الرسول ρ كان يبدأ الجملة المفصولة بقوله:" أما بعد" للتنبيه على أهمية ما سيرد بعدها .

الفصل الثالث

التشكيل التصويري

الفصل الثالث

التشكيل التصويري

"إذا كان لكل فن واسطة, فإن واسطة الشعر هي الصورة, التي تشكل من علاقات داخلية مترتبة على نسق خاص أو أسلوب متميز, فالصورة –مولود الخيال- وسيلة الشاعر في محاولته إخراج ما بقلبه وعقله وإيصاله إلى غيره, ذلك لأن ما بداخله من مشاعر وأفكار يتحول بالصورة إلى أشكال وصفت بأنها أشكال روحية, فبالصورة تتحقق خاصية الشعر"[1]، والصورة "تشكيل لغوي يكونها خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس في مقدمتها, فأغلب الصور مستمدة من الحواس, إلى جانب لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية".[2]

وقد تعددت مفاهيم مصطلح الصورة لدى أفرع المعرفة في العصر الحديث , فمفهومه في علم النفس غير مفهومه في الفلسفة وفي النقد الأدبي أو الشعر, بل إن مفهومه في الشعر ليس واحدًا دائمًا, وإنما هو في تحويل وتبديل مستمرين, حتى إن كل مدرسة تعطيه المفهوم الذي يتفق وفلسفتها العامة, والمسألة التي تكاد تكون موضع إجماع في الدراسات النقدية الحديثة هي أن الصورة بالمفهوم الفني تعني:"أية هيئة تثيرها الكلمات الشعرية بالذهن شريطة أن تكون هذه الهيئة معبرة وموحية في آن".[3]

والصورة تركيبة عقلية تحدث بالتناسب أو بالمقارنة بين عنصرين هما في الأغلب عنصر ظاهري وآخر باطني, والأغلب في العنصر الظاهري أن يكون من العالم المحسوس, وقد قيل: إن الصورة هي كل شيء تقوى على رؤيته أو سماعه أو لمسه أو تذوقه, لذلك يجب ألا تعتمد في إيصال معناها على الأسلوب المجرد, بل عليها الاعتماد على الصورة الحسية,

---

1 الصورة الفنية في النقد الشعري, 85.
2 الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن 2هـ, 25.
3 الصورة الفنية في النقد الشعري ,85.

والصورة الناجحة هي التي تأتي من تحويل المعاني المجردة إلى هيئات وأشكال تنتقل بالحواس, وهذه الأهمية الكبرى للجانب الحسي دفعت النقاد إلى متابعة علماء النفس في تصنيف أبنية الصورة إلى مجموعات حسية, كالصورة البصرية والسمعية والذوقية والشمّية واللمسيّة والحركيّة. وأما العنصر الباطني من الصورة فهو أفكار الشاعر ونفسيّته التي هزتها تجربة عميقة, وما الفن في الحقيقة إلا التكافؤ بين العاطفة في داخل الفنان وبين الصور التي يخرج بها هذه العاطفة, وفي كل صورة تلتقي الذات بالطبيعة الخارجية؛ لتولدا معًا صورًا جديدة.[1] وللصورة قيمة فنية مهمة في الأدب فهي أداة يرسم بها الأديب مشاعره, وتقاس بها عواطفه, وهي برهان يقوي المعنى, ويجليه, ويؤثر في نفس مستمعيه, وهي جوهر يتمايز به الأدباء[2], فضلاً عن أنها "تنهض بذوق المتلقي وترتفع به إلى إحساس جمالي, .. وتدعوه إلى استثمار قدراته العقلية والنفسية جميعا, فهي تحيا بما تولده في الذهن من انطباعات"[3].

"والعبارة في الحقيقة هي الفكرة, وليست شيئًا منفصلاً عنها, وإنما هي هي, فالذي يسنح في القلب ويدور في الرأس ليس فكرًا غير ملتبس بالكلمات؛ لأنه لا يوجد فكر ولا حس غير ملتبس بالكلمة, وربما كان في مرحلة من مراحل تولده منفصلاً وسابحًا هناك في الضباب النائي عن الإدراك والشعور, والمهم أننا لا نحس به إحساسًا متميزًا إلا مرتبطًا بالكلمات, ملتبسًا بها , ...فالعبارة هي هيئته التي ظهرت في نفوسنا, وشكله الذي نحسه, وصورته التي نعانيها"[4]. وعليه تكون الصورة هي الفكرة المنبعثة من داخل الأديب والتي تكونت من نتاج تاريخي وبيئي وثقافي ولدت إحساسًا لديه عبّر عنه من خلال الصورة" فمن خلال اللغة الأدبية المجازية تعتبر لغة الكاتب تعبيرًا عن أفكار وإحساسات الأفراد, إذ تمتزج بهم, ومن خلالهم تعبر عن نفسية شعب وعاداته وتقاليده."[5]

---

1 الصورة الفنية في النقد الشعري,86- 88.
2 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 335.
3 الصورة الشعرية في النقد الأدبي الحديث, 116.
4 التصوير البياني ,431.
5 الصورة الشعرية في الكتابة الفنية, 60.

وبالنظر إلى أدب الوفادة على رسول الله ρ, تبين أن الصورة جاءت على نمطين, هما: الصورة الحقيقية, والصورة البيانية, وعلى هذا ستقوم دراسة الصورة في هذا الفصل فضلاً عن الوقوف على علاقة الصورة بالحواس, ومرجعيات الصورة.

أولاً: الصورة الحقيقية:

حفل التراث الشعري القديم بكثير من الصور التي لا تقوم على أي مجاز لغوي, ومع ذلك فيها من الطاقات الإيحائية ما ليس في كثير من الصور التي تقوم على المجاز المتكلف المفتعل, ومقياس جودة الصورة في النهاية هو قدرتها على الإشعاع وما تزخر به من طاقات إيحائية, فبمقدار ثراء الصورة الشعرية بالطاقات الإيحائية ترتفع قيمتها الشعرية.[1]

وقد يجد القارئ أو السامع نفسه أمام مشهد يخلب لبّه ويثير مشاعره, فيشعر أن الأديب أحسن التصوير وأجاد, وإذا فتش في أثناء الجمل التي رسمت صورًا متحركة لا يجد تشبيهًا ولا استعارة ولا مجازًا ولا كناية وإنما هو رسم بالكلمات, وتصوير بالحقيقة, وهذا ما يعرف بالصورة الحقيقية.[2] "والقارئ الأكثر تدقيقًا يستطيع أن يلتقط من وراء المدلول الحرفي المباشر لعناصر الصورة كل دلالاتها وإيحاءاتها الأكثر عمقًا وخفاء, ودون أن تكف هذه العناصر عن دلالاتها الواقعية المباشرة، فمثل هذه الصور -أيضًا –شأنها شأن الصور المجازية- لها أكثر من مستوى دلالي "[3]، وقد برزت الصورة الحقيقية بمؤثراتها وإيحاءاتها في أدب الوفادة، ولاسيما في فن الحوار الذي دار بينه ρ وبين الوفود.

وشكل الحوار بين رسول الله ρ وبين عبد القيس مجموعة من الصور المتتابعة, التي منحت الحوار حركته وفاعليته, وبعثت فيه الحياة التي أكسبته تأثيرًا انعكس على الوفد منذ أن سألوا رسول الله ρ عن علمه بالنقير فأجاب:" «بَلَى. جِذْعٌ تَنْقُرُونَهُ. فَتَقْذِفُونَ فِيهِ مِنَ الْقُطَيْعَاءِ»

---

1 عن بناء القصيدة العربية الحديثة, 87.

2 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, عن الصورة الأدبية للدكتور:عبد الله الحامد, 14-15.

3 عن بناء القصيدة العربية الحديثة, 91.

(قَالَ سَعِيدٌ: أَوْ قَالَ «مِنَ التَّمْرِ) ثُمَّ تَصُبُّونَ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ. حَتَّى إِذَا سَكَنَ غَلَيَانُهُ شَرِبْتُمُوهُ. حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ (أَوْ إِنَّ أَحَدَهُمْ) لَيَضْرِبُ ابْنَ عَمِّهِ بِالسَّيْفِ». قَالَ وَفِي الْقَوْمِ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ كَذٰلِكَ. قَالَ وَكُنْتُ أَخْبَأُهَا حَيَاءً مِنْ رَسُولِ اللهِ، فَقُلْتُ: فَفِيمَ نَشْرَبُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ «فِي أَسْقِيَةِ الأَدَمِ، الَّتِي يُلاَثُ عَلَى أَفْوَاهِهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ أَرْضَنَا كَثِيرَةُ الْجِرْذَانِ. وَلاَ تَبْقَى بِهَا أَسْقِيَةُ الأَدَمِ. فَقَالَ نَبِيُّ اللهِ «وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ. وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ. وَإِنْ أَكَلَتْهَا الْجِرْذَانُ»[1]، فصور النبي ρ بداية طريقة صنعهم لهذه الأداة, ثم كيفية استعمالها ومكونات شرابهم ومدة تخميره, ثم النتائج المترتبة على ذلك الشراب, كل ذلك جاء في صورة حركية, أسهمت في إذهال الوفد وتعجبه من علم النبي ρ الدقيق بحيثيات شرابهم الذي سألوه عنه, وتستمر الصورة الحركية باستمرار الحوار من خلال سؤالهم عن البديل , ثم تعليلهم عدم صلاحية ذلك البديل لهم في صورة وصفية استمدت حركتها من حركة الجرذان وهي تأكل أسقية الأدم , بيد أن النبي ρ كرر تلك الصورة الحركية مستعينًا بها في توكيد النهي عن النقير مهما كانت الأسباب, "والتوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة في نفوس الجماعات, وإقرارها في قلوبهم إقرار ينتهي إلى الإيمان بها, وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها, ما أمكن ذلك فالمعنى إذا تكرر تقرر...وللتكرار تأثير في عقول المستنيرين, وتأثير أكبر في عقول الجماعات من باب أولى, والسبب في ذلك أفعال الإنسان, فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار, وانتهى بتصديق المكرر"[2].

لقد مثّل التصوير الحقيقي واقع القوم, ونقلت هذه الصورة الوصفية الناجحة العالم الخارجي ليعكس في خيال المتلقي مشاهده المحسوسة إلى الدرجة التي تجعله يشعر أنه في حضرة المشهد نفسه ويعاينه, وهكذا يحدد قدامة الوصف بأنه ذكر الشيء بما فيه من الأحوال

---

1 صحيح مسلم, 165/1.
2 من البلاغة النبوية, 29-30.

والهيئات[1] . ويتابع الوفد حوارهم مع رسول الله ρ في صورة ملحة لإباحة شرابهم فتنتقل الصورة من عالم اللفظ إلى عالم الإشارة والإيحاء بقول الأشج:" : بأبي وأمي يا رسول الله! رخص لنا في مثل هذه وأومأ، بكفيه فقال: «يَا أَشَجُّ إِنِّي إِنْ رَخَّصْتُ لَكَ فِي مِثْلِ هذِهِ» وقال بكفيه هكذا: «شَرِبْتَهُ فِي مِثْلِ هذِهِ» وفرج يديه وبسطها «يَعْنِي أَعْظَمَ مِنْهَا"[2]، فانتقلت الصورة من المستوى الوصفي بالكلمات التي منحت النص حركيته, إلى المستوى الإيحائي من خلال حركة الأشج, لتتنامى وتتصاعد الحركة الإشارية مع النبي ρ مصورًا ما سيحدث لو رخص له فيما طلبه في مشهد تمثيلي سريع مؤثر.

وتبرز الصورة الوصفية الحركية في البيان النبوي، ولاسيما في معرض إجاباته ρ على أسئلة الوفود التي تحتاج شيئا من التفصيل ,كما في قوله -عليه الصلاة والسلام- لمن سأله عن الوضوء:" . أسْبِغِ الْوُضُوءَ وَخَلِّلْ بَيْنَ الأصَابِعِ وَبَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إلا أنْ تَكُونَ صائِماً»[3]، فهذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة, كانت أدعى في استيعاب السائل ووضوح الفكرة.

وعندما تستمد الصورة النبوية مادتها من عالم الغيب والإعجاز يكون تأثيرها في المتلقي أعظم خطرًا وأشد وقعًا, فالإنسان يستمد تصوره للأشياء من عالم الحس غالبًا, وعندما ينتقل به النبي ρ من هذا العالم المحسوس إلى عالم الغيبيات يكون للصورة سحرها وتفردها البديع , ومن ذلك قوله ρ: «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» [4]، مصورًا هذه الحقيقة في مشهد حركي مؤثر, تتجلى فيه عاقبة هذا الشاعر الذي عدّ أنموذجًا في الشعر العربي, فكما أنه مثال الشعراء في الدنيا, فهو قائدهم إلى النار في الآخرة, ولاشك أنه ρ قصد من الشعراء أولئك الذين وصفتهم الآية الكريمة دون المستثنين منهم بقوله تعالى:

⇱☠←♑⇱➔⚲⌨✹☺♦③ ↓↗✐✃♦❷⍓➔❼⌖♋♐✃◆❒ }
♦❷⬩✍ ⬄⚐⬩♋❒🕮 ⬀✂✂⚘⬀ ♦♌✆⇱❒♐♦⬄⬂♋♐✃

1 الصورة الفنية في التراث النقدي, 365-366.
2 مسند الإمام أحمد, 451/4.
3 سنن أبي داود,236/1.
4 مسند الإمام أحمد, 256/2.

♦♌❑←☺⓿⍌♑♦③ 🖮⑩✁◆❒ ⮳♏⍓➔🗎❼⍌✖ ⬀☠←♑❄☼❒🕮
•• ✍♦✌ ♐♍❑⬈♐❑→❩♦③ ⬀☠⬋🙰❏✠❒🕮◆❒ ⬆✂✂⍌⮳
. [1] { ⬆✂✂⍌⮳ ♐♍❑➔⏹⍓➔⬁⯐♦③

لقد أعطت هذه الصورة الحقيقية -بما تحمل من معنى يبعث الخوف- بعدًا نفسيًّا كبيرًا, فلا يملك السامع أو المتلقي لمثل هذه الصورة إلا أن يقف عندها متأثرًا مندهشًا.

وفي موضع أخر تزداد الصورة قداسة, وتأثيرًا, فالنبي ρ هناك يذم, أما هنا فيمدح و يعجب بصاحبه ويثني عليه مصورًا منزلته التي سيتبوؤها عند الله -سبحانه وتعالى-, وذلك بعد أن أجاب أحد الوفود وأجاد, فقال ρ :" يا أبا بكر! أعطاك الله الرضوان الأكبر، فقال له بعض القوم: يا رسول الله !وما الرضوان الأكبر؟ قال: يتجلى الله -عز وجل- للعباد عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة".[2] إن في هذه الصورة الغيبية العظيمة- التي بنيت على حقيقة تعلقت بالذات الإلهية الجليلة, وهي تجليه -سبحانه وتعالى- للعباد يوم القيامة مع ما فيها من استثارة لخيال المتلقي الذي يعجز أن يبلغ كنه تلك الصورة, فيرتد إليه تصوره قاصرًا أمام عظمة هذه الحقيقة البصرية- تأثيرًا وجدانيًّا بالغًا, يتنامى بانتقال الصورة من البنية البسيطة, إلى البنية العميقة التي ظهرت في تفسير النبي ρ لمعنى "الرضوان الأكبر" إذ يتصاعد التأثير الوجداني في السامع الذي أذهلته فكرة تجلي المولى -جل شأنه- للعباد عامة, لتأتي حقيقة أعظم وهي تجليه -عز وجل- لأبي بكر خاصة, لقد كشفت هذه الصورة البديعة منزلة أبي بكر- رضي الله عنه- ومنحته مديحًا ليس كمديح البشر، بل تجاوز كل المعاني الإنسانية إلى ما هو أسمى بكثير, ولا عجب فهو الصاحب الصدّيق.

وتتكرر الصور الحقيقية الوصفية في الخطاب النبوي الشريف، وهي إذ تؤدي دورًا مهمًّا في استثارة خيال المتلقي، فإنها تأتي محكومة بالإيحاء الإلهي من المولى -جل شانه- لنبيه

---

1 الشعراء, 224-226.
2 الرياض النضرة في مناقب العشرة, 76/2 .

ρ الذي لا ينطق عن الهوى فترد على حقيقتها بعيدة عن مفهوم الخيال[1] الفني، لكنها تحدثه في ذهن المتلقي, فترى النبي -عليه الصلاة والسلام- يثير وجدان وأخيلة من حوله بإعطاء صورة سابقة لما سيحدث كقوله ρ صبيحة ليلة قدم عليه وفد عبد القيس مخبرًا أصحابه بمجيئهم قائلاً:" ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة"[2]، فالخبر المؤكد باللام ونون التوكيد لم يرد مفردًا، بل جاء مصحوبًا بصورة حسية وصفية دقيقة , لم تقف عند حدود الصورة الكلية لمنظر الوفد، بل جاءت مفصلة منطلقة من الوصف المعنوي لحقيقة إيمانهم, إلى الوصف الحسي العام لمشهد الوفد بما يبدو عليهم من عناء السفر ومشقة المسير, ليصل بالصورة إلى الجزئية في وصفه لصاحب الوفد أو رئيسهم بما يحمله من علامة فارقة في وجهه. وهذه الصورة التي رسمها ρ في أذهان أصحابه ما كادت أن تحولت من واقع الصورة الغيبي إلى الواقع الحقيقي, بيد أنها جاءت كما صورها ρ بعد أن استشرف أصحاب رسول الله ρ من تلكم الصورة معاني المدح والثناء على الوفد.

وظهرت الصورة الحقيقية كذلك في خطابات بعض الوفود, فتجلت في خطبة وافد هوازن الذي نحا بخطابه منحًى مدحيًّا ثَنائيًّا لاستمالة النبي ρ واستجداء عفوه بإطلاق سراح أسراهم, فقال مادحًا في صورة امتدت بالزمن من ولادته ρ إلى شبابه:" ولقد رأيتك مرضعًا، فما رأيت مرضعًا خيرًا منك، ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك، ثم رأيتك شابًّا فما رأيت شابًّا خيرًا منك"[3]، فهذا التدرج الزمني مع ثبات الصفة وعدم تغيرها زاد المدح عمقا ومصداقية وتأثيرًا.

---

1 "الخيال هو: القدرة على تكوين صور ذهنية غابت عن متناول الحس, ولا تنحصر فاعلية هذه القدرة في مجرد الاستعادة الآلية لمدركات حسية ترتبط بزمان أو مكان بعينه, بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك فتعيد تشكيل المدركات وتبني منها عالمًا متميزًا في جدته وتركيبه, وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة تذيب التنافر والتباعد وتخلق الانسجام والوحدة "الصورة الفنية في التراث النقدي ,13.

2 الطبقات الكبرى 1/ 314-315.

3 الطبقات الكبرى 1/ 114- 115.

ثانيًا: الصورة البيانية:

"إذا كان الأديب ينقل لنا مشاهد واقعية دقيقة عن طريق الصور الحقيقية, فإنه يحلّق بنا أحيانًا إلى عالم الخيال, فيجمع بين المتناقضات, ويقرّب بين المتنافرات, من خلال ما يرسمه لنا من صور تشبيهية، أو استعارية, أو كنائية, تثير في نفس المتلقي نشوة وتعجبًا, وتقرّب البعيد, وتستحضر القريب, وهذا سرّ جمالها, وجوهر الإعجاب بها"[1].

وقد برزت الصورة البيانية في أدب الوفادة من خلال الأنواع الثلاثة:التشبيه, والاستعارة, والكناية.

أ- الصورة التشبيهية:

"التشبيه علاقة مقارنة, تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة, أو مجموعة من الصفات أو الأحوال, هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية, وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الهيئة المادية, أو في كثير من الصفات المحسوسة"[2].

وتعد الصورة التشبيهية من أهم الأشكال البلاغية وأكثرها استعمالاً, وقد عدها العرب أصل الألوان البيانية, ومن الوسائل البلاغية المفضلة عند جميع النقاد تقريبًا, فهي عمدة الصورة الفنية؛ لأن لها دورًا أساسيًّا في تشكيلها, على ألا تقف جامدة عند حدود التعبير الحسي, عاجزة عن تجسيم العاطفة والأفكار تجسيمًا يظهر الرؤية الصحيحة للأشياء, ولا تقف عند حدود علاقة المشابهة بين طرفين دون البحث عن القيمة النفسية لها[3]، كما ينبغي ألا يقتصر التشبيه على نقل المحسوسات من الواقع إلى الصورة، بل لابد من صبغ تلك المحسوسات بألوان الشعور, وأن ينبع المحس من داخل النفس ممتزجًا بخواطر المنشئ, حتى

1 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 341.
2 الصورة الفنية في التراث النقدي, 172.
3 البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية, 225.

ترتبط الصورة الأدبية بأحاسيسه, وتفعم بمشاعره إزاء المشهد أو الحدث أو الخاطرة التي يصورها, وهذا هو الفارق بين جمال المحسوس في فن الأدب وبين جماله في الطبيعة[1].

وللتشبيه أثره في تكثيف المعنى وزيادة بيانه, وإثارة المتلقي, وأنسه بالمراد منه[2]، وقد اتخذ النبي ρ من التشبيه وسيلة للمدح وإبراز مكانة الممدوح بما يليق بصفته, فقال مادحًا الأشعريين[3]:" الأشعرون في الناس كصرة فيها مسك"[4]، فالصورة هنا صورة معجبة, تصور حقيقة الأشعريين وفضلهم بين الناس كصرة فيها مسك, إذ تدع الصورة للخيال فسحة للتأمل في أبعاد جماليات المشبه به, لتصل من خلاله إلى حقيقة التشبيه, فالصرة التي تحمل المسك لاشك تفوح عطرًا ينبعث في أرجاء المكان, بل إن وجود هذا المسك في الصرة أشعر بزيادة انبعاث الرائحة الزكية لاحتفاظها بخواص المسك لمدة أطول, فضلاً عن التصور الناتج من هيئة الصرة واجتماع المسك والتحامه في داخلها, وهذه الصورة البديعة أوحت بمنزلة الأشعريين من خلال اجتماعهم وتوحدهم, وفضلهم على من حولهم, فهم يفوحون عبقا كما تفوح صرة المسك. ولعل الناظر إلى هذا التشبيه البديع بالرغم من اكتمال عناصره من-مشبه ومشبه به وأداة للتشبيه- يحتاج إلى دقة نظر, وإعمال ذهن, حتى يصل إلى تلك المعاني المنشودة وراء التشبيه الذي قام على الخروج من المعنى المعقول وتصويره بصورة المحسوس.

ويبقى مقام المدح من المعاني التي تقتضي الصورة التشبيهية للوصول إلى أبعد درجات المدح, فتأتي صورة تشبيهية أخرى, هدفها الثناء على النبي الكريم ρ , في قول وفد بني عامر:" وأنت الجفنة الغراء"[5]، فشبه -عليه الصلاة والسلام- بكرمه وعطائه بالجفنة

---

1 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 146.

2 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 342.

3 الأشعريين من أهل اليمن. فتح الباري شرح صحيح البخاري,431/8 وهم قبيلة كبيرة باليمن نسبوا إلى جدهم أشعر .وفود الإسلام,93.

4 الطبقات الكبرى, 1/ 348 .

5 مسند الإمام أحمد,4/ 603 والجَفْنة معروفة، أَعظمُ ما يكونُ من القِصاع، والغَرّاء: البيضاء أَي أَنها مَمْلُوءةٌ بالشحم والدُّهْن. اللسان,(جفن).

المملوءة بالدهن والشحم, وزيادة في المدح وتأكيدًا في المبالغة حذفت أداة التشبيه, وما من شك في أن هذه الصورة جاءت مستمدة من حياتهم, ومن أبرز ما كانوا يفاخرون به , بيد أنها مع ذلك جاءت قاصرة عن بلوغ المشبه به حقيقة المشبه, كما أتت دون الصورة التشبيهية التي ساقها النبي ρ في مدح الأشعريين, بالرغم من أنها اشتركت معها في الخروج بالمعنى المعقول إلى المحسوس.

واتخذت بعض صور النبي ρ من الحس طرفي الصورة, فجاء بمعنى محسوس وشبهه بمحسوس آخر, فبث الحياة في الصورة التشبيهية التي جاءت مشعة بالحركة, مدعمة بمؤثر الصوت الذي انسجم وسياق الصورة في قوله ρ واصفًا تعظيم السماوات والأرض للخالق -جل شأنه-:" لا إله إلا هو العلي العظيم ,وسع كرسيه السموات والأرض فهي تئط[1] من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد".[2] جاءت هذه الصورة -بما فيها من عمق ودلالة- مستعينة بأداة التشبيه (الكاف) حتى تحفظ لكل طرف من الصورة مكانته, ولئلا تنصهر معالم المشبه في المشبه به, إذ التشبيه هنا جاء على سبيل النهوض بالصورة لتقريب المعنى, والحقيقة أن صوت أطيط السماء أبعد مما يمكن للعقل البشري تصوره وإدراك كنهه, لذلك عمد -عليه أفضل الصلاة والسلام- على انتقاء المشبه به من واقع بيئتهم مشتقًّا تشبيهه من ممارساتهم الحياتية, وما تدركه حواسهم في أثناء تنقلهم وارتحالهم, وهذه الصورة التشبيهية الحسية خلفت أثرًا عميقًا في نفس متلقيها, فصوت السموات والأرض وهي تتابع التسبيح والتكبير, وترتعد من عظمة الخالق -عز وجل- ارتبط في ذهن المتلقي بذلك الصوت الذي اعتاده في واقعه ونشأ على سماعه, بيد أن إحساسه بهذا الصوت بعد أن ألقى إليه صلى الله عليه وسلم هذه الصورة

---

1 الأُطُّ والأَطِيطُ: نَقِيضُ صوت المَحامِل والرِّحال. إِذا ثقل عليها الرُّكبان، وأَطَّ الرَّحْلُ والنِّسْعُ يَئِطُّ أَطّاً وأَطِيطاً: صَوَّتَ، وكذلك كلُّ شيء أَشبه صوت الرحل الجديد. الأَطِيطُ صوت الرحل والإِبل من ثِقَل أَحْمالِها صوت النِّسْعِ الجديد وصوت الرَّحْل وصوت الباب، أَطَّتِ السماء؛ الأَطِيطُ: صوتُ الأَقْتاب اللسان,(أطط).

2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/275-274.

التشبيهية لاشك سيختلف, وسيبقى تصور أطيط السماء من عظمة الخالق –سبحانه- دائم الحضور من سماع أطيط الرحل الجديد.

وتبرز ثقافته ρ وعلمه بالشعوب بالرغم من أنه لم يعتد السفر خارج شبه الجزيرة العربية, بيد أنه كان على معرفة بهيئات الشعوب وبملامحهم التي تميز كل شعب عمن سواه, دل على ذلك تشبيهه ρ لبني الحارث بن كعب برجال الهند في قوله عندما دخلوا عليه: "من هؤلاء الذين كأنهم رجال الهند"[1].

ومع ظهور الجانب الحسي في الصورة التشبيهية- إما بطرفيها أو بطرف منها-, فقد ظهرت الصورة التشبيهية العقلية, من خلال تشبيه معقول بمعقول في قوله ρ موصيًا بعبد القيس:" «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ! أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الإِسْلاَمِ، أَشبَهُ شَيْئًا بِكُمْ أَشْعارًا وَأَبْشارًا أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ وَلاَ مَوْتُورِينَ إِذْ أَبى قَوْمٌ أَنْ يُسْلِمُوا حَتَّى قُتِلُوا"[2]، ففي هذه الصورة التشبيهية الرائعة أمر ρ معشر الأنصار بإكرام أخوانهم من وفد عبد القيس, ولكي يضيف لذلك الأمر طابع التأثير والقبول لدى المتلقين أو المخاطبين علل ذلك بالتقريب بينهم وبين الوفد, مشبهًا حال عبد القيس في سرعة استجابتهم للدعوة طوعًا لا إكراهًا بحال الأنصار الذين آمنوا بالرسول ρ وناصروه, وهذا التقريب العقلي بين طرفي التشبيه كان له دور نفسي, إذ استطاع ρ أن يطوف في أعماق أنفسهم, ويستبطن دواخلهم , من خلال تذكيرهم بما مضى من حالهم وربط تلك الصورة الماضية بصورة حاضرة أمامهم تمثلت في عبد القيس.

وتنوعت أطراف التشبيه كما تقدم بين حسي حسي, وحسي معنوي, ومعنوي معنوي, وورد تشبيه الحسي بالعقلي كذلك, مما يشير إلى ورود كل أنواع التشبيه في هذا الأدب, وتشبيه المحسوس بالمعقول"على خلاف الأصل في باب التشبيه ..لأن المشبه به شأنه أن يكون أظهر

1 الطبقات الكبرى, 1/ 339-340 .
2 مسند الإمام أحمد, 206/4 .

وأوضح من المشبه فأولى به أن يكون حسيًّا , ولا يكون عقليًّا إلا بعد أن ينزل منزلة المحسوس ويدعي أنه فاق المحسوس في الوضوح والظهور"[1].

بل إن الزركشي منع هذا التشبيه "لأن الحس طريق إلى العقل, والمحسوس أصل لمعقول, فلو شبهنا المحسوس بالمعقول لشبهنا الأصل بالفرع وهذا يستلزم جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً وهو غير جائز"[2]، ولعل هذا الرأي محل نظر، إذ ورد هذا الضرب في القرآن الكريم وفي الحديث النبوي الشريف, وفي الكلام البليغ ,يكفي لرد هذا القول ونقضه [3]، ومثال ذلك في أدب الوفادة قول جرير بن عبد الله من وفد أحمس –عندما أرسله ρ لهدم صنمهم ثم سأله قائلاً:" هدمته ؟ قال: نعم، والذي بعثك بالحق وأخذت ما عليه وأحرقته بالنار فتركته كما يسوء من يهوى هواه وما صدنا عنه أحد"[4]، فالصورة التشبيهية مثلت حال الصنم بعد هدمه وإحراقه بالنار, وهي حالة حسية, بحال من يسوؤه تحطم مراميه وهواه، وهي حالة معنوية نفسية, أظهرت حال الصنم في أسوء منظر, وعمدت إلى تشويه المشبه وتقبيحه والتقليل من شانه, فضلاً عما أفادته من معاني التوكيد والتوضيح لرسول ρ وهو السائل عن حال الصنم, فالتشبيه يفيد تقرير المعنى ويثبت الصورة التي يراد أن يكون عليها المشبه من خلال مقابلتها بصورة المشبه به [5]، إذ من شأن التشبيه أن يقرر شكل المشبه في الذهن ويزيد معناه, ويلح عليه بالتثبيت[6].

ويتضح من خلال النماذج السابقة في الصورة التشبيهية اعتمادها في غالبها على الأداة إذ كانت تشبيهاتهم مرسلة, فيما لوحظ أن أدوات التشبيه المستخدمة انحصرت في الكاف،

---

1 علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان, 29.
2 البرهان في علوم القرآن, 478/3.
3 البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية,242.
4 الطبقات الكبرى, 1 /347.
5 البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية, 301.
6 فن التشبيه, 265.

وكـأن، ومثـل, وهـي أدوات تختلـف فـي دلالتهـا عـن غيرهـا فهـي تـأتي فيمـا يكـون التشـبيه فيـه صـادقًا, ودالاً علـى اليقين[1].

ب- الصورة الاستعارية:

الصورة الاستعارية من أهم ألوان التعبير المجازي, وهي "اللفظ المستعمل في غير مـا وضـع لـه لعلاقة المشابهة مع قرينـة مانعـة من إرادة المعنـى الأصـلي "[2]، وتكـون العلاقـة بـين الاستعمال الأصلي والمجازي علاقة تشبيه, فالاستعارة "نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه إلى حد المبالغة"[3]، بيد أن الاستعارة تختلف عن التشبيه بكونهـا تشبيهًا حـذف أحـد طرفيـه أو هما مع بقاء لازم المشبه مبالغة في المعنى, وزيادة في توضيح الغرض من التشبيه, ويلتقيـان معًا في إيجاز العبارة, وكيفية تركيب الصورة, واختراع المعنى وتوليد الفكرة[4], وهـي ترتفـع فوق التشبيه بدرجات, إذ تخلص الأديب فيها من بدائية التشبيه المعتمـد علـى تشبيه أمـر بـآخر, لينطلق من خلالها إلى رحاب الخيال, فيجعل من الموجودات مخلوقات أخـرى حيـة تعيش فـي عالم جديد[5]، وينظر إلى الاستعارة بمفهومها الجديد على أنها "اعتداء وجـرح لشفرة اللغـة, أي انحـراف عـن الاسـتخدام العـادي"[6]، وهـذا الانحـراف مـن شـأنه أن يشـد انتبـاه المتلقـي, ويزيـل الرتابة عن النص ويمنحه الحيوية والحركة وطرافة التعبير.

وقد اتخذ -عليه الصلاة والسلام- من الصورة الاستعارية وسيلة لإثـارة انتبـاه المتلقـي, وإعمال خياله في قوله ρ:" : اللهم اجعلنا من عبادك المنتخبين, الغر المحجلين, الوفد المتقبلين, قال: فقالوا يـا رسـول الله ! مـا عبـاد الله المنتخبـون؟ قـال: عبـاد الله الصـالحون. قـالوا: فمـا الغـر المحجلون؟ قال: الذين يبيض منهم مواضع الطهور، قالوا:فما الوفد المتقبلون؟ قال: وفد يفدون

---

1 علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان، 90.
2 المصدر السابق, 139 .
3 أسرار البلاغة, 346.
4 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 166.
5 الصورة بين البلاغة والنقد, 85.
6 نظرية البنائية في النقد الأدبي, 238.

من هذه الأمة مع نبيهم إلى ربهم -عز و جل- "[1]، فالصورة انبثقت وهي محاطة بالمعاني التي أثارت المتلقين مع ما تحمله من تضرع ودعاء, ولما لم يفهم المستمع المقصود من تلك العبارة سأل حتى تتضح معالم الصورة أكثر, ويسهل على خيال المتلقي استحضار عناصرها, ليأتي الجواب مفسرا لها.فالصورة الاستعارية الأولى قوله:(الغر المحجلون[2])، فشبه عباد الله المؤمنين يوم القيامة بالخيل التي تميزت ببياض في جبهتها , وقوائمها, مما جعلها تنفرد عن باقي الخيل بتلك الصفة, كما تتفرد أمة ρ يوم القيامة ببياض مواضع الطهور منها, فاستطاعت آلية الاستعارة أن تبرز صورة تميز المؤمنين يوم القيامة بتلك الصفة, وإن كانت صورة الغر المحجلين صورة حقيقية الحدوث يوم القيامة, فإن النبي ρ استطاع بطرحها في ثوب الاستعارة أن يثير خيال المتلقي "ولا يخفى علينا أن هناك فرقًا بين الخيال في الحقائق -وهذا ما ينبغي الحذر منه- وبين الخيال في تصويرها وهو الخيال الفعال المنتج الذي يقوي الحقيقة ويثريها ".[3] وتأتي الصورة الثانية متمثلة في قوله: (يبيض منهم مواضع الطهور)، إذ جعل المتلقي يشاهد تلك الصورة ويتمثلها, وينتقل ρ من البنى الصغرى في الصورتين, إلى البنية الكبرى إذ ربط بينهما بإحكام شديد؛ ليجعل منهما صورة كبرى فهو يأخذ من صفة الخيل تفردها ببياض غرتها أو جبينها في أعلاها وقوائمها في أسفلها, ويجعل هذه الصفة لعباد الله المؤمنين فكأنه أحكم العلاقة بينهما, وجعل من عناصر الصورتين صورة واحدة ذات بنية كبرى عبرت عن شعوره , وخرجت "مطبوعة من نفسه ملونة بأحاسيسه ,لتدل على أصالته فيها ,وقدرته البيانية في تركيبها, وبراعته في تقوية الفكر بالدليل الاستعاري وجلاء المعنى بالبرهان المحس

---

1 مسند الإمام أحمد بن حنبل أحمد,207/4.

2 والغرة بالضم: بياض في الجبهة، وفي الصحاح: في جبهة الفرس؛ وغُرّةُ الفرسِ: البياضُ الذي يكون في وجهه. الخيل: المُحَجَّل؛ قال ابن الأثير: هو الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين لأنها مواضع الأحجال , ومنه الحديث: أُمتي الغُرُّ المُحَجَّلون أَي بِيض مواضع الوضوء من الأيدي والوجه والأقدام، استعار أَثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه.اللسان,(غرر-حجل).

3 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر,166.

المتخيل, والوحي بأعمق الحقائق وأبعدها غورا"[1]، ومما زاد الصورة جمالاً وأنسًا أن عناصرها استقت من مواد الطبيعة المحسوسة, ومشاهد الحياة الملموسة لتعبر بالمواد والمشاهد عن الحقيقة المجردة والفكرة المرادة[2].

وتتوشح الصورة الاستعارية في مقام آخر من الخطاب النبوي الشريف معنى النهي والتحذير بقوله ρ لوافد بالحارث بن كعب:" لا تبع دينك بدنياك"[3] مستعيرًا ρ صفة السلع؛ ليلبسها معنى الدين الذي قد يشري به صاحبه الدنيا فيفرط فيه, وهذه الاستعارة التجسيمية جعلت الصورة نابضة بالحركة, ذات تأثير وجداني في المخاطب والسامع, فقد استطاع ρ أن يصور الدين جسمًا محسوسًا قابلاً للبيع والشراء, ولعل في اختياره ρ لمفهوم البيع والشراء, أو فكرة المال، أو فكرة التجارة –عمومًا- أثرًا أعمق , لما لا يخفى ما للمال من تأثير في النفس البشرية, إذ يقف الإنسان أمامه حذرا من احتمال حدوث الخسارة, والنبي ρ يسقط هذا الشعور تجاه المال على مفهوم الدين, الذي لا يقبل المزايدة ولا البيع أو الشراء حتى وإن كان الثمن الدنيا بأسرها.

وتلوح صورة استعارية أخرى في حواره ρ لعدي بن حاتم الطائي, ويجعل المال فيها طرفًا من أطراف الاستعارة, لكنه إن أتى في الصورة الاستعارية السابقة مشبها به, فهو في هذه الصورة مشبهًا, وإن ورد ت الصورة السابقة محذرة, فالصورة هنا مرغبة, في قوله ρ :" لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه"[4]، فالصورة استعارت لازمًا من لوازم الماء وهو الفيضان لتخلعه على المال, مما أضاف إلى المشهد الحركي قيمته التأكيدية, إنها صورة تكشف عن مدى تعاظم حال المسلمين, وقوة شوكتهم, فضلاً عن الخير الذي سيجدونه في مستقبل

---

1 المصدر السابق 167.
2 المصدر السابق نفسه.
3 الطبقات الكبرى1/339-340 .
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء2/ 287 -288.

زمانهم, رسم معالمها ρ من واقع البيئة؛ لتكون أشد أثرًا في المتلقي, فاستعار لها صفة الماء لأن له وزنًا وكثافة, وشكلاً وحجمًا أقوى وأوسع إدراكًا في باب المحسات من غيره, فجاءت الصورة لتحيي النفس بالأمل, وتسد الحاجة بالعطاء, وتبشر بتبدل الحال مما يذهب اليأس ويزيل الشك عن واقع الإسلام وما سيؤول إليه.

وكان لمقام المديح حظ من استعارات النبي ρ،ومن ذلك قوله :" نعم الحي همدان! ما أسرعها إلى النصر, وأصبرها على الجهد, ومنهم أبدال وأوتاد الإسلام"[1]. في هذه الصورة جاءت الاستعارة المكنية مركبة متداخلة, ففي الصورة الأولى يستعير الخيمة يشبه بها الإسلام، فيحذف المشبه به ويأتي بلازم من لوازمه وهي الأوتاد, فيجعل للإسلام أوتادًا لينطلق من هذه الاستعارة المكنية إلى استعارة أخرى إذ يشبه رجال همدان بأوتاد الإسلام ، فكما لا يمكن للخيمة أن تنهض وتستقيم إلا بأوتادها , فإن من شأن الإسلام أن ينهض بأوتاده من همدان, ليذهب خيال المتقي إلى تلك المكانة العظيمة, والمنزلة السامية, التي يتبوأها بنو همدان في الإسلام.لقد استطاعت الصورة أن توضح منزلة هذا الوفد بطريقة حسية, فخرجت بالمعنى المعقول إلى المحسوس, من حيث ربطت الممدوحين بأوتاد الإسلام، فاختزلت كثيرًا من المعاني بالقليل من الألفاظ, لأن هذا التشبيه بالخيمة وأوتادها يستدعي كامل خبرات المتلقي بأهمية الوتد للنهوض بالخيمة واستقامتها, مما يوحي بمعاني الرفعة والأهمية والسمو في هذه الصورة المعجبة.

وتستمر الصورة الاستعارية في مقام المديح، فتلتحم بالصورة الحقيقية لتنهضا بمعالم الصورة على أكمل وجه, في قوله ρ واصفًا جبلي جهينة الأشعر والأجرد:" هما من جبال الجنة لا تطؤهما فتنة"[2]، إذ تنطق الصورة من الحقيقة التي منحت هذين الجبلين قيمة عظيمة, مع ما أثارته في نفس السامع من خيال لتصور منظر الجبال التي يعرفها في واقعه وحياته,

1 الطبقات الكبرى 1/ 341 .
2 الطبقات الكبرى, 333/1.

لكنها بالشكل الذي جاءت به عن طريق الصورة لم يبق له منها إلا مسماها فقط, إذ استطاع ρ أن يصور منظر الجنة بما فيها من جبال يعجز الحس عن إدراك تصورها ,ثم ينسب هذين الجبلين لجبال الجنة, مما يمنحهما تلك الصفات الغيبية التي لا تدرك بالحواس ولكن الخيال يحاول أن يصنعها، ثم ينتقل من الصورة الحقيقية المعتمدة على الواقع الغيبي إلى صورة استعارية, مجسمًا من خلالها معنى الفتنة؛ ليستعير لها صفة الوطء, وهذا التجسيم مع ما يوحي به من وجود حسي, إذ استطاعت الصورة الاستعارية التجسيمية أن تمنح المشبه به حضورا حسيا, وأهمية نقلته من معقول إلى محسوس, وبالرغم من ذلك فإن هذه الفتنة جاءت قاصرة عن بلوغ هذين الجبلين لما يتمتعان به من منعة مستمدة من الخالق -جل شأنه-. لقد تمكنت الاستعارة أن تبث الروح في معنى الفتنة وتمنحها الحركة مما أسهم في تحريك ذهن المتلقي وتصوره مدى أهمية هذين الجبلين.

وتمثلت الاستعارة-على قلة- في خطابات الوفود كان من أبرزها ما جاء في خطاب همدان:" يا رسول الله! نصية من همدان, من كل حاضر وباد, أتوك على قلص نواج, متصلة بحبائل الإسلام"[1]، فالصورة الاستعارية تبدت بقولهم "متصلة بحبائل الإسلام" فكان للتجسيم دور في إبراز مدى تمسكهم بدينهم وبأوامره وفرائضه, وكان من بالغ تمسكهم بذلك الدين أن خرجوا بالمعنى من جانب العقل إلى جانب الحس, إذ من شأن المشاهد المحسوس أن يكون أكثر وضوحًا وبروزًا من المجرد المعقول, لذلك جسم معنى الإسلام واستعار له لازمًا من لوازم الأجسام وهي الحبال, فذلك الارتباط بالدين لم يقف عند حدود الارتباط المعنوي بل تجاوزه ليصل إلى الارتباط المادي الأكثر وضوحًا وجلاء.

ج- الصورة الكنائية:

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/300-301.

الكناية "كل لفظ دل على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز, بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز"[1]، والكناية من وسائل تصوير المعنى, وهي أبلغ من التصريح في الدلالة عليه, ومرجعها إلى المعنى لا إلى اللفظ , فإذا أراد المتكلم "إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع في اللغة, ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ,فيومئ به إليه ويجعله دليلا عليه"[2]، والكناية "لون بديع من ألوان الخيال, ووسيلة من وسائله الخصبة, التي لا تقل عن الاستعارة في الأثر النفسي "[3]. والمتكلم عندما ينصرف عن اللفظ الموضوع للمعنى إلى لفظ آخر مخفيًا معه المعنى الصريح, فإن ذلك يجنبه كثيرًا مما يخشى التصريح به, أو مما لا ترضاه عباراته من الفحش والابتذال, وهو في الوقت نفسه يستثير الشوق في نفس القارئ والمتلقي, ليجد كل منهما المتعة الفنية التي تتحقق بعد البحث والتأمل والإدراك, فيبقى أثرها في النفس ويستمر الاستمتاع بها وقتا طويلاً[4]. والتعبير بالكناية "له منزلة التصوير بالاستعارة , فكل منهما يصدر عن ذائقة فنية, وقيمة بلاغية, تتعلق بفن القول"[5]. وقد عنيت الدراسات الحديثة بصورة الكناية ودلالاتها الإيحائية في نفس المتلقي واكتفت بالرد عن موضوعاتها دون النظر إلى تقسيمها "فالأمر يتعلق أولاً وأخيرًا بإدراك دلالة التعبير الكنائي, دون حاجة إلى تضييقه وتحديد هويته"[6].

وقد برزت الكناية في أدب الوفادة, وترددت صورها بين الخطاب النبوي وخطاب الوفود, بيد أن حضورها كان في الخطاب النبوي أكبر, فضلاً عن تكثيفها في فن الرسائل, إذ عمد ρ في رسائل متعددة إلى التلميح دون التصريح, فاستعان بالكناية سبيلاً لذلك كقوله -عليه الصلاة والسلام- لهوذة بن علي:" واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر"[7]. إنها

1 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر, 172/2.
2 دلائل الإعجاز, 66.
3 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 177.
4 علم البيان دراسة تحليلية فنية في أصول البلاغة العربية, 230.
5 أصول البيان العربي, 111.
6 التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ,137.
7 عيون الأثر في فنون المغازي والسير ,342/2 الخف للإبل والحافر للخيل اللسان,(حفر).

كناية تشي بالغلبة والقوة والمنعة التي سيبلغها الإسلام وهي تعريض بالتهديد, وتصوير كنائي لحال المخاطب وقومه إن لم يستجب للدعوة,فبلوغ الدين الإسلامي للخف والحافر دليل على بلوغه أقصى ما يمكن, بل إن انتقاء لفظ الحافر- بما يحمله من أصل المعنى الذي وضع للخيل وهو أنها من شدة دوسها تحفر الأرض فضلاً عن التنوع بين الخف الذي اختص بالإبل والحافر المختص بالخيل لم يأت عبثًا بل أسهم في توكيد معنى القوة والغلبة, وقد تعاضد التصوير المعتمد على الحس مع قوة المعنى بما يحمله من تهديد لتبرز الكناية بهذا التأثير.

وظهرت الصورة الكنائية كذلك في رسالته ρ لملكي عمان, وحملت الصيغة التهديدية كما في الرسالة السابقة, بيد أنها جاءت أكثر وضوحًا بقوله:" وإن أبيتما أن تُقِرَّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما, وخيلي تحل بساحتكم"[1]، فلم يصرح -عليه الصلاة والسلام- بمبدأ الحرب بلفظه, لكنه كنى عنه ببلوغ خيله لساحتهم, ولهم أن يتخيلوا ما سيترتب على ذلك, إذ هذه الصورة الكنائية تثير الخوف في النفس, مع ما تقرره من مبدأ الدعوة الإسلامية، فإما الإسلام الذي يضمن بقاء الملك لأصحابه وإما القتال وانتزاع الملك.

وتتضافر آلية الاستعارة مع آلية الكناية لتنتجا صورة عميقة الدلالة في قوله ρ في أحد كتبه: " ولا يحبس دركم ما لم تضمروا الإماق وتأكلوا الرباق"[2]، فانطلقت الصورة من الاستعارة المكنية, إذ استعار صفة الأكل لنقض العهد, ثم جاء باستعارة تصريحية صرح فيها بالمشبه به وهو الرباق[3]، وحذف المشبه وهو ما يلزم عنق الإنسان من العهد, لتتبدى الكناية بعد جلاء الصورة باستعاراتها المتلونة, مكنيًا بأكل الرباق عن نقض العهد والميثاق, ولا شك أن في انتقائه ρ للفظ الرباق-مع ما يوحي به من إلزام في العنق- دون غيره دلالة عميقة توحي بخطورة وأهمية المعنى المراد. لقد تكاثفت الصور المجازية في هذا النص؛ لتتولد من خلالها

1 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل, 340/2 .

2 الفائق في غريب الحديث, 2/ 278.

3 والرِّبْقُ، بالكسر، كل ذلك: الحبْلُ والحَلْقةُ تشدّ بها الغنم الصغار لئلا تَرْضَع.. فإن البهيمة إذا أَكلت الرِّبق خلَصت من الشَّدّ. اللسان ,(ربق).

البنية الكبرى التي أعطت المتلقي فكرة عن أهمية التزام العهد والميثاق, إذ بدأت الصورة برسم خطوطها الأولية منذ مطلع الخطاب المشروط تحققه بتحقق هذه الصورة, فضلاً عن أنه كنى في قوله: "تضمروا الإماق"[1] عن ضرورة تقديم الصدقة برضا وقناعة بعيدا عن إضمار الأنفة من دفعها, أو البكاء حسرة عليها, وبذلك تكتمل الصورة العامة التي أراد ρ أن يرسلها لبني نهد حول ما يجب لهم وعليهم.

وتستمر الصورة الكنائية ملقية بظلالها في كتاباته ρ إلى الوفود, وفيما يجب لهم, فنراه يكتب إلى مهرة قائلاً:" على من آمن به من مهرة ألا يؤكلوا ولا يعركوا"[2]، فكنى ρ بقوله: يؤكلوا بالإغارة أي لا يغار عليهم, وبقوله لا يعركوا أي لا يحاربوا, إذ اشتق الفعل المبني للمجهول من المعركة , وقد تمكنت الصورة الكنائية من الوصول بالمعنى إلى أبعد دلالاته مع أقل الألفاظ , فتبدت قدرته الإيجازية -عليه الصلاة والسلام- دون إخلال بالمعنى أو إنقاص منه, والصورة الكنائية هنا اتخذت وجهين يصلح كل واحد منهما أن يكون موفقًا في تأدية الغرض وهو إعطاء الأمان لقبيلة مهرة, والنهي عن الاعتداء عليهم , بيد أن النبي ρ استدعى الوجهين زيادة في تأكيد حق مهرة, مما أضاف إلى الكتاب قيمته الدلالية , ومنح الوفد العهد والميثاق والأمان, فأدت الصورة الكنائية فضلاً عن قيمتها الفنية وظيفة اجتماعية عالية, إذ قررت مبدأ من مبادئ الإسلام الرفيعة في نظامه الاجتماعي الذي منح للناس حرياتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك أو تمس بسوء .

وفي مقام الإقناع بالحجة, يعمد ρ إلى الصورة الكنائية حتى يكون تأثيرها أعمق في نفس المتلقي, فنراه يحذر من أخذ الصدقة مع الغنى عنها, بقوله مخاطبًا السائل: "إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب, ولا نبي مرسل, حتى جزأها على ثمانية أجزاء فإن كنت جزءًا منها

---

1 المَأق:ما يعتري الإنسانَ بعد البكاء, ويقال إنّ المَأْقة: شِدّة البُكاء.والآخر قولهم:أمْأَقَ:إذا دَخَل في المَأْقة، وهي الأنفَة, وفي الحديث:"ما لم تُضْمرُوا الإمَاق"،أي لم تُضمِروا أنفةً مما يلزمكم من صَدَقةٍ. مقاييس اللغة (مأق). وقيل : يعني الغيظ والبكاء ممَّا يلزمكم من الصَدَقة. ويقال أراد به الغدر والنكث.القاموس المحيط, (مأق).
2 الطبقات الكبرى, 1 /355.

أعطيتك, وإن كنت عنها غنيًّا فإنما هو صداع في الرأس, وداء في البطن"[1]، فكنى ρ عما يترتب على أخذ الصدقة من غير حاجة لها بهذه الصورة المخيفة التي تنم على عاقبة مؤلمة, فالنبي -عليه الصلاة والسلام- إذ يكني عن هذا المعنى بصداع الرأس وداء البطن, إنما أراد أن يشير إلى أن الرغبة الفطرية في حب المال التي قد تدفع صاحبها إلى أخذ ما لا يحق له إنما هي في حقيقتها وبال عليه, ليس فقط بالكناية عن داء البطن المناسب لمعنى أكل الصدقة, بل وقبلها صداع في الرأس لأنه مناط التفكير والمركز الذي يحرك في صاحبه هذه الرغبة في الحصول على ما ليس له, وبناء على ذلك فإن هذه الأوامر التي يرسلها الدماغ ستكون سببا في صداع الرأس وآلامه.

وبرزت الكناية في خطابات بعض الوفود -على قلة- وكان من أبرز السياقات التي استدعت الصورة الكنائية مقام الفخر كما في قول عطارد بن حاجب خطيب تميم :" ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم"[2] مكنيًا بهذه الصورة عن سيادتهم وترؤسهم فهم بين الناس كمنزلة الرأس من الجسد, ناقلا المعنى المجرد إلى صورة محسوسة على سبيل المبالغة في الفخر وفي وصف المكانة, ولعل في اختيار الخطيب لهذه الصورة الكنائية- دون غيرها من الصور الموحية بالسيادة والفضل –ما يشير إلى أهمية قومه لباقي القبائل فهم إذ يتسيدون غيرهم فبالمقابل لا غنى لغيرهم عنهم كما لاغنى للجسد عن الرأس, ولعل هذا المعنى الخبري قد استمد قيمته من الصورة الكنائية التي جاء متشحًا بها إذ" تمتاز الكناية في قدرتها على تجسيم المعاني وإخراجها صورة نابضة بالحياة والحركة, ومن أهم خصائص تفخيم المعنى في نفس المتلقي "[3].

وجاءت الصورة الكنائية كذلك تأدبا في الحوار مع رسول الله ρ, وتحرزًا من التعبير بالحقيقة لذلك استعان ثمامة بن أثال بالكناية في قوله لرسول الله ρ بعد أن ربطه بسارية في

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/289-290.

2 تاريخ الأمم والملوك, 2/188-189.

3 البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية، 90.

المسجد وقال له:" ماعندك ياثمامة؟ قال: عندي خير يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم, وإن تنعم تنعم على شاكر"[1]، ففي قوله تقتل ذا دم كناية عن منعته ومكانته عند قومه الذين سيثأرون له ويطالبون بدمه, بيد أنه تأدب في خطابه مع رسول الله ρ ولم يهدده بلفظ مباشر صريح, لكنه كنى عن هذا المعنى وخرج وانزاح باللفظ المباشر إلى اللفظ الكنائي مع الاحتفاظ بالمعنى.

ثالثًا: الصورة وعلاقتها بالحواس:

يقول ابن طباطبا: "واعلم أن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها, وأدركه عيانها, ومرت به تجاربها, وهم أهل وبر صحونهم البوادي وسقوفهم السماء, فليست تعدو أوصافهم ما رأوه منها وفيها"[2]، فجل الشعر العربي هو في حقيقته حكاية لما تقع عليه حواس الشاعر, و إسقاطات لما اكتسبه في حياته وبيئته, وأدركه بحسه. وخلو الصورة من عناصر الحس "لا يترك فيها روحًا من فن التصوير ولا يذر مسحة من قدرة التعبير, فيلتقي فيها أشتات من اللفظ اجتمعت بلا روح, ومتفرقات من الكلم التقت بلا حياة, ولا يتحقق كل من الروح والحياة في الشيء إلا باجتماع خصائصه وصفاته التي بها يتم التعرف عليها, ولو لبعض الخصائص والصفات, كاللون والحركة, والشكل والحجم والموقع, والطعم ,والرائحة, وما هذه إلا خصائص المحسات في الواقع, وبها يتميز الشيء عن غيره, والألفاظ في الصورة كانت في الأصل محسات ثم انتقلت إلى الذهن فتجردت من محساتها مع القدرة على استحضار المنظر المحس للفظ"[3]. والصورة في حقيقتها كما يعرفها بعض النقاد ما هي إلا إبراز المعنى العقلي –أو الحسي– في صورة محسة، وهي خلق المعنى والأفكار المجردة، أو الواقع الخارجي– من خلال النفس– خلقًا جديدًا.[4]

---

1 البداية والنهاية 5/48-49.
2 عيار الشعر,16.
3 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 220.
4 دفاع عن البلاغة, 62 .

وبالنظر إلى الصورة في عمومها –حقيقية أو مجازيها بأنواعها المختلفة-في أدب الوفادة على رسول الله ρ يلاحظ أنها اعتمدت على الحس في غالبها, ويمكن الوقوف على أهم الحواس التي أفادت منها الصورة عامة على النحو الآتي:

أ- الصورة البصرية:

عني العرب بتقديم الانطباع البصري على غيره من الانطباعات الحسية, إذ الإحساس البصري أقوى من غيره, وأسهل الحواس وأوضحها وأكثرها رسوخًا في الذهن, وقد طلبوا الوضوح في آدابهم فاستعانوا بالحواس لتحقيق ذلك الوضوح, فأولوا البصر عناية كبيرة واعتمدوا عليه في تصوير المحسوسات وتجسيد المجردات .

وللبصر أهميته في تكوين الصورة الفنية, فالشاعر ينقل للمتلقي ما يراه ذاكرًا أوصافه وأحواله المرئية, مبرزًا الأمور العقلية في صور مرئية, من خلال ذكر الصفات الشكلية أو اللونية[1]. وقد تفوق المشهد البصري وغلب على مظاهر الصورة الحسية في أدب الوفادة, ونلمح العنصر الحركي في بعض المشاهات البصرية والحركة "عنصر من العناصر الأساسية التي ينبغي ألا تخلو منها الصورة, ولا تشعر بها النفس إلا عقب سكون فالحركة تستلزم سكونًا, والأمر كذلك بالعكس, إذا فالحركة والسكون أمران مُسَلَّمان في كل الأشياء الماثلة لمرأى العين والحس"[2]، فالنبي ρ عندما يصور لأصحابه دخول جرير بن عبد الله قبل وصوله قائلاً: " إنه سيدخل عليكم من هذا الفج أو من هذا الباب من خير ذوي يمن على وجهه مسحة ملك" [3]، فإنه يرسم لهم صورة بصرية حركية ماثلة للعيان قبل حدوثها, تضافرت فيها حركة دخول الوافد, مع تصوير هيئته بما تحمله ملامح وجهه من سمات الملك, مما أعطى الصورة أهميتها, وزادها تشويقًا وترقبًا لرؤية ذلك الوافد المنتظر.

---

1 الصورة الفنية في الشعر العربي القديم, 89 .
2 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 222.
3 المصنف في الأحاديث والآثار, 49/2.

وكذلك عمد عليه -أفضل الصلاة والسلام- في صورة أخرى إلى رسم معالم الوفد قبل وصوله مما يعطي أهمية وترقبًا لذلك الوفد القادم, كقوله قبل قدوم وفد عبد القيس: " ليأتين ركب من المشركين لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا الركاب وأفنوا الزاد بصاحبهم علامة "[1].

فالصورة البصرية هنا جاءت تموج بالحركة في مشهد رسم ρ معالمه منتقيًا أبرز الصور المرئية الدالة على التعب والإعياء, مكنيًا عن مشقة سفرهم وما وجدوه من عناء بصورة الركاب وقد أعياها المسير قائلاً: "أنضوا الركاب"[2] ، ولاشك أن هزال وتعب الركاب متلازم وحال الركب, ثم يعزز هذه الصورة البصرية بمؤثر ثان وهو فناء الزاد، مما أسهم في زيادة التعب ورسم المشقة البالغة على هيئة هذا الوفد, وكل هذه المؤثرات الحركية البصرية كان لها دور في إثراء الصورة, والكشف عن عمق دلالاتها .

وتتراءى الصورة البصرية بشكل مكثف في خطاب وافد بني نهد طهفة بن زهير النهدي واصفًا مشقة سفرهم, وما عانوه لبلوغ النبي ρ, مستعينًا بمشاهدات البيئة مستقيًا منها مادة خصبة لتصويره قائلاً: "أتيناك يا رسول الله من غوري تهامة, بأكوار الميس ترتمي بنا العيس, نستحلب الصبير ,ونستخلب الخبير, ونستعضد البرير, ونستخيل الرهام ونستحيل أو نستجيل الجهام, من أرض عائلة النطاء, غليظة الوطاء"[3] فالمشهد هنا زاخر بالحركة , منطلق من وصف المكان ثم تصوير الرحلة تصويرًا بصريًّا حركيًّا آخذًا " شكل الدرجة المألوفة في الواقع سرعة وبطئًا، وهذا ما يسمى بالصدق الفني في التصوير"[4] فضلاً عن رسم صورة البيئة التي اجتازها الوفد في رحلته بكامل مشاهداتها، مما منح المتلقي فرصة

---

1 الطبقات الكبرى , 314/1-315.
2 والنِّضْوُ الدابة التي هَزَلَتْها الأَسفار وأَذْهَبَتْ لحمها. اللسان, (نضا).
3 الفائق في غريب الحديث,2/ 277 -278 .
4 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 224.

مشاركة ذلك الوفد رحلته مشاركة وجدانية تمثلها من خلال الصورة البصرية التي اعتمدها الخطيب في وصف رحلته .

ويبرز اللون عنصرًا بصريًّا في الصورة, فلا يعدم دلالاته المؤثرة, التي من شأنها أن تثري الصورة فنيًّا وفكريًّا , كما في قوله ρ : "اللهم اجعلنا من عبادك المنتخبين الغر المحجلين"[1] فتتبدا صورة البياض المشعر بالسعادة والنقاء والطهر, بل وبالتميز, فكما تتميز الخيل ببياض في وجهها أو قوائمها, فإن المؤمن يتميز يوم القيامة ببياض مواضع الطهور منه , وهذه الصورة البصرية التي توحد فيها طرفا الصورة بلون البياض أعطت دلالة عميقة لمكانة عباد الله المؤمنين المتطهرين يوم القيامة, فضلاً عما اكتسبته الصورة من أهمية بفعل الدعاء الذي سبقها.

وفي المقابل تأتي صورة السواد مشعرة بالتعب والخوف والعناء في قول الوافد مصورًا لرسول الله ρ عناء المسير إليه: "أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء ولم تبعث إلينا بعثًا"[2] فاتشحت الصورة الاستعارية بلون السواد, لتوحي بما عاناه الوفد في تلك الرحلة من تعب وطول سفر, بل في استعارة تدرع الليل ووصف الليل بالبهيم[3] ما يشعر بشدة ظلمته ويؤكد معنى الصورة التي أراد أن يوصلها المتكلم إلى الرسول ρ.

ب- الصورة السمعية:

"تسهم الصورة السمعية في نقل المشهد بأسلوب مؤثر, يستجلب فيه المتلقي ما حوته الصورة من أصوات "[4]، وإذا كانت العين ترى الجمال فتتأثر به، فللأذن أن تراه أيضًا وتتأثر به، وإن أوتار السمع مزدوجة الوظيفة, فكما تنقل المسموع تفرز ما بين المسموعات من

1 مسند الإمام أحمد, 450/4.
2 الطبقات الكبرى ,292/1 .
3 وليلٌ بَهيم: لا ضَوء فيه إلى الصَّباح والبَهِيمُ ما كان لَونًا واحدًا لا يُخالِطه غيره سَوادًا كان أَو بياضًا، ويقال للَّيالي الثلاث التي لا يَطْلُع فيها القمر بُهَمٌ، وهي جمع بُهْمةٍ.اللسان ,(بهم).
4 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 353.

الفروقات الجمالية الدقيقة[1]. والجمال محسوس متميز في مادته وصورته، تراه العين، أو تسمعه الأذن[2]، والسماع يعوّض عن الرؤية، خاصة إذا كان بعيدًا تتعذر رؤيته، "والإنسان يستطيع أن يدرك عن طريق الكلام أفكارًا أرقى وأسمى, مما قد يدركه بالنظر، الذي مهما عبر فتعبيره محدود المعاني غامضها"[3]، وقد تجلت الصورة السمعية في أدب الوفادة في قوله ρ : "لا إله إلا هو العلي العظيم وسع كرسيه السموات والأرض فهي تئط من عظمته وجلاله كما يئط الرحل الجديد"[4]. لقد انطلقت هذه الصورة السمعية مستقيًا ρ روافدها من إحساسه العميق بتأثير اللغة, من خلال انتقائه -عليه الصلاة والسلام- للأصوات ذات الدلالات السمعية والإيقاعية المؤثرة في قوله" تئط"، وهي حروف كلها شديدة [5] تتناسب وشدة تسبيح وتعظيم السموات والأرض للخالق -عز وجل-, كما استمد ρ هذه الصورة السمعية من الظروف البيئية, وتفاصيل الحياة اليومية التي يعيشها المخاطب, فامتزج هذان الرافدان ليكونا صورة سمعية الطرف الأول فيها من العالم العلوي الغيبي, والطرف الثاني من العالم الأرضي المحسوس, لتكون الصورة أكثر وقعًا وتأثيرًا.

ج- الصورة الذوقية:

"اللسان تطيب له اللذة, ويحلو له المذاق, واتفق الذوق العام على استطابة بعض المطعومات واستكراه بعضها الآخر"[6]، وقد برزت الصورة الذوقية موحية بعناء رحلة بني نهد إلى رسول الله ρ في قول خطيبهم واصفًا جدب بلادهم بقوله: " ونستخلب الخبير ونستعضد البرير"[7].

---

1 بلاغة أرسطو بين العرب واليونان, 91.
2 في النقد الأدبي,77.
3 الأصوات اللغوية, 15.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/275-274.
5 الأصوات الشديدة مجموعة في قولك :أجدت طبقك. سر صناعة الإعراب, 1-61.
6 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 353.
7 الفائق في غريب الحديث,2/ 277 -278 .

وينتقل -عليه الصلاة والسلام- بالصورة إلى مذاق مختلف, محاولاً -عليه الصلاة والسلام- إقناع السائل بالشرب في الموكى, والنهي عن آنية الحنتم والنقير والمزفت بقوله: " انتبذ في سقائك وأوكه واشربه حلوًا طيبًا "[1]، فعمد ρ إلى رسم صورة ذوقية لما تتشوق إليه النفوس, وتشرئب إليه الأفواه من الشراب الحلو الطيب.

د- الصورة الشمية:

حاسة الشم من أرهف الحواس, فالأنف تذوب في رائحة الطيب من المشمومات, وتنعم في ريحان المشتهيات, حتى يشعر المتلقي بطيبها ونفحها, فتقوى حاسة الشم وتحيا إن كانت مما تألف التمايز بين الروائح والعطور وبين النتن والمكروه [2]. والنبي ρ عندما امتدح الأشعريين خرج بالمعاني العقلية المجردة, إلى معنى حسي شمي, مستعينًا بهذه الحاسة في تجلي المعنى وعمقه قائلاً: " الأشعرون في الناس كصرة فيها مسك"[3]. لقد استطاعت هذه الصورة الشمية أن تنطق بأخلاق الأشعريين وتميزهم بين الناس بالذكر العطر, فكان لهم ذلك الاستحقاق بالثناء من النبي ρ.

رابعًا:مرجعيات الصورة:

استرفد الأدباء في جميع العصور أدبهم من منابع تعود كلها إلى مرجعيتين هما:

1- المرجعية الكونية.

2- المرجعية الإنسانية.

وصور التشبيه حينما تستمد من عناصر كونية أو نفسية عامة يشترك في إدراكها والإحساس بها كافة المتذوقين, كالتشبيه بالشمس والبدر والجبال والأنهار ...وأحوال الخوف والأمن والغضب.. وما شابه ذلك مما هو شركة بين الناس والأمم يكون هذا الاستمداد من هذه

1 مسند الإمام أحمد,276/3.
2 البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر, 230.
3 الطبقات الكبرى, 1/ 348.

العناصر أحفظ لبقائها وحيويتها, وتأثيرها في أجيال الناس والأمم..وليس اختلاف العصر والبيئة والأطوار الحضارية بحائل بيننا وبين التذوق والاستمتاع بهذه الصور, لأنها كانت أخلد من الزمان والمكان, حيث استمدها الأديب من العناصر الكونية والإنسانية العامة[1].

ويمكن تلمس أثر هاتين المرجعيتين في أدب الوفادة في عصر النبوة على النحو الآتي:

1- الصور ذات المرجعية الكونية:

الكون بما فيه من مظاهر مصدر لمعظم الصور الفنية, والبيئة الطبيعية بما فيها من مدركات حسية, وما تحتويه من سماء وأرض, و صحراء مترامية، وجبال، وكثبان، وجدب، وآبار، ومواضع ماء، ووديان، ورياح، وأنواء مختلفة، وشجر ونبات، وحيوانات مختلفة الأشكال كانت وعاء لنصوص الأدباء شعراء وخطباء منذ العصر الجاهلي, فاستمدوا ألفاظهم وصورهم وتشبيهاتهم من هويتهم التي ميزت الحياة البدوية أو الحضرية على حد سواء.

ولا عجب أن يشكل الكون مرجعية لكثير من صور الخطاب النبوي الشريف مع الوفود, فقد شغل -عليه الصلاة والسلام- بالتأمل والتفكر في الكون منذ حداثة سنه وشبابه , وكان يقضي الليالي والأيام وحيدًا في غار حراء متأملاً مظاهر الكون العظيمة, فجاءت صوره ρ مستقاة من الكون ومعالمه, فضلاً عن تأثير المظاهر الكونية في صور الوفود كذلك, ومن أبرز مصادر الصورة الكونية في أدب الوفادة ما يأتي:

الحيوان:

برزت صورة الحيوان بشكل واضح في صور الخطاب الوفادي من جانب النبي ρ , أو من جانب الوفود وكان من أبرز الحيوانات التي ورد ذكرها:

الإبل والشاء, ومن ذلك قوله ρ :" الله يا معشر الأنصار! أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ قالوا: رضينا يا رسول الله بك حظًّا وقسمًا،

---

1 التصوير البياني, 151.

فقال رسول الله: اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار"[1]. وقول وفد خولان:" وقد ضربنا إليك آباط الإبل"[2]، وأشار وافد بني نهد إلى الإبل بقوله:" ترتمي بنا العيس"[3].

وجاء ذكر الخيل والإبل كذلك في معرض خطاباته ρ ولاسيما المكتوبة كقوله لجيفر وعبد ابني الجلندى: "وخيلي تحل بساحتكم"[4]، كما ورد ذكر الخيل من خلال ذكر عضو من أعضائه كقوله ρ لهوذة بن علي :" واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر"[5]، أو بذكر صفة من صفاته كقوله -عليه الصلاة والسلام-:" الغر المحجلين"[6]، وقوله :" وذو العنان الركوب"[7]، و:" الفلو الضبيس"[8].

وورد ذكر حيوانات أخرى فأشار بعض الوفود إلى الظباء كما في خطاب همدان في قول مالك بن نمط متحدثًا عن قومه:" أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهات الأنصاب عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع وما جرى اليعفور بصلع"[9]. واليعفور هو الظبي الذي لونه كلون العفر وهو التراب[10]، كما جاء ذكر الجرذان في خطابه ρ لوفد عبد القيس[11].

الماء:

ورد ذكر الماء بعمومه في تصويره ρ لعدي بن حاتم حال المسلمين وما سيؤولون إليه, "حتى إن المال ليفيض منهم كما يفيض الماء"[12], فيما أشارت الصورة في خطاب وافد

---

1 الطبقات الكبرى ,153/2-154.
2 المصدر السابق, 324/1 .
3 الفائق في غريب الحديث,2/ 277 -278.
4 عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير,340/2 .
5 المصدر السابق, 342/2 .
6 مسند الإمام أحمد,4/ 207.
7 الفائق في غريب الحديث ,2/ 278.
8 المصدر السابق نفسه.
9 بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 300/1-301.
10 لسان العرب, (عفر).
11 صحيح مسلم, 165/1.
12 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 287/2 -288

بنـي نهـد إلـى الرهـام مـن الأمطـار والصـبير مـن السـحاب قـائلاً: " نسـتحلب الصـبير و......
ونستخيل الرهام"[1].

الجبال:

أشار ρ إلى بعض الجبال من خلال الصور الفنية التي جاءت في خطابه الشريف فقال واصفًا جبال جهينة الأشعر والأجرد: " هما من جبـال الجنـة لا تطؤهمـا فتنـة"[2]. وأشـار مـالك بن نمط خطيب همدان إلى جبل" لعلع "مكنيًا بصموده عن احتفاظ قومـه بالعهد قـائلاً: "عهدهم لا ينقض ما أقام لعلع"[3]، فالصورة هنا مستمدة من حجم الجبل وثباتـه لتنبـئ عن حقيقة ثبات قومه على العهد والتزامه.

الأودية:

كما ذكرت الجبال, ورد ذكر الأودية كذلك, فقـال ρ للغلام الذي سـأله الغنـى لقلبـه فـي وفد تجيب:"إنـي لأرجو أن يمـوت جميعًـا، فقـال رجـل منـهم: أو لـيس يمـوت الرجـل جميعًـا يـا رسول الله؟ قال رسول الله ρ تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجلـه أن يدركـه فـي بعض تلك الأوديـة فـلا يبـالي الله -عز وجل- فـي أيهـا هلك"[4]. فاستمد النبـي ρ الصـورة مـن منظر الأودية وهي متشعبة ومنسابة بين الجبال مشبها بها أهواء الإنسان وهمومه فهي متشعبة فـي داخلـه, وهذه الرؤيـة التجسيمية للأهواء والهموم, أصـدق مـا يمكن أن يعبر عنـه فـي هذا المعنـى, فالإنسـان بداخلـه أوديـة سـحيقة عميقـة متشـعبة كلمـا زادت همومـه تفرعـت وزادت, فيرهقه ذلك الشعور ويزيده حزنًا وضنكًا.

1 الفـائق فـي غريـب الحـديث,2/ 277-278 و الصـبير: السـحاب الكثيـف المتراكـب وهـو مـن الصـبر بمعنـى الحبس كأن بعضـه صبر على بعض ومنه صبر الشـيء وهـو غلظـة وكثافتـه. والرهـام وهـى ضـعاف الأمطـار. اللسان: (صبر- رهم).
2 الطبقات الكبرى ,333/1.
3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ,47.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,270/2.

الليل:

وردت صورة الليل بظلمته وبما يحمله من معاني الوحشة والخوف في خطاب بني عامر بقولهم لرسول الله ρ : " أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء"[1]. فجسم الليل واستعار له صفة الدروع مما يوحي بشدة التحام الليل برحلتهم ومتابعته لهم فكأنهم تدرعوه بصدورهم في صورة تشي بعناء الرحلة.

النبات:

تنوع ذكر النبات في صور أدب الوفادة فذكر ρ التمر في أكثر من موضع [2]، فيما تضمن خطاب طفهة بن أبي زهير النهدي[3] مجموعة من أنواع النباتات البرية الصحراوية , كالخبير, والبرير, والجعثن, والأملوج, والعسلوج ,في كنايات متتابعة تنم على سوء الحال والجدب والقحط.

2- الصور ذات المرجعية الإنسانية:

هي مرجعية تتعلق بالإنسان في جميع أحواله الجسدية والنفسية والتكوينية– ثقافية أو تاريخية- وبالنظر إلى هذه المرجعية في صور أدب الوفادة على رسول الله ρ تبين أنها تعود – غالبًا- إلى نوعين:

نفسية, وتكوينية تاريخية, ويمكن تتبعها كالآتي:

أ- المرجعية النفسية:

الأديب إنسان يتكلم إلى الناس, وقد وهب مقدارًا أوفر من الحس والحماسة والحنان, والمعرفة بالطبيعة الإنسانية, ووهب نفسًا أوسع من غيره من الناس أفقًا, وهو مغتبط بمشاعره ونزعاته, وبما تضمنته روحه من أسرار الحياة , ويتأثر بالأشياء الغائبة كأنها حاضرة وعنده

---

1 الطبقات الكبرى ,292/1 .
2 ينظر: صحيح مسلم ,165/1.
3 الفائق في غريب الحديث,2/ 277 -278 .

استعداد أن ينشئ في نفسه نوازع قد تشابه ما تحدثه الحوادث الحقيقية, فاكتسب قدرة أكبر على التعبير عما يحس ويفكر[1].

والصور ذات المرجعية النفسية تتناول كل ما يتعلق بالنفس الإنسانية, وقد عرف العرب الجاهليون هذا النوع من الصور, "فتضمنت أشعارها من التشبيهات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها, في رخائها وشدتها, ورضاها وغضبها, وفرحها وغمها, وأمنها وخوفها, وصحتها وسقمها, والحالات المتصرفة في خَلقها وخُلقها, ومن حال الطفولة إلى الهرم, وفي حال الحياة إلى حال الموت , فشبهت الشيء بمثله تشبيهًا صادقًا على ما ذهبت إليه في معانيها التي أرادتها"[2] , وإذا كانت هذه حال شعراء الجاهلية, فكيف بمن يسترفد تلك المعاني ويصورها لمرام إنسانية عالمية, لا تعرف حدود الزمان ولا المكان, ولها أهداف دنيوية وأخروية منوطة بسمو الرسالة, وتبليغ الأمانة, والبيان النبوي الكريم حين يستبطن النفس البشرية, ويستقي منها صوره, يعلم يقينا أنه يخاطب الإنسان خطابًا ممتدًّا إلى أن تقوم الساعة, لذا فإن الناظر في صور هذا البيان يجد فيه ثروة عظيمة تستنطق دقائق النفس الإنسانية بما لا يوجد إلا فيها.

فالنبي ρ ينطلق من تقويم العلاقة بين المرء وزوجه ناهيًا عن ضرب الزوجة, في قوله ρ للوافد:" وَلاَ تَضْرِبْ ظَعِينَتَكَ كَضَرْبِكَ أُمَيَّتَكَ"[3]. إن من أكثر الممارسات التي قد تفسد العلاقة بين الزوجين -فضلاً عن تأثيرها في النفس البشرية بشكل سيء جدًّا -هي قضية ضرب الزوجة وإهانتها, وممارسة السلطة عليها بصورة تنافي الكرامة التي كفلها الدين الإسلامي للبشرية, فتتلاشى الثقة بين المرء وزوجه, وتصبح الحياة صعبة مكبلة بالحذر والخوف ,والنبي ρ إذ يأتي بهذه الصورة فإنه يختزل كل معانيها في التشبيه المبدوء بالنهي مما أعطاه أهمية ومنحه تأثيرًا عميقًا.

1 من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، 79.
2 عيار الشعر، 17.
3 مسند الإمام أحمد, 211/4.

"والإنسان في حياته بأجمعها يبحث عن الطريقة التي يحقق فيها صحة جسدية ونفسية, إن غاية غالبية البشر تهدف إلى تحقيق النفس المطمئنة, وهي النفس التي تتمتع بالصحة النفسية وسلامة العقل وراحة البال"[1]، وعندما لم يجد ذلك الشاب هذه الراحة وهذا الاطمئنان كان حواره مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- إذ قام :"بين يدي رسول الله ρ فقال بأعلى صوته : يا رسول الله ! أرأيت من لم يدع سيئة إلا عملها, ولا خطيئة إلا ركبها, ولا أشرف له سهم فما فوقه إلا اقتطعه بيمينه, ومن لو قسمت خطاياه على أهل المدينة لغمرتهم, فقال النبي ρ: أسلمت أو أنت مسلم ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ρ قال: اذهب فقد بدل الله سيئاتك حسنات، قال: يا رسول الله وغدراتي وفجراتي؟ قال: وغدراتك وفجراتك، ثلاثًا، فولى الشاب وهو يقول: الله أكبر! فلم أزل أسمعه يكبر حتى توارى عني أو خفي عني"[2]. لقد أتى الشاب بصورة عظيمة عظم خطاياه وذنوبه, بل إنه جَسَّمَها في استعارة دلَّت على قمة الإحباط واليأس الذي بلغه, فجاءت الصورة متشحة بهذا الشعور, لكن النبي ρ عدل بالشاب من هذه الحال إلى حال مناقضة تمامًا, وانتقل به من ماضي مليء بالخطايا, إلى حاضر أبدلت فيه تلك الخطايا -على عظمها - إلى حسنات , متلمسًا ρ حاجة الشاب النفسية ومحتويًا تلك الانفعالات المختلطة من الخوف والرجاء الذي عبر عنها الاستفهام المشعر باليأس, لينزاح ρ بالصورة من سوداويتها إلى إشراقها, وبث الطمأنينة والسكينة والوداعة في نفس السائل, ولعل لرد فعل الشاب بعد هذا الحوار ما يؤكد أثر كلماته ρ.

وأدرك ρ أن "في الحياة الإنسانية الكثير من التعقيدات والخيارات التي تجعل النفس البشرية في حالة اختيار وتفكير دائم,ومع التفكير والتفكر تأتي المشاعر والرغبات والحاجات, ولابد للمرء حتى يعيش في صحة نفسية أن يوازن بين رغباته وإمكاناته, وإلا اضطربت كل

---

1 علم النفس النبوي, 126.
2 المعجم الكبير, 53/7 .

حياته, وسادتها الفوضى, وضيعت نفسه طريق النجاة"[1]،فتراه ρ يلجأ إلى وسائل التغيير في نفسية عدي بن حاتم الطائي, معتمدًا التصوير وسيلة للإقناع والكشف, فينتقل به من الشك إلى اليقين, ومن الحيرة إلى التأكيد, من خلال طرحه لثلاث قضايا هي من أبرز متطلبات النفس الإنسانية وهي: المال والأمن والملك, في قوله ρ : " لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم, فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف, ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم, وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. قال: فأسلمت"[2]. "إن وسائل تغيير الظواهر النفسية واضحة في الحديث, فأي إقناع عقلي ومنطقي يستخدمه رسول الله ρ، وأي كشف عقلي وانفعالي يجريه على عدي**!"**[3] فكانت النتيجة أن انتقل من التكذيب إلى التصديق, ومن الكفر إلى الإيمان, من خلال هذه الصور المتلاحقة.

وسيطرت بعض الرغبات الملحة على طلبات بعض الوفود, فعندما أدرك غلام وفد تجيب صعوبة السيطرة على رغبات النفس وهواها وحب امتلاك المال والسلطة, أراد أن يروض تلك الرغبات الجامحة من خلال دعاء النبي ρ له فقال :" إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفًا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي، قال: وما حاجتك؟ قال :تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فقال: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه"[4].

ب- المرجعية التاريخية:

1 علم النفس النبوي, 168.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 287/2 -288.
3 علم النفس النبوي, 172.
4 الطبقات الكبرى ,323/1 .

يرى لوسيان غولدمان "أن الأدب والفلسفة من حيث إنهما تعبيران عن رؤية للعالم -في مستويين مختلفين- فإنَّ هذه الرؤية ليست واقعة فردية, بل واقعة اجتماعية, تنتمي إلى مجموعة أو إلى طبقة"[1]. وبذلك يؤكد العلاقة القائمة بين الأديب والمجتمع, إذ رؤية الأديب تأتي ممثلة لرؤية الجماعة التي ينتمي إليها تاريخيًّا واجتماعيًّا. ويتميز الحس الأدبي والاجتماعي الصادق بمقدار تمكن الأديب من التعبير عن الرؤية الاجتماعية وتطلعاتها. وتأتي أهمية البناء الفني في العمل الأدبي إذ يشكل نسيجًا متلاحمًا لا يقتصر على العلاقات القائمة داخل بنية النص الأدبي، وإنما ينفتح على بنية أخرى أكثر اتساعًا هي البنية الاجتماعية التي تمثلها مجموعة اجتماعية محدّدة[2]، ومن ثم تتعانق البنيتان لتشكلا بنية دلالية كبرى. ومن هنا: "فإنَّ النص الأدبي يستمد معناه وبنيته الدلالية من رؤية العالم التي يعبّر عنها"[3] من خلال تفاعل ثلاثة أطراف هي: النص الأدبي, وفاعله, والتاريخ الاجتماعي.

وتقوم الصورة الفنية أحيانا متكئة على شخصية, أو حدث تاريخي, يوظفه الأديب كدلالة يتوصل بها- من خلال ما تعنيه تلك الشخصية أو الحدث من إيحاء- إلى المعاني التي يريد الإشارة إليها, شريطة أن يكون ذلك الرمز التاريخي ذا نزوع تأثيري واضح, ويعتبر الدكتور علي عشري "التراث منجم طاقات إيحائية لا ينفد له عطاء, فعناصر هذا التراث ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لا تنفد, وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم ما ليس لأية معطيات أخرى.. حيث تعيش هذه المعطيات التراثية في وجدانات الناس وأعماقهم, تحف بها هالة من القداسة والإكبار؛ لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي, ومن ثم فإن الشاعر حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية والشعورية عبر جسور من معطيات هذا التراث, فإنه يتوسل إلى ذلك بأكثر الوسائل فعالية وقدرة على التأثير والنفاذ.هذا بالإضافة إلى أن استخدام الرموز التراثية يضفي على

---

1 البنيوية التكوينية والنقد الأدبي, 48.

2 المصدر السابق, 75.

3 في البنيوية التركيبية (دراسة في منهج لوسيان غولدمان), 82.

العمل الشعري عراقة وأصالة, ويمثل نوعًا من امتداد الماضي في الحاضر, وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء, كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعًا من الشمول والكلية, حيث يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان, ويتعانق في إطارها الماضي والحاضر"[1].

وقد تعددت الصور التي استرفدت تاريخ الأمم الماضية في أدب الوفادة في عصر النبوة, واستمد الخطاب النبوي الشريف بعض صوره من المصادر التاريخية, فقال واعظًا رسله ومبعوثيه إلى الملوك والحكام :" إن الله بعثني رحمة وكافة فأدوا عني يرحمكم الله, ولا تختلفوا عليَّ كما اختلف الحواريون على عيسى، فقال أصحابه: وكيف اختلف الحواريون يا رسول الله ؟ فقال: دعاهم إلى الذي دعوتكم إليه, فأما من بعثه مبعثًا قريبًا فرضي وسلم, وأما من بعثه مبعثًا بعيدًا فكره وجهه وتثاقل فشكا ذلك عيسى إلى الله –تعالى- فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها"[2]. إن في استدعاء النبي ρ لقصة الحواريين من خلال تحذيره من التمثل والتشبه بفعلهم مع عيسى -عليه السلام-, ثم الانتقال إلى سياق القصة بعد استثارة الصحابة وسؤالهم, لحري أن يرسخ المعنى الذي أراده ρ في أذهان مبعوثيه؛ ليؤدوا الرسالة على الوجه الأكمل, وبمطلق الرضا والقناعة والرغبة .

ويستدعي ρ في دعائه سني يوسف السبع العجاف, وهي حدث تاريخي أشار إليه القرآن الكريم, ففيما يرويه ابن جريج قال: "أخبرني عبد الملك بن أبي بكر قال: فر عياش بن أبي ربيعة، وسلمة بن هشام، والوليد بن الوليد بن المغيرة من المشركين إلى النبي ρ وعياش، وسلمة متكفلان مرتدفان على بعير، والوليد يسوق بهما... فعلم النبي ρ بمخرجهم إليه وشأنهم قبل أن يعلم الناس، فصلى الصبح فركع أول ركعة منهما فلما رفع رأسه دعا لهم قبل أن يسجد فقال : اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد، اللهم أنج

---

1 عن بناء القصيدة العربية الحديثة, 121.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,302/2-303.

المستضـعفين مـن المـؤمنين، اللهـم اشـدد وطأتـك علـى مضـر واجعلهـا علـيهم سـنين كسـني يوسف"[1].

لقد اكتفى ρدعائه على مضر بالإشارة إلى تلك السنوات العجاف دون أن يصرح -عليه الصلاة والسلام- بمفهوم القحط والجوع والهلاك, متواريًا خلف التشبيه, مما يشي برحمتـه ρ حتـى بأعدائـه, فسني يوسف استمرت زمنًـا محددًا, وأعقبتها سبع سمان مما يوحي بإعطـاء فرصة العودة ومراجعة النفس لمضر.

وسيطرت قصص الأنبياء بما أوتوا من معجزات على بعض الوفود فاستدعوها في صورهم, وسألوا النبي ρأن يسأل الله مثلها, فقال قائل منهم:" يا رسول الله! ألا سألت ربك مًلكًا كملك سليمان؟ فضحك رسول الله ρ حتى بدت نواجذه فقال: لعل لصـاحبكم عند الله أفضـل من مُلك سليمان, إن الله -عز وجل- ما بعث نبيًّا إلا أعطاه دعوة, فمنهم من سأل بها الدنيا فأعطيها, ومنهم من دعا على قومه فهلكوا, وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي من مات لا يشرك بـالله - عز وجل-"[2]، فالصورة التي ارتبطت في ذهن السائل عن سليمان - عليـه السـلام- ومـا أوتـي من مُلك, سيطرت على حواره مع رسول الله ρ واستدعاها سبيلاً لغايتـه, وهـي بلوغـه -عليـه الصلاة والسلام- مبلغ سليمان في الملك, مما سيعود أثره على أصحابه وأمته, وهذا الاستدعاء نَمَّ على معرفة عميقة لدى العرب بسابق الأمم, وما أوتي كل رسول من معجزة, وضحك النبي ρ أشعر بتعجبه لهذا الطلب, لذلك ما كان منه إلا أن فصَّل للسائل حقيقة الرسالة التي حملها كل نبي في استدعاء تاريخي تفصيلي أوضح من خلاله أحوال الرسل مع ما أتاهم الله من دعوات؛ ليكشف من خلال هذا الاستدعاء موقفه مع أمته يوم القيامة في صورة استعارية جَسَّم فيها مفهوم الدعوة وكأنها كنز ثمين اختبأه ρ ليخرجه عند الحاجة إليه.

---

1 المعجم الكبير, 54/7 .

2 معجم الصحابة, 2 /170- 171 .

ومما تقدم من دراسة التشكيل التصويري في أدب الوفادة يمكن أن نخلص إلى أبرز ما لوحظ فيه على النحو الآتي:

1- تمثلت الصورة بنمطيها الحقيقي والمجازي في أدب الوفادة, وكان للصورة الحقيقية جمالياتها وأثرها, كما كان للصورة المجازية, إذ خلو الصورة الحقيقية من أنواع المجاز لم يقف عائقًا دون تأثيرها في المتلقي وإثرائها للنصوص على المستوى الدلالي والشكلي.

2- اعتمدت الصورة الحقيقية في مجملها على الحس باختلاف أنواعه, البصري والذوقي والحركي, وقد منح وجود تلك المعطيات الصورة الحقيقية تجليها وأدبيتها وفنيتها المتميزة, ولاسيما في الصورة النبوية الشريفة باختلاف مراميها.

3- تنوعت الصورة المجازية وجاءت شاملة لأنواع المجاز الثلاثة: التشبيه والاستعارة والكناية, وكان لحضور التشبيه في صورهم حظ أوفر من الكناية والاستعارة, ومن أبرز ما لوحظ في تشبيهاتهم أنها جاءت في معظمها مرسلة بذكر أدوات التشبيه الدالة على الصدق والحقيقة, كالكاف وكأن ومثل.

4- وردت الصور الاستعارية في الخطاب النبوي أكثر من خطاب الوفود في إشارة إلى قدرته البيانية -عليه الصلاة والسلام-, وحرصه على إيصال معانيه بأكثر السبل تأثيرًا وإقناعًا, فضلاً عن إثراء النص النبوي على المستوى الشكلي الذي عرف العرب بتميزهم به وبلاغتهم فيه.

5- حظيت الكناية بما حظيت به الاستعارة من حضور مكثف في الخطاب النبوي إذا ما قورن بحضورها في خطابات الوفود, ولاسيما في فن الرسائل, ولعل لطبيعة الرسائل وميلها إلى الإيجاز ما اقتضى الكناية باللفظ القليل عن المعاني الكثيرة .

6- ارتبطت الصور الفنية في أدب الوفادة على رسول الله ρ بالحواس فوردت الصورة البصرية والسمعية والشمية والذوقية, بيد أن الصورة البصرية كانت أكثر الصور ورودًا.

7- استرفدت الصورة الأدبية في أدب الوفادة منابعها من مرجعيتين رئيستين ,هما: المرجعية الكونية- وكانت الأكثر حضورا- والمرجعية الإنسانية التي تركزت في الملامح النفسية والتاريخية.

8- بالرغم من طبيعة هذا الأدب وما قام عليه من معانٍ اتصلت بالدين دخولا فيه أو استفسارا عنه , فضلا عن أن جزءا كبيرا منه تعلق بالبيان النبوي الشريف, إلا أن الصورة الفنية فيه جاءت معجبة بديعة ,كما جاءت متنوعة في حقيقتها ومجازها, وحسيتها ومعنويتها, إضافة إلى تنوع مرجعياتها.

الفصل الرابع

التشكيل البديعي

الفصل الرابع

التشكيل البديعي

"إذا كانت اللغة مادة الأدب, فإن كل عمل أدبي هو مجرد انتقاء ألفاظ بعينها من لغة ما, ولكن الكلمة في العمل الأدبي لا تحمل معناها المعجمي بل هي مصدر لتلقي مترادفات ومتجانسات لا تعتمد على معانيها فقط, بل تثير معاني كلمات أخر, تلتقي معها بالصوت أو بالمعنى المتجانس, أو بالصيغة والاشتقاق, أو حتى بأن تعارضها أو تنفيها, فالأسلوب الأدبي هو استقصاء كل أشكال الصنعة التي تؤدي إلى غاية تعبيرية معينة تهدف الوضوح والتأثير, وتبنى على الموهبة والملكة"[1]. وعلم البديع من العلوم الفاعلة في إثراء النص الأدبي على المستويين الشكلي والدلالي, وهو العلم الذي" ينصب على تزيين الألفاظ أو المعاني, وتجميلها بألوان بديعة من حيث اللفظ والمعنى"[2] واستخدام البديع بكافة وسائله يسهم في تحقيق الأهداف المرجوة من الخطاب, فهو وسيلة جذب وتنشيط ذهني, ينعش الفكر ويقي الذاكرة من النسيان, إذ البديع من الوسائل التي تساعد على حفظ النصوص, وسرعة ثبوتها في نفس المتلقي, وقد كان له حظ وافر في أدب الوفادة على رسول الله ρ من جانب الوفود, أو من جانب الخطاب النبوي الشريف, وبالنظر إلى تمثل هذا القسم البلاغي من أدب الوفادة تبين أن أبرز ما ورد فيه من ملح بديعية –على جانب التقدير لا الحصر- ما يأتي:

الطباق والمقابلة – الجناس- السجع والتوازن - التقسيم والجمع- التضمين.

وسوف أفرد كل نوع بالدراسة لتسليط الضوء على أبرز أمثلته في هذا الأدب:

1- الطباق والمقابلة:

يعرف ابن رشيق هذين اللونين بأنهما ائتلاف المعاني مع تضاد الفحوى, وإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة[3], وللتضاد اللغوي دور كبير في إثارة وتحريك خيال المتلقي في اتجاهين متذبذبين, بيد أنهما مندمجان في حركة واحدة وبذلك تتحرك العواطف المضطرمة

1 فن الأسلوب دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية, 96.
2 المرشد في البلاغة,97.
3 العمدة, 5/2.

والمتقدة[1]، وقد تجلى الطباق والمقابلة كرافد من روافد التشكيل البديعي في أدب الوفادة , بل إن الثنائيات التي قامت عليها كثير من خطابات هذا الأدب على الجانب النبوي أو الوفادي قد أسهمت في إثراء الدلالات, فضلاً عن إسهامها في الجانب الإيقاعي للسياق, فتظهر ثنائية الأرض بين برها وبحرها في قوله ρ في كتابه لباهلة:" فإن أردتم أن يؤمن البحر والبر فأطع الله ورسوله"[2]، ليلحقها بثنائية بشرية يشير فيها إلى الجنس بقوله:" ومهما رضيت رسلي فإني قد رضيت وقد علم ,ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم إلا حق الله ورسوله"[3]، ثم ينتقل لثنائية العمر بقوله:" فأسبي الصغير وأقتل الكبير"[4]. إن في تتابع هذه الثنائيات في نص واحد إشارة إلى عمومية ما جاء في النص من أحكام وتحذيرات, فالأمان المشار إليه شامل للبر والبحر, وسقوط الحقوق عنهم عام لجنس من له حق عليهم من عرب وعجم, أما التهديد في حال عدم انصياعهم لما جاء في كتابه ρ فواقع على اختلاف أعمارهم صغيرهم وكبيرهم مع اختلاف الفعل, مما دل على دقته ρ في هذا الخطاب وعمق دلالاته بين ترغيب وترهيب مع ما تمثل من خلال التضاد من معاني الإحاطة والشمول.

ويتكرر حضور التضاد أو الطباق كذلك في كتب أخرى من رسائله أو مكاتباته للقبائل عليه الصلاة والسلام, وتتجلى براعته ρ في المطابقة ليس فقط بين الاسم والاسم كما تقدم بل وبين الفعل والمصدر كقوله: "هذا كتاب من محمد رسول الله لمطرف بن الكامن ومن سكن بيته من باهلة أن من أحيا أرضًا مواتًا بيضًا منها مناخ الأنعام ومراح فهي له"[5]، ولعل في انتقائه ρ الفعل -بما يوحي به من حركة وتفاعل- للدلالة على الحياة , والمصدر-بما يوحي به من ثبات- للدلالة على الموت- فضلاً عما منحه التضاد- ما يرمز إلى قيمة هذا العمل الذي

---

1 مقالات في الشعر الجاهلي, 338.
2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 499-500.
3 المصدر السابق نفسه.
4 المصدر السابق نفسه.

5 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 473.

أعطى صاحبه استحقاق تملك تلك الأرض. ويرد الطباق بصورة أخرى من خلال مطابقة الفعل بفعل آخر في كتابه صلى الله عليه وسلم:" وفي التبيعة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة" [1]. وفي هذه المطابقة بين الفعلين المتضادين ما يشير إلى عموم الحكم, ولعل الغالب على كتبه ρ ولاسيما في الأعطيات أو العهود والمواثيق كثرة ورود الطباق المفصل للأحكام وما تضمنته تلك الكتب من مرام نبوية .

ومع هذا التكثيف لورود التضاد في كتبه ρ تراه يلقي بظلاله الوارفة في الدعاء للإلحاح على الخالق عز وجل بتحقق المطلوب على كافة أنواعه فيقول طالبًا السقيا:" اللهم أسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحي بلدك الميت, اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا مريئًا مريعًا مطبقًا, واسعًا عاجلاً غير آجل نافعًا غير ضار,اللهم اسقنا سقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق, اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء. فمطرت فما رأوا السماء ستا، فصعد رسول الله المنبر، فدعا، فقال: اللهم حوالينا ولا علينا**"[2]**. لقد تتابعت الأضداد في هذا النص النبوي الشريف, وتمثل الطباق فيه بهيئات متنوعة بين الفعل والصفة في قوله: "واحي بلدك الميت", وطباق السلب في قوله: "عاجلاً غير آجل نافعًا غير ضار", وطباق الإيجاب في قوله: "سقيا رحمة لا سقيا عذاب" ,فأوحى تتابع المتضادات في هذه اللوحة الدعائية -بما تضمنت من طول المجرى النفسي لرسول الله ρ– بإلحاح وحاجة , بل جاءت الكلمات مشعرة بالهاجس الذي سيطر على النبي -عليه أفضل الصلاة والسلام-, فظهرت آثاره في مفرداته , معتمدًا الأضداد وسيلة للبوح, والتضرع ,وطلب الخصب والنماء والسقيا من الله -سبحانه وتعالى- , وإن كان الطباق قد تمثل في بنية النص الداخلية بين الكلمات, فقد سيطر على البنية العامة لمفهوم النص, إذ يطلب -عليه الصلاة والسلام- الغيث والخصب بعيدًا عما يمكن أن يحدثه هذا الغيث من هدم وغرق وأذى. وكان لهذه التفاصيل المتضادة التي ساقها- عليه

---

1 البداية والنهاية, 2/ 219- 220.
2 الطبقات الكبرى ,297/1 .

الصلاة والسلام- في دعائه أثرها الصوتي المنسجم الذي تضافر مع الدلالة ليمنح النص قيمته, ويسفر عن بلاغته الفريدة -عليه الصلاة والسلام-. كما أفاد الطباق في بيان منهجه ρ مع القبائل وسياسته في التعامل معهم, فجاء في كتابه لخالد بن الوليد عندما أوفده إلى بلحارث بن كعب: " فبشرهم وأنذرهم وأقبل وليقبل معك وفدهم "[1]، بل لقد كان في تقديمه ρ لأمر البشرى على الإنذار ما أوحى بتسامحه وبلين جانبه في تعامله مع القبائل.

أما فيما يتعلق بالخطاب الوفادي على رسول الله ρ،فقد تمثل الطباق غالبا في خطابة الوفود بين يديه عليه الصلاة والسلام كقول وافد همدان:" نصية من همدان, من كل حاضر وباد, أتوك على قلص نواج, متصلة بحبائل الإسلام ...عهدهم لا ينقض ما أقامت لعلع, وما جرى اليعفور بصيلع"[2]، فكان من أبرز المعاني التي قامت على الطباق في هذا النص معنى الشمول والإحاطة , فالوفادة على النبي ρ كانت عامة أحاطت بكل أبناء همدان من حاضر وباد, فيما دل التضاد في قوله: أقامت وجرى, على معنى الدوام والاستمرارية وعدم انقطاع العهد بينهم وبين رسول الله ρ.

وفي خطاب آخر يتنوع الطباق بين أشباه الجمل (الجار والمجرور) وبين الأسماء في قول أسلم:"فإنا إخوة الأنصار، ولك علينا الوفاء والنصر في الشدة والرخاء"[3]، فالتضاد القائم بين أشباه الجمل والضمائر المجرورة بقوله: "لك" و"علينا" دل على اختصاص النبي ρ بمناصرتهم ووفائهم كما دل على التزامهم بالعهد الذي عاهدوه رسول الله ρ, أما التضاد بين الأسماء (الشدة والرخاء) فدل على الاستمرارية والثبوت وعدم الانقطاع مهما تبدلت الأحوال وتغيرت معطيات الحياة، وفي ذلك زيادة توكيد أيضًا على صدق إيمانهم, وحسن استجابتهم.

---

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,296/2.
2 المصدر السابق, 300/2-301.
3 الطبقات الكبرى, 1/ 354 .

وأدت المقابلة دورًا كالذي أداه الطباق, ولاسيما في الخطاب النبوي الشريف فتبدت عنها معاني الدوام والاستمرارية والتتابع, في قوله ρ مانحًا يهود بني غاديا الذمة والأمان: "من محمد رسول الله لبني غاديا أن لهم الذمة وعليهم الجزية, ولا عداء ولا جلاء, الليل مد , والنهار شد" [1]. فمع ما أدته المقابلة من معان ودلالات, فقد أفادت على المستوى النصي والصوتي إيقاعًا منسجمًا بديعًا من خلال الجناس في قوله: (مد)و(شد), والسجع الجميل غير المتكلف, فضلاً عن الطباق المتمثل في مطلع الخطاب بقوله :لهم الذمة وعليهم الجزية. وقد تكررت هذه الظاهرة كذلك في إجابته ρ للسائل عن الصيد قائلا:**"** كُل ما أصميت ودع ما أنميت"[2]، فاتحد الجناس مع المقابلة والسجع لتثمر في فاعلية الخطاب على المستويين الدلالي والشكلي.

ويقابل -عليه الصلاة والسلام- بين حالي امرئ القيس في الدنيا والآخرة بعد أن ذكرت أبيات له أمام رسول الله ρ فيقول: "ذاك رجل مذكور في الدنيا, منسي في الآخرة, شريف في الدنيا ,خامل في الآخرة"[3]، فالثنائيات التي انطلقت من فكرة عامة وهي الزوال مقابل الخلود, المتمثلة في الدنيا مقابل الآخرة, ثم الذكر مقابل النسيان, ثم الشرف مقابل الخمول, استطاعت أن تنهض بالمعنى الدلالي لتسفر عن حقيقة هذا الشاعر الذي كان مثالاً بين الشعراء.

ويتجانس السجع مع الطباق والجناس والمقابلة والتوازن في حديثه ρ مع عمرو بن مرة الجهني قائلاً: " يا عمرو بن مرة أنا النبي المرسل إلى العباد كافة, أدعوهم إلى الإسلام, وآمرهم بحقن الدماء, وصلة الأرحام, وعبادة الله ورفض الأصنام, وحج البيت وصيام شهر

---

1 الطبقات الكبرى, 279/1.
2 المصدر السابق ,322/1-323. وأصْمَيت الصيد إذا رمَيْتَه فقتَلْتَه وأَنت تراه. في قوله كُلْ ما أَصْمَيْت أَي ما أَصابَه السهمُ وأَ َنت تراه فأَسْرع في الموت فرأَيَته، ولا محالة أَنه مات برَمْيك،ودَعْ ما أَنْمَيْتَ؛ الإِنْماءُ: ترمي الصيد فيغيب عنك فيموت ولا تراه وتجده ميتاً.لسان العرب ,(نمي- صما).
3 البداية والنهاية, 219/2.

رمضان, من اثني عشر شهرًا, فمن أجاب فله الجنة ,ومن عصى فله النار, فآمن يا عمرو يؤمنك الله من هول جهنم"[1].

كما تتتابع المقابلة في كتابه ρ لأهل اليمن متحدثًا عن مبعوثه قائلاً: "ويخبر الناس بالذي لهم والذي عليهم, ويلين للناس في الحق, ويشتد عليهم في الظلم, فإن الله كره الظلم ونهى عنه, فقال ألا لعنة الله على الظالمين, ويبشر الناس بالجنة وبعملها, وينذر الناس النار وعملها"[2].

وتبرز المقابلة في قول عمرو بن الأهتم: "والله يا رسول الله! لقد صدقت فيما قلت أولاً, وما كذبت فيما قلت آخرًا, ولكني رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت, وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت, ولقد صدقت في الأولى والأخرى جميعًا, فقال رسول الله: إن من البيان لسحرًا"[3], فتوالت المقابلات بين المعاني المتضادة لتجلية الحقيقة لرسول الله ρ ,فضلاً عن إتباع تلك المقابلات بالطباق في قوله: الأولى والأخرى. مما جعل النبي ρ يعجب لهذا القول ويمتدحه بقوله: "إن من البيان لسحرًا". وبالرغم من التقابل الظاهر على مستوى الكلمات في النص, فإن المقابلة قد سرت في البناء الدلالي للنص كاملاً من خلال المقابلة بين صفات المدح في أول الخطاب ثم مقابلتها بصفات الذم في آخره.

2- الجناس:

" الجناس تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى"[4]، وللجناس أهمية إيقاعية دلالية, فهو يكسب الكلام حسنًا, ويمكن المعاني في ذهن المتلقي, بحيث يعيد على ذهنه الصورة اللفظية نفسها مع اختلاف الدلالة, مما يثير المتلقي ويوقع الانسجام لديه من خلال التوافق الصوتي, فضلاً عن التدعيم المعنوي للخطاب , "والجناس –كغيره من أنواع البديع –

1 البداية والنهاية, 2/ 219-220.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,2/297-298.
3 البداية والنهاية, 45/5.
4 علم البديع (دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع), 235.

إذا صدر عن طبع وجاء عفوًا كان له وقعه وأثره في المعنى, أما إذا تكلف وتصنع بدا ثقيلاً ورغبت عنه النفوس وجافته الأذواق "[1]. ومع ما يبعثه الجناس من نغم موسيقي لتشابه الأصوات نطقًا, فإنه لا قيمة له إذا لم يكن جزءًا من المعنى, ومثمرًا على المستوى الدلالي شأنه شأن المستوى الشكلي, ولعل ما تمثل في أدب الوفادة من جناس, ولاسيما من جانب البيان النبوي كان له عظيم الأثر, ودقيق الدلالة فضلاً عن اتساقه مع عظمة الفصاحة النبوية وإبرازه لقدرات النبي ρ اللغوية, مما أسر قلوب مستمعيه ومتلقيه, والناظر في الجناس النبوي يجده على مختلف الهيئات فمنه: الاسم والفعل في قوله ρ لخالد بن الوليد معبرًا عن سروره بإسلام بني الحارث بن كعب:" وأن قد **هداهم** الله **بهداه** "[2]، وقوله لزيد الخير حينما وفد إليه: "الحمد لله الذي أتى بك من **سهلك** وحزنك **وسهل** قلبك للإسلام"[3]، فاشتقاقه ρ في المثال الأول الاسم من الفعل, ثم العكس في المثال الثاني, كان له دلالاته الدقيقة فعندما ينسب الهدى إلى الله -سبحانه وتعالى- فذاك غاية الإكرام وبلوغ قمة الهداية, فيما يأتي اشتقاقه لفعل التسهيل من السهل, فيه دلالة على أن الجزاء كان من جنس العمل , فزيد الخير تكبد السهل والحزن لبلوغه ρ , ليأتي الجزاء بتسهيل قلبه للإسلام.

واتخذ ρ من الجناس وسيلة للإقناع والثناء والإخبار معا تمثل ذلك في رده ρ على وفد خولان بقوله:" :أما ما ذكرتم من مسيركم إلي فإن لكم بكل **خطوة خطاها** بعير أحدكم حسنة وأما قولكم **زائرين** لك فإنه من **زارني** بالمدينة كان في جواري يوم القيامة "[4]، فجاء الجناس في قوله: "خطوة خطاها" مفيدا الإحاطة والشمول, وفي قوله :"زائرين وزارني" معبرًا عن الجزاء المترتب على تلك الزيارة, مما زاد الوفد فرحًا وسرورًا وتفاؤلاً بتلك الرحلة , فأدى الجناس وظيفته حتى على المستوى النفسي. وكان من دقة الجناس قوله في دعائه ρ :" اللهم

1 المصدر السابق, 234.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 296/2.
3 منتهى النقول في سيرة أعظم رسول, 37 .
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 283/2 .

بارك لهم فى **محضها ومخضها**"[1]، فهذا النقط الذي اختلف بين الكلمتين أدى إلى اختلاف المعنى, مما يشي ببراعته ρ ومقدرته اللغوية المعجزة, ولاسيما أن هذا الدعاء جاء في معرض رده ρ على خطاب طهفة بن زهير النهدي الذي قام في مجمله على الثنائيات والجناس المكثف المتتابع[2] لتبرز مقدرته ρ أمام ذلك الوافد.

ومن الجناس الذي تكرر وكثر وروده في خطابات النبي ρ، ولاسيما المبعوثة إلى الملوك والحكام قوله: **"أسلم تسلم"** قالها لهوذة بن علي صاحب اليمامة [3]، ولكسرى[4] ، ولهرقل[5]. وقد منح هذا الجناس الخطاب دلالة عظيمة ,إذ يجعل ρ من إسلامهم شرطًا لسلامتهم وأمانهم. ولاشك أن سلامتهم هنا تعني سلامة ملكهم وبقاءه, وسلامة بلادهم وسلامة أنفسهم, مما يعني أن السلامة والإسلام معنيان ليسا مرتبطين بتشابه الحروف قط بل وبالمعنى الدلالي كذلك.

ومن بليغ الجناس في الخطاب النبوي أن يقوم بين اسم الوفد أو القبيلة واشتقاق المعنى منه كقوله في كتابه لأسلم: **"لأسلم** ومن **أسلم** من قبائل العرب "[6]، بل كان من بديع ما ورد من جناس في خطابه ρ مع الوفود الدعاء لهم من خلال مجانسة المعنى الدعائي باسم الوفد كقوله ρ:**" أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها"**[7]. وفي هذا الجناس ما يوحي بإكرامه للوفد واهتمامه بشأنه وتقديره له.

ويتنامى الجناس في الخطاب النبوي من المعنى القريب إلى المعاني العميقة المتداخلة التي تحتاج إعمال نظر, وعمق تفكّر, حتى يصل المتلقي إلى دلالاتها كقوله ρ لسفيان الرعلي: **"**هذا **ما أعطى** رسول الله سيد بن سفيان الرعلي **أعطاه** نخل السوارقية وقصرها لا **يحاقه** فيها

1 الفائق في غريب الحديث, 2/ 277- 278.
2 ينظر المصدر السابق نفسه.
3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ , 485.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 309/2.
5 الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم, 305/3-306.
6 الطبقات الكبرى, 1/ 354 .
7 المصدر السابق نفسه.

أحد ومن **حاقه** فلا **حق** له **وحقه حق**"[1]. وبمثل هذه العبارة كتب ρ لعتبة بن فرقد:" هذا ما **أعطى** النبي عتبة بن فرقد, **أعطاه** موضع دار بمكة يبنيها مما يلي المروة, فلا **يحاق** فيها أحد ومن **حاقه** فإنه **لا حق** له **وحقه حق** وكتب معاوية"[2]، فجانس ρ بين الأفعال باختلاف أزمنتها, وبين الأسماء ومع هذه المجانسة تغيرت الدلالات وكانت كلها تصب في مفهوم حق المعطى بما أعطي, وتملكه له دون أن يكون لأي طرف آخر حق يشاركه فيه. وقد خدم الجناس معنى النهي الوارد في الكتاب وبالمقابل أكد الأعطية وثباتها.

ويظهر الجناس في الخطاب الوفادي وفي ألفاظ الوفود بجانب الجناس النبوي ,لكنه يبقى دونه في القدرة والعفوية ومما ورد منه قول وافد همدان: من **مخلاف خارف** ويام وشاكر,عهدهم لا ينقض, ما أقام **لعلع** ,وما جرى اليعفور **بصيلع** "[3]، إذ يجانس بين الأسماء (مخلاف وخارف, ولعلع وصيلع) جناسًا ناقصًا.

كما يظهر الجناس في خطاب وفد بني أسد إذ قال متكلمهم:" وجئناك يا رسول الله ولم **تبعث** إلينا **بعثا** ونحن لمن وراءنا"[4]، فأوحى الجناس هنا بشيء من كبرياء وامتنان إذ في قولهم(ولم تبعث بعثا) ما يدل على الشمول وقد سيطر شعور الفخر بهذه الوفادة عليهم فانعكس ذلك على مفرداتهم .

ويظهر الجناس بشكل أكثر تداخلاً في خطاب وافد بني رؤاس الذي أعرض عنه النبي ρ لما بدر منه من إساءة، فقال مستعطفًا الرسول الكريم:" يا رسول الله**!** إن الرب -عز وجل- **ليترضى**, **فارض** عني, **رضي** الله عنك. قال: قد **رضيت**"[5]. لقد أدى هذا الجناس دوره في استمالة قلب النبي ρ فما كان منه إلا أن رد على الوافد بجنس ما جاء في خطابه قائلاً: "قد رضيت".

1 المصدر السابق, 285/1.
2المصدر السابق نفسه.
3 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع, 849/3 .
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 276/2 .
5 وفود الإسلام, 147.

3- السجع والتوازن:

السجع هو "تواطؤ الفاصلتين أو الفواصل على حرف واحد أو على حرفين متقاربين أو حروف متقاربة ويقع في الشعر كما يقع في النثر"[1]، وترجع جمالية السجع إلى ما تحدثه الألفاظ المتفقة وزنًا وتقفية من نشاط, ينعش الإدراك, ويوقظ الشعور لدى المتلقي, فيشد انتباهه ويزداد وعيه للموضوع, فضلاً عما يوحي به السجع من ترف فكري وفني من خلال القدرة على التفنن في استخدام كل إمكانات اللغة, وطاقاتها الصوتية للتعبير عن الفكر, وصياغة المعاني بأسلوب ثري بالحيوية والتجدد. "وترجع بلاغة السجع إلى أنه يؤثر في النفوس تأثير السحر, ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم, لما يحدثه من النغمة المؤثرة , والموسيقى القوية, التي تطرب لها الأذن وتهش لها النفس, فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور, فيتمكن المعنى من الأذهان ويبقى في الأفكار"[2]. والسجع كغيره من ألوان البلاغة إذا صدر دون تكلف وجاء عفوًا ,وقاد إلى المعاني استحسن وطابت له الأسماع, وإن جاء متكلفًا متصنعًا استقبح واستكره, وفي ذلك يقول عبد القاهر:"ولن تجد أيمن طائرًا, ولا أحسن أولا وآخرًا , وأهدى إلى الإحسان, وأجلب إلى الاستحسان, من أن ترسل المعاني على سجيتها, وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ, فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس منها إلا ما يليق بها, ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها....فأما أن تضع في نفسك أنك لابد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذي أنت منه بعرض الاستكراه, وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم"[3]، وقد حظي أدب الوفادة بنصيب وافر من الأسجاع على مستوى الخطاب النبوي, وخطابات الوفود, وقد يتساءل كيف للخطاب النبوي أن يكون مسجوعا وقد نهى ρ عن السجع, بيد أن ابن الأثير قد تناول هذه القضية فأفاد فيها قائلا:"فإن قيل :أن النبي–ρ- قال لبعضهم منكرًا عليه وقد كلمه بكلام مسجوع: "أسجعًا كسجع الكُهَّان؟" ولولا أن السجع مكروه لما أنكره

1 علم البديع, 250.
2 علم البديع, 260.
3 أسرار البلاغة, 32.

الرسول ρ, فالجواب عن ذلك أننا نقول: لو كره النبي ρ السجع مطلقًا قال: "أسجعًا" ثم سكت, فكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لمَ كان، فلما قال: " أسجعًا كسجع الكُهَّان؟"، صار المعنى معلقًا على أمر، وهو إنكار الفعل لمَ كان على هذا الوجه، فعم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غير، وإنه لم يذم السجع على الإطلاق"[1]، وسبب نهيه ρ عن سجع الكهان يرجع إلى ما فيه من تصنع وتكلف , وما يتضمنه من مخالفة لتعاليم الدين, وما يقصد إليه الكاهن من تزييف وتضليل ليعلو على الحق, ولم يقصد النهي عن السجع مطلقًا دل على ذلك وروده في النظم الكريم, وفي أقوال النبي ρ[2]، وقد ورد السجع في خطاباته ρ ولاسيما المكتوبة إذ تجاوز استخدام السجع فيها ما جاء في الخطاب الشفهي والحواري, ولعل في ذلك ما يؤكد حرصه ρ على ما تضمنته كتبه من أثر معنوي, بجانب الأثر الشكلي بما يتوافق وبلاغة العرب وقدراتهم اللغوية, وبالرغم من تعدد الأساليب السجعية في عموم خطاباته ρ, إلا أنها جاءت سلسة منسجمة بعيدة عن التكلف المبتذل والإغراق في الصنعة, ومن ذلك قوله ρ في كتابه لأكيدر دومة الجندل: " لأكيدر ,**حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام...... لا تعدل سارحتكم, ولا تعد فاردتكم**, ولا **يحظر عليكم النبات** ولا **يؤخذ منكم إلا عشر الثبات, تقيمون الصلاة لوقتها , وتؤتون الزكاة بحقها"**[3], ثم كتب ρ كتابًا لأهل دومة الجندل مشابها لكتابه لأكيدر بيد أنه جاء أكثره سجعًا وموازنة قال فيه : " لأهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب مع حارثة بن قطن, **لنا الضاحية من البعل, ولكم الضامنة من النخل ,على الجارية العشر**, **وعلى الغائرة نصف العشر ,لا تجمع سارحتكم ولا تعدل فاردتكم , تقيمون الصلاة لوقتها , وتؤتون الزكاة بحقها, لا يحظر عليكم النبات, ولا يؤخذ منكم عشر الثبات,** لكم بذلك العهد والميثاق, ولنا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله" [4]. كما يظهر

---

1 المثل السائر, 169/2.
2 علم البديع, 258.
3 الطبقات الكبرى, 288/1.
4 المصدر السابق, 334/1-335 .

السجع في كتاب رسول الله إلى بني غاديا:" **ولا عداء ولا جلاء, الليل مد والنهار شد** "[1]، وكتب ρ لمالك بن نمط ومن أسلم من قومه:" أن له فراعها, و وهاطها, **ما أقاموا الصلاة, وآتوا الزكاة , يأكلون علافها , ويرعون عافيها, لهم بذلك عهد الله وذمام رسول الله** ,وشاهدهم المهاجرون والأنصار."[2]، كما كتب ρ لجهينة :"من الله على لسان رسول الله ρ بكتاب صادق وحق ناطق ,مع عمرو بن مرة الجهني لجهينة بن زيد, أن **لكم بطون الأرض وسهولها, وتلاع الأودية وظهورها**, تزرعون نباته ,وتشربون صافيه, **على أن تقروا بالخمس, وتصلوا صلاة الخمس**, وفي التبيعة والصريمة إن اجتمعتا وإن تفرقتا شاة شاة **ليس على أهل الميرة صدقة ليس الوردة اللبقة** , وشهد على نبينا ρ من حضر من المسلمين "[3]، وكما تكثف مجيء السجع في كتبه ρ، فقد ظهر كذلك في خطبه ومحاوراته للوفود وكان لدعائه حظ وافر من السجع ومن ذلك قوله: " **اللهم ارزق عنزة كفافًا لا قوت ولا إسرافًا**"[4]، وقوله -عليه الصلاة والسلام-:" اللهم اغفر لعبد القيس **إذ أسلموا طائعين, غير كارهين, غير خزايا ولا موتورين**"[5]. وتبادل ρ السجع مع الوفود في خطاباته ومحاوراته معهم, إذ يبدأ الوافد خطبته مسجوعة فيجيبه ρ بجنس ما جاء في خطابه والأمثلة على ذلك عديدة , منها رده على طفهة بن أبى زهير النهدي الذي وقف أمامه قائلاً: "أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة, **بأكوار الميس, ترتمى بنا العيس نستحلب الصبير**, **ونستخلب الخبير**, **ونستعضد البرير**, **ونستخيل الرهام ونستحيل أو نستجيل الجهام**, **من أرض عائلة النطاء, غليظة الوطاء, قد نشف المدهن, ويبس الجعثن, وسقط الأملوج, ومات العسلوج, وهلك الهدى, ومات الودى, برئنا يا رسول الله من الوثن, والعنن, وما يحدث الزمن, لنا دعوة السلام, وشريعة الإسلام , ما طما البحر, وقام تعار, ولنا نعم همل أغفال, ما تبض ببلال, ووقير كثير**

1 المصدر السابق, 279/1.
2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 474.
3 البداية والنهاية, 219/2-220.
4 المعجم الكبير,55/7.
5 مسند الإمام أحمد, 206/4.

الرسل, قليل الرسل, أصابتها سنة حمراء مؤزلة, ليس لها علل ولا نهل. فقال رسول الله ρ: **اللهم بارك لهم في محضها, ومخضها, ومذقها, وابعث راعيها في الدثر, بيانع الثمر, وافجر له الثمد, وبارك له في المال والولد, من أقام الصلاة كان مسلمًا, ومن آتى الزكاة كان محسنًا, ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصًا ,لكم يا بني نهد ودائع الشرك, ووضائع الملك, لا تلطط في الزكاة, ولا تلحد في الحياة, ولا تتثاقل عن الصلاة "**[1]، واستخدم ρ الأسلوب المسجوع في حواره مع وفد الأزد إذ سألهم:" إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قال سويد : قلنا خمس عشرة خصلة, خمس منها أمرتنا بها رسلك ,أن نؤمن بها, وخمس أمرتنا أن نعمل بها, وخمس تخلقنا بها في الجاهلية,..... فقال: وما الخمسة التي تخلّقتم بها أنتم في الجاهلية؟ قالوا: **الشكر عند الرخاء, والصبر عند البلاء,والرضا بمر القضاء, والصدق في مواطن اللقاء, وترك الشماتة بالأعداء**. فقال رسول الله ρ: **حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**, ثم قال: وأنا أزيدكم خمسًا فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون **فلا تجمعوا ما لا تأكلون, ولا تبنوا ما لا تسكنون, ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدًا زائلون, واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون, وارغبوا فيما عليه تقدمون, وفيه تخلدون"**[2]. إن الناظر في استخدام النبي ρ لأسلوب السجع ردًّا على خطابات وحوارات الوفود ليستشعر حفاوة النبي ρ بتلك الوفود وإكرامهم ومخاطبتهم بأساليبهم، وإن كان ρ قد خاطب وفود العرب بلغاتهم فإنه كان حريصًا على مجاراة أساليبهم والرد عليهم بمثلها. وقد كان ذلك محل إعجاب الوفود واستشعارهم بتلك الحفاوة منه ρ, وكان أدعى في ارتياحهم, وتعميق الإيمان في قلوبهم.

1 الفائق في غريب الحديث,2/ 277.
2 البداية والنهاية ,1/ 960.

والتوازن أسلوب بديعي, يعتمد على الإيقاع شأنه شأن السجع, بل إن بعض النقاد عده نوعا من السجع وهو اتفاق الفاصلتين وزنًا دون التقفية[1]، وقد أدى التوازن دوره في أدب الوفادة على رسول الله ρ على المستوى الإيقاعي, والمستوى الدلالي معًا, من خلال توالي الكلمات في وحدات موسيقية إيقاعية, يشعر بها المتلقي, وتعلق في ذهنه بإيقاعاتها وجرسها المؤثر, وتلمس أحاسيسه بأصواتها الموحية, ولعل في حسن انتقاء الأسلوب دورًا في حسن بلوغ معناه, وتأديته بكامل دلالاته, وقد سار التوازن بجانب السجع في أساليب أدب الوفادة وفي الخطاب النبوي الشريف, ومما جاء منه في خطاب النبي ρ قوله مادحا الأزد: " **أحسن** الناس وجوها, **وأشجعهم** لقاء, **وأطيبهم** أفواها, **وأعظمهم** أمانة, أنتم مني وأنا منكم"[2]. ومن ذلك – أيضًا- كتابه لأساقفة نجران:" لا يغير **أسقف من أسقفته**, ولا **راهب من رهبانيته**, ولا **كاهن من كهانته**"[3]، ويظهر التوازن في قوله ρ:" ولا يزال **الخيل** معقودًا في نواصيها **الخير** حتى تقوم الساعة"[4].

كما ورد التوازن كذلك في خطابات الوفود فجاء في خطاب همدان:" نصية من همدان, **من كل حاضر وباد**, **أتوك على قلص نواج** متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم, من مخلاف خارف ويام وشاكر, أهل السود والقود أجابوا دعوة الرسول وفارقوا آلهات الأنصاب, عهدهم لاينقض ماقامت لعلع, وماجرى اليعفور بصيلع "[5].

وتمثل التوازن في الحوار الذي دار بين الزبرقان بن بدر, وعمرو بن الأهتم إذ" فخر الزبرقان فقال: يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب, أمنعهم من الظلم, وآخذ لهم بحقوقهم, وهذا يعلم ذلك- يعني عمرو بن الأهتم- قال عمرو بن الأهتم: **إنه لشديد العارضة, مانع لجانبه مطاع في أدنيه**, فقال الزبرقان: والله يا رسول الله **!** لقد علم مني غير ما قال وما

1 علم البديع, 253.
2 الأحاد والمثاني, 269/4 .
3 البداية والنهاية, 55/5.
4 المعجم الكبير, 53/7 .
5 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي, 47.

منعه أن يتكلم إلا الحسد , فقال عمرو بن الأهتم أنا أحسدك فو الله **إنك للئيم الخال** , **حديث المال ,أحمق الوالد ,مضيع في العشيرة** "[1].

4- التقسيم والجمع:

" التقسيم هو استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه, بحيث لا يترك منها قسما محتملا"[2]، وحصر أقسام المعاني واستيفاؤها بالذكر له أثر جليل في تثبيت المعاني, وتمكينها من النفس,حيث يحاط بالشيء من كافة أطرافه, ويحصر من جميع أقسامه, فلا يبقي أمام العقل إلا أن يسلم بما عرض عليه, ويتفرغ لفهمه واستيعابه[3], وقد برز هذا الفن البديعي في أدب الوفادة وكثر في الخطاب النبوي الشريف, وفي خطابات الوفود , كما تبادل ρ هذا الفن مع الوفود من خلال محاوراته وخطاباته لهم , ويحتل مقام الفخر نصيبًا من التقسيم ,إذ يحاول المفاخر أن يستوفي كل معاني الفخر, وقد ظهر ذلك في خطاب عطارد بن حاجب في مفاخرة بني تميم لرسول الله ρ: "الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله ,**الذي جعلنا ملوكا ووهب لنا أموالاً عظامًا, نفعل فيها المعروف, وجعلنا أعزة أهل المشرق وأكثره عددًا ,وأيسره عدة**, فمن مثلنا في الناس؟ **ألسنا برؤوس الناس وأولي فضلهم؟**"[4]. ومنه كذلك خطاب بني عبد عدي :" يا محمد نحن **أهل الحرم وساكنه**, **وأعز من به, ونحن لا نريد قتالك**, ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك ,ولكنا لا نقاتل قريشًا, وإنا لنحبك ومن أنت منه, فإن أصبت

---

1 البداية والنهاية 45/5.
2 البديع, 178.
3 دراسات منهجية في علم البديع, 245.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,264/2-265.

منا أحدا خطأ فعليك ديته ,وإن أصبنا أحدا من أصحابك فعلينا ديته"[1].فجاء خطابهم مستوفيًا معاني الفخر, فضلاً عن استيفائه لموقفهم مع رسول الله ρ، وكذلك جاء في خطاب بني عذرة قالوا:" **نحن إخوة قصي لأمه, ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة, ولنا قرابات وأرحام**"[2]، وورد التقسيم كذلك في المدح وتمثل في ثنائه ρ على الأزد قائلاً:" مرحبًا بكم **أحسن الناس وجوها, وأصدقه لقاء, وأطيبه كلامًا, وأعظمه أمانة, أنتم مني وأنا منكم**"[3]، فشمل كلامه ρ لأقسام الحسن الحسي والمعنوي, مما زاد في مدحهم والثناء عليهم.

كما ورد في خطابات الوفود فقال وافد هوازن مستوفيًا ذكر فضائل رسول الله ρ، ثم مدحه والثناء عليه في جميع مراحل حياته: "ولقد رأيتك مرضعًا **فما رأيت مرضعًا خيرًا منك، ورأيتك فطيمًا فما رأيت فطيمًا خيرًا منك, ثم رأيتك شابًّا فما رأيت شابًّا خيرًا منك, وقد تكاملت فيك خلال الخير** "[4].

ويبرز التقسيم كذلك في لقاءاته ρ بالوفود, فيبدأ الوفد خطبته مستوفيًا معانيها, فيرد عليه ρ بمثل ذلك التقسيم, ومنه ما حدث مع وفد خولان إذ قالوا:" يا رسول الله **!** نحن على من وراءنا من قومنا, **ونحن مؤمنون بالله** -عز وجل- م**صدقون برسوله, قد ضربنا إليك آباط الإبل, وركبنا حزون الأرض وسهولها**, والمنة لله ولرسوله علينا, **وقدمنا زائرين لك"** فاستوفى خطابهم حقيقة إيمانهم ثم صورة رحلتهم إليه, ليأتي رده ρ مستوفيًا جزاء ما قاموا به يوم القيامة قائلاً: " **أما ما ذكرتم من مسيركم إلي فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة, وأما قولكم زائرين لك فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة**"[5]. كما حرص ρ في خطاباته مع أصحابه والوفود أن يستوفي معاني حديثه, فيفصل فيه بذكر أقسامه فبينما

---

1 الطبقات الكبرى, 306/1 .
2 المصدر السابق,1 /331-332 .
3 الطبقات الكبرى, 1 /337-338.
4 المصدر السابق, 114/1-115 .
5 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,283/2.

هو" جالس في المسجد والناس معه, إذ أقبل ثلاثة نفر, فأقبل اثنان إلى رسول الله ρ وذهب واحد, قال: فوقفا على رسول الله ρفأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها, وأما الآخر فجلس خلفهم, وأما الثالث فأدبر ذاهبًا , فلما فرغ رسول الله ρ قال: ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ **أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله , وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه, وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه**"[1]. كما ظهر التقسيم في حديثه ρ لأصحابه عن وافد السباع, فخيرهم مقسمًا ما يجب عليهم تجاه السباع قائلاً: " هذا وافد السباع إليكم, **فإن أحببتم أن تفرضوا له شيئًا لا يعدوه إلى غيره, وإن أحببتم تركتموه وتحرزتم منه**, فما أخذ فهو رزقه،فقالوا: يا رسول الله! ما تطيب أنفسنا له بشيء.فأومأ إليه النبي بإصبعه أي خالسهم فولى وله عسلان "[2], ويظهر التقسيم أسلوبًا بارزًا كذلك في مكاتباته ρ للقبائل, ولاسيما في الأعطيات والمعاهدات,ومنه كتابه لعبد القيس:"من محمد رسول الله إلى الأكبر بن عبد القيس, أنهم آمنون بأمان الله, وأمان رسوله على ما أحدثوا في الجاهلية من القحم, وعليهم الوفاء بما عاهدوا, ولهم أن **لا يحبسوا عن طريق الميرة, ولا يمنعوا صوب القطر, ولا يحرموا حريم الثمار عند بلوغه**, والعلاء بن الحضرمي **أمين رسول الله, على برها وبحرها وحاضرها وسراياها, وما خرج منها** ,وأهل البحرين خفراؤه من الضيم, وأعوانه على الظالم ,وأنصاره في الملاحم ,عليهم بذلك عهد الله وميثاقه, لا **يبدلوا قولاً, ولا يريدوا فرقة, ولهم على جند المسلمين الشركة في الفيء, والعدل في الحكم ,والقصد في السيرة**, حكم لا تبديل له في الفريقين كليهما, والله ورسوله يشهد عليهم".[3]

فهذا الكتاب يستوعب كل مالهم وما عليهم, ومما يزيده أهمية تذييله بقوله:" والله ورسوله يشهد عليهم". كما وردته ρ رسائل اعتمدت التقسيم لاستيفاء الأخبار التي جاءت فيها,

---

1 صحيح البخاري, 36/1.

2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ 287 قال الجوهري: العسلان الخبب يقال: عسل الذئب عسلانا إذا أعنف وأسرع.

3 الطبقات الكبرى, 283/1.

ومن ذلك كتاب المنذر بن ساوى لرسول الله ρ: "أما بعد، يا رسول الله ! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين **فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه, ومنهم من كرهه** , وبأرضي مجوس ويهود فأحدث إلي في ذلك أمرك "[1] هذا الكتاب جاء مستوفيًا مواقف أهل البحرين من دعوته ρ.

والجمع من الفنون البديعية التي برزت بشكل ملاحظ في أدب الوفادة, سواء في خطابه ρ أم في خطابات الوفود, و"هو أن يجمع بين أمرين مختلفين أو أكثر في حكم واحد"[2]، أو هو أن يجمع بين متعدد لفظًا أو حكمًا في حكم واحد[3]، ومن ذلك قوله ρ لأشج عبد القيس: "إن فيك لخصلتين يحبهما الله **الحلم والأناة"**[4]. ومن جانب الوفود جاء في قول الأشج لرسول الله ρ:" إنه لا يستسقى في مسوك الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه **لسانه وقلبه**. فقال رسول الله فيك خصلتان يحبهما الله. فقال عبد الله: وما هما؟ قال الحلم والأناة"[5]. وفي حديثه ρ للوافد عن الصدقه يبرز الجمع في عاقبتها على من يرتضيها لنفسه دون أن يكون في حاجة إليها قائلاً:" إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب.ولا نبي مرسل ,حتى جزأها على ثمانية أجزاء, فإن كنت جزءًا منها أعطيتك, وإن كنت عنها غنيًّا فإنما هو **صداع في الرأس, وداء في البطن"**[6]، وفي هذا الجمع ما يدعو إلى قناعة السامع بالالتزام بهذا النهي بعد أن جمع له ρ ما يترتب عليه.

5-الاقتباس و التضمين:

برز النص القرآني الكريم في الخطاب النبوي الشريف على المستوى الكتابي والشفهي معًا, ومما لا شك فيه أن النبي ρ قد عمد إلى بعض آي القرآن لتدعيم بيانه وتأكيده, ومما يلفت

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 471.
2 علم البديع, 183.
3 القول البديع في علم البديع, 75 .
4 صحيح مسلم, 1 /48.
5 الطبقات الكبرى, 314/1-315 .
6 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 289/2-290.

النظر أنه -عليه الصلاة والسلام- قد استعان بالنص القرآني في كتبه لملوك الأعاجم, مما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك مدى تأثير القرآن حتى في غير المتحدث بلغة العرب, فبعث إلى هرقل قائلا:" فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين, **ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**"[1], فيما بعث لكسرى "وأدعوك بدعاية الله -عز وجل- فإني رسول الله إلى الناس كافة **لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين** "[2]، كما بعث إلى ملكي عمان كتابًا اقتبس فيه النص القرآني نفسه قائلاً:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندى, سلام على من اتبع الهدى, أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام, أسلما تسلما, فإني رسول الله إلى الناس كافة, **أنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين**"[3] .وقد وظف الرسول الكريم النص القرآني بما يناسب المرسل إليه, فهو في رسالته إلى هرقل يؤكد فكرة التقاء الأديان في محور واحد, وهو توحيد الله بالعبادة , واشتراك كافة الرسالات في هذا الهدف, ثم في كتابه إلى كسرى وملكي عمان يؤكد كذلك مبدأ رسالته وحقيقتها وهدفها ,وهي تبليغ الدعوة للناس كافة, وإنذارهم, وإثبات الحجة على من كفر منهم, وتلك المعاني التي دعمها ρ بتوظيف النص القرآني تأتي منسجمة ومقام الرسالة وهدفها.

ويفتتح ρ كتابه لعمرو بن حزم عندما بعثه إلى اليمن بقوله:" بسم الله الرحمن الرحيم, هذا بيان من الله ورسوله, **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**, عهد من محمد النبي رسول الله ρ لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن, أمره بتقوى الله في أمره كله, **فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**"[4]، إذ تنبئ الآية المقتبسة في مطلع الكتاب بما سيرد فيه , فهو كتاب

---

1 الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم , 305/3-306.
2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 369.
3 المصدر السابق, 449.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,297/2-298.

متضمن للعهد الذي أعطاه صلى الله عليه وسلم لأهل اليمن, ثم ينتقل لاقتباس آية أخرى في قوله:" فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون" ليتبع ذلك النص القرآني بجملة من الأمور المنوطة بمبعوثه التي أمره ρ بتبليغها لهم .

أما على مستوى الخطاب الشفهي فيبرز النص القرآني خاصة في جداله عليه الصلاة والسلام مع المشركين والنصارى واليهود, وكان من ذلك رده ρ على جدال عتبة بن ربيعة له , إذ بقي -عليه الصلاة والسلام- مستمعًا إلى دعاوى الرجل وحججه وعروضه التي ساقها للنبي ρ واحدًا تلو الآخر , ولما فرغ ما كان منه ρ إلا أن أجابه بقوله:" فرغت؟ قال نعم, فقال رسول الله ρ : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *"إلى أن بلغ" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ "، فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ قال لا "[1]. لقد اكتفى -عليه أفضل الصلاة والتسليم- بطرح الآيات الكريمة دون خوض في جدال لا تعرف نهاياته, مؤكدًا من خلال توظيف النص القرآني صدق الدعوة وهدفها, مما جعل الرجل يرتعد ويقاطعه خوفا من تأثير ما سمعه, ولاسيما أن الآيات المختارة تذكر بعاقبة الأقوام المكذبة.

كما تضمن حواره ρ لنصارى نجران آيات من القرآن تلامس معتقدهم وتكوينهم الفكري,إذ سألوه عن عيسى-عليه السلام- فأجاب: **" ما عندي فيه شيء يومي هذا فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله في عيسى, فأصبح الغد, وقد أنزل الله هذه الآية " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ* "**[2]، ولم يتجل النص القرآني في أدب الوفادة إلا في البيان النبوي الشريف, فيما برز التضمين في خطابات الوفود

1 البداية والنهاية, 493/1.
2 المصدر السابق ,934/1.

من خلال تضمين خطاباتهم ومحاوراتهم لبعض الأقوال والأبيات,ومن ذلك ما ورد من شعر امرئ القيس في خطاب وفد اليمن, إذ قالوا لرسول الله ρ : " يا رسول الله لقد أحيانا الله ببيتين من شعر امرئ القيس, قال: وما ذاك قالوا أقبلنا نريدك حتى إذا كنا بموضع كذا وكذا أخطأنا الماء, فمكثنا لا نقدر عليه فانتهينا إلى موضع طلح ومر, فانطلق كل منا إلى أصل شجرة ليموت في ظلها, فبينما نحن في آخر رمق إذا راكب قد أقبل معتم فلما رآه بعضنا تمثل:

ولما رأت أن الشريعة همها   وأن بياضا في فرائصها كامى

تيممت العين التي عند ضارج   يفيء علينا الظل عرمضها طامى

فقال الراكب: من يقول هذا الشعر؟ فقال بعضنا امرؤ القيس, قال: هذه والله ضارج أمامكم, وقد رأى ما بنا من الجهد, فرجعنا إليها فإذا بيننا وبينها نحو خمسين ذراعًا, فإذا هي كما وصف امرؤ القيس عليها العرمض يفيء عليها الظل"[1].

ومن تضمين الوفود كذلك استدعاء وفد إياد لخطبة قس بن ساعدة الإيادي بين يدي رسول الله ρ ثم تضمين بعض أبياته التي جاء فيها:

في الذاهبين الأوليـ   ن من القرون لنا بصائر

لمـــا رأيت مواردا   للموت ليس لها مصــادر

ورأيت قومي نحـوها   يمضي الأصاغر والأكابر

لا من مضى منهم يرا   جعهم ولا الباقي بغابــر

أيقنت أني لا محــا   لة حيث صار القوم صائر [2]

وفي تضمين الوفود خطاباتهم بالشعر ما يدل على حسن استماعه ρ لهم, فضلاً عن مشروعية الشعر بدليل إلقائه بين يديه دون أن ينكر ذلك بل استمع ثم علق بقوله عن امرئ القيس: " ذاك مشهور في الدنيا خامل في الآخرة, مذكور في الدنيا منسي في الآخرة يجيء يوم

---

1 تاريخ بغداد, 372/2-373 .
2 بغية الطلب في تاريخ حلب, 420/1 .

القيامة معه لواء الشعراء يقودهم إلى النار"[1]، وقوله في قس بن ساعدة:" رحم الله قس بن ساعدة إني لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحدة" [2].

ويلاحظ مما تقدم أن دراسة التشكيل البديعي في أدب الوفادة قد أسفرت عما يأتي:

1- ورد الطباق بشكل مكثف في الرسائل من جانب الخطاب النبوي, وفي الخطابة من جانب الوفود, ولعل وروده في الرسائل يؤكد دقته ρ, وحسن مكاتباته مع الوفود, مما يمنح الكتب الوضوح, وعمق الدلالة كما أدت المقابلة إلى جانب الطباق دورًا مهما في الخطاب النبوي عامة, والخطاب الكتابي المتمثل في مكاتباته ρ إلى الحكام والملوك والقبائل التي كانت بحاجة إلى التوضيح والتفصيل وجلاء الفكرة وبروزها خاصة, فضلاً عن تأكيد الأحكام لذلك عمد ρ إلى المقابلة التي تميز الأضداد .

2- ورد الطباق في البيان النبوي متنوعًا بين طباق الاسم والاسم, والاسم والمصدر والفعل والفعل.

3- تكثفت المقابلة في الخطاب النبوي الذي جاء بشكل لافت,ولا غرابة في ذلك إذ دعوته ρ قامت في مجملها على نبذ الشرك مقابل عبادة الله وتوحيده, وإثبات ما أمر به الله - عز وجل- ونهى عنه مقابل ما عرف في الجاهلية من شركيات ومظاهر مخالفة لتعاليم الإسلام .

4- تمثل الجناس في الخطاب النبوي بكامل أنواعه, بين الاسم والاسم ,والفعل والاسم , والفعل والفعل, وتنوع بين البسيط الواضح, والمركب العميق, والتام والناقص .

5- ورد السجع في الخطاب النبوي مثلما ورد في خطابات الوفود, مما يثبت بأن السجع المنهي عنه هو ما ماثل سجع الكهان بما فيه من إيحاءات دينية مخالفة لتعاليم الإسلام, وإغراق وتصنع. أما ما جاء منه على السجية دون تكلف وتصنع, وأدى دورا في

1 الإصابة تمييز الصحابة, 426/4.
2 بغية الطلب في تاريخ حلب, 420/1.

إبراز المعاني في أجمل حلة, فلا ضير فيه, بل إنه آكد في الحفظ وأسرع إلى القلوب والأفهام, وتلك الصورة التي تمثلت في سجعه -عليه الصلاة والسلام- وفي أغلب أسجاع الوفود.

6- أدت الفنون البديعية دورها البارز في نصوص الوفادة على المستوى الأدائي الشكلي, والمستوى الدلالي المعنوي, فعلى صعيد الشكل منحت النصوص إيقاعًا وانسجامًا لغويًّا وتأثيرًا جماليًّا كان له دوره في اجتذاب المتلقي وقتل السأم والملل والرتابة عنده, أما على الصعيد الدلالي فقد أسهم في توثيق المعاني وتعميقها وتقويتها.

7- دل استخدام السجع بجانب الفنون البديعية الأخرى في أدب الوفادة على الاستقرار النفسي لدى الوفود والذي انعكس على ألفاظهم فعمدوا إلى تنميقها والخروج بها في أبهى حلة, ولا شك أن في خطبة طهفة بن زهير النهدي التي قامت من بدايتها حتى نهايتها على السجع والطباق والمقابلة والتوازن أكبر دليل على ذلك, إذ جاء رده ρ منسجمًا معها مسجوعًا مثلها, فضلاً عن أنه ρ قد أعطى تلك الوفود فرصة لإبراز قدراتهم اللغوية, وأساليبهم الفنية, التي ما كان العربي ليفخر بأكثر من نبوغه اللغوي، وفصاحته في المحافل, وعليه برزت كذلك القدرة اللغوية المتفردة في الخطاب النبوي الشريف.

8- أفاد النص النبوي الشريف من النص القرآني الكريم, فتعانق النصان لينتجا أثرًا عميقًا ليس على مستوى الخطاب الموجه للعرب فحسب, بل وعلى مستوى الخطاب الموجه لغير العرب, كخطابه ρ لهرقل وكسرى.

9- تضمن الخطاب النبوي آيات من القرآن الكريم جاءت مدعمة لفكرة النص النبوي مؤكدة حقيقته.

10- استمع النبي ρ إلى الشعر المضمن خطابات الوفود, ولم يبد رفضًا لذلك, بل إنه علق على ما سمعه عن امرئ القيس وقس بن ساعدة, بل كان يسأل بعض الوفود عن خطبائهم كسؤاله وفد إياد عن خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ.

11- تزاوجت فنون البديع في الخطاب الوفادي عامة, فترى في الخطاب الواحد السجع بجانب الموازنة والجناس والطباق، مما منح النصوص التجدد والحيوية والجمالية التي تعانقت مع دلالاته العميقة فأنتجت هذا الأثر الواضح.

الفصل الخامس

الهيكل الخارجي

الهيكل الخارجي

تقدم فيما سبق دراسة الجوانب الفنية للتشكيل الداخلي في أدب الوفادة بضروبه الثلاثة: الخطابة والحوار والرسائل, وستتجه الدراسة في هذا الفصل إلى البناء الخارجي أو الهيكل الفني للنص الوفادي, من خلال ثلاثة محاور:

أ- الهيكل الخطابي.

ب-الهيكل الحواري.

ج- هيكل الرسالة.

1- الهيكل الخطابي:

لم يكن للنثر عند العرب منهج يقتفون أثره , بخلاف ما كان للشعر من منهج معروف, ونظام متواتر[1]، فليس هناك نصوص خطابية متواترة على نسق واحد يمكن من خلالها بناء القاعدة العامة التي تمكن ابن قتيبة من بنائها للشعر, وإذ تمثلت هذه الظاهرة في عموم الخطب الجاهلية, فقد ألقت بظلالها على خطب الوفادة في عصر النبوة وهي الأقرب عهدًا وفكرًا وتأثرًا بالجاهلية, فضلاً عن أن أدب الوفادة كان في معظمه أدبًا ارتجاليًّا, وليد اللحظة والموقف, نازعًا إلى العاطفة, خاضعًا لمثيرات وانفعالات محفزة, لذلك جاء مباشرًا وعفو الخاطر. وقد أشار الإمام أبو زهرة لذلك بقوله:**"**أول ما تلقاه في المأثور من الخطب العربية أنك لا تجد الخطب قد لوحظ فيها حسن افتتاح, وتنسيق الموضوع وتجزئته ثم حسن اختتامه, إن ذلك شأن الخطيب الذي يحبر خطبته, ويزوق كلامه, ويهيئه ويعده, ولم يكن أكثر خطباء الجاهلية كذلك, بل كانوا يرتجلون الكلام ارتجالاً؛ لذلك لم تكن خطبهم منسقة مجزأة**"**[2]. وإن

1 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 278.
2 الخطابة, 232.

كانت الخطابة فيما بعد قد اتخذت منهجًا يحدد عناصر الخطبة, من مقدمة وعرض وخاتمة[1]، فإن ذلك لم يتمثل في خطب الوفود, أو خطب الرسول ρ في هذا الأدب إلا نادرًا, كالذي جاء في خطبة وفد تميم, ولعل تمثل هذا البناء الفني في خطبة عطارد بن حاجب كان مقصودًا ,إذ جاءت وفادتهم على رسول الله ρ لغرض المفاخرة ,وإبداء القدرة البلاغية والخطابية أمام رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه. فقامت خطبته على مقدمة وعرض وخاتمة, وعليها كان رد خطيب رسول الله ρ ثابت بن قيس . فيما تبدى شيء من هذا النظام البنائي في خطبته ρ للأنصار بعد استماعه لخطبة هوازن , أما فيما عدا ذلك فلا سبيل معه لتقسيم الخطب , فقد ترد بعض النصوص من فقرة واحدة ,فلا يمكن تقسيمها التقسيم المنطقي المراد ولو حاولنا لأتى جافيًا سقيمًا غير واف بالغرض الذي يرجى من ورائه التقسيم[2].

ويمكن تلمس النهج البنائي لخطب الوفادة –بنوعيها الموجزة والمقسمة- على النحو الآتي :

أ- المقدمة والاستهلال :

المقدمة هي أول ما يلقيه الخطيب على السامعين, فإذا فاجأهم بحسن التقديم كان ذلك أدعى في متابعة خطبته في سبك جميل, ولما للمقدمة من دور في إثارة الانتباه ,وتهيئة النفوس, واسترعاء الأسماع, كان لابد أن تكون ذات صلة بالموضوع ممهدة له دالة عليه, وقد أشار إلى ذلك ابن الأثير حين قال:" إنما خصت الابتداءات بالاختيار؛لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده، توفرت الدواعي على استماعه"[3]. ونوه حازم القرطاجني بمثل ذلك قائلاً : " وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسبًا لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد

---

1 النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام, 213.
2 الكامل في النقد الأدبي, 48.
3 المثل السائر، 98/3.

منها ما يكون فيه رقة عذوبة من جميع ذلك، وكذلك سائر المقاصد.."[1]. والمقدمة من أهم المواضع التي لابد للمتكلم أن يتأنق فيها, ليكون كلامه أعذب لفظًا ,وأحسن سبكًا، وأصح معنًى, وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود, ويسمى براعة الاستهلال[2]. وقد اختلفت الابتداءات في خطب الوفادة، فمنها ما بدئ بحمد الله وذكر فضله, كخطبة عطارد بن حاجب من وفد تميم :" الحمد لله الذي له علينا الفضل ,وهو أهله"[3]، ليأتي رد ثابت بن قيس بمثله وأكثر ثناء فقال:" الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه, قضى فيهن أمره, ووسع كرسيه علمه, ولم يك شيء قط إلا من فضله:"[4] فتتبدى آثار الإسلام أكثر في مقدمة ثابت.

وبعد أن ألقت هوازن خطبتها قام" رسولُ اللهِ ρ في المسلمِينَ فأثنى على اللهِ بِما هوَ أهلهُ "[5] مفتتحًا خطبته كذلك بالثناء, ولعل تمثل هذا الافتتاح في خطابه ρ دون الخطب الوفادية الأخرى جاء، لأنه ρ نزع إليه لغرض أراده, وابتدأ هو الخطاب, فيما جاءت خطاباته الأخرى في معظمها ردًا على خطابات الوفود فدلف فيها إلى الموضوع دون ابتداءات.

ومن جانب آخر افتتح وافد بني نهد خطابه بوصف الرحلة وهو في ذلك يسير على نمط القصيدة الجاهلية, إذ بنى خطبته على وصف الراحلة أولا بقوله: " أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس , ترتمي بنا العيس"[6]، ثم يخرج إلى وصف الرحلة من خلال مشاهداته للطبيعة, ومشاق تلك الرحلة:" نستحلب الصبير ونستخلب الخبير ... من أرض عائلة النطاء ,غليظة الوطاء"[7]، ليدلف من ذلك إلى الغرض من تلك الخطبة وهو إعلان الإسلام والبراءة من الشرك. أما في الخطب التي لم تعتمد المقدمة كنمط ابتدائي للخطبة , فقد غلب الأسلوب الإنشائي على مطالعها متمثلاً في النداء, في محاولة من المتكلم لإثارة الانتباه ,

---

1 منهاج البلغاء، 310.
2 بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ,131/4-134.
3 تاريخ الأمم والملوك,188/2-189.
4 المصدر السابق نفسه.
5 صحيح البخاري,810/2.
6 الفائق في غريب الحديث , 2/ 277-278.
7المصدر السابق نفسه.

وجذب اهتمام المخاطب والسامعين, مع اختلاف ما قد يعقب هذا النداء من تعريف بالقبيلة أو الوفد, ثم وصف الراحلة، كقول همدان: " يا رسول الله! نصية من همدان , من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج "[1]، أو النداء ثم التعريف بالوفد يتبعه عرض الموضوع مباشرة كخطبة عبدالقيس: " يا نبي الله إنا حي من ربيعة"[2]، وقد يعمد الوفد إلى التعريف بأسلوب آخر يوحي بشيء من الفخر, والتذكير بمكانتهم , كما فعل وفد عبد عدي " يا محمد نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به," [3] فيما اكتفت خطابات أخرى بالنداء وعرض الموضوع مباشرة, وكان النداء في كل وفادات القبائل موجها لشخص الرسول الكريم ρ إما باسمه وإما بصفته, فيما توجه ρ في خطبه إلى نداء العامة كقوله:" يا معشر الأنصار أكرموا إخوانكم"[4] مشيرًا إلى عبد القيس, وفي ندائه لعموم الأنصار ما يثير انتباههم ويوحي بأهمية ما سيأتي بعد النداء إذ أعقبه ρ بالأمر المباشر, ليتتابع تأثير النداء مع الأمر, في أسلوب إنشائي مثير للتشويق, إذ الخطابة تقوم على ثلاثية الخطيب والجمهور والمادة, لذا كان من شروط نجاحها وتأثيرها قدرتها على جذب الأسماع, والإصغاء إليها, وسبيلها الأول لذلك يتمثل في حسن مطلعها, والقدرة على توجيه المتلقين من خلالها.

ب- العرض:

العرض هو أساس الموضوع ولا يمكن الاستغناء عنه فيما يمكن ذلك للمقدمة والخاتمة. ويعد العرض العمود الفقري للنص, وهو اللب الذي يحمل أفكار الخطيب, وبدونه

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي, 47.
2 صحيح مسلم ,48/1.
3 الطبقات الكبرى, 306/1.
4 مسند الإمام أحمد,235/5.

يسقط الموضوع, وتنتفي أهميته[1], وقد تقدم في الحديث عن المقدمة في أدب الوفادة أنها لم تكن ذات طابع مطول ومنفرد بذاته, بل جاءت في معظمها معتمدة على النداء كوسيلة لاسترعاء الأسماع ثم مباشرة الموضوع, وبالرغم من ذلك البناء المقتضب للمقدمات فقد أجاد هذا الفن الانتقال من المقدمة إلى الغرض, بحسن تخلص, وانسيابية لا تشعر السامع بالانقطاع أو الاختلاف, بل كانت المقدمات ذات صلات وثيقة بالموضوعات, ولحسن التخلص دور في جودة البناء الخطابي وهو "الانتقال مما شبب الكلام به من تشبيب وغيره إلى المقصود مع الملائمة بينهما, لأن السامع يكون مترقبًا للانتقال من التشبيب إلى المقصود كيف يكون, فإذا كان حسنا متلائم الطرفين حرك من نشاط السامع وأعان على إصغائه إلى ما بعده, وإن كان بخلاف ذلك كان الأمر بالعكس"[2].

فخطبة عطارد بن حاجب التي بدأها بالثناء على الله,تخلص فيها من ذلك الثناء إلى الفخر على وتيرة واحدة, وتأثير خطابي متصل, إذ اتخذ من حديثه عن قدرة الله -تعالى- منفذًا إلى الحديث عن مكانتهم, وما آتاهم الله من فضل, وملك, وأموال, مسترسلاً في الفخر وتعداد المناقب, في حسن تخلص بديع, ليأتي ثابت بن قيس بمثل ذلك البناء وبحسن تخلص فاق خطاب عطارد, إذ تحدث بعد حمد الله عن فضله على المسلمين، حيث اصطفى منهم محمدًا ρ رسولاً, منطلقًا إلى مدحه بمناقبه التي لا تجهلها قبائل العرب, خارجا من مدحه ρ إلى مدح من آمن به من المهاجرين, واصفًا فضلهم, ثم مدلفًا إلى مدح الأنصار,مشيرًا إلى فضلهم في مؤازرة النبي ومناصرة أصحابه, وهكذا تتابعت معاني الفخر منتقلاً من معنى إلى آخر , في تخلص عجيب جميل أذهل الوفد فاعترفوا له بالتفوق .

وكما أجاد الخطباء حسن التخلص في المعاني العظيمة كمعاني الفخر, فقد أجاد آخرون في التخلص من المقدمة إلى العرض في المعاني الإنسانية التي تنزع إلى التأثير الوجداني في

---

1 فن المنافرة والمفاخرة النثرية, 282.
2 بغية الإيضاح, 135/4.

المتلقي لبلوغ أهداف معينة, كما في خطبة وافد هوازن الذي هدف من خلالها إلى إطلاق سراح أسرى القبيلة من رسول الله ρ, إذ بدأ خطبته محاولا تذكير رسول الله ρ بتلك العلاقة الاجتماعية التي تربطه بهذه القبيلة , ثم بما كان لنسائها ورجالها من فضل قديم عليه ρ إذ رضع فيهم صغيرًا, ثم يدلف من فكرة الرضاع إلى مدحه ρ منذ صغره وحتى بلوغه الشباب, مذكرًا إياه مرة أخرى بتلك الصلة التي تربطه بهم, وعندما استوثق الخطيب تأثيره في رسول الله ρ عرض حاجته في عجالة لم يطل فيها كما أطال في التمهيد لها, قائلاً: "فامنن علينا منّ الله عليك"[1]، إذ جعل الطلب هو الخاتمة مكتفيًا بما تقدم. وتكررت فكرة محاولة التأثير في رسول الله ρ قبل عرض الطلب للخروج من خلال التأثير النفسي إلى الهدف المنشود. وقدمت أشجع على رسول الله ρ, فقالوا:" يا محمد! لا نعلم أحدًا من قومنا أقرب دارًا منك منا, ولا أقل عددًا, وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك, فجئنا نوادعك فوادعهم"[2]. وهكذا عرض الخطيب غايته بعد أن قدم لتلك الغاية ما يسوغها ويدعو إليها.

وكان من أساليب الانتقال بين المقدمة والموضوع, في أدب الوفادة على رسول الله ρ ما يسمى بالاقتضاب, كقول القائل بعد حمد الله: (أما بعد), قيل: وهو فصل الخطاب[3]. و"أثر عن قس بن ساعدة الإيادي -أقدم وأشهر خطباء العرب قاطبة في العصر الجاهلي- أنه أول من قال: "أما بعد" في خطبه ووصاياه وكتبه, ...وكذلك استعملها في كتبه التي كان يبدؤها بقوله: "من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان"[4]، وقد جاء هذا النمط الانتقالي في خطابة رسول الله ρ في الأنصار متحدثًا عن هوازن إذ قام :"رسولُ اللَّهِ ρ في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أَهْلُهُ، ثم قال أما بعدُ فإنَّ إخوانكم قد جاؤونا تائِبين، وإني قد رأيتُ أن أرُدَّ إليهم سَبيَهم، فمَن

---

1 الطبقات الكبرى, 114/1.

2 المصدر السابق, 306/1.

3 بغية الإيضاح, 137. قيل سمي اقتضابا لأن الانتقال فيه من الحمد ونحوه إلى غيره من غير ملائمة, وقد أشبه التخلص بسبب أنه لم يؤت بما بعده فجأة من غير قصد إلى ربطه بما قبله على نوع من الربط, لأنه بمعنى: مهما يكن من شيء بعد حمد الله فإنه كذا وكذا ، وهذا يفيد أن ما بعدها مرتبط بالحمد على وجه اللزوم, وفصل الخطاب لأنه يفصل بينه وبين ما بعده بحمد أو نحوه. المصدر نفسه.

4 قس بن ساعدة الإيادي, 17.

أحبَّ منكم أن يُطيِّبَ ذلك فلْيَفعلْ. ومَن أحب منكم أن يكونَ على حَظِّهِ حتى نُعطيَهُ إيّاهُ من أوَّلِ ما يُفِيءُ الله علينا فلْيَفعلْ."[1]

ومما تجدر إليه الإشارة أن خطب الوفود قد تمثلت وحدة الموضوع نمطًا لها, فندر أن يأتي الخطيب بمعان مختلفة ,وإنما كانت كل خطبة تقوم على غرض محدد، لذلك جاءت ألفاظهم موجزة, وعباراتهم مختصرة, وجملهم متتابعة متصلة, فضلاً عن الوضوح التام في مقاصدهم وغاياتهم. وهذه صفات تمنح النجاح والتأثير للخطب إذ "حذف أدوات الوصل يشعر بكثرة المعاني المتحدث عنها, وكذا الترديد فإن كثرة ترديد اسم يبدو كأنه قيل عنه الكثير, والأسلوب المناسب للمحافل الشعبية يشبه تمام المشابهة رسم المنظور, فكلما زاد عدد المشاهدين بعدت النقطة التي منها يكون النظر, ولهذا فإن دقة التفاصيل لا داعي لها , وسيكون أثرها في الرسم كما في الخطبة رديئًا, بيد أن الخطابة في ساحة القضاء تقتضي زيادة في التدقيق خصوصًا إذا كان المرء أمام قاض واحد, ويلزم أن يكون الأسلوب واضحًا دون تسفل"[2].

ج- الخاتمة:

الخاتمة آخر ما يعيه السمع, ويرتسم في النفس, فإن كانت مختارة جبرت ما عساه وقع فيما قبلها من التقصير, وإن كانت غير مختارة كانت بخلاف ذلك , وربما أنست محاسن ما قبلها.[3] وقد كانت الخواتم في خطب الوفود تنتهي بانتهاء العرض، ولاسيما إن كان العرض طلبًا أو حاجة من رسول الله ρ, إذ تأتي الخاتمة موجزة سريعة دالة على العرض والختام في

1 صحيح البخاري, 1569/4.
2 في بلاغة الخطاب الإقناعي, 88-89.
3 بغية الإيضاح, 138.

آن, معتمدة الأسلوب الإنشائي كقول وافد هوازن: "فامنن علينا منّ الله عليك"[1] خاتمًا خطبته بالدعاء, وقد تختم بالأمر الطلبي كما في خطبة وافد بني فزارة: " واشفع لنا إلى ربك وليشفع لنا ربك إليك"[2]، وخطبة عبد القيس:" فمرنا بأمر نأمر به من وراءنا وندخل به الجنة إذا نحن أخذنا به "[3]. كما جاءت بعض الخواتيم معللة لما ورد في العرض, و كان من براعة ختام رسول الله ρ لخطبته في الأنصار موصيا إياهم بعبد القيس خيرًا, قوله:" أسلموا طائعين ,غير مكرهين ولا موتورين إذ أبى قوم أن يسلموا حتى قتلوا"[4]، فختم ρ خطبته معللاً حق عبد القيس بتلك المنزلة, مؤكدًا ضرورة إكرامهم؛ لأنهم أسلموا طوعًا فيما استكبرت أقوام حتى قاتلهم ρ. أما ما تمثل من الخواتيم في أدب الوفادة على رسول الله ρ بشكل مقصود واضح , ففي خطبة عطارد بن حاجب التي ختمها بقوله: " أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا وأمر أفضل من أمرنا"[5]، ليتيح المجال بعده لخطيب رسول الله ρ, منهيًا خطبته باستدراك مشير فيه إلى ما قاله سابقًا, بقوله:(أقول هذا الآن), ليبقى صدى خطبته حاضرًا في الأذهان حتى بعد أن ختمها, فيأتي ختام ثابت بن قيس ختامًا إسلاميًّا أكثر تأثيرًا بقوله: "أقول قولي هذا وأستغفر الله للمؤمنين وللمؤمنات والسلام عليكم"[6], منهيًا خطبته بالاستغفار الخاص لعموم المؤمنين والمؤمنات فقط , والسلام العام الموجز لأنه سلام موجه لمن آمن ومن لم يؤمن بعد.

2- الهيكل الحواري:

لم يتخذ الهيكل الحواري في أدب الوفادة طرقًا محددة يسير على غرارها الوافدون, أو مناهج مقننة ينتهجها المحاورون, شأنه في ذلك شأن الخطابة من هذا الفن, فقد تعددت طرق الحوار, وتباينت أنماطه, بتعدد الوفود, وتباين مراميهم, ويمكن الوقوف في دراسة هيكل

1 الطبقات الكبرى, 114/1.
2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/ 274.
3 صحيح مسلم, 48/1.
4 مسند الإمام أحمد,235/5.
5 تاريخ الأمم والملوك,188/2-189.
6 تاريخ الأمم والملوك,188/2-189.

الخطاب الحواري على شقين أساسين, الأول: يتعلق بشخصيات الحوار, وهم الأشخاص الذين تبادلوا الخطاب الحواري, والثاني:يتعلق بأنماط الحوار التي تمثلت في هذا الأدب.

أولاً: شخصيات الحوار:

قام الخطاب الحواري في أدب الوفادة على طرفين, كان أحدهما ثابتًا رئيسًا وهو رسول الله ρ, والآخر متنوعًا متعددًا بين المحاور الواحد أو جماعة المحاورين, مما يمكن معه تقسيم شخصيات الحوار إلى قسمين :

1- شخصية أساسية.
2- شخصية متغيرة.

1- الشخصية الأساسية:

الشخصية الأساسية في النص الحواري في أدب الوفادة هي التي انفردت بالدور الرئيس, وكان لها حضورها في كل نماذج هذا الأدب الحواري, فهي محور الموقف, وإليها تتجه عناية الطرف الآخر, مقيما حواره معها, عاقدًا نصه لأجلها, لذا يتبدى حضورها في كل أجزاء البناء النصي والدلالي في الحوار. وقد كان رسول الله ρ هو هذه الشخصية الأساسية, بل لم تبن الوفود- باختلافها فردية أو جماعية- حواراتها إلا لأجله, ورغبة في التواصل معه, ومع اختلاف دور النبي ρ في تلك الحوارات متكلمًا أو مستمعًا, أو سائلاً, فإن حضوره كشخصية رئيسة لم يتغير, وظل محتفظًا بأهميته وعدم إمكان الاستغناء عنه.

2- الشخصية المتغيرة:

وهي الشخصية أو الطرف الذي يقف محاورا إزاء الشخصية الأساسية في البناء الحواري, وهي شخصية متغيرة بتغير وفادات القبائل, إذ ينتهي دورها بانتهاء حوارها مع رسول الله ρ, ليبدأ دور جديد لشخصية جديدة تحتل مكانها, وتباشر محاورة رسول الله ρ, وبالنظر إلى ما تمثل من نصوص حوارية في أدب الوفادة اتضح أن الشخصية المتغيرة وردت

بأنماط مختلفة, فمنها الشخصية الحوارية المفردة التي تقوم على محاور ومتكلم واحد يجزئ عن باقي الوفد إن كان قد جاء في جماعة, كحوار وفد عذرة[1] ومنها المحاور الواحد في الوفادة الفردية كحوار ضمام بن ثعلبة[2], ومنها تعدد المحاورين إذ ينتقل الحوار بين الوفد من متكلم إلى آخر مع ثبات الطرف الثاني وهو رسول الله ρ, وتمثل ذلك –غالبًا- في الجدل, كحوار اليهود معه ρ [3].

ثانيًا: أنماط الحوار:

بالنظر في النماذج والنصوص الأدبية لفن الحوار في أدب الوفادة, اتضح أنها تضم أنماطًا متنوعة من الحوار,اختلفت باختلاف المعطيات المصاحبة للوفادة, وطبيعة المحاورين, وتكويناتهم البيئية والنفسية والثقافية, ويمكن تقسيم الحوار في النصوص التي وقف البحث عليها إلى ثلاثة أنماط:

1- الحوار السقراطي.
2- الحوار الخطابي.
3- الحوار الانفعالي.

1- الحوار السقراطي:

الحوار السقراطي من أفضل أنواع الحوار الفلسفي, وهو حوار يقوم على السؤال والجواب ويتيح للمسؤول أن يبدع الآراء التي وضعها السائل دونه[4], ولعل هذا النوع من الحوار كان الأكثر حضورًا في أدب الوفادة في عصر النبوة, فبني على الهدوء, محكومًا بالعقل في محاولة للوصول إلى الحقيقة, والرغبة في الفهم وبلوغ أسباب القناعة, عن طريق تتابع

1 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء, 2/277-278 .
2 صحيح البخاري, 1/35.
3 مسند الإمام أحمد , 1/459.
4 فن الحوار, 230 .

الأسئلة والأجوبة, وقد تمثل هذا النوع في حوار ضمام بن ثعلبة مع رسول الله ρ[1], فقد وقف أمام رسول الله ρ, بالرغم من التباين القائم بينهما في المنزلة, والفكر, والتكوين البيئي , إلا أنه استطاع أن يحاور النبي -عليه الصلاة والسلام- حوارًا منطقيًا ملقيًّا عليه السؤال تلو الآخر, في محاولة جادة وملحة لبلوغ هدف واحد, وهو التثبت من صدق هذه الدعوة, ومع كل سؤال يلقيه ضمام, يأتي رد النبي ρ بالتأكيد , حتى انتهي ذلك الحوار نهاية مثمرة بقول ضمام:" آمنت بما جئت به وأنا رسول من ورائي من قومي وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر"[2]. وبالرغم من أن النبي ρ كان مجيبًا, واختص ضمام بإدارة الحوار منذ مطلعه, إلا أن حضور النبي ρ كان بارزًا في هذا النموذج الحواري مع نهاية كل سؤال يلقيه المحاور بين يديه.

وفي موضع آخر يتجلى فيه إعمال المنطق, والتنامي بالحوار حتى يبلغ غايته المنشودة يقف النبي ρ سائلاً وعدي بن حاتم مجيبًا[3], ولم تأت أسئلته ρ لغرض المعرفة, وإنما تجاوزت معنى السؤال البسيط- الهادف إلى المعرفة بشيء مجهول -إلى معان منطقية أسمى وهي الوصول بعدي إلى الإقناع الكامل, من خلال هذا النمط البنائي المتمثل في طرح الأسئلة ثم التعليق عليها , دافعًا حبكة الحوار إلى الأمام مما أثمر في نهايته عن إسلام الرجل وامتثاله. وفي مشهد آخر يسوده الهدوء, وغلبة العقل, يقوم الحوار بين رسول الله ρ ووافد عنس, إذ بادره -عليه الصلاة والسلام- بالسؤال: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله؟ فيأتي جواب الرجل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. ثم يتبعه ρ بسؤال آخر":أراغبًا جئت أم راهبًا؟ فقال: أما الرغبة والله ما في يديك مال, وأما الرهبة فوالله إنني لببلد ما تبلغه جيوشك, ولكني خوفت فخفت، وقيل لي: آمن بالله فآمنت، فأقبل رسول الله على القوم فقال:

---

1 ينظر:صحيح البخاري, 35/1.
2 المصدر السابق نفسه.
3 البداية والنهاية, 64/5-65.

رب خطيب من عنس"[1]. لقد استطاع ρ أن يتقدم بالحوار متناميًا بحبكته من السؤال الأول البسيط, الذي أجاب الرجل عليه إجابة واحدة, إلى السؤال الثاني, الذي اقتضى من الرجل التفصيل والتقسيم فيه, فضلاً عن التنامي بالأثر النفسي لدى المسؤول, إذ سؤال النبي ρ الثاني كان أكثر تأثيرًا من الأول, بيد أن الرجل التزم الهدوء والتأدب مع رسول الله ρ مع قدرته على الإفصاح عن شخصيته,وحقيقة إيمانه, في إجابة لقيت استحسان النبي ρ , فأثنى عليه بها قائلاً: (رب خطيب من عنس). وهكذا قام الهيكل البنائي للحوار على إلقاء الأسئلة المتتابعة مع الإجابة عن كل سؤال في موضعه.

وتكرر هذا اللون الحواري كذلك مع وفد غسان, إذ بادرهم -عليه الصلاة والسلام- بسؤاله: " أنتم الغسانيون؟ قالوا: نعم, قال: قدمتم مرتادين لقومكم فما انتفعتم بعلم من كان معكم من أهل الكتاب, قالوا: يا محمد! لم نر أحدًا منهم اتبعك فوقفنا عنك لذلك ونحن الآن على غير ما كنا عليه فإلام تدعو ؟ قال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له وخلع ما دعي من دونه, وأني رسول الله, قال قائلهم: فمن معك من أتباعك ؟ قال الله -جل وعز- معي والملائكة جبريل وميكائيل والأنبياء وصالح المؤمنين, ثم التفت ونظر إلى عمر ولم ير أبا بكر، فقال: هذا وصاحبه, قلنا: ابن أبي قحافة ؟ قال: نعم, قلنا: إنك لتأوي إلى ركن شديد، وقد صدقناك وشهدنا أن ما جئت به حق"[2]، فبدأ الحوار هادئا بالسؤال عن الوفد, ثم الإجابة, ليتنامى وينتقل إلى صيغة العتاب من جانب النبي ρ, بيد أن الوفد احتفظ بهدوئه محاولاً العدول برسول الله ρ من صورة المعاتب إلى المجيب, بعد أن أثبتوا له حسن نواياهم, في حسن تخلص ,وإجابة حكيمة, قلبت هيكل الحوار ليصبحوا هم السائلين, ورسول الله ρ يجيب مما جعل حبكة الحوار تتصاعد حتى بلغت بالوفد إلى الإيمان والتصديق.

---

1 الطبقات الكبرى 342/1 - 343.

2 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,291/2.

وفي صورة أخرى من صور البناء الحواري, يبادر النبي ρ الوفد بسؤال ثم يبني عليه حواره, كقوله لعبد القيس" أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا :الله ورسوله أعلم, قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من الغنم"[1]، فالنبي ρ ممسك بزمام الحديث بيد أنه أراد مشاركة الوفد حواره لذا كان السؤال, منطلَقًا للدعوة والتبليغ.

وبالرغم من اختلاف الصور في هذا اللون الحواري, بين الأسئلة المتتابعة مع الإجابة عن كل سؤال في موضعه, وإلقاء السؤال الواحد ثم الانطلاق إلى الحوار من خلاله, أو تتابع الأسئلة حتى النهاية ليأتي الرد بإجابة واحدة كما فعل ρ مع عتبة بن ربيعة[2]، فقد كان حوارًا بناء, أثمر في معظمه ثمارًا طيبة, وأدى إلى نتائج منشودة, وحقق غايات هدف إليها كل طرف من أطراف الحوار.

2- الحوار الخطابي:

الحوار الخطابي هو الحوار الذي تبدو فيه النبرة الخطابية واضحة, إذ يقف الوافد بين يدي رسول الله ρ بمقدمة خطابية يختمها بطلب أو سؤال, وعليه فإن هذا النوع من الحوار يتميز بطول العبارة, واسترسال الطرف الأول في الحديث حتى النهاية, ليأتي رد الطرف الثاني بخطاب مثله أو أوجز منه, ومن ذلك حوار وفد عبد القيس إذ "قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ! إِنَّا حَيٌّ مِنْ رَبِيعَةَ. وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ كُفَّارُ مُضَرَ. وَلاَ نَقْدِرُ عَلَيْكَ إِلاَّ فِي أَشْهُرِ الْحُرُمِ. فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْمُرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ، إِذَا نَحْنُ أَخَذْنَا بِهِ".[3] فيلاحظ أنهم بدأوا حوارهم بنبرة خطابية معرفين بأنفسهم, مفصلين الحديث في أحوالهم ,ثم ختموا حوارهم بسؤال موجه إلى النبي ρ, فجاء رد النبي -عليه الصلاة والسلام- خطابيًا كذلك بقوله:" «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَربَعٍ. اعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا, وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ, وَآتُوا الزَّكَاةَ,

---

1 حلية الأولياء, 198/9.
2 البداية والنهاية, 493/1.
3 صحيح مسلم, 165/1.

وَصُـومُوا رَمَضَـانَ ,وَأَعْطُـوا الْخُمُـسَ مِـنَ الْغَنَـائِمِ, وَأَنْهَـاكُمْ عَـنْ أَرْبَـعٍ: عَـنِ الـدُّبَّاءِ, وَالْحَنْـتَمِ, وَالمُزَفَّتِ , وَالنَّقِيرِ"[1]. ومنه كذلك حوار بني عبس إذ بدأ بلغة خطابية, انتهى منها إلى السؤال بقولهم:" إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له , ولنـا أموال ومواش هـي معاشنا, فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة لـه بعناها وهاجرنـا"[2]، فيأتي رد النبـي ρ منهيًا ذلك الحوار بقوله:" اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم من أعمالكم شيئًا ولو كنتم بصمد وجازان"[3]، ففي هذا اللون من البناء الحواري الخطابي ينتهي خطاب كل طرف ليبدأ خطاب الطرف الثاني دون تجاذب مستمر لأطراف الحديث. وفي صورة أخرى يبدأ الحوار كذلك بنبرة خطابيـة, لينتقل منها إلـى الحـوار المتبـادل بالسؤال والجواب بين الوفد ورسول الله ρ , ومن ذلك حوار وفد عذرة, إذ بدأوا حوارهم بالفخر, والتعريف بأنفسهم بلغة تجنح إلـى القوة, بقولهم:" من لا تنكر نحن بنو عذرة, أخوة قصي لأمه, نحن الذين عضدوا قصيًّا , وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر, ولنا قرابات وأرحام"[4]، ثم بعد ذلك ينتقل الحوار المتبادل بين النبي ρ والوفد حتـى نهايتـه. وقد تعلو النزعة الخطابية في بنـاء الحوار الخطـابي, ولاسيما في الجدل القائم علـى الإعراض عن الاستماع للرأي الآخر, والتمسك بـالرأي, والاعتداد بالذات, والتحدي, واعتقاد المحاور صحة رأيه, وصواب توجهه, مع تجاهل الرأي الآخر وتخطئته, ومن ذلك جدل عتبة بن ربيعة لرسول الله ρ بقوله: " يا محمد! أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ρ, قال: أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ρ، فقال: فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت, وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك, إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك, فرقت جماعتنا, وشتت أمرنا, وعبت ديننا, وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرًا, وأن في قريش كاهنًا, والله ما ننتظر إلا مثل

1 المصدر السابق نفسه.
2 الطبقات الكبرى, 295/1-296.
3 المصدر السابق نفسه.
4 الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء,277/2-278.

صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى, أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً, وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرًا ,فقال رسول الله ρ: فرغت؟ قال: نعم, فقال رسول الله ρ: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *"إلى أن بلغ" فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ "، فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا؟ قال لا"[1]، فيبدو النبي ρ أكثر هدوءًا واتزانًا ويعدل بالحوار من تلك النزعة الحادة إلى العقل والمنطق, بسوق الدليل والبرهان القاطع, ردًّا على كل ما تقدم من قضايا أثارها المحاور في حواره الخطابي.

3-الحوار الانفعالي:

الحوار الانفعالي هو: الحوار الذي يتميز بالإيجاز, ويسيطر عليه الترقب لمعرفة ما سيرد من الطرف الآخر, فضلاً عما يشعر به من شدة الانتباه واليقظة, وهو -غالبًا- يأتي في عبارات سريعة قصيرة لما يوحي به من انفعالية وردود سريعة, وقد تمثل هذا النوع في حوار رسول الله ρ مع رسولي مسيلمة الكذاب اللَّذَين حملا له كتاب مسيلمة وفيه يعرض مشاركة رسول الله ρ في أمره, فسألهما رسول الله -عليه الصلاة والسلام-:" فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال. فقال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما"[2]، فبالرغم من سرعة هذا الحوار, إلا أنه أثار انفعال النبي ρ, لكنه مع ذلك أبدى سيطرة عظيمة، فهذان الرجلان يؤمنان بكتاب مسيلمة, ويتبنيان فكره المنحرف عن العقيدة, القائم على الباطل والكذب, ويعترفان بذلك لرسول الله ρ, بيد أنه يكبح جماح غضبه وانفعاله, معللاً ذلك بالتزامه بقوانين وأعراف السفارة, وما تمنحه للسفير من حق الحماية, مهما كانت مضامين رسالته التي يحملها,

1 البداية والنهاية, 493/1 .
2 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي, 477-478.

ولم يسمح المقام بإطالة الحوار لذلك ختم سريعًا برد النبي ρ.   وفي صورة أخرى يبرز الحوار الانفعالي, بيد أنه انفعال مناقض لانفعال النبي ρ تمامًا , فيه تهديد ووعيد مباشر, تمثل ذلك في حواره مع عامر بن الطفيل إذ قال عامر: " يا محمد! ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذاك لك ولا لقومك .قال: أفتجعل لي الوبر ولك المدر؟ قال: لا ولكني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس. قال: أو ليست لي لأملأنها عليك خيلا ورجالا" [1]. لقد اتسم حوار النبي ρ بالهدوء والعقلانية منذ البداية, بالرغم مما تضمنه حوار عامر من استفزاز, وتحدٍ ,بيد أن رسول الله ρ احتفظ بهدوئه, مع ارتفاع درجة الانفعال عند عامر كلما تقدم الحوار, حتى بلغ ذروته فعبر عن ذلك بالتهديد المباشر.

وهكذا يتميز الحوار الانفعالي بالسرعة, والترقب, والإجابات المختصرة, ويظهر أثر الانفعال فيه من خلال الكلمات الموحية بذلك.

ج- هيكل الرسالة:

برزت الكتابة نوعا من أنواع الوفادة في هذا الأدب, وتميزت في بنائها وهيكلها الخارجي عن الخطابة والحوار, إذ إن "تجميل الأسلوب يكون حسب المقام والجمهور الذي إليه الخطاب, وحسب نوع الخطاب مكتوبًا كان, أو شفويًّا حواريًّا, يجب أن لا ننسى أن لكل نوع خطابي أسلوبًا خاصًّا يليق به, فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات, والأسلوب في الجماعات غيره في المحاكم, ولابد من معرفة كليهما, وأسلوب الكتابة أدق, وأسلوب الحديث أشد حركة وتنازعًا "[2]. وقد كان أسلوب الكتابة في هذا الأدب ذا طابع دعوي أو تشريعي, وقد غلب الإيجاز على النصوص الدعوية التي كان الغرض منها الدعوة إلى الدين الإسلامي, فيما غلب على النصوص التشريعية التفصيل والإطناب والبسط ,رغبة منه ρ بتبليغ شرائعه

---

1 الطبقات الكبرى, 1/ 310.

2 في بلاغة الخطاب الإقناعي, 88.

في أوضح صورة, وأدق دلالة. وقد أشار العسكري إلى الإيجاز والإطناب بقوله: "يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ولكل واحد منهما موضع فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه, كالحاجة إلى الإطناب في مكانه, فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته, واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز ,واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ"[1] ، وعلى ذلك أمكن تقسيم رسائل أدب الوفادة من حيث هيكلها الخارجي إلى قسمين: رسائل قصيرة، ورسائل طويلة.

أولاً: الرسائل القصيرة:

يقصد بالرسائل القصيرة في هذا الأدب الرسائل الموجزة المختصرة, وهي تتمثل –كما تقدم- في الرسائل الدعوية إلى الملوك والحكام ورؤساء القبائل, وقد اتسمت هذه الرسائل بالوضوح, والتركيز, وسهولة الأسلوب ومباشرته, كرسالته إلى كسرى, وهرقل، والنجاشي, وملكي عمان, وغيرهم من الملوك والحكام, إذ تميزت رسائله بـ"الإيجاز والبساطة فكلها شاهد على الاستغناء بأقل الألفاظ وعلى الخلو من الصناعة اللفظية, تكثر فيها الإشارة إلى المعاني, والبعد عن تكلف السجع أو البديع"[2]، وقد سارت رسائل النبي ρ الدعوية على نمط متشابه في معظمها, ولعل لبعثه إياها في يوم واحد في المحرم سنة ست للهجرة[3] دورًا في هذا التشابه النمطي البنائي، إذ يبدأ كتابه بالبسملة "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم يذكر اسم المرسل بقوله: "من محمد رسول الله ρ" ثم المرسل إليه, ثم يلقي السلام مشروطًا بمن اتبع الهدى, منتقلاً من هذه المقدمة إلى عرض موضوع الكتاب بقوله غالبًا:(أما بعد), وقد و رد هذا النمط البنائي في كتابه ρ لهرقل, والمقوقس, فجاءت على النحو الآتي:"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ρ وفي رواية عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط, سلام على من اتبع الهدى , أمابعد "[4]. وقوله :"بسم اللهِ الرحمن الرَّحيم. من محمدٍ رسولِ الله، إلى هِرَقلَ عظيم الروم. سلامٌ

1 الصناعتين، 190.
2 في بلاغة الخطاب الإقناعي, 88.
3 البداية والنهاية, 778/1 ؛ وتاريخ الأمم والملوك, 84/2.
4 المصباح المضي, 535 .

على من اتَّبع الهدَى. أما بعدُ"[1]. وقد ينتقل ρ إلى موضوع كتابه مباشرة دون أن يذكر" أما بعد" كما في كتابه لكسرى :" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس, سلام على من اتبع الهدى , وآمن بالله ورسوله, وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله وأدعوك بدعاء الله.."[2]، والحارث بن أبي شمر:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحرث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق وإني أدعوك.."[3]، وهوذة بن علي:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر..."[4]، ثم يختم ρ كتبه – غالبًا- إما بالترغيب كقوله لهوذة بن علي:" واجعل لك ما تحت يديك"، وقوله للحارث بن أبي شمر" يبقى لك ملكك" ، وإما بالترهيب كقوله لهرقل: " فإن توليتَ فإن عليك إثمَ الأريسِيِّين" ، ولكسرى:" فإن إثم المجوس عليك" وللمقوقس: فإن توليت فعليك إثم القبط" كما قد يختم كتابه بالسلام كما فعل في كتاب النجاشي الذي لم يبدأه بالسلام كما بدأ باقي كتبه وإنما ختمه به في قوله: " فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى".

وقد احترم بعض الملوك هذا النظام البنائي لكتب رسول الله ρ , فأرسلوا ردودهم على نهجه, ومن ذلك رد النجاشي ملك الحبشة: " بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته من الله الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام أما بعد"[5]، إذ يقدم النجاشي ذكر المرسل إليه على ذكر المرسل, احترامًا وتقديرًا لمكانة رسول الله ρ, ثم يشير بعد ذلك إلى غرض الكتاب خاتمًا إياه بقوله:" والسلام عليك يا رسول الله ".

---

1 صحيح البخاري, 165/4.
2 تاريخ الأمم والملوك, 90/2.
3 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي, 453.
4 تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي, 461/7.
5 تاريخ الأمم والملوك, 89/2.

وهكذا سارت رسائل الدعوة على هيكل بنائي موحد في معظمها, مع ما تميزت به من تركيز على القضية الأولى وهي الدعوة إلى الإسلام. وكذلك جاء رد المقوقس عظيم القبط:" لمحمد بن عبد الله –وزاد غيره بسم الله الرحمن الرحيم- من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد"[1]، ثم يعرض موضوعه ويختم كتابه بالسلام أيضًا قائلاً: " والسلام عليك".

ثانيًا: الرسائل الطويلة:

اتسمت بعض كتب ورسائل رسول الله ρ بالطول والبسط والتفصيل, فجاءت طويلة قياسًا إلى كتبه الدعوية, ولعل أبرز الرسائل التي مثلت هذا النوع الكتابي هي الرسائل التشريعية ,التي أرسلها ρ إلى من أسلم من الحكام وقبائلهم, موضحًا فيها شرائع الإسلام , وحدوده, وأركانه, ومعاملات المسلمين مع غيرهم, ومن ذلك كتابه ρ إلى عمير ذي مران ومن أسلم من همدان: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى عمير ذي مران ومن أسلم من همدان، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإننا بلغنا إسلامكم مقدمنا من أرض الروم فأبشروا فإن الله –تعالى- قد هداكم بهداه ,وإنكم إذا شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ,وأقمتم الصلاة ,وأديتم الزكاة, فإن لكم ذمة الله وذمة رسوله على دمائكم وأموالكم ..."[2]، فيبدأ الكتاب بالبسملة, وبالمرسل, ثم المرسل إليه ثم ينتقل إلى بسط موضوعه بقوله: (أما بعد), في نظام بنائي يماثل بناء رسائله الدعوية, بيد أن كتابه هنا يأتي طويلاً ومفصلاً. ومن ذلك –أيضًا- كتابه إلى الحارث بن عبد كلال ومن معه قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال,ونعيم بن عبد كلال, والنعمان قيل ذي رعين وهمدان ومعافر, أما بعد ذلكم: فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ,أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ,فلقينا بالمدينة ,فبلغ ما أرسلتم وخبر ما قبلكم ,وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين, وإن الله قد هداكم بهدايته إن أصلحتم وأطعتم الله

---

1 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي, 536.
2 تاريخ اليعقوبي, 81/2.

ورسوله ,وأقمتم الصلاة ,وآتيتم الزكاة ,وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه ...."[1]، وإذا كان هذا الكتاب بني على غرار غيره من الكتب التي تقدم الحديث عنها, بيد أنه يلاحظ أن هذا الكتاب جاء طويلاً جدًّا, وتعددت قضاياه , كما تعدد المرسل إليهم فيه, لذلك كان ρ يستأنف خارجًا من كل قضية إلى أخرى بقوله: "أما بعد" ,فقد تكررت أربع مرات في الكتاب كاملاً, إذ يخرج بها ρ من معنى إلى آخر وكأنه يبدأ كتابًا جديدًا, لافتًا النظر إلى أهمية ما سيرد بعدها, إذ لا يقل شأنًا عما ورد قبلها من قضايا, لينهي كتابه ρ بقوله:" والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته". وجرت العادة في كثير من مكاتباته ρ، ولاسيما في الأعطيات والهبات وكتب العهود والمواثيق, أن تختم الكتب بذكر الكاتب وبشهادة بعض الصحابة, بذكر أسمائهم, أو عموم من حضر من المسلمين, كما في كتابه لبادية الأسياف: " وكاتب الصحيفة ثابت بن قيس بن شماس, شهد سعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة"[2]، وكتابه لبارق:" شهد أبو عبيدة بن الجراح، وحذيفة بن اليمان، وكتب أبيّ بن كعب"[3] , كما قد يكتفي ρ بذكر الكاتب كما في كتابه ليهود تيماء:"وكتب خالد بن سعيد"[4], أو قد يكتفي بذكر الشهود على اختلاف أعدادهم بذكر أسمائهم ككتابه لأهل نجران: " شهد أبو سفيان بن حرب, وغيلان بن عمرو, ومالك بن عوف النصري ,والأقرع بن حابس, والمستورد بن عمرو أخو بلي, والمغيرة بن شعبة, وعامر مولى أبي بكر"[5]، وكتابه لبني جناب من كلب: " شهد سعد بن عبادة, وعبد الله بن أنيس, ودحية بن خليفة الكلبي"[6]، أو قد يشهد عموم من حضر من المسلمين كما في كتابه إلى مالك بن نمط "لهم بذلك عهد الله وذمام رسول الله , وشاهدهم المهاجرون والأنصار." [7]، ويشير بعض الباحثين إلى كتب النبي ρ بقوله:" ومما يلفت النظر أنك إذا استثنيت بعض الكتب،

1 تاريخ الأمم والملوك, 191/2.
2 الطبقات الكبرى، 286/1.
3 المصدر السابق, 1/ 352.
4 المصدر السابق , 1/ 279.
5 المصدر السابق , 287/1.
6 المصدر السابق ,286/1.
7 المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ, 474.

ولاسيما التي يقال إنها أرسلت إلى الملوك فإن الكتب النبوية عمومًا خالية من الشواهد القرآنية, وليس فيها ما يدل على فن كتابي خاص تعمده الرسول ρ, وإنما هي كما ذكرنا تمثل لغة التعامل العادية في ذلك الوقت "[1]، وإن كان هذا القول يحتمل الصحة فإنه لا يعمم على سائر كتبه ρ, إذ تمثل النظام البنائي في كثير منها اكتفى البحث بنماذج منها لضيق المقام وعدم إمكان إيراد كافة الشواهد.

وهكذا اتخذ كل فن وفادي هيكلاً خاصًّا به, وبناءً خارجيًّا, وخصائص ميزته عن غيره, وفضلاً عما تقدم الحديث فيه عن بناء الهيكل الخطابي, والحواري,والكتابي, فإنه يمكن القول –أيضًا- إنه من خلال الدراسة الفنية لهذه الأنواع مجتمعة, تبين أن الحوار جاء في غالبه سهلاً واضحًا, لم يخضع للتنميق والإعداد, وإنما كان يأتي عفو الخاطر بحسب كل موقف, فيختلف باختلاف القضية المطروحة مائلاً إلى الخشونة والتحدي في المواقف التي تستثير الانفعال, وإلى الهدوء والعقل واللين والمنطق في مواضع أخرى, وفي كل الحالات كانت أساليب الحوار وألفاظه سهلة لا تحتاج أي كد للذهن أو إعماله للوصول إليها, فيما كانت الخطابة أكثر قوة وجزالة وجرأة في طرح القضايا والتعبير عنها ,إذ أن الخطيب يسترسل في بسط فكرته دون أن يجد ردًّا يصرفه عن خطبته أو يقطع عليه كلامه, أما الرسائل فكانت محكومة بالغرض, مقيدة به, فمن الإيجاز والمباشرة والوضوح في رسائل الدعوة, إلى الإطناب والتفصيل, والانتقاء والعناية بمخاطبة كل وفد بلغته, والكتابة إليه بما يألفه من أساليب وألفاظ ولذلك "تكثر فيها الألفاظ المناسبة لحال المخاطب "كالعباهلة والتيعة والطلح والعارض والفريش والسيوب والوارط وعشرات غيرها من الألفاظ التي يقل أو يندر استعمالها في غير ذلك, وقد تنبه نقاد العربية لهذا الأمر"[2]، فقال القلقشندي: "وكانت لغة رسول الله ρ التي يتكلم بها على الدوام ويخاطب بها الخاص والعام لغة قريش وحاضرة الحجاز، إلا أنه ρ أوتي

1 تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي, 38-37.
2 تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي, 36.

جوامع وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البادية، فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن بلغتهم ويخاطبهم في الكلام الجزل على قدر طاقتهم"[1].

وأخيرًا يمكن أن نخلص مما تقدم في هذا الفصل إلى ما يأتي:

1- اتخذت الخطابة بناء أمكن تقسيمه إلى مقدمة وعرض وخاتمة في بعض النماذج, فيما تعذر في نماذج أخرى هذا الفصل والتقسيم, وبالرغم من تعذر التقسيم في بعض النماذج, إلا أنه كانت لها استهلالات يمكن أن تعد نمطًا أو أنموذجًا لهذا الفن الخطابي الوفادي, كالاستهلال غالبا بالنداء.

2- قام البناء الحواري في أدب الوفادة مرتكزًا على شخصيتين تديران دفة الحوار, الأولى ثابتة, تمثلت في شخص النبي ρ, والثانية متغيرة, مثلها الوفود على اختلافهم وتعددهم, كما قام الحوار على طرف أول يأتي واحدًا دائمًا, وهو رسول الله ρ وطرف ثانٍ متغير فقد يكون واحدًا أو أكثر بحسب الوفد.

3- تنوعت أنماط البناء الحواري, وتعددت تبعا للمواقف والأغراض , فأثَّر البناء الفكري الدلالي على هيكلة البناء الخارجي وجاء محكومًا به , بين حوار قائم على الأسئلة والإجابات, بطرق متعددة ومعتمدا المنطق والعقل, وهو ما يعرف بالحوار السقراطي, وحوار خطابي يتخذ من هيئة الخطابة سبيلاً للحوار, وغالبًا يأتي بمعاني الفخر, أو المعاني الإنسانية, وخطاب انفعالي سلط الضوء على التباين العظيم بين انفعالات رسول الله ρ وانفعالات بعض الوفود.

4- تنوع البناء الكتابي للرسالة بين الطول والقصر, وجاء هذا التنوع كذلك محكومًا بالبناء الفكري الدلالي, إذ غلب على رسائل الدعوة القصر فيما غلب على رسائل التشريع الطول والإفاضة.

---

1 صبح الأعشى,260/2.

5- اتخذت رسائل النبي ρ ولاسيما الدعوية بناءً موحدًا –أشير إليه في موضعه- وقد شاركه بعض الملوك ذلك البناء في الرسائل التي بعثوا بها ردًّا عليه ρ.

الخاتمة

بعد أن طوفت الدراسة في أدب الوفادة في عصر النبوة بأنماطه الثلاثة, الخطابة والحوار والرسائل, من خلال جمع شتات ما تفرق منها من نماذج وردت في كتب الحديث والسيرة والتاريخ وغيرها, في محاولة لإضاءة ما تميز به هذا الأدب على المستويين الدلالي والفني, من خلال الباب الأول الذي عني بدراسة البناء الفكري الدلالي لأدب الوفادة في عصر النبوة, والباب الثاني الذي عني بالتشكيل الفني, مع ما احتوى عليه كل باب من فصول, يمكن القول إن دراسة " أدب الوفادة في عصر النبوة (دراسة في البناء والتشكيل)" قد أسفرت عن عدة نتائج يمكن إجمالها في شقين:

الأول: نتائج متعلقة بالباب الأول: البناء الفكري والثاني:نتائج متعلقة بالباب الثاني: التشكيل الفني, وذلك على النحو الآتي:

1- نتائج الباب الأول: البناء الفكري لأدب الوفادة في عصر النبوة:

- بني أدب الوفادة في جله على ثلاثة فنون هي: الخطابة والحوار والرسائل, ولم يحظ الشعر في هذا الأدب بما حظي به النثر, ذلك أن الوفادة في حقيقتها قائمة على التحاور

واللقـاء والتفاعـل بـين الوافـد أو جماعـة الوافـدين والموفـد عليـه, منتجًـا هـذا التفاعـل الحوارات المتبادلة, والخطب التـي تستعرض حاجـات الوفـود, وقد تبـين أن غالـب هـذا الفن الوفادي قام على الجانـب النثـري, وجـاء الشـعر فيـه متفرقًـا بـين أبيـات قد يرتجلهـا الوفد بين يدي رسول الله ρ, أو بعد انصرافهم من عنده , ولم ترد القصـائد الطـوال, إلا ما جاء في قصيدة كعب بن زهير, ووفد تميم, وهي إذا مـا قيست بالقصـائد الجاهليـة فإنها تأتي دونها في الطول والبناء الفني.

- تنوع البناء الفكري للخطابـة فـي أدب الوفـادة بين الخطابـة الدينيـة, والخطابـة الدنيويـة, وبالرغم من حضور فن الخطابة بقوة في هذا الأدب واعتماد الوفادة على هذا الفن فـإن خطب النبي ρ بدت أقل عددًا من خطب الوفود, وجاءت في معظمها ردًّا على خطـبهم, فيمـا توجهـت خطـب الوفـود كلهـا إلـى النبـي الكـريم ρ , دل علـى ذلـك ابتداؤها بالنـداء غالبًا, مع اختلاف أسلوب النداء بين ندائه باسمه ولاسيما في خطب القبائل التي لم تعلن إسـلامها بعـد وبصـفته فـي خطـب مـن آمـن مـن الوفـود, كمـا جـاءت خطـب هـذا الأدب قصيرة في مجملها مركزة الموضـوع, عميقة الفكرة, بعيدة عن الإطنـاب. وبـالرغم مـن غلبة الإيجاز في خطب الوفود عامة, فإن الخطابة النبوية كانت أكثر إيجـازًا ودقـة فـي عرض المعاني, وبلوغ الأهداف, والتأثير العظيم فـي المتلقين واستمالتهم بأوضـح لفظ من غير زيادة أو نقصـان.

- اتخذ النبي ρ من الحـوار أداة أولـى للتخاطـب مـع الوفـود التـي اختلفت أهدافها, وجـاء حواره متمثلاً لما ورد في النص القرآني الكريم شكلاً ومضمونًا, مطبقًا لقواعده ممتثلاً لأوامره ونواهيه, ويعد ρ من خـلال حواراتـه مـع وفـود القبائـل هو النـواة الأولـى لفن التخاطب المتزن مع الآخر مهما اختلفت الديانات, وتعددت المفـاهيم والقناعـات, إلا أنـه ρ تمكن بقدرة عجيبة من محاورة كل تلك الفئات بالمنطق, ومخاطبة العقل, مـع التـأثير

الوجداني كذلك, وقد دل على ذلك نجاح لقاءاته, فمن لم يعلن إسلامه امتثل لما فرضه ρ من جزية ومعاهدات. وقد كان ρ المثال والأنموذج العظيم للمحاور بكل المقاييس, فاتسم حواره بالهدوء والعقلانية والاعتماد على الحجج والإقناع والمزاوجة بين مخاطبة العقل والقلب, فضلاً عما أبداه من لين جانب, وتسامح, وسعة صدر, حتى مع اختلاف الفكر والتوجه , وتباين أساليب المحاورين بين الغلظة واللين, كما لم يبد ρ انزعاجًا من حوارات الوفود مهما تنوعت مآربهم, لكنه كان يوجه ويسدد ويقدم النصح والمعلومة, وهو مع كل ذلك مستمع يحترم محاوره, ولا يسفهه أو يلغيه لكنه يقومه أو يثني عليه. وبالمقابل حرص -عليه الصلاة والسلام- في حواراته على التعليل والتفسير, فكان يعلل لأحكامه وأوامره ونواهيه, وكان ذلك أدعى في الإقناع العقلي وسرعة الاستجابة, وقد اختلفت مضامين حواراته ρ بين الغرض الديني وأغراض أخرى, بيد أن الحوار الديني قد حظي بالنصيب الأكبر من حواراته مع الوفود, وكما حاور ρ وفود القبائل وبعث بالرسائل إلى الملوك والحكام, فقد جادله اليهود والنصارى وكفار قريش, فأبدى -عليه الصلاة والسلام- حسن الخلق في مجادلتهم, وامتثل قوله تعالى:{

❒◆♉⍓⑨Ⓓ♋♎♌ ⇦ ... {

واعتمد في جدالهم إيراد الأدلة من واقع دياناتهم ومعتقداتهم ومعرفته بها, فضلاً عن اعتماده على النص القرآني الكريم الذي أعجز خصومه وأفحمهم وأبطل حججهم, فيما أعرض ρ عن جدالهم في المواضع التي علم أن لا طائل من الجدال معهم فيها.

- تبين من خلال مراسلاته ρ إلى الملوك والحكام -فضلاً عن رؤساء القبائل- حرصه ρ على نشر الدعوة الإسلامية ليس على صعيد شبه الجزيرة العربية فحسب, بل وفي كل الدول المجاورة , ولاسيما بعد أن قويت شوكة المسلمين وعلا شأنهم, لذلك بادر ρ إلى مراسلة الملوك في عام واحد, وشهر واحد, ويوم واحد, دعاهم إلى عبادة الله وذكرهم

بالدور الذي عليهم تجاه شعوبهم, فاختلفت ردود أفعالهم في مضامينها واتفقت في عموم احترامها لتلك الدعوة الإسلامية واحترام صاحب الرسالة -ماعدا قلة منهم- مما يشير إلى قدرته العجيبة ρ على التخاطب مع الملوك مهما علا شأنهم, وارتفعت مكانتهم, فمنهم من رفض واستكبر وتحدى, ومنهم من رفض الدعوة مع الاعتذار وإبداء المسالمة, ومنهم من اعتذر عن اتباع الدين مع إرسال الهدايا إلى رسول الله ρ ومنهم من أذعن واستجاب وأسلم.

- أبدى النبي ρ احترامًا للملوك الذين أرسل إليهم رسائله ومبعوثيه, فحرص على أن تكون الرسالة متبعة التقاليد المعروفة في المراسلات بين الملوك آنذاك ,لذلك عندما بلغه أصحابه أن الملوك لا تقرأ كتابًا إلا أن يكون مختومًا, اتخذ صلρ خاتمًا وكتب عليه "محمد رسول الله" في سياسة عظيمة منه ρ منحت الدولة الإسلامية قيمتها مقابل تلك الدول العظمى آنذاك.
- بنيت رسائله ρ إلى الملوك على هدف واحد لم يختلف باختلاف المرسل إليهم, فكانت الغاية واحدة, وهي الدعوة إلى الإسلام وتبليغ رسالته, مع احترام القيم الإنسانية المشتركة بين بني البشر, والتركيز على مبدأ الإنسانية بعيدًا عن كل ما يتعلق بالأطماع المادية والدنيوية, دل على ذلك ربطه بين فكرة الإسلام والسلامة في كل كتبه بقوله "أسلم تسلم" مؤكدًا أن غايته دينية لا يشوبها أي طمع دنيوي في ملك أو حكم, حتى إنه أشار إلى تلك المعاني العظيمة بقوله : "أسلم يبق لك ملكك", بل وركز -عليه الصلاة والسلام- على قضية السلم عامة في كتبه, فكان يفتتحها بقوله: "السلام على من اتبع الهدى" , أو بقوله: "سلم أنتم" , رغبة منه في تأليف القلوب, فكانت الوسيلة الأولى لسفاراته ρ مرتكزة على مبدأ المسالمة, بما يتوافق ومصالح الدولة الإسلامية داخليًا وخارجيًا, كما حرص ρ على احترام المرسل إليهم بمخاطبة كل ملك أو حاكم بلقبه,

كعظيم الروم, وعظيم فارس , وعظيم القبط, مما يبقي لهؤلاء الملوك ملكهم, فضلاً عن أن في استخدامه لمثل تلك الألقاب ما يشهد على اعترافه ρ لهم بتلك الحكومات, .فيما لم يلجأ -عليه الصلاة والسلام- إلى لغة التهديد المباشر في رسائله, وإنما عمد إلى محاولة الإقناع والتذكير بالأدوار المنوطة بالملوك تجاه شعوبهم في قوله لهرقل: "فإن توليت فعليك إثم الأريسيين"، وقوله للمقوقس: "فإن توليت فعليك إثم القبط", مشيرًا إلى مهام الملوك تجاه شعوبهم ورعاياهم, ومسؤوليتهم أمام الله عما يعتنقه الشعب، إذ الملوك يملكون القدرة الإعلامية لنشر الدين والتأثير في الرعايا, فإن آمنوا فأجرهم مضاعف, وإن أعرضوا فعقابهم كذلك, كما خاطب الملوك من واقع أديانهم , معلنًا إيمانه بدين المسيح, مؤكدًا حقيقته, فهو كلمة الله ألقاها على مريم الطاهرة وهو عبد الله ورسوله, وإن لجأ إلى التهديد فإنه تهديد تزاوج فيه الترغيب والترهيب مع التعليل والتفسير.

- حرص ρ على انتقاء رسله وسفرائه, إيمانا منه بالدور العظيم الذي يؤديه السفير, فهو لسان قومه ,والمتحدث المكلف عن باعثه, لذلك اختار عليه الصلاة والسلام من الصحابة من توافرت فيه شروط السفير الناجح من بلاغة وشجاعة وجرأة وإقدام, فضلاً عن المعرفة بلغات الأقوام المرسل إليهم, هذا على المستوى الخُلقي والفكري, أما على المستوى الخَلقي والسلوكي فقد تخير ρ كذلك من كان من الصحابة على قدر من الجمال وحسن المظهر, إذ النفس البشرية مجبولة على حب الجمال منساقة إليه, كما كان جل مبعوثيه -عليه الصلاة والسلام- ممن أسلم قديمًا وأغلبهم كان قد شهد بدرًا وأحدًا , وقد كان لرسول الله ρ غاية في ذلك إذ من شهد بدرًا ودافع عن دينه على قلة معتنقيه وضعفهم, أكثر قدرة على مجابهة الملوك وتبليغ الرسالة بعد أن احتلت الدعوة

الإسلامية مكانها, وبلغت الدولـة الإسـلامية مبلغهـا, فضـلاً عن أن أغلب سفراؤه ممن هاجر إلى الحبشة أو كان له دراية بالسفر والاختلاط بالأمم الأخرى ومعرفة ثقافاتها.

- انتقى النبي ρ سفراءه من قبائل مختلفة, فلم يتخذ سفيرين من قبيلة واحدة, مما يؤكد أن دعوته ρ لم تكن دعوة قبلية إذ اعتمد على كل القبائل, بل ومما يؤكد ذلك أن قريشًا لم تحظ من تلك السفارات إلا بسفير واحد, وهو عبد الله ابن حذافة السهمي, مما يدل على أن مناط الاختيار هو الأصلح والأجدر, وأن التكليف بالمهمة لا يستند إلى النسب أو المكانـة الاجتماعيـة, وإلا لكانـت قريش أولـى النـاس بهـا, بيد أنـه ρ ينظـر إلـى الأمـور نظرة المتجرد ,الذي يعنى بمصالح الأمة والدعوة لا بمصالح القبيلة وأولي القربى.
- أقر ρ الحماية لسفرائه, وحرص على منحهم كامل الحقوق مع إسباغ وافر العنايـة بهم وإكـرامهم, وقـد أشـار فـي كثيـر مـن كتبـه إلـى ذلـك وهـو مـا يعـرف اليـوم بالحصـانة الدبلوماسية, فالسفير ممثل لدولته, مؤتمن على ما أسفر من أجله؛ لذلك فإن العنايـة بـه وإكرامـه يعد إكرامًا لدولتـه ولمن بعثـه وأسفره, ومثلمـا أمـر -عليـه الصـلاة والسـلام- بإكرام مبعوثيه, فقد أمر بطاعتهم ومنحهم كثيرًا من الصلاحيات بجانـب تبليـغ الرسـالة, وتـوجهم بمنزلـة رفيعـة , فلهـم أن يقاضـوا المرسـل إليـه, وأن يحكمـوا فـي أمـره فهـم مفوضون منه ρ , وقد قبل بحكمهم , وبالمقابل فقد أقر ρللرسل والسفراء الذين وفدوا إليه في دولته الإسلامية في السلم أو الحـرب حق الحمايـة كذلك, ولهم من الحرمـة مـا يكفل لهم حق القيام بمهمتهم التـي بعثـوا لهـا ووكلـوا مـن أجلهـا, فلا يعتدى عليهم, ولا تساء معاملتهم ماداموا فـي سفارتهم حتـى وإن اقترفوا أمرا يوجب المحاسبة ويستحق العقاب, والدليل على ذلك أنـه ρ قد تسـامح مـع رسـولي مسيلمة الكذاب, وكمـا بعـث ρ رسله وكتبه إلـى كل أصـقاع المعمورة فقد استقبل الوفود التـي وفدت عليـه فـي دولتـه الإسـلامية مـن كـل مكـان ,مـع اخـتلاف أغراضـهم ومـراميهم, وتحـاور -عليـه الصـلاة

والسلام- معهم, فكان ρ النموذج الأعلى في حسن تعامله مع الوفود التي قصدته من كل مكان, فكتب لهم العهود والمواثيق, وأعطاهم الذمة والأمان على الصعيد المعنوي, وقطع لهم الأراضي والعطاءات على الصعيد المادي, فيما تجلت سماحته ρ في معاملة من وفد إليه قاصدا الحماية دون اللحاق بالإسلام, فاستمر في تنفيذ سياسته الحكيمة في التعامل مع النصارى واليهود والمجوس بروح التسامح , فلم يكرههم على اتباع الدين، بل اكتفى بفرض الجزية عليهم، وأبقى لهم أملاكهم وأراضيهم ولم يجلهم عنها, كما أحسن معاملة يهود أذرح وجرباء فارضًا عليهم الجزية, وكذلك تعامل مع مجوس البحرين فأمرهم بالجزية في غير إكراه على اتباع الدين

- استفاد ρ من النظام الضريبي الذي كان سائدًا عند العرب في الجاهلية وفي الدول المجاورة, ففرض الجزية على من لم يسلم من القبائل, ولم يكن لها نظام محدد أو قواعد ثابتة, فكانت تستند إلى حال المفروض عليهم, وفي هذا ما يؤكد سماحة الرسول الكريم والإنسانية التي هي أساس التعامل في الإسلام, فقد أخذ ρ الجزية من الذميين نقدا أو موادا عينية, كما لم تكن محددة المقدار, فقد اختلفت من قوم إلى آخرين قلة وكثرة, فردية أو مشتركة, كما اختلفت أزمانها فجعلها محددة برجب مرة, وبرجب وصفر أخرى, فيما جعلها مع كل حصاد أحيانًا. فيما أكد ρ فريضة الزكاة وأوجب جبايتها من أصحابها, فقد أكد كذلك بأن الزكاة لا تحل له ولا لأهل بيته, وإنما هي صدقة تؤخذ من أغنياء المسلمين فترد على فقرائهم, فهو ليس بطالب مال, وإنما بعث لإقامة العدل فيما أورثه الله لعباده في الأرض. وكان جزاء القبائل التي رضيت بدفع الجزية أن يعطوا الأمان المطلق من رسول الله ρ, فيما أعطى من تردد وأبى أمانًا محدودًا بشهرين , وهي مهلة كافية لمحاسبة النفس وموازنة الأمور قبل الدخول معه ρفي مواجهة حربية

.وأقر عليه الصلاة والسلام الحقوق لأصحابها, وأعطى القبائل حق الانتفاع بأراضيهم بما لا يلحق الأذى أو يسبب الضرر لأحد من المسلمين.

2- نتائج الباب الثاني: التشكيل الفني لأدب الوفادة في عصر النبوة:

- أسهم الانزياح في التشكيل الفني في أدب الوفادة بمستوياته المتعددة, اللغوي, والتركيبي, والتصويري, والبديعي في تجديد المعاني وإنشاء دلالات متنوعة, بما أحدثه من انحراف بنظام الجملة عن الترتيب المألوف, إلى تراكيب ومستويات, كان لها أثر في جذب انتباه المتلقي, مما حقق التفاعل في ثلاثية الخطاب القائمة على "المرسل والمرسل إليه والرسالة" ونأى بالخطاب عن الملل والرتابة والجمود.
- أثمر التشكيل اللغوي في أدب الوفادة في البناء الدلالي والنصي على حد سواء, على كافة المستويات اللغوية ابتداء بالصوت كأصغر وحدة مرورًا بالألفاظ حتى بلوغ تركيب الجملة الذي تنوع بين اسمية وفعلية, فعلى مستوى الأصوات أدى استثمار دلالات الأصوات وإيحاءاتها بما يخدم النص والسياق, وأسهمت التلوينات الصوتية في انتقاء المفردات وتعاضدها وائتلافها مع نظائرها في النص الموظفة فيه, وقد تفوق الإبداع الصوتي في النص النبوي الشريف بحسن استخدام الظواهر الصوتية , كالهمس والجهر والمد والقدرة على توظيفها بما يخدم المقام دونما تكلف, فكان الصوت الواحد يرد في البيان النبوي الشريف في مواضع وأغراض متباينة, فيؤدي دلالته وإيحاءه في كل سياق متعاضدًا مع غيره من الأصوات مما منح النصوص النبوية تأثيرًا لا مثيل له .
- تمكن التشكيل اللغوي في أدب الوفادة بما اتسم به من فنية أن يثري الجانب الدلالي والنصي ليس على مستوى الصوت فقط، بل وعلى مستوى اللفظة والجملة, فجاءت ألفاظ هذا الأدب مفصحة عن الواقع مصورة للبيئة بكل معطياتها الدينية والاجتماعية والنفسية, فتكثف فيه ذكر المواضع والأعلام وأسماء القبائل , فضلاً عن ذكر الحيوان

والنبات والأعداد والمكاييل وغيرها ولاسيما في مكاتباته ρ للقبائل في كتب العطاء والعهود والأمان وغيرها. وجاءت ألفاظ الوفود -على مستوى السهولة والإغراب- سهلة, قريبة المأخذ -في عمومها- متأثرة بالبيئة, ماعدا بعض خطابات القبائل ولاسيما قبائل اليمن الذين تخاطبوا مع النبي ρ بلغتهم بما فيها من مفردات كانت غريبة على بعض الصحابة, تستعصي على أفهامهم, فيما أبدى ρ قدرة بالغة في الرد على تلك الوفود بلغاتهم , مما أذهل أصحابه من قريش أهل الفصاحة واللسن, وعليه فقد جاء بيانه ρ مؤتلفًا مع كافة خطابات الوفود على اختلاف لغاتهم

- أما على مستوى الجمل, فقد أسهم التشكيل اللغوي في انتقاء الجمل وتلوينها بين فعلية واسمية بما يتناسب وسياق الخطاب, كما كان للتغاير في تشكيل الجملة أثر بارز في إثراء الدلالة, فبرزت ظاهرة العدول من الاسمية إلى الفعلية ومن الفعلية على اختلاف أزمنتها, وقد أسهم هذا العدول أو الانزياح في كسر توالي الخطاب على وتيرة واحدة, كما كان له دور في إثارة المتلقي ومفاجأته بنقله من ثبوتية الجملة الاسمية, إلى تجدد وحركية الجملة الفعلية, كما أسهم العدول بانزياح الفعل من زمن ماض, إلى زمن مستقبل, أو العكس بتجدد المعاني وإثارة الذهن , ومن جانب آخر فقد تنوعت الجمل بين الطول والقصر وفقا للمعاني المطروحة في هذا الأدب, فبدت الجمل القصيرة في كتب الدعوة , فيما غلبت الجمل الطويلة في كتب التشريع على المستوى الكتابي, أما على مستوى الخطابة فبدت خطب الاسترحام والاستعطاف أطول جملا من الخطب ذات المعاني الأخرى.
- على المستوى التركيبي تنوعت الجمل بين خبرية وإنشائية, وإن كانت الخبرية قد تفوقت في الخطاب النبوي المكتوب, ولاسيما في كتب العطاء والعهود والأمان, فضلاً عن خطابات الوفود الشفهية في المفاخرة, أو إبداء الولاء والطاعة لرسول الله ρ, فقد

انزاح الخبر في بعض المواضع عن معناه إلى معان أخرى تفهم بالقرائن والسياق, فيما برز الإنشاء وتعددت طرقه, وانزاحت أساليبه في مدلولاتها غالبا عن الأصل الموضوع لها إلى دلالات أخرى, تبدت من خلالها رؤى الوفود وأفكارهم ومواقفهم تجاه هذه الدعوة , مما أضفى الحيوية على الصياغة, وأسهم في كسر نمطية الثبات التي قد تتبدى في الأسلوب الخبري, وبالرغم من بروز ظاهرة الانزياح في الأساليب الإنشائية من أمر ونداء واستفهام, فإن تأثير هذه الظاهرة بدا محدودًا أو معدومًا في النهي , فإنَّه وإنْ مارس إنتاج دلالات أخرى ؛ فقد بقي محتفظًا بمعناه الأصلي الموضوع له في اللغة وهو (طلب الكفّ عن الفعل).

- تجاوزت ظاهرة الانزياح على المستوى التركيبي الانزياح في الأساليب الخبرية أو الإنشائية, إلى مستوى أكبر وهو الانزياح من الخبر إلى الإنشاء أو العكس بما يخدم الدلالة ويضيف للخطاب جماليته وتأثيره, فيما تبدت الجملة الشرطية بجوار الجملتين الخبرية والإنشائية, وقد تكثف حضور الشرط في رسائل النبي ρ, وكثر استخدام ما جاء قليلاً في القاعدة النحوية مقابل ما كان شائعا فيها. كما شكل التقديم والتأخير انزياحًا عن النمط البنائي للجملة في أدب الوفادة وتعددت أشكاله, وكان من أبرزها تقديم الجار والمجرور مع تعدد دلالات ذلك التقديم.
- برز التأكيد ظاهرة ميزت خطابات أدب الوفادة بشتى صوره وأساليبه على مستوى الخطاب النبوي وخطابات الوفود, وتداخلت المؤكدات وتكثفت في كثير من الخطابات المكتوبة أو المنطوقة, مما منح النصوص دلالات أعمق وأكثر تأثيرًا, وظهر التكرار رافدا تأكيدي بشتى صوره, من تكرار أصغر وحدة وهي الصوت, إلى التكرار النمطي البنائي للنص كاملاً, وقد نتج عن التكرار دلالات متعددة , أثرت المعاني فضلاً عما منحته النصوص من إيقاع وجماليات على المستوى الشكلي.

- على المستوى التصويري تمثلت الصورة بنمطيها الحقيقي والبياني في أدب الوفادة في عصر النبوة, فحظيت الصورة الحقيقية بجمالية وتأثير لا يقل عن جمالية وتأثير الصورة المجازية, إذ استمدت عناصرها من الواقع الحسي باختلاف أنواعه, بصري وذوقي وحركي, وقد أسهمت تلك المعطيات في منح الصورة الحقيقية دلالاتها, وفنيتها, وقيمتها, ولاسيما ما ورد منها في التصوير النبوي الشريف, أما الصورة البيانية فجاءت شاملة لأنواع المجاز الثلاثة: التشبيه والاستعارة والكناية, ولعل أبرز ما لوحظ في تشبيهات هذا الأدب أن معظمها جاءت مرسلة بذكر أدوات التشبيه الدالة على الصدق والحقيقة كالكاف وكأن ومثل, وقد تجاوزت الألفاظ المعجمية دلالاتها الأصلية إلى دلالات أخرى إيحائية، بواسطة ما أحدثته الاستعارة من نقل الخطاب من مفهومه العادي المباشر إلى مفهوم تصويري غير مباشر، فحول المعنوي إلى حسي، والمجرد إلى محسوس، بصورة الاستعارة التي كشفت عن رؤية الوافد للحياة وقضية الدين الجديد، فيما بدت الصور الاستعارية في الخطاب النبوي أكثر من خطاب الوفود, في إشارة إلى قدرته البيانية -عليه الصلاة والسلام-, وحرصه على إيصال معانيه بأكثر السبل تأثيرًا وإقناعًا, فضلاً عن إثراء النص النبوي على المستوى الشكلي الذي عرف العرب بتميزهم به وبلاغتهم فيه. وحققت الكناية انزياحًا عن المألوف والعادي تمثل في تجاوز الألفاظ أصلها المعجمي إلى دلالات أخرى إيحائية مع الاحتفاظ بدلالاتها الأصلية، فارتبطت الألفاظ في الصورة الكنائية بمدلولين الأول معجمي غير مقصود، والثاني رمزي إيحائي هو المقصود. وأتاحت للمتكلمين أن ينقلوا المجردات والمعنويات إلى عالم المحسوسات بصورة رمزية, كشفت في معظمها عن أفكارهم, وابتعدت بالخطاب عن المباشرة والوضوح, وانزاحت به نحو التلميح والإيحاء, مما يلفت انتباه المتلقي ويجدد نشاطه ويثير إدراكه, وقد تكثفت الكناية في الخطاب النبوي في فن

الرسائل, ولعل لطبيعة الرسائل وميلها إلى الإيجاز ما اقتضى الكناية باللفظ القليل عن المعاني الكثيرة.

- استرفدت الصورة الأدبية في أدب الوفادة منابعها من مرجعيتين رئيستين, هما: المرجعية الكونية- وكانت الأكثر حضورًا- والمرجعية الإنسانية التي تركزت في الملامح النفسية والتاريخية.
- كان للتشكيل البديعي في أدب الوفادة دور بارزا في إثراء الدلالة, فضلاً عما منحه النصوص من جمالية إيقاعية دلت على قدرات الوفود البلاغية, وبالرغم من أن العناية بالشكل الخارجي لم تكن تشغل المتكلمين بقدر ما شغلتهم الفكرة وإعلان مواقفهم أمام رسول الله ρ فقد ظهرت الألوان البديعية, من طباق ومقابلة وجناس وسجع ,جاءت كلها على السجية فمنحت النصوص ثراء على المستويين الأدائي الشكلي, والدلالي المعنوي , فعلى صعيد الشكل منحت النصوص إيقاعًا وانسجامًا لغويًّا وتأثيرًا جماليًّا , كان له دوره في اجتذاب المتلقي وقتل السأم والملل والرتابة عنده, أما على الصعيد الدلالي فقد أسهم في توثيق المعاني وتعميقها وتقويتها.وقد تزاوجت فنون البديع في الخطاب الوفادي عامة, فترى في الخطاب الواحد السجع بجانب الموازنة والجناس والطباق, مما منح النصوص التجدد والحيوية والجمالية التي تعانقت مع دلالاته العميقة فأنتجت هذا الأثر الواضح.
- أدى التضمين في الخطاب النبوي الشريف إلى تحقيق الترابط المعنوي والتلاحم الفكري بين النص القرآني الكريم, والنص النبوي الشريف, فتعانق النصان لينتجا أثرًا عميقًا, ليس على مستوى الخطاب الموجه إلى العرب فحسب, بل وعلى مستوى الخطاب الموجه إلى غير العرب, كخطابه ρ لهرقل، وكسرى, وكان لهذا التلاحم أثر في إيصال الدعوة ,والتأثير في المتلقي. وعلى الجانب الآخر استمع النبي ρ إلى الشعر المضمن

خطابات الوفود, ولم يبد رفضًا لذلك, بل إنه علق على ما سمعه عن امرئ القيس وقس بن ساعدة, بل كان يسأل بعض الوفود عن خطبائهم كسؤاله وفد إياد عن خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ.

- اتخذت ألوان أدب الوفادة (الخطابة والحوار والرسائل) بناءً خارجيًّا تميز فيه كل لون بسمات خاصة, فجاءت الخطابة في عمومها قصيرة ذات موضوع واحد, مما تعذر معه تقسيمها إلى مقدمة وعرض وخاتمة, إلا فيما ورد من بعض النماذج التي تعد قليلة قياسا بعموم الخطابة في هذا الفن, وبالرغم من تعذر التقسيم, إلا أن الخطابة كانت تعتمد بعض الاستهلالات, كالنداء غالبًا فيما تنوعت أنماط البناء الحواري, تبعًا للموقف والغرض فوردت على ثلاثة أنواع هي الحوار السقراطي المعتمد على الأسئلة والأجوبة, والحوار الخطابي الذي اتخذ من هيئة الخطابة سبيلاً للحوار , والخطاب الانفعالي, الذي سلط الضوء على التباين الكبير بين انفعالاته ρ وانفعالات الوفود, ومن جانب آخر فقد ارتكز الحوار في أدب الوفادة على شخصيتين,الأولى ثابتة تمثلت في رسول الله ρ, والثانية متغيرة تمثلت في الوفود على اختلافهم وتعددهم, أما البناء الكتابي للرسالة, فتراوح بين الطول والقصر, وجاء محكومًا بالفكرة والدلالة , فغلب الطول على الرسائل التشريعية, فيما غلب القصر على الرسائل الدعوية, كما اتخذت رسائله ρ بناءً موحدًا ولاسيما رسائله إلى الملوك والحكام.
- وأخيرًا فإن نثر الوفادة بما امتاز به من خصائص فنية وموضوعية، شكل جزءًا مهمًّا من الثقافة العربية في تراثنا القديم، التي تنعكس بصور شتى في النتاج النثري، ويظل في لغته أقرب إلى الفطرة السليمة وأصدق تمثيلاً لها.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
[illegible]	98	البقرة	72
[illegible]	145	البقرة	121
ولكلٍ وجهة هو موليها...	148	البقرة	121
[illegible]	256	البقرة	121
[illegible]	258	البقرة	67
[illegible]	2-1	آل عمران	133
[illegible]	59	آل عمران	132
[illegible]	64	آل عمران	194
[illegible]	159	آل عمران	76
[illegible]	64	المائدة	122
[illegible]	73	المائدة	122
[illegible]	25	الأنعام	129
[illegible]	108	الأنعام	74
[illegible]	136	الأنعام	115
[illegible]	18-11	الأعراف	66
[illegible]	60	التوبة	177

[illegible]

تابع فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
[illegible]	100	التوبة	49
[illegible]	27	هود	71
[illegible]	125	النحل	120
[illegible]	70	الإسراء	117
[illegible]	44-42	طه	67
[illegible]	47	طه	145
[illegible]	226-224	الشعراء	301
[illegible]	30-28	النمل	138
[illegible]	35	النمل	195
[illegible]	46	العنكبوت	120
[illegible]	14	لقمان	أ
[illegible]	24	سبأ	123
[illegible]	26	سبأ	123

[illegible]	28	سبأ	154
[illegible]	70	يس	154
[illegible]	34	فصلت	53
[illegible]	24	الجاثية	122
[illegible]	15	الأحقاف	أ
[illegible]	5-4	الحجرات	36

تابع فهرس الآيات القرآنية

[illegible]	14	الحجرات	259
[illegible]	17	الحجرات	36
[illegible]	1	المجادلة	120
[illegible]	23	الحشر	151
[illegible]	5-1	العلق	139

فهرس الأعلام المترجم لهم

الاسم	الصفحة
ثابت بن قيس	47
ثمامة بن آثال	97
الجارود بن المعلى	78
جرير بن عبد الله	70
حاطب بن أبي بلتعة	148
دحية بن خليفة الكلبي	144
رملة بنت الحارث	22
سليط بن عمرو	155
شجاع بن وهب	147
ضمام بن ثعلبة	75
عبد الله بن حذافة	153
عطارد بن حاجب	46
علقمة بن علاثة	20
العلاء بن الحضرمي	161
عمرو بن العاص	156
عمرو بن أمية	150
فروة بن عامر	163
فروة بن مسيك	23
قصي بن كلاب	50
مالك بن نمط	39
مطرف بن الكاهن	26
المغيرة بن شعبة	23
المنذر بن ساوى	161

المصادر والمراجع

- ابن إبراهيم، أبو يوسف يعقوب (ت 182هـ) الخراج ، (بيروت: دار المعرفة).
- ابن أبي جرادة، كمال الدين عمر بن أحمد (1988م) بغية الطلب في تاريخ حلب، ط1، تحقيق د سهيل زكار (بيروت: دار الفكر).
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي (1409هـ)المصنف في الأحاديث والآثار ، ط1 تحقيق : كمال يوسف الحوت (الرياض: مكتبة الرشد).
- ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم (1998م) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، حققه وعلق عليه الشيخ كامل محمد عويضه (بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (1998م) أسد الغابة في معرفة الصحابة، (بيروت: دار الفكر).
- ابن جني، أبو الفتح عثمان (1993م) سر صناعة الإعراب، ط2، تحقيق: حسن هنداوي، (دمشق: دار القلم). ابن سلام، أبو عبيد القاسم(ت 224) الأموال، ط1، (بيروت: مؤسسة نصر للثقافة).
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت597هـ) (1412هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، تحقيق محمد ومصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دارالكتب العلمية).
- ابن حنبل، أحمد (ت 241هـ):

فضائل الصحابة (1403هـ),تحقيق :وصي الله محمد عباس,(بيروت:مؤسسة الرسالة)

مسند الإمام أحمد (د.ت) ، (بيروت: دار أحياء التراث العربي).

- ابن السراج،أبو بكر محمد بن سهل (1985م) الأصول في النحو، ط1، تحقيق: عبد المحسن الفتلي، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد بن عبد الله (ت734هـ) (1974م) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير, (بيروت: دار الجيل).

- ابن شبة، أبو زيد عمر النميري البصري, (ت 262هـ) تاريخ المدينة المنورة, تحقيق: فهيم محمد شلتوت (طبع على نفقة السيد: حبيب محمود أحمد).
- ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي(1956م) عيار الشعر، تحقيق: د. طه الحاجري والدكتور محمد زغلول سلام، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى).
- ابن العباس، محمد بن إسحاق (217-275هـ) (1414هـ) أخبار مكة في قديم العهد وحديثه، ط2 ، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش (بيروت: دار خضر)
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي (1420هـ) العقد الفريد, تحقيق: محمد عبد القادر شاهين, (بيروت: المكتبة العصرية).
- ابن عصفور، الأشبيلي(1998م) شرح جمل الزجاجي, (بيروت: دار الكتب العلمية).
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا اللغوي (ت 395هـ):
- مجمل اللغة, تحقيق زهير عبد المحسن سلطان,(سوريا: مؤسسة الرسالة).
- (1395هـ) مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الجيل).
- ابن قانع، أبو الحسين عبد الباقي (265هـ/351هـ) (1418هـ) معجم الصحابة، ط1، تحقيق: صلاح سالم المصراتي، (المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية).
- ابن قدامة، محمد بن عبد الله المقدسي (ت 620) المغني، (الرياض: مكتبة الرياض الحديثة).
- ابن القيم الجوزية، أبو عبد الله محمد ابن أبي بكرت (ت751هـ) (1985م) زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ط8، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي (ت701-774هـ):

البداية والنهاية (1426هـ) ، ط1، (بيروت- دار ابن حزم).

تفسير القران العظيم (د.ت) ، كتب هوامشه حسين بن إبراهيم زهران (مكة المكرمة: المكتبة التجارية).

- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد (1402هـ) لسان العرب، ط1 تصحيح أمين عبد الوهاب, (بيروت: دار احياء التراث العربي).
- ابن هشام،أبو محمد عبد الملك (1427هـ) السيرة النبوية، تعليق: د.عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي).

- ابن هشام،عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله الأنصاري(د.ت) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك,تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد,(بيروت: المكتبة العصرية).
- ابن واقد، محمد بن عمر (ت 207هـ) المغازي، تحقيق: ماردسن جونس، (بيروت: عالم الكتب).
- ابن يعيش، موفق الدين النحوي (ت643هـ) (د.ت) شرح المفصل ، (بيروت: عالم الكتب).
- أبو زهرة، محمد:

تاريخ الجدل (د.ت) ، ط1، (بيروت: دار الفكر العربي).

الخطابة أصولها وتاريخها في أزهى عصورها عند العرب، (د.ت) (القاهرة: دار الفكر العربي).

- أبو ستيت، الشحات محمد (1994م) دراسات منهجية في علم البديع, ط1، (: دار خفاجي).
- أبو العدوس، يوسف (1427هـ) الأسلوبية الرؤية والتطبيق، ط1 ، (عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع).
- أبو مصلح، كمال (1983) الكامل في النقد الادبي، ط5 (بيروت: المكتبة الحديثة).
- أبو موسى، محمد محمد:

التصوير البياني داسة تحليلية لمسائل البيان(1418هـ)، ط4، (القاهرة:مكتبة وهبة).

خصائص التراكيب, دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني, (1996م) ط4, (القاهرة: مكتبة وهبة).

دلالات التراكيب دراسة بلاغية (1987م) ، ط2، القاهرة: مكتبة وهبة).

- أحمد، محمد خلف الله (1984م) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ط3، (الرياض: دار العلوم)
- الإدريسي، عبد الحي محمد الحسني الكتاني (د.ت) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية, (بيروت: عالم الكتب).
- الأسد، ناصر الدين (د.ت) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ط5 (القاهرة: دار المعارف).
- إسماعيل، عز الدين (1412هـ) الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، (بيروت: د دار الفكرالعربي الحديث).

- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430هـ) (1405هـ) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط4، (بيروت: دار الكتاب العربي).
- الأصفهاني، العلامة الراغب (1418هـ) مفردات ألفاظ القرآن، ط2، تحقيق: صفوان عدنان داودي, (دمشق: دار القلم).
- الألمعي، زاهر بن عواض (1404هـ) مناهج الجدل، ط3، (الرياض: مطابع الفرزدق).
- الألوسي،السيد محمود شكري (1314هـ) بلوغ الارب في في معرفة أحوال العرب, ط1، شرح وضبط محمد بهجة الأثري ، (بيروت: دار الشرق العربي).
- الأنصاري، عبد الله بن محمد بن حديدة (ت 783هـ) (2007م) المصباح المضيّ في كتّاب النبي الأمّيّ ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ط1، تحقيق: ربيع الصبروت، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- أنيس، إبراهيم:

الأصوات اللغوية، (1975م) ط5، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).

موسيقى الشعر, ط5,(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية)

- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (1407هـ) صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر، ط3، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير).
- برهان الدين، علي الحلبي الشافعي(ت 1044هـ) (1857م) إنسان العيون في سيرة المأمون, علق عليه: أحمد زيني دحلان
- البستاني، صبحي (1986م) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية, (بيروت: دار الفكر اللبناني).
- البصري محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله (168هـ/230هـ) (د.ت) الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر).
- البطل، علي (د.ت) الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، (حائل: دار الاندلس).
- البغدادي، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب (د.ت) تاريخ بغداد، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت487هـ) (1403هـ) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط3، تحقيق: مصطفى السقا ، (بيروت- عالم الكتب)

- البلاذري،أبو الحسن أحمد بن يحيى(ت 279) فتوح البلدان، تحقيق: طه عبد الرؤوف (الإسكندرية: دار ابن خلدون).
- البيهقي، أحمد بن الحسين(1984م) السنن الكبرى، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية).
- ثويني، حميد آدم (2006م) فن الأسلوب دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية, ط1, (عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع).
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت(255هـ) (2002م) البيان والتبيين, تحقيق علي بو ملحم، (لبنان: دار مكتبة الهلال).
- جبر، حسن (1987م) وفود القبائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشار الإسلام في جزيرة العرب، ط1 (الكويت: مطبعة حكومة الكويت).
- الجرجاني، أبو القاسم حمزة بن يوسف (428-345هـ) (1981م) تاريخ جرجان، ط3، تحقيق: محمد عبد المعين خان، (بيروت: عالم الكتب).
- الجرجاني، عبد القاهر:

______ أسرار البلاغة, (1998م) ط1، تحقيق: محمد الفاضلي, (بيروت-صيدا : المكتبة العصرية).

دلائل الإعجاز، (1983م) ط1، تحقيق: محمد رضوان وفايز الداية، (دمشق: دار قتيبة).

- الجرجاني، علي بن حمد الشريف (1969م) التعريفات، ط1، (بيروت:مكتبة لبنان).
- الجندي، درويش (د.ت) علم المعاني، (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر).
- الجندي، علي (1966م) فن التشبيه (بلاغة-أدب-نقد) ، ط6، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية).
- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت 331هـ)، الكتاب والوزراء، ط1، تحقيق ومراجعة عبد الله اسماعيل الصاوي، (بغداد: المكتبة العربية).
- الجوهري، إسماعيل بن حماد (د.ت) الصحاح, تاج اللغة وصحاح العربية, تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار, (بيروت: دار العلم للملايين).
- الجويني، إمام الحرمين(1300هـ) الكافية في الجدل تحقيق د.فوقية محمود (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي).
- حاوي، إيليا (1997م) فن الخطابة وتطوره عند العرب، ط1 (بيروت: دار الثقافة).
- حسن، تمام (1955م) مناهج البحث في اللغة , (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).

- الحسيني ، إبراهيم بن محمد بن كمال الدين الشهير بابن حمزه الحسيني الحنفي الدمشقي (1054- 1120هـ) (1982م) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف (بيروت: المكتبة العلمية).
- الحموي، ياقوت (1986م) معجم البلدان، (بيروت: دار صادر).
- الحميدي، محمد بن فتوح الجمع (1423هـ) بين الصحيحين البخاري ومسلم، ط2، تحقيق : د. علي حسين البواب (بيروت: دار ابن حزم).
- الخطابي، أبو سليمان حمد بن معالم(1981م) السنن, ط2، (بيروت: المكتبة العلمية).
- الخولي, محمد علي,(1402هـ 1982م) دراسات لغوية,_(دار العلوم للطباعة والنشر).
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي (1421هـ) سنن الدارمي للدرامي, تحقيق: حسين سيم الداراني, (الرياض: دار المغني للنشر).
- الدقس ، كامل سلامة (د.ت) من البلاغة النبوية , (جدة: دار الشروق).
- دور، اليزابيث (1963م) الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة: محمد الشوش، (بيروت: منشورات مكتبة منيمنة).
- الدوريدار، عبد العزيز (1969م) مقدمة في تاريخ الاقتصاد العربي، ط1 (بيروت: الطليعة).
- ديماس، محمد (1420هـ) فنون الحوار والإقناع، ط1، (الرياض: دار ابن الجوزي).
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله (673هـ/748هـ) (1413هـ) سير أعلام النبلاء، ط9، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- راضي، عبد الحكيم(2003م) نظرية اللغة في النقد العربي، ط1، (مصر: المجلس الاعلى للثقافة).
- الرافعي، مصطفى صادق (1410هـ) إعجاز القران والبلاغة النبوية, (بيروت: دار الكتاب العربي).
- ربابعة، موسى(1995م) الانحراف مصطلحًا نقديًّا، ط4 (مؤتة للبحوث والدراسات).
- الرباعي، عبد القادر (1405هـ) الصورة الفنية في النقد الشعري, (الرياض: دار العلوم).

- الربيعي، أحمد (1974م) قس بن ساعدة الإيادي (حياته-خطبه-شعره) ، (بغداد: مطبعة النعمان).
- رزق الله، أحمد مهدي (1412هـ) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ط1، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية).
- زايد، علي عشري (2003م) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ط1، (الرياض: مكتبة الرشد).
- زايد، مصطفى محمود (2004م) النثر الفني في عهدي الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام، ط1 (بيروت: مؤسسة الرسالة للطبع والنشر).
- الزبيدي، محمد بن مرتضى (1974م) تاج العروس من جواهر القاموس، راجعه عبد الكريم العزباوي وعبد الستار فراج ، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت).
- الزركشي، الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله (د.ت) البرهان في علوم القران, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة).
- الزمخشري، محمود بن عمر (467هـ/538هـ) الفائق في غريب الحديث، ط2، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (لبنان: دار المعرفة).
- الزيات، أحمد حسن (1967م) دفاع عن البلاغة ، ط2 (القاهرة:عالم الكتب).
- زيدان، جورجي (د.ت) العرب قبل الاسلام، ط3، مراجعة حسين مؤنس (القاهرة: دار الهلال).
- الزين، نبيل عبد القادر (1996م) المرشد في البلاغة، ط1، (عمان: دار أسامة للنشر والتوزيع).
- زيني، محمود حسن (د.ت) دراسات في أدب الدعوة الإسلامية، (القاهرة: مطبوعات مكتبة الخانجي).
- ساعي، أحمد بسام (1404هـ) الصورة بين البلاغة والنقد، ط1 ، (جدة: المنارة للطباعة والنشر).
- السجستاني، الإمام أبو داود سيمان بن الأشعث (د.ت) سنن أبي داود، (بيروت: دار احياء التراث العربي).
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (1402هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, ط2 ، قدم له عبدالله بن عبد العزيز , والشيخ محمد بن صالح العثيمين , تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق, (المملكة العربية السعودية: دار السلام).

- سلامة، إبراهيم (1952م) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية).
- سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر(180هـ) (1991م) الكتاب, تحقيق: عبد السلام هارون، ط1، (بيروت: دار الجيل).
- السيد، عز الدين علي (1986م) التكرير بين المثير والتأثير، ط2 (بيروت: عالم الكتب).
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن:

الإتقان في علوم القران, (1407هـ) ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية).

شرح السيوطي على السنن الصغرى, (د.ت) (بيروت: مكتبة المعرفة).

- الشافعي، عمر بن إدريس (ت 204هـ) (1973م) الأم، ط2، أشرف على طبعه محمد النجار ، (بيروت: دار المعرفة).
- الشايب، أحمد (1988م) الأسلوب، ط8، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية).
- شبلنر، برند (1405هـ) علم اللغة والدراسات الأدبية، ط1، ترجمة وتعليق: محمود جاد الرب (القاهرة: الدار الفنية للنشر والتوزيع).
- شحيد، جمال (1982م) في البنيوية التركيبية.. دراسة في منهج لوسيان غولدمان, ط1 ، (بيروت: دار ابن رشد للطباعة والنشر)
- الشريف، محمد عون (1986) دبلوماسية،ط1، (بيروت: دار الكتاب اللبناني).
- شفيع، السيد (2006م) التعبير البياني رؤية بلاغية نقدية ، (القاهرة: دار غريب).
- شلبي، عبد الجليل (1977م) الخطابة وإعداد الخطيب، (بيروت: دار الشروق).
- الشنقيطي، محمد الأمين:

آداب البحث والمناظرة ، (د.ت) (القاهرة: دار ابن تيمية للطباعة والنشر).

منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوة أهل الكتاب ، (1413هـ) ط1، (جدة. دار القبلة للثقافة الإسلامية).

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (1416هـ) الملل والنحل، ط5، تحقيق:أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور، (بيروت: دار المعرفة).
- الشوكاني، محمد بن علي (ت 1250هـ) (1993م) نيل الأوطار، (مصر: القاهرة).

- الشيباني، أبو بكر أحمد بن عمرو بن الضحاك (1411هـ) الآحاد والمثاني، ط1، تحقيق: دباسم فيصل أحمد الجوابرة، (الرياض: دار الراية).

- الشيباني، محمد بن محمد بن عبد الواحد (ت 630هـ) (1995م)الكامل في التاريخ ط2، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، (بيروت: دار الكتب العلمية).

- الشيخ، عبد الواحد حسن (1419هـ) العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي دراسة تطبيقية, ط1، (مصر: الإشعاع الفنية).

- صالح، بشرى موسى (1994م) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث, ط1, (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي).

- صباح، قاسم شهاب (1415هـ) علم النفس النبوي، ط1، (سوريا: مؤسسة الرسالة).

- صبح، علي علي (1996م) البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث).

- الصعيدي، عبد المتعال (1999م) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، (القاهرة: مكتبة الآداب).

- الصغير، محمد حسين علي (1986م) أصول البيان العربي، (بغداد: دار الشؤون الثقافية).

- صلاح، قاسم شهاب (1415هـ) علم النفس النبوي، ط1، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

- ضيف، شوقي:

تاريخ الأدب العربي العصر الاسلامي، (د.ت) ط6، (القاهرة: دار المعارف).

في النقد الأدبي، (د.ت) (القاهرة: دار المعارف).

- طبانة، بدوي (1977م) علم البيان دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية، ط4، (القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية).

- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب (1404هـ) المعجم الكبير، ط2، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، (الموصل : مكتبة العلوم والحكم).

- الطبري، أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد (ت 615-694هـ) (1996م) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ط1، تحقيق: عيسى عبد الله الحميري (بيروت:دار الغرب الإسلامي).

- الطبري، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير :

تاريخ الأمم والملوك، (د.ت) (بيروت- دار القلم).

تفسير الطبري المسمى جامع البيان في تأويل القرن، (1412هـ) ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية).

- طنطاوي، محمد سيد (1997م) أدب الحوار في الإسلام،(القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع).
- الظاهري، أبو تراب، (1404هـ) وفود الإسلام, ط1
- العاكوب، عيسى (1423هـ) العاطفة والابداع الشعري، (دمشق: دار الفكر).
- العباسي، أحمد بن أبي يعقوب ابن جعفر (د.ت) تاريخ اليعقوبي، (بيروت: دار صادر).
- عجك، بسام (1418هـ) الحوار الإسلامي المسيحي،(دمشق: دار قتيبة).
- العزاوي، نعمة رحيم (1978) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، (بغداد: وزارة الثقافة والفنون).
- العسقلاني، ابن حجر:

الإصابة في تمييز الصحابة، (1995م) (بيروت: دار الكتب العلمية).

تهذيب التهذيب، (د.ت) مؤسسة التاريخ العربي

فتح الباري شرح صحيح البخاري، (د.ت) (بيروت: دار الفكر).

- العسكر، محمد بن صالح (1426هـ) علاقة القبائل العربية المقيمة حول المدينة بالدولة الإسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم, ط1، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية).
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله (1989م) الصناعتين (الكتابة والشعر), ط2، تحقيق: مفيد قميحة (بيروت: دار الكتب العلمية).
- عصفور، جابر (1992م) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب, ط3, (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي).
- العطوي، مسعد بن عيد (1420هـ) الشعر الوجداني في المملكة، ط2 (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية).
- العظيم أبادي، أبو الطيب محمد شمس الدين، عون المعبود شرح سنن أبي داود، (بيروت: دار الفكر).
- علي، جواد (1413هـ) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط2, (بغداد: جامعة بغداد).

- علام, عبد العزيز(1410هـ-1990م) علم التجويد في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة, ط1.
- عمايرة، خليل أحمد (1402هـ) في نحو اللغة وتراكيبها "منهج وتطبيق"، ط1، (جدة: عالم المعرفة).
- العمري، محمد (1406هـ) في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع).
- عون، الشريف(1401هـ) نشأة الدولة الإسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم, (القاهرة: دار الكتب الاسلامية).
- عياد، شكري :

اتجاهات البحث الأسلوبي, (1405هـ) ط1، (الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر).

مدخل إلى علم الأسلوب، (1402هـ) ط1 (الرياض: دار العلوم).

- عياشي، منذر (2002)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط1، (حلب: مركز الإنماء الحضاري).
- عيد، يمنى (1985م) في معرفة النص، ط3 (بيروت: دار الآفاق الجديدة).
- غريب، روز (د.ت) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، (بيروت: طبع دار الفكر العربي).
- الغزالي، محمد (1402هـ) فقه السيرة, ط1، (بيروت: دار القلم).
- الغنيم، إبراهيم (1416هـ) الصورة الفنية في الشعر العربي القديم مثال ونقد، (القاهرة: الشركة العربية للنشر).
- غولدمان، لوسيان وآخرون (1986م) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي, ط2، راجع الترجمة محمد سبيلا, (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية).
- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد (100-175هـ) العين، تحقيق: د مهدي المخزومي د. إبراهيم السامرائي.
- فرون، الكسندر (1962م) الصوت, ترجمة محمد عز الدين فؤاد, ومراجعة علي شعيب, (القاهرة: دار الكرنك).
- فضل، صلاح :

علم الأسلوب، (1985م) ط1 (بيروت: منشورات دار الجديدة).

نظرية البنائية في النقد الادبي، (1998م) ط1، (القاهرة: دار الشروق).

- الفيروزأبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت817هـ) (1424هـ) القاموس المحيط، ط7، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، (بيروت: مؤسسة الرسالة).
- فيود، بسيوني عبد الفتاح:

علم البديع دراسة تاريخية وفنية لاصول البلاغة ومسائل البديع (1425هـ) ط2، (القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع).

علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان, (2008م) ط2, (القاهرة : مؤسسة المختار).

- الفيومي، أحمد بن محمد المقري (1420هـ) المصباح المنير، ط2، اعتنى به الأستاذ يوسف الشيخ محمد (بيروت: المكتبة العصرية).
- القاسم، محمد محمود (د.ت) البلاغة القرآنية دراسة في الصورة الفنية, (الرياض: مكتبة الرشد).
- القاضي, النعمان (1981م)أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي,(الأزهر:دار اثقافة)
- القرشي، عبد القادر بن أبي الوفا محمد ابن أبي الوفا (696هـ/775هـ) الجواهر المضية في طبقات الحنفية، تحقيق: مير محمد ،(كراتشي كتب خانة).
- القرطاجني,أبو الحسن حازم(ت684هـ) منهاج البلغاء وسراج الأدباء,تحقيق:محمد الحبيب بن خوجة,(دار الغرب الإسلامي)
- القريشي, خالد (2001م) الإلقاء الخطابي، (الرياض: دار العاصمة).
- القزويني، عبد الكريم بن محمد الرافعي (1987م) التدوين في أخبار قزوين, تحقيق: عزيز الله العطاردي، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- القسطنطيني، مصطفى بن عبد الله الرومي الحنفي (1017هـ- 1067هـ) (1413هـ) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- قطب، محمد (1400هـ) منهج التربية الإسلامية, ط4, (بيروت: دار الشروق).
- القلقشندي، محمد حسين شمس الدين (1407هـ) صبح الاعشا في صناعة الإنشا تحقيق: ط1 (بيروت، دار الكتب العلمية).
- القيرواني، ابن رشيق (1401هـ) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط5، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (بيروت: دار الجيل).

- الكانـدهلوي، محمـد زكريـا(1980م) أوجـز المسـالك إلـى موطـأ الإمـام مالـك، ط1، (بيروت: دار الفكر).
- كتبي، زهير محمد جميل(1994م) فن الحوار، ط1 ,
- الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى الأندلسي (1417هـ) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، ط1،تحقيق : د .محمد كمال الدين عز الدين علي، (بيروت: عالم الكتب).
- كوهين، جان (1986م) بنية اللغة الشعرية, ط1، ترجمة: محمد الولي ومحمد العمري ، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر والتوزيع).
- لاشين، عبد الفتاح (2000م) المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم، (القاهرة: دار الفكر العربي).
- ليمود، حامد محمود (1402هـ) منتهى النقول في سيرة أعظم رسول , ط1، (مكة المكرمة:)
- مـــالكيتكس, آرشـــيبالد(1980م) الشـــعر والتجربة,ترجمة:ســـلمى الخضـــراء الجيوسي,(بيروت:دار اليقظة العربية)
- مبارك، زكي (د.ت) النثر الفني في القرن الرابع، (بيروت: المكتبة العصرية)
- المبارك، محمد (1981م) فقه اللغة وخصائص العربية، ط7, (بيروت: دار الفكر).
- المباركفوري، أبو العلاء صفي الرحمن (د.ت) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي, (بيروت: دار الفكر).
- المبرد ، أبو العباس(د.ت) المقتضب تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، (بيروت: عالم الكتب).
- مجمع اللغة العربية(1998م) المعجم الوسيط, ط3، (القاهرة : مجمع اللغة العربية).
- محمد، يسري السيد (1423هـ) جامع السيرة, ط1، (المنصورة: دار الوفاء).
- المرادي، الحسن بن قاسم (1983م) الجنى الداني في حروف المعاني،ط2، تحقيق: د.فخر الدين قباوة ، (بيروت: دار الافاق الجديدة)
- المرداوي أبو الحسن علي بن سليمان (ت 885هـ) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف , ط1، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- المرغيناني، أبو الحسن برهان الدين (ت 593) الهداية شرح بداية المبتدي, ط1، (بيروت: دار احياء التراث العربي).

- المسدي، عبد السلام (1993م) الأسلوبية والأسلوب، ط4، (الكويت: دار سعاد الصباح).
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 346هـ):

التنبيه والاشراف، (1893م) طبع بمدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، (1408هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد, (بيروت: المكتبة العصرية).

- المصري، نور الدين علي بن أحمد (ت911هـ) وفاء الوفا بأخبار المصطفى، (بيروت: دار الكتب العلمية).
- المطردي، عبد الرحمن(1986م) أساليب التوكيد في القران الكريم, (ليبيا: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع).
- المطلبي، غافل فاضل (1984م) في الأصوات اللغوية .. دراسة في أصوات المد العربي , (بغداد: دار الحرية).
- المقداد، محمود (1413هـ) تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية، ط1 ، (بيروت: دار الفكر المعاصر).
- المقدسي، أنيس (1979م) تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط6، (بيروت: دار العلم للملايين).
- المقدسي، مرعي بن يوسف (1999م) القول البديع في علم البديع, تحقيق: (: عوض الجميعي دار البشرى).
- المقدسي، مطهر بن طاهر (507 هـ) البدء والتاريخ، (القاهرة:مكتبة الثقافة الدينية).
- الملائكة، نازك (1978م) قضايا الشعر المعاصر، ط5، (بيروت:دار العلم للملايين).
- منصور، سعيد حسين (د.ت) القيم الخلقية في الخطابة العربية، ط1، (ليبيا- بنغازي: جامعة قار يونس).
- ناصف، مصطفى(1990م) قراءة جديدة لتراثنا النقدي، (جدة: النادي الأدبي الثقافي).
- النحوي,عدنان(1407هـ)الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ,ط1,(دار النحوي للنشر)
- الندوة العالمية للشباب الإسلامي (1408هـ) أصول الحوار، ط3، (الرياض: المطابع العالمية).
- النص، إحسان (د.ت) الخطابة العربية في عصرها الذهبي, ط2, (القاهرة: دار المعارف).

- النووي، الإمام محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف الحوابي الشافعي (ت676هـ) شرح النووي على صحيح مسلم , (بيروت: دار الفكر).
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ) (1342هـ) نهاية الأرب في فنون الأدب, (القاهرة: منشوات دار الكتب المصرية).
- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- هاف، كراهام (1985م) الأسلوب والأسلوبية، ترجمة: كاظم سعد الدين(القاهرة: دار آفاق عربية).
- هلال, ماهر مهيري(1980) جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب, (دار الرشيد)
- الهليل، عبد الرحمن بن عثمان (1419هـ) التكرار في شعر الخنساء دراسة فنية، ط1، (الرياض: دار المؤيد).
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر (ت807هـ) (1992م) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، تحرير الحافظين الجليلين: العراقي وابن حجر ، (بيروت: دار الفكر).
- اليافي، نعيم (1995م) الانزياح والدلالة، جريدة الأسبوع الأدبي، عدد 451 (دمشق: اتحاد الكتاب العرب).
- اليوسف، يوسف (1980م) مقالات في الشعر الجاهلي، (بيروت: دار الحقائق).

فهرس الدوريات والرسائل الجامعية:

- أحمد صمادي (د.ت) أدب الحوار والخلاف في الشريعة الإسلامية، مجلة دراسات، ع 1.
- بلوحي، محمد(1999م) القراءة النسقية, مجلة كتابات معاصرة العدد 39 المجلد10.
- الحامد، عبد الله (د.ت) لغة النص الأدبي، بحث غير منشور مأخوذ من رسالة المنافرة والمفاخرة.
- الرشود، راشد بن مبارك (1414هـ) أدب الوفادة على معاوية بن أبي سفيان رسالة ماجستير، إشراف عبد العزيز بن ناصر المانع، (المملكة العربية السعودية – الرياض- كلية الآداب: جامعة الملك سعود)
- الزمر، أحمد (د.ت) فن الكتابة وبناء النص قراءة في الأسس المعرفية والتجليات الإبداعية , مجلة دراسات يمنية، ع 80 .

- شحروري، أحمد (د.ت) كيف نرسخ أدب الحوار والنقد، الكويت مجلة المجتمع العدد 1634.
- صالح, هدى محمد , ألفاظ المد والإمداد في القرآن الكريم, رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية للبنات , جامعة الكوفة.
- العبد الكريم، عبد الكريم(1423هـ) فن المنافرة والمفاخرة النثرية من العصر الجاهلي الى نهاية العصر الاموي ، رسالة ماجستير -جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- فضل , صلاح(1401هـ) علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة، مجلة فصول، م1، ع2، 1401هـ

فهرس الموضوعات

نموذج إجازة الرسالة	
الإهداء	أ
الشكر والتقدير	ب
مستخلص الرسالة باللغة العربية	ج
مستخلص الرسالة باللغة الإنجليزية	د
المقدمة	1
التمهيد :	12
أ- تعريف الوفادة...	13
ب- تقاليد الوفادة بين الجاهلية والإسلام...........................	15
ج - أصناف الوافدين ومقاصدهم...	25
الباب الأول: البناء الفكري لأدب الوفادة	31
الفصل الأول: البناء الفكري للخطابة	32
أ- الدلالة الدينية	35
ب-الدلالة الدنيوية..	46
الفصل الثاني: البناء الفكري للحوار	64
أولاً- الحوار الديني..	69
ثانيًا- الحوار التربوي...	87
1- الحوار التربوي التوجيهي............................	87
2- الحوار التربوي التطبيقي.................................	93
3- الحوار التربوي النفسي................................	105
ثالثًا- الحوار الجدلي...	121
الفصل الثالث :البناء الفكري للرسائل	138

أولاً: الرسائل إلى ملوك العجم والعرب.............................	143
أ- رسائل الدعوة إلى الإسلام......................................	144
ب- الرسائل لمن أسلم من الملوك والحكام.........................	161
ثانيًا: مكاتباته ρ إلى الوفود..	170
أ- كتب العهود والمواثيق..	171
ب- كتب الأمان...	184
ج- كتب العطاء..	189
الباب الثاني: تشكيل أدب الوفادة	203
مدخل	204
الفصل الأول: التشكيل اللغوي	209
أ- الأصوات والحروف..	210
ب- الألفاظ...	217
ج- الجمل..	227
الفصل الثاني: التشكيل التركيبي	239
أ- الخبر والإنشاء...	241
ب-الشرط...	256
ج- التأكيد	262
د- التكرار..	269
هـ- التقديم والتأخير...	280
و- الوصل والفصل	285
الفصل الثالث : التشكيل التصويري	295
أولاً- الصورة الحقيقية...	298
ثانيًا- الصورة البيانية	303

303	أ- الصورة التشبيهية...
308	ب- الصورة الاستعارية...
313	ج- الصورة الكنائية ....
318	ثالثًا- الصورة وعلاقتها بالحواس..................................
319	أ- الصورة البصرية..
321	ب- الصورة السمعية..
322	ج- الصورة الذوقية..
323	د- الصورة الشمية..
323	رابعًا- مرجعيات الصورة..
324	1- الصور ذات المرجعية الكونية ....
327	2- الصور ذات المرجعية الإنسانية ....
336	**الفصل الرابع: التشكيل البديعي** ....
338	1- الطباق والمقابلة...
343	2- الجناس ....
346	3- السجع والتوازن...
352	4- التقسيم والجمع..
355	5- الاقتباس والتضمين...
362	**الفصل الخامس: الهيكل الخارجي**..
363	1- الهيكل الخطابي..
364	أ- المقدمة والاستهلال ....
367	ب- العرض..
370	ج- الخاتمة..
371	2- الهيكل الحواري..

373	1- الحوار السقراطي...
376	2- الحوار الخطابي...
378	3- الحوار الانفعالي...
379	ج- هيكل الرسالة...
379	أولاً: الرسائل القصيرة..
381	ثانيًا: الرسائل الطويلة..
386	الخاتمة..
399	فهرس الآيات القرآنية..
402	فهرس الأعلام المترجم لهم. ....
403	فهرس المصادر والمراجع...
419	فهرس الموضوعات...